نظرة جديدة في سيرة

رسول الله

تأليف
كونستانس جيورجيو
وزير خارجية رومانيا السابق

تعريب
الدكتور محمد التونجي
الأستاذ في جامعة حلب

الدار العربية للموسوعات

نظـرة جديدة
في سيرة رسول الله

الدار العربية للموسوعات

ص. ب : ٥٣٤٨/ ١٣

هاتف : ٣٤٣٨٢٨ ـ ٣٥٢٥٩٨ ـ ٣٥٣١٩٤ ـ ٣٥١٣٣٩

برقيا : ديركتناد

تلكس : ARATRD LE ٢٣١٠٧

بيروت ـ لبنان

نظرة جديدة في سيرة
رسول الله

تأليف
كونستانس جيورجيو
وزير خارجية رومانيا السابق

تعريب
الدكتور محمد التونجي
الأستاذ في جامعة حلب

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى
١٩٨٣

المؤلف

- هو « كونستان فيرجيل جيورجيو » . ولد عام ١٩١٦ في مدينة « روس باني » ـ محافظة « مولدواي » برومانيا .

- تخرج من جامعة بوخارست في العلوم الفلسفية .

- اثناء دراسته الجامعية ، كانت مطالعاته للتاريخ الاسلامي تستأثر باهتماماته ، فترسخ اعجابه بالرسالة السمحاء ، وبسيرة الرسول الاعظم ﷺ .

- بعد تخرجه من الجامعة ، عين في السلك الخارجي .

- اوصلته كفاءاته وعلمه صعداً حتى تبوأ منصب وزير الخارجية الرومانية .

- بعيد الحرب العالمية الثانية وما جرته من ويلات ، هاجر الى فرنسا ، حيث شرع بالتدريس والتأليف ، فكان هذا المؤلف القيم الفريد ، باللغة الفرنسية ، والذي ترجم الى معظم لغات العالم .

المعرّب

- هو الدكتور محمد التونجي ، الاستاذ في جامعة حلب .
- الى جانب ثرائه الفكري ، فهو ضليع في العديد من اللغات .
- سبق له ان عرب كتاب : « عائشة بعد عصر رسول الله » عن الالمانية .
- اغنى المكتبة العربية بنتاجه الغزير القيم .
- رسيخ الايمان ، يجمع بينّ موضوعية العلم ، وروحانية الدين .
- شغوف بنقل كل مضيء مُشِعٌ الى ابناء امته العربية ـ والاسلامية .
- صائد در ، يجوب لجج المعرفات ، ليفوز منها بالغوالي الغوالي .
- من دراريه ، هذا الكتاب .

كلمة الدار

ما من احد في هذا الكون لا يعرف محمداً رسول الله ﷺ ، حياته المثال ، وسيرته التي تتوج مكارم الاخلاق ، وكفاحه الخارق في سبيل الرسالة الهادية الخالدة .

من هذا المنطلق ، فالكتاب الذي بين يديك أيها القاريء الكريم ، ليس جديداً في موضوعه .

وان انت تساءلت ـ وذاك حق لك صراح : فيمَ الجدَّة اذن ؟ ترانا نسارع الى كشف ما كنا نؤثر ان تستكشف بنفسك ، ولو ادى بنا ذلك الى سلبك بعضاً من المتعة :

لقد كتب عن الرسول الاعظم آلاف المجلدات ، وبجميع لغات العالم ، مما لا يدع زيادة لمستزيد . فالعربي ، كتب عن نبيه العربي ، وفي اعماقه اصالة التراث ، ونداء العزة القومية . والمسلم ، كتب بقلبه ، مأخوذا بسطوع الرسالة السامية ، ونور الايمان ، عن كل ما عداهما . والاجنبي غير المسلم ، بين مستشرق او باحث او مبشر ، كتب محللا في لا مبالاة ، او مغرضاً او متكسباً ـ وفي كل الاحوال ، غير معني الروح او العقيدة .

اما استاذ الفلسفة ، والمسؤول الكبير ، الرفيع الفكر ، اللاهث ابداً وراء الحق والحقيقة ، بصدق الوفاء ، ونزاهة الاقتناع ، وشغف المؤمن المُعجَب ، الذي يكتب بالفرنسية ، ليُعرِّف العالم بهذا الرسول الكريم ، وبعبقريته الفذة ، التي اخرجت العرب من دياجير الظلمة ، وتمزق الصفوف ، ومهاوي الكفر والرذيلة ، الى نور الايمان ، وعزة التوحيد ، ومراقي المجد والخير والفلاح ، شُموساً تضيء عوالم الارض ومجاهل الانسان . . .

فذاك ما نقدم اليك ، تاركين لك الحكم العدل ، والكلمة الفصل .

الدار العربية للموسوعات

مرحلة الطفولة

اتَّسمت حياة محمد بن عبد الله (ﷺ) بالمعاناة الحقة ، معاناةٍ تفوق ما مرَّ بطفولة مشاهير العظماء في العالم . . من عذاب وآلام . ولعل هذا هو السبب في اهتمامه بالأيتام والمساكين ، والحضّ على الأخذ بأيديهم ومساندتهم . . لأن الأيتام يذكِّرونه بأيام يُتمه وفقره إبّان طفولته ، وبالقسم الأول من مرحلة شبابه .

فقد فتح محمد (ﷺ) عينيه في هذه الدنيا ، فلم يجد أباه إلى جانبه يرعاهُ . ومع أن قبيلته « قريش » ذات مكانة مرموقة ومَهابة مُعتبرة في مكة ، فإن أمه اضطرت إلى أخذه معها إلى « يثرب » بلدةِ أهلها ، على أمل أن تلقى منهم المساعدة على تَنشئة طفلها . لأن « عبد الله » توفي ، تاركاً طفله وزوجه خاويَيْ الوِفاض ، ولم يُورثهما شيئاً ذا بال .

وكانت زوجُه الشابة البائسة « آمنة » تُسلي نفسها في يثرب بإنشاد شعرها في رثاء زوجها[1] ، المفعم بالوجد والأسى والوحدة . في تلك الأيام كان عدد من سيدات الجزيرة العربية ينشدْن الشعر . ولقد وفقتُ بالحصول على عدد من القطع التي نظمتها آمنة في تلك المرحلة البائسة .

---

(١) أوردت الدكتورة بنت الشاطىء أبياتاً للسيدة آمنة ترثي فيها زوجها حين بلغتها وفاته ، وذلك في كتابها « أم الرسول محمد » . قالت آمنة (ص : ١١٧) :

عفا جانبُ البطحاءِ من زينِ هاشمٍ ... وجاور لحداً خارجاً في الغماغمِ
دعته المنايا دعوةً ، فأجابها ... وما تركت في الناسِ مثل ابنِ هاشمِ
عشيةَ راحوا يحملون سريرهُ ... تعاورهُ أصحابه في التزاحمِ
فإن تك غالته المنون وريبُها ... فقد كان معطاءً كثير التراحمِ

يذكر ثلاثة من المؤرخين الاسلاميين ، وهـم : السيوفي ، وابـن سعـد ، وحميد الله ، أن هذا الطفل جرت له حادثة عجيبة في بلدة أمه يثرب ، فقد نزل بركة ماء لأول مرة في حياته ، وغاص فيها من غير أن يغرق .

يَـندر الماء والكلأ في مكة عادة ، كما ينعدم وجودُ البُـرك المائية التي يسبح فيها الأطفال ، لا سيما في أيام الصيف الحارة . في حين أن البرك تكثر في يثرب ، لهذا فإن الأطفال يخلعون ملابسهم ، وينزلون الماء يَـبْـتردون به . وفعل محمد (ﷺ) فعل أنداده اليثربيين . وكانت هي المرة الأولى التي يغوص فيها .

ولقد أغاث أقرباء آمنة قريبـتَـهم وابـنَـها الصغير . وللأسف ، سرعان ما داهمها المرض العضال ، ففهم الأهل ان هذه الصبية ستفارق الحياة لا محالة . ومن عادة العرب أنهم عندما يشعرون بدنـوِّ أجل أحد أقربائهم ، يحوطونه بالرعاية ، ويكثرون من الحديث معه ، حتى لا يبقى المحتضر وحيداً على عتبة الموت ، خائفاً من هَـول تلك الساعة . وكذلك فعل أهـل آمنـة ، فأخـذوا يحادثـون الصـبيَّـة البائسة ، حتى لا تتألم في ساعة الارتحال . وكانت آمنة ترسل بعض الكلمات من بين شفتيها المرهفتين ، بين الحين والآخر . وفي لحظة رهيبة ، خاطب محمد (ﷺ) أمه ، ولكنها لم تجبه . فارتمى على صدرها ينتحب ويبكي :

ـ أمي . . أمي . . لـمَ لا تجيبين ؟

ولكن روح هذه الأم العظيمة فارقت جسدها منذ حين . وعـرَّت النساء من ذوي القربى أمه ، وغسلن جسدها ، ورآهـن يُـلبسنهـا ثوب الكفـن ، ونقلهـا الرجال إلى المقبرة « الأبواء »[1] حيث واروها التراب .

لم يكن من عادة العرب أن يُـنقل الجثمان بالتابوت لندرة الخشب ، وغلاء ثمن التابوت . ودفنت آمنـة طـيَّ التـراب . من غـير أن تُـحمـل على نعش من

---

(١) سيمر ذكر « الأبواء » في فصول لاحقة .

الخشب . وبعد أن مُـهد القبر ، عاد الرجال من حيث أتَـوا ، ولكنهم لـم يجدوا الطفل في المنزل ، فعادوا إلى المقبرة ليشاهدوا منظراً مؤلماً . . منظـرَ طفل جاثٍ على قبر أمه ، يكلمها :

ـ لـمَ لا تعودين إلى المنزل يا أماه ؟ ألا تعلمين أنـك كل ما أملك في هذه الدنيا ؟

عندما غدا محمد (ﷺ) يتيم الأبوين ، ركن في بعض الزوايا حزيناً . وإذا دنا الأطفال منه ، يدعونه إلى اللعب معهم ، يقول لهم :

ـ دعوني وشأني . . لا أستطيع اللعب معكم .

لقد مـلَّ الحياة ، ولـفَّـته الكآبة ، فعافت نفسه الطعام . ولاحظ أهل آمنة أن الطفل يهزل شيئاً فشيئاً . فما كان منهم إلا أن حملـوا الطفـل إلى جدِّه « عبـدِ المطلب » في مكة ، وكان آنئذ هرماً ، يدنو من المئة وثماني سنوات . وحينما رأى الجد حفيده خفق له قلبه ، ومال إليه فؤاده . ومن شدة حبه له حمله إلى دار الندوة .

كانت « دار الندوة » عبارة عن مجلس شورى خاص بمكة ، يسمح لرجال قريش ، ممن جاوزوا الأربعينَ من العمر أن يدخلوه . ولـكن عدداً من أعضـاء المجلس عاتب عبد المطلب على إحضاره هذا الطفل الصغير . غير أنهم ما لبثوا أن مالوا إليه ، وشرعوا يدلِّـلونه ويلاعبونه كلما أحضره جده عبد المطلب .

ولكن الأسى لاحق الطفـلَ اليتيم مرة أخرى ، إذ سُـلب منه جده العجوز ، بعد أن نعِـمَ بالراحة في كنفه سنتين . وعاد محمد (ﷺ) إلى الوحدة التي كاد يعتاد عليها . فتعهده عمه « أبو طالب » ، وعمره آنئذ ثماني سنوات أو يكاد . وقد دعي أبو طالب فيما بعد بـ « عم النبي » (ﷺ) .

●

كان العرب قبل الإسلام ينفرون من البنات ، وكانوا ـ كما نعلم ـ يئدونهن

مغبـّة العار والضيق من عبء تنشئتهن[1] ، في حين أنهم كانوا يســرُّون من ولادة الصبي . وكان وجود الصبيان عند العرب مبعثاً للمباهاة ، لدرجة أنهم يتكـنَّـون بأسماء أبنائهم. فمثلاً « أبو طالـب » كان له ابـن اسمـه « طالـب » فتكنَّـى به. حتى محمد (ﷺ) نفسه كانت له كنية خاصة به هي « أبو القاسم » ، لأنه رزق بولد أسماه « القاسم » غير أنه فارق الدنيا بحياة أبيه .

كان أبو طالب رجلاً شريفاً ، ولكنه كان فقـيراً معدمـاً ، يعيل أسرة كبـيرة العدد . لذا كان يثقل عليه إعالة ابن أخيه الصغير ، مما اضطر الطفل ـ وهو في الثامنة من عمره ـ إلى العمل لتأمين معاشه . ومع أن محمداً كان له عم يرعـاه في الظاهر ، فإن انشغال العم بتأمين معاش أسرته الكبيرة منعه من تهيئة سبل الرفاه لمحمد (ﷺ) ومن تأمين اللازم له من ثياب أو نعل يستر قدمي هذا الطفل اليتيم .

لهذا فإن محمداً (ﷺ) كان ـ في مرحلة الطفولة الغـضّـة التي كان يقضيها أنداده بالمتعة والمرح ـ منشغلاً بتأمين معاشه ، بأقسى أنواع العمل ، بالنسبـة إلى سنه ، ألا وهو رعاية القطيع في حر الصيف في صحراء الجزيرة .

تشير الدلائل ، عن وضع حياته في أيام طفولته ، إلى أنها كانت السبب في استعداد محمد (ﷺ) لتقبل النبوة في حينها . فقد اعتاد ، منذ أن كان راعي غنم في الصحراء القاحلة الحارة ، أن يخلو إلى نفسه ، ويُـفكر في هذه الحياة . والصحراء خير مكان للخلوة والتفكير . لهذا انطلقت الأديان العظيمة من قلب الصحراء في الشرق الأدنى ، لأن أنبياء هذه الأديان ، لمسوا فرصة سانحة للتفكير في الوجود ، وفي سر الخليقة ، وفي ختام البشرية .

إذا لم يزر المرء الغربي تلك الصحارى الفسيحة في الجـزيرة ، فلن يدرك كيف أن هذا المدى العريض ، وهذا الهدوء الزائد سبب في توسيع الآفاق ، وتعميق

---

(١) كان الوأد محدوداً جداً لدى العرب . ولم يكن يئد إلا من كان فقيراً معدماً وضعيفاً لا يقوى على حماية نسائه . . ومع هذا فقد كان نادراً جداً .

الأفكار . وبالطبع فإن الحياة تختلف اختلافاً كبيراً في الجزيرة عنها في أوروبة . حتى الأعشاب والنباتات تختلف بين هاتين المنطقتين . فلا تكاد تجد عشباً ما ليس له عطر خاص ، بما في ذلك الأشواك التي تنبت في قلب الصحراء ، فإن لها عطراً خاصاً جذاباً يميزها . ولو نقلنا أوضع الأزهار الغربية ، التي لا تتمتع بأية رائحة ، إلى الصحراء العربية ، وغرسناها في رمالها ، واعتنينا بها ، فإنها بعد نسلين أو ثلاثة تُضوِّع عطراً خاصاً . وتتحول كذلك الأشجار القصيرة الهزيلة إلى أشجار ضخمة باسقةٍ إذا ما نُقلت جذورها الى تلك الصحراء .

وإذا اعتقد الإنسان الذي كان يحيا في تلك الصحراء ، أو في الشرق الأدنى ، بدينٍ ما ، أو بعقيدة معينة ، فإنه سرعان ما يعاف الرياء والكذب ، ويعزف عن بهرجات الدنيا . وترى الإنسان صاحبَ العقيدة يسري عشقه لها في عروقه ، ويعتبرها أساساً في حياته ، ولكن حالما تخرج هذه العقيدة العظيمة من إطار الصحراء الصافية المعطاء إلى مجال الأقطار المحيطة بها تنشعب وتنقسم إلى فرق مختلفة متباينة ، تماماً كما جرى لليهودية والمسيحية والإسلام .

●

على أية حال فإن نبي الإسلام (ﷺ) كان مضطراً منذ الثامنة إلى رعي الأغنام في الصحراء ، لكي يحظى برغيف من الخبز ، وبضعة تمرات ، وثوب ، ونعل ، كان يَصدر بالقطيع كل صباح إلى ظاهر المدينة ، ليبقى وحيداً في الصحراء حتى الغروب . . يمتع أنظاره بالأفق البعيد ، والسماء اللامتناهية . . وقبل أن تميل الشمس نحو المغيب يقفل راجعاً ، وخلفه قطيعه . فلا يبلغ منزل عمه أبي طالب إلا مساءً . . ولا يجد أمامه سوى النوم والخلود للراحة .

●

جرت العادة أن يكون الأيتام أوسع أفقاً وأعمق تفكيراً من الأولاد الآخرين ،

لأنهم لا يجدون من يدللهم ، ويسلي همومهم ، ويزيح عنهم مللهم . ليس لليتيم أم حنون وأب عطوف ، يرنوان إليه ، ويقبِّلان وجنتيه ، ويكسوانه في الأعياد الألبسة القشيبة ، والنعال الجديدة . والطفل الذي ليس له أم ولا أب ، وهو في سن الثامنة ، ويضطر الى العمل لينال رغيف الخبز ، يدرك تماماً أنه يجب أن يعتمد على نفسه في حلّ معضلاته . والذين كانوا يرون محمداً (ﷺ) عائداً من الصحراء إلى الديار ، كانوا يرونه حافي القدمين غير عابىء بحرّ الهجير .

هذه المعاناة والوحدة وتحمل المسؤولية حوّلت محمداً (ﷺ) إلى إنسان صلب ومفكر ، مما دفع عمه أبو طالب إلى أن يصطحبه في بعض أسفاره التجارية حين بلغ الطفل الثانية عشرة . فقد كان عمه تاجراً ، يذهب بقافلته إلى الشام . وفي الطريق توقفت القافلة في بلدة بصرى . . جنوبي الشام . وبالقرب من مضارب القافلة صومعة لرجل يدعى « بَحيرا »[1] ـ وبحيرا باللغة السريانية : العبقري أو النابغة ـ يعيش فيها ويتعبد . ويقول الجمهور إن ذلك الرجل أحد الرهبان المشهورين في دنيا المسيحية . ويخالف ابن هشام ـ راوية العرب ـ رأيَ الجمهور ، ويعدُّه مانوياً ، يدين بديانة « ماني » في أيام سلطنة الدولة الساسانية . وقد صلبه بهرام الأول الساساني عام ٢٧٦ م على بوابة « جُنْدَيْشابور »[2] الواقعة في « خوزستان »[3]

وماني الذي ادعى النبوة ـ وبحيرا من جملة معتنقي ديانته ـ يرى أن عناية الله غير منحصرة في أمة معينة ، بل هو مرتبط بكل أمم الدنيا ، لأن العالم كله ملكه . والله تعالى يرسل نبياً إلى كل ملة يراها بحاجة إليه ، فيدعو هذا النبي قومه بلغتهم ، ويحثهم على إطاعة أوامر الله . واليهود والنصارى غير محقين عندما يدّعون ان

---

(١) بحيرا : راهب قيل إنه كان على مذهب النساطرة ، وكان يدعو العربان إلى التوحيد ، لأنه ابتنى صومعته على طريق القوافل . صاحب المنجد ضبطه بضم الباء والصحيح بفتحه .

(٢) مدينة بخوزستان ، بناها ـ سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده .

(٣) خوزستان : بلاد الخوز من بلادها تستر وجند يشابور وإيذج واصبهان .

ديانتهم اختارها الله لهم ، وعلى سائر الأمم أن تُـدين بها .

ولم يكن الراهب بحيرا قد خرج ، حتى ذلك اليوم ، من صومعته ، كما لم يكن من عادته ان يختلط برجال القوافل . ولكنه يوم وصول أبي طالب ـ ومعه محمد (ﷺ) وهو ابن الثانية عشرة ـ خرج من صومعته ، وتقدم من أبي طالب ، وقال له :

ـ لقد حلمـتُ أن قافلة ستحط في منطقتنا ، وفيها غلام من الغرب سيكون له شأن ، وسيبعث نبياً في قومه ، وسيبلّـغ أحكام الله بلسـان العـرب . وعلى هذا فلستم مضطرين إلى قبـول المسيحية أو اليهـودية لأنـه سيكون لكم نبـيّ خاص بكم .

لعل القارىء يأخذ على الكاتب ، مدعياً أن رأي بحيرا الزاهد المانوي ، إنما يتحدث عن نبي الإسلام رواية . وعلم التاريخ لا يعتمد على الرواية . وأقبـلُ من القارىء مأخذه هذا ، لأن علم التاريخ لا يقبل توقُّـع زاهد مانوي ، من غير دليل مدون . وأحب أن أنـوّه إلى أن جزءاً كبيراً من تاريخ العرب معتمد على الرواية ، لا سيما في مرحلة صدر الإسلام . ونحن إن لم نقبل هذه الرواية ، فلن نستطيع فهم تاريخ العرب في صدر الإسلام ، ولا أن نكتب عنه . وسوف أذكر للقارىء كل مقام اعتمدنا فيه على الرواية .

عام حمله الى مكة

قلنا إن نبي المسلمين (ﷺ) من قريش . وقريش كانت تقسم إلى عشر قبائل ، ولكل قبيلة من هذه القبائل استقلال ذاتي يضمن الاستقرار لأوضاعها الداخلية ، ولا تتدخل إحدى القبائل في شؤون قبيلة أخرى . وكانت قبيلة هاشم إحدى هذه القبائل القرشية ، ورئيسها « عبد المطلب » جد رسول الله (ﷺ) ، يعيش في مكة .

إن ذكر هذا التوضيح ضروري ، لأن مِساحة مكة مئتا كيلومتر مربع ، ولا تجد في كل تلك البقعة شجرة واحدة . ولهذا فإن سكان مكة يحيون بطريقين : الأول هو الطريق التجاري ، والثاني تربية المواشي ، لا سيما الجمال . ولم تكن « الجمال » سبب ارتزاق القبائل العشر فقط ، بل كان لها جانب اقتصادي لسائر القبائل . ولهذا فإن هذا الحيوان علامة النجابة والعراقة في الصحراء . والبدوي ، ما دام ذا جمال ، شريف أصيل . أما إذا استعاض عنها بالأغنام والماعز ، فقدَ تلك المكانة ، وغدا من الطبقة الوسطى . كان العربي الأصيل يحيا في الصحراء ، ويرعى جماله ، وينتسب إلى إحدى القبائل . وليس هناك معنىً للعيش المنفرد في حياة الأعراب . وهكذا فإن العربي لا يمكنه العيش وحيداً . وهو مضطر إلى مشاركة الأفراد الآخرين ، ضمن وحدة متكاملة ، هذه الوحدة هي القبيلة ، وإذا ما حصلت جريمة قتل في إحدى القبائل طالبت القبيلة المصابة قبيلة القاتل بالقصاص أو بالدية ، من غير أن تطالب بالقاتل نفسه .

ورئيس القبيلة سلطان في قبيلته ، ولكن هذا السلطان لا يملك من أبهة

العرش إلا الجمال . وعبد المطلب رئيس قبيلة هاشم ، التي منها رسول الله (ﷺ) ، فقدَ ابناً له ، فدعا إلاهه أن يرزقه بغلام ، وقال :

- إن رَزقتني يا إلاهي عشرة أولاد ، قدمتُ الولد العاشر قربانا لك .

واستجاب إلاهه لدعائه ، إذ وهبه عشرة أولاد . وكان « عبد الله » الولدُ العاشر أجملَ أولاده جميعاً . وصبر عبد المطلب على ابنه العاشر حتى بلغ سن الرشد ، لأن الفداء لا يقدم قرباناً ما لم يبلغ مرحلة الرجولة . وعندئذ أعدَّ عبد المطلب سكينه ، ليذبح بها ولده قرباناً للإله .

وكلما كبر عبد الله ازداد جمالاً ، حتى عشقته صبايا الحي . ويُروى أن مئتي فتاة من عذارى قريش متْن كمداً حين تزوج بآمنة بنت وهب (وهذا الموضوع - كما قلنا - رواية) . وتنبه الأب الى وجوب الوفاء بالوعد ، عندما شعر أن ابنه عبد الله قد بلغ مرحلة الرجولة . ولقد امتاز عرب الصحراء ، أكانوا من قريش أو كانوا من قبيلة أخرى ، بالوفاء بالوعد . فهم إذا وعدوا وفوا في الوقت المحدد .

يتكلم العربي كما يفكر تماماً ، وليس من فارق بين رأيه وبيانه . وعلى عبد المطلب أن يفيَ بالعهد الذي قطعه على نفسه ، لا سيا إذا علمنا أنه حنيفي . وكان الحنيفي يعتقد بوجود الله خالقِ السماوات والأرضين . وقد عُرف عدد من الرجال في مكة بالحنيفيين (وكتب التاريخ تذكرهم) ، وعبد المطلب واحد منهم . ومع ذلك فإنه لم ينكر آلهة أجداده ، وكان عدد من هذه الآلهة أوثاناً في الكعبة ، يؤدَّى لها الاحترام الكامل . ويقال إن في الكعبة ثلاثمئة وستين وثناً ، في حين أن عددها أكثر من هذا ، وليس في الجزيرة ديانة ما إلا ولها في الكعبة وثن خاص بمعتقدها ، حتى إن صورتي السيدة مريم والسيد المسيح (عليه السلام) كانتا موجودتين في إحدى زوايا الكعبة .

وتعدُّ الكعبة وما حولها مِنطقة حرام ، وبحسب مفهومنا « مُحايدة » .

ولهذا قالوا لها « الحرم » ، لأن كل امرىء دخل الحرم لا يستطيع أن يخاصم أحداً . وإذا ما وفد خصمان على الحرم اضطرا الى تناسي عداوتهما ، ولو إلى حين . والمسافرون وأصحاب القوافل حين يحلون ، ويدخلون الحرم يصبحون أحراراً في عبادة إلاههم بحسب معتقدهم . ويحافظون على وثنهم ضمن حجرة خاصة في طرف من أطراف الكعبة .

عندما عبر « أبرهة » ملك الحبشة إلى جنوبي الجزيرة (إلى المنطقة التي تدعى اليوم باليمن) صمم على أن يهدم الكعبة . فاتجه نحو مكة ، حتى نزل في الطائف . فاستقبله سكانها ، وقالوا له :

ـ بإمكانك أن تهدم الكعبة كلها ، ولكننا نرجوك أن تحافظ على زاوية إلاهنا .

ولكن أبرهة لم يقبل منهم شرطهم هذا .

●

تقع الطائف في بقعة ترتفع ألفين وخمسمئة متر عن سطح البحر ، وذات مياه وأشجار ومزارع . وما زالت الطائف موجودة حتى اليوم ، وما زالت الأشجار والمزروعات تحيط بها . ولهذا يتباهى سكانها على سكان مكة ، ويقولون لهم :

ـ نحن قوم نأكل الخبز .

وهذا أمر صحيح ، لأن أهل مكة لا يأكلون الخبز إلا كل عدة أيام مرة ، لأنهم يستوردون القمح من المناطق المحيطة بهم ، ويقتصر طعامهم على التمر ، وعلى لبن النوق ، وحرباء البادية ، والسمك المجفف المستورد من ساحل البحر الأحمر ، لأن الشاطىء غير بعيد عن مكة . ولما كانت مكة قريبة من البحر ، فإن سكانها على معرفة بالحيوانات البحرية ولهم الفضل في تسمية بعض الأسماك .

لا جرم أن سبب عزم أبرهة على هدم الكعبة اقتصادي . وكان أبرهة قائد

جيش الحبشة في جنوب الجزيرة ، ومهمته حكم الجنوب (اليمن) باسم الملك . ولكنه انقلب على « نائب السلطنة » وقتله ، وأكره النجاشيَّ على الاعتراف به . كان أبرهة رجلاً كثير الطموح ، وقد رأيت بنفسي الآثار المحفورة في اليمن ، التي تدل على مدى آماله . ولهذا بنى كعبة على شكل كنيسة (لانه مسيحي) في بلدة صنعاء . وسجَّل تاريخ بناء هذه الكعبة ، كما دون اسم بانيها ، وعدد من اشترك في بنائها ونحت صخورها .

ولكن أبرهة بعد أن بنى الكعبة على شكل كنيسة ، لاحظ أن مركز التجارة لم يتحول من مكة إلى صنعاء . لذا عزم على المسير إلى مكة ليهدم كعبتها . وبهذا تضطر القوافل إلى تحويل تجارتها إلى صنعاء . ولهذا كانت فكرة هدم الكعبة ناجمة عن أوضاع اقتصادية ، لا دينية ، أو على الأقل انطلقت فكرته من مبدأ تجاري بحت .

ولما كان اعتماد أبرهة على الفيلة في غزوته هذه ، فقد سمى العرب طريقه « طريق الفيل » ، وسموا الينابيع التي حطَّ دونها « عين الفيل » ، وأطلقوا على باب مكة الذي دخلها منه « باب الفيل » . وقد دخل أبرهة مكة عام ٥٧٠ م ، وسمي هذا العام « عام الفيل » ، وفيه ولد رسول الله (ﷺ) .

●

ومع أن عبد المطلب كان يعلم أنْ لا وسيلة له إلا تقديم ابنه فداءً للإله قال في نفسه : «إن الله الذي أعبده عظيم ، وحينما امتنع عن استرداد قرض لي من رجل معدم ، فلأنني أراه لا يقدر على أدائه . وإنني أفكر بالله ، خالقِ السماوات والأرض . . . ألا يمكنه أن يسامحني على دَينه لي ، كما أسامح أنا ذلك الرجل المعدم ؟ » .

ولكن عبد المطلب لم يشفِ غليله جوابٌ شافٍ ، لأنه لم يسمع كلام الله

موافقاً أو غير موافق ، وحتى يطمئن إلى جوابه قرر أن يأخذ رأي عـرّاف قـدرٍ على تشخيص الغوامض والمبهمات ! وفي يثرب آنئذ عراف يـدَّعي كشف ما تخبئه أحكام السماء . فما كان منه إلا أن امتطى جملاً ، واتجه نحو يثرب . وسبب امتطائه جملاً وليس ناقة . أن الناقة لدى عرب الصحراء عبارة عن حيوان جَمالي يستخـدم في السباق ، والناقة البيضاء باهظة الثمن . وطوى عبد المطلب الطريق بأحـد عشر يوماً ، حتى وصل يثرب ، فاتجه فوراً نحو العـرَّاف . وبعد أن راقب العرَّافُ نجوم السماء قال له :

ـ يـعفيك الله من أداء دينـك في ابنـك ، شريطـة أن تدفـع عنـه الـدية اللازمة .

إن فدية الرجل في الجزيرة جمل . وسأل عبد المطلب العرَّاف :

ـ أيقبل الله مني عشرة جمال ؟

نظر العراف إلى النجوم ، ثم قال :

ـ لا ، لا يقبل .

فقال عبد المطلب :

ـ وهل يقنع بخمسة عشر جملاً ؟

فأعاد العراف بصره إلى السماء ، ثم أجاب بالنفي . واستمر عبد المطلـب يرفع عدد القرابين من الجمال حتى بلغ المئة . عندئذ قال العراف لعبد المطلب :

ـ وافق الله على ديتك .

فعاد عبد المطلب إلى مكة ، وعوضاً عن أن يقدم ابـنَـه قرباناً إلى الله ، افتداه بمئة جمل . وفيما بعد نزل القرآن على محمد بن عبد الله (ﷺ) في مسألة دية القتل ، مشروطة بإرادة مسبقة ، وتقديم تمهيدي ، وليس وسيلة نذبح فيها الجمال . وبعد

أن وُهب عبد الله من قبل الإله ، وذَبح أبوه مئة جمل شكراً لهبته ، تزوج من آمنة . ونتج عن هذا الزواج « محمد » (ﷺ) . ولكن قبل أن يرى هذا الطفل الدنيا ، أغلق أبوه عينيه إلى الأبد .

وفي الإنجيل - كما رواه يوحنا - (وكما نعلم الأناجيل أربعة) يقول السيد المسيح : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا أوامري ، وسأدعو لكم عند الله دعاء خير . وهو سيرسل إليكم « پاركالِتْ » ، لأنني لن أدعكم يتامى » من غير معين . إن كلمة « پاراكلت » يونانية ، وردت في إنجيل يوحنا . ومعنى هذه الكلمة في اليونانية : المسلِّي والمقوِّي والحامي . يقول السيد المسيح لحواريه - بحسب رواية يوحنا - وقبل أن ينتقل من هذا العالم : إنه سيأتي بعدي شخص يقوّيكم ويحميكم .

يعتقد النصارى أن قصد السيد المسيح من هذا « الپاراكلت » أن يكون واسطة بين النصارى وبين الله ، حتى لا يشعروا بالوحدة . وأعلن المسيحيون ، بعد ارتحال السيد المسيح بخمسين يوماً أن « پاراكلت » هو نفسه روح القدس ، ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم هو الواسطة بين الله وبين عبيده .

ويرى المسلمون أن النصارى حرّفوا كلمة السيد المسيح ، لأنه قال إنه سيأتي بعدي « پريكلي توس » . ومعناها باليونانية « أحمد » وهو بمعنى « الممدوح » ، وهو اسم نبي المسلمين . و« محمد » معناها الأكثر مدحاً . ويُروى أن اليهود ذكروا هذه الكلمة « پريكلي توس » ويعلمون أن السيد المسيح سيخلفه « أحمد » ، لأن اليهود (والعُهدة على الرواية) ليلة ولادة رسول الله (ﷺ) اضطربوا كثيراً ، وتخوّفوا من وضع آمنة . كما يروى أن آمنة أم النبي (ﷺ) صرحت :

- لم أشعر بأي ثقل في بطني من جراء حملي لهذا الجنين .

وروي أن محمداً ولد مختوناً . ومع أن اليهود ـ كما جاء ـ تنبهوا إلى أن الذي ورد ذكره في إنجيل يوحنا وُلد ، فإن شيئاً ما لم يتبدل في حياة سكان مكة وسائر مناطق الجزيرة ، لأن ولادة نبي لم تكن غير حدث عادي لديهم . إذ يروى أن مئة وأربعة وعشرين ألفاً ، أو مئة ألف ، أو أربعين ألفاً من الأنبياء وُجدوا في هذه الدنيا ، وبرز منها جميعاً في جزيرة العرب ثلاثة أديان كبيرة توحيدية هي : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، على اعتبار أن شواطىء بحر الروم الشرقية منضمة إلى الجزيرة . ونحن لا نعرف كل هؤلاء الأنبياء ، غير أننا على معرفة بأسماء عدة مئات منهم ، ومدركين بعض حيواتهم . . حسبما جاءنا شفاهاً .

والأمر المسلم به أن العرب ـ في الماضي ـ لم يدهشوا من ولادة نبي ، لأن مثل هذا الأمر حصل في بعض أنحاء جزيرتهم قبلاً . حتى آمنة ، لم يبدُ عليها العجب ، فقد روي أنها سمعت أن ابنها نبي ، فلم تندهش لهذه البشرى ، لأن أرض العرب ، لم تكن أرضاً منجبة للأنبياء وحسب ، بل كانت مهاداً لأفراد خاطبوا الله تعالى . بل إن كل أنبياء الجزيرة خاطبوا ربهم .

كانت مِساحة الصحراء ثلاثة ملايين كم² ـ وما زالت ـ معروفة بجدبها وحرارتها وانبساطها ، مما يسهِّل وضعها لاتصال الإنسان بخالقه ، من غير واسطة . إن الله موجود في كل مكان ، حتى من يريد مخاطبته ـ في القرن العشرين ـ يقصد شبه الجزيرة ، فترى اليهود يقصدون طريق كنعان وبيت المقدس ، والنصارى كذلك يتجهون نحو بيت المقدس ، ويعدو المسلمون نحو الكعبة .

الأقطار الأخرى أشبه بعمارة متصلة فيما بينها تماماً ، وأبنيتها مجزأة تعترضها جدران ضخمة ، تمنع حرية الاتصال (في رأيه طبعاً) بين البناء والآخر . ويحل الله في بعض الأبنية ، وتقطن الملائكة في بعضها الآخر ، في حين يسكن البشر في جزء آخر . أما الصحراء فلا يعترضها حاجز ؛ فترى البصر يمتد إلى اللانهاية من

كل طرف ، صحراء ممتدة الأرجاء ، وسماء لا نهاية لها . . ولهذا فليس فيها ما يمنع إمكانية معرفة الله وملائكته . ولم تكن مصادفة الخالق في هذه الصحراء الواسعة حالة استثنائية نادرة ، كما لم تكن ولادة نبي فيها خارقة للعادة .

ويروى أن ، بالإضافة إلى آمنة ، أقرباء محمد (ﷺ) جميعاً علموا أن هذا الطفل نبي . ومع هذا فإنهم لم ينظروا إليه نظرة إعجاب ، كما لم تختلف رعايتهم له عن رعاية غيره من أطفال قريش . ربما كانت نظرتهم إلى ولادة النبي عادية ، لأن المهم في الأمر أن هذا النبي يستطيع في النهاية أن يؤدي رسالته التي سيتلقّاها . وقد وجد في الجزيرة مئة وأربعة وعشرون ألف نبي ، أو أربعون ألفاً . أما الذين استطاعوا أداء رسالتهم فعددهم قليل . والذين وُفقوا إلى تبليغ الرسالة عاشوا في أطراف الصحراء الواسعة .

●

■ وإنني مضطر هنا في هذا المقام إلى الخوض في حاشية ، أتمكن فيها أن أؤدي مطلبي بشكل أفضل .

كان العرب في بادىء الأمر يسكنون جنوبي الجزيرة ، وكانت تلك البقعة خصبة خضراء ، وتُعرف باسم « أرض العرب الخصبة » ، ويدعوها اليونانيون « آرابيا فليكس ـ ARABIA FELIX » ، أي أرض العرب السعيدة أو المعمورة . وقد سبب خراب السدود التي بنوها تجاه الأنهار ، بالإضافة إلى توالي الحروب ، والسنوات العجاف إلى هجرة العرب من تلك البقاع على مراحل متفاوتة . ولما كان البحر يمنعهم من الزحف نحو الجنوب فقد اضطروا إلى الرحيل شمالاً عبر الصحراء ، وبالنظر إلى سوء الأوضاع المعيشية اتخذوا هذه الصحارى مساكن لهم .

وكان كثير منهم يلقون حتفهم في هذه الهجرة ، وتثبت البقيةُ الباقية رغم

غوائل الدهر فتنشأ قوية وذات عزم وإيمان وعيش يمتاز بالإيمان بالواقع . يقول داروين صاحب نظرية « البقاء للأصلح » عن دنيا الحيوان إن التي تبقى وتتطور وتنمو هي القوية ، في حين تمنى الضعيفة منها .

والذين ثبتوا في صحراء الجزيرة ، لم يكونوا أقوياء جسمياً وحسب ، بل كانوا أقوياء من الناحية الروحية كذلك . فإن حفظ الحياة في الصحراء القفراء ، المقصور العيش فيها على الأعشاب الجافة والحرباءات ، يضطر المرء إلى أن يكون قوي البنية ، مرسّخ العزيمة الروحية ، مطيعاً لتقاليد القبيلة والطائفة التي ينتمي إليها .

حتى اليوم ، عصر السيارة والطائرة ، لا يستطيع المرء أن يحيا وحيداً في تلك الصحراء الجدباء ، يصارع فيها الجوع والعطش والوحشة . وهو إن عاش ضمن قبيلة بدوية ، وأطاع عاداتها وتقاليدها ، لقي العون ، وأسهم في توحيد المآرب . وإن رفض الانصياع إلى قبيلته ، والانضواء تحت رايتها طرد من رعايتها ، ولفظه أعضاؤها ، وغدا كنحلة تائهة عن عشّها ، جائبة أرجاء الطبيعة . . . وسُرعانَ ما تلقى الفناء نُصب عينيها .

ومع ذلك فإن الرفاهية معدومة لدى عرب الصحراء ، حتى من كان منهم منضوياً تحت سيادة قبيلته . ولقد غدا الجوع والعطش جزءاً من فطرتهم وعاداتهم . فترى الرجال والنساء يربطون الأحزمة على بطونهم تحت ثيابهم ، كيلا يتأثروا بالجوع . وقد لا يكفي الحزام وحده لإقصاء الإحساس بالجوع ، فيعمدون إلى خداع بطونهم بربط حجر مع الحزام، ليتصوروا أن معدتهم ممتلئة . يقول الشنفري شاعر العرب الجاهلي :

أديمُ مِطالَ الجوعِ حتَّى أُميتَهُ   وأضرِبُ عنه الذكرَ صفحاً فأذهلُ

وأطـوي على الخُمص الحـوايا كما انطوتْ خيوطـةُ ماريٍّ تُغـارُ[1] وتُـفتـلُ

وبإمكان البدوي ان يتحمل الجوع والعطش كثيراً ، بشـكل يفـوق تحمـل سكان المناطق الأخرى . وليس عجيباً في هذه الحال أن نرى الجمل يقتطع وبـره بأسنانه ، ويأكله من شدة جوعه .

إن مدة فصل الربيع في الصحراء ثلاثة أسابيع ، ولا يرى البدو الأمطار إلا في هذا الموسم . حيث تنبـت الأعشـاب ، في هذه الأسـابيع ، في المناطـق القابلـة للإنبات ، وتجف هذه الأعشاب حتماً في فصل الصيف . وقد تخضـرُّ الصحراء في فصل الربيع ، وتبـرز الغـزلان باحثـة عن الـكلأ ، فينبـري العـرب حينئـذ إلى صيدها . . وفي غير هذا الفصل تخلو الصحراء من المياه والكلأ والصيد .

وعندمـا يتحـول البـدو من عرب رحَّـل إلى سكان مدن ، يحافظـون على عاداتهـم الفطـرية الأولى . ولا يختلف عليهـم الأمـر إلا في الفـرق بـين الخيمـة والمنزل . وقد كان سكان مكة ويثرب والطائف يحيون حياة البدو في الصحراء . بحيث تتجمع القبيلة في منطقة معينة ، ولا تعمد إلى الاختلاط بغيرها . ولما كان العرب البداة يرحلون من مكان إلى مكان فإنهم يستعينـون بالجمـل على حياتهـم الانتقالية هذه ، ولا يحتفظون في خيامهم بالاشياء ذات الوزن والأثاث الكثير . . وتراهم يكتفون بأقل وسائل الحياة اللازمة . ففي مكة حيث تقيم قبيلة قريش في منازل خاصة بها ، ظلت حياتهم هي هي . وقد قلت قبلاً إنهم لا يتباهون بغـير الجمال . وتقول عائشة زوجة رسول الله (ﷺ) : حتى يوم وفاة زوجي لـم يكن في منزلنا غربال نغربل به الطحين ، إذا أردنا خَـبز العجين ، لأن العرب لـم يعتبروا الغربال من ضرورات حياتهم .

---

(١) البيتان من « النوادر » لأبي علي القالي : ٢٠٥ ، الخمص : الجوع أو ضمور البطن . الحوايا : الأمعاء . الخيوطة : ج خيط . الماري : الذي يفتل الحبال أو صائد القطا أو اسم رجل . تغار : أغار الحبل : أحكم فتله .

ولما كانت القبائل العشر المستوطنة مكة لم تفارق عاداتها ، فإنها ظلت تسلم ولدانهـا إلى القابـلات الساكنـات في الصحـراء ، لكي يرضعنهـم ويُـنشئنهـم في الصحراء . والذي دفعهم إلى التشبث بتلك العادة أمران : الأول أن قريشاً كانت تعتقد بأن هواء مكة مضـرّ ، والأطفال الذين يُـربَّـون في مكة يموتون . وقد كان هذا الرأي صحيحاً ، لأن الجراثيم تهدد الأطفال بأمراض (العفونة) ، التي قد تُـودي بحياتهم. في حين أن مثل هذه الجراثيم غير موجـودةفي الصحـراء.والثاني أن تسليم الرضيع إلى مرضع من سكان البادية يوجِـد وشائج قربى بينه وبين القبائل الأصيلة (ويعني بالقبائل الأصيلة سكان الصحراء ، أصحاب الجمال) . فالطفل حينما يشارك البدويَّ بثدي أمه يغدو أخاه .

حينما ولد محمـد (ﷺ) قـصُّوا له شعـره ، بحسـب عاداتهـم ، ووزنـوه بالذهب ، ووزعوه على الفقراء . وليس وزن شعر الرضيع ثقيلاً ، ولكن قريشاً اتبعت هذه العادة منذ القدم ، وقلدها كثير من الأمم في العالم . وبعد أن قصوا شعر محمد (ﷺ) عهدوا به إلى مرضع .

وقد كان للنبي (ﷺ) مرضعان ، وقلما أشارت كتب التاريخ الإسلامي إلى أولى هاتين المرضعين . ولعل المؤرخين أهملوا ذكرها لأنها كانت أَمة لأبي لهب عـمٍّ النبي . وهو رجل مستكره لدى المسلمين ، لأنـه كثـيراً ما كان يؤذي رسـول الله (ﷺ) . ولهذا لعنه الله تعالى في قرآنه العزيز لعنة أبدية ، إذ قال : ﴿ تـبَّـتْ يدا أبي لَـهَـب ﴾[1] . فقد كان يقذف رسول الله (ﷺ) بالحجر ، فيصيب وجهه أو صدره ، ويجرحه ، فيمسح رسول الله (ﷺ) دمه السائل بطرف ثوبه ، ويطلب إلى الله أن يُـلهم أبا لهب الإيمان .

كما كانت زوجه التي تُـدعى « أم جميل » تؤذي رسول الله (ﷺ) ، إذ كانت تنثر الشوك في طريقه ليلاً ، فـتُـجرح قدماه . ولعنها الله كما لعـن زوجهـا ، إذ

---

(١) أي فلتقطع يداه .

قال : ﴿ وامرأتـهُ حمالـةَ الحطب ﴾ . والمعنى أن أبا لهب حين يصـير إلى جهنـم ستحمل زوجه أم جميل الحطب ، لتزيد من أُوار النار التي تحرق زوجها .

على أية حال ، فإن مرضع محمد (ﷺ) الأولى هي أمة أبي لهب هذا . وقد أحجمت هذه الأمة عن إرضاعه بادىء الأمر . ومع ذلك فإن رسـول الله (ﷺ) اشترى هذه الأمة فيما بعد وأعتقها . وقد ذكرنا أن نسـاء قريش ما كانـت ترضـع أطفالها ، بل تسلمهم إلى المرضعات الضاربات خيامهن في الصحراء . ومن عادة هؤلاء النساء أن يفدن إلى مكة في بعض فصول السنة ، لكي يحصلن على الأطفال الرضّـع من أمهاتهـنّ ، لينشئتهم في حضن الصحراء .

وحين أحجمت أمة أبي لهب عن إرضاع محمـد (ﷺ) استرجعـوه منهـا ، ونقلوه إلى مكة بانتظار قدوم النساء المرضعات ، إلى أن وفدت نساء « بني سعد بن بكر » زُرافات[1] . ولقد تحققـتُ في الجزيرة العربية اليوم ، وفهمت أن العرب ما زالوا ـ على الرغم من تغيير أوضاع بلادهم ـ وامتطـاء الأغنياء منهـم السيارات ـ يُـودعون أبناءهـم إلى المراضـع ، لـيربّـوا خارج مكة ، ويترعرعـوا في أحضـان الصحراء . ولما كان محمد (ﷺ) فقيراً ويتيماً لم يقبل به أيٌّ منهن ، إلا أمرأة تدعى « حليمة » ، فقد قبلته ، وصرحت برأيها قائلة :

« لم تهطل الأمطار في فصل الربيع من هذا العام ، وقلت لزوجي إننا لا نملك شيئاً يقيم أَوَدنا ، فلننـزل مكة ، ونُـحضر طفـلاً إلى مضاربنـا ، عسى أن نُـرزق من أبيه شيئاً . ووافق زوجي ، فحملـتُ طفلي على صدري ، وركبـت حماراً ، وأمسك زوجي بزمام ناقته ، وسرنا نحو مكة . كان طفلي يبكي لأن ثديـيَّ جـفـَّ منهما اللبن ، كما بقينا أنا وزوجي . جائعين ، لأن ناقتنا لم تقدم لبنـاً ،

---

(١) وسعد بن بكر جد جاهلي ، امتاز بنوه بالفصاحة . وفيهم نشأ النبي (ﷺ) في طفولته ، اذ تسلمته حليمة السعدية وأحسنت تربيته . ولما ردته إلى مكة نظر إليه عبد المطلب فامتلأ سروراً ، وقال : جمال قريش ، وفصاحة « سعد » ، وحلاوة يثرب .

للجدب الذي حلّ بنا هذا العام ، ولفقدان الكلأ في الصحراء .

وحين بلغنا مكة حصلت نساؤنا على أبناء الأغنياء ، وعدن حاملات هدايا منحها آباؤهم . ولم يحالفنا الحظ بطفل غني ، ولكن عُرض علينا طفل يتيم يدعى « محمداً » (ﷺ) ، ولم يكن مع جده هدية يمنحها معه .

وقلت لزوجي : أن نقبل بهذا الطفل خير من أن نعود خاويي الوفاض ، ثم إنه من قريش . وإذا ما كبر غدا من رجالات هذه القبيلة ، وسنستفيدمنه حتماً في المستقبل . ووافق زوجي على اقتراحي ، وعدنا مع نساء قبيلتنا . ولم نبتعد عن مكة مسيرة نصف منزلة ، حتى لاحظتُ ـ متعجبة ـ أن ثدييّ حفلا باللبن ، فشرب منهما ولدي ومحمد (ﷺ) .

وحينما وصلنا إلى حيِّنا ناداني زوجي قائلاً : انظري يا حليمة ، لقد حفل ضرع ناقتنا باللبن . وسددنا جوعنا بلبن الناقة ، واستطعنا أن ننام ليلتنا بهناء وحبور . وقال زوجي عند الصباح : « لا شك أن لهذا الطفل بركة ، تنفعنا في أيامنا القادمة » .

محمد الأمين

وبعد أن فُطم محمد (ﷺ) أعادته حليمة إلى أمه . وكما قلنا توفيت آمنة قبل وفاة عبد المطلب . فكفله عمه أبو طالب ، ورافقه في رحلتـه إلى سورية في سن الثانية عشرة . وبعد أن عاد محمد (ﷺ) من رحلته الأولى تابع عمله السابق وهو رعي الخرفان . وكان كل صباح يسوق الخرفان والماعز إلى قلب الصحراء لرعيها تحت أشعة الشمس المحرقة .

وكان يشرب ألبان الأغنام إذا حفلت ضروعها باللبن . ولكن إذا نضب معين الضروع اقتات ببعض الأعشاب والجذور الصحراوية . وحين شبَّ عن الطوق كان يرافق أترابه إلى صحراء مكة ، ويعرّفهم ببعض أطراف الصحراء التي خبرها . ويقول لهم : لقد طفت في هذه البقاع ، ورعَّيت قطيعي هناك ، وتغذيت من هذه الأعشاب .

●

كان العرب ـ كما ذكرنا قبلاً ـ يمتنعون عن الحروب مدة أربعة أشهر ، ويتوقف قطاع الطرق عن ملاحقة الحجاج القاصدين زيارة الكعبة ، وعن التجار الذين ينقلون بضائعهم إلى الأسواق ، وكما يقول (ﷺ) : « لا حاجٌّ ولا داجّ »[1] .. ويقام قرب مكة في أيام الحج سوق عام كبير ، شبيه بأسواق هذ الأيام ،

---

(١) الحج : الزيارة والاتيان ، وإنما سمي حاجاً لزيارته بيت الله . والداجّ : الذي يخرج للتجارة . والحاج : أحد الحجاج ، والداج : الأتباع .

تُعرض فيه البضائع ، ويقصده العرب من كل الجزيرة . ولم يكن هذا السوق في مكة نفسها ، بل في بُليدة قربها . ولقد تحققت بنفسي في الجزيرة عن موضع هذا السوق ، فلم يستطع أن يرشدني أحد إلى مكانه الأصلي . وكان محمد (ﷺ) يزور السوق ، بحكم قربه من مكة . ولاحظ هذا الفتى أن في هذا السوق شيئاً أغلى من الذهب ومن الفضة ، ألا وهو « الأدب » . ولقد جذب هذا الموضوع انتباه محمد (ﷺ) ، وفتَّح عينيه على قيمته .

حتى ذلك اليوم ، كان الطفل الذي سيغدو نبياً يتصور أن أغلى شيء في الجزيرة هو الذهب وتتلوه الفضة في القيمة . لكنه بعد أن طاف في سوق عكاظ أيقن أن الكلام يفوق قيمة هذين المعدنين . يقول شاعر العرب زهير بن أبي سُلمى[1] :

لسانُ الفتى نصف ، ونصفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ

وقد صدق شاعر العرب بكلامه هذا ، لأن الفن الوحيد الفريد في الجزيرة على مسيرة القرون والأعصار هو هذا الكلام البليغ . فجزيرة العرب أراض واسعة شاسعة ، لكن القسم الأعظم منها مُغطى بالرمال . ولو جمعت رمال الكرة الأرضية كلها لما عادلت بحجمها رمال الصحراء العربية . ولعل الخيمة هي السند الأصلي للعربي في هذه الصحارى الحارة والرمال المتحركة ، لأنها تحفظه من حرارة الشمس . وبالإضافة إلى الخيمة هناك ناقته التي يمتطيها ، ويشرب من لبنها ، ثم سيفه الذي يدافع به عن نفسه . ولكن يندر أن تَجذب واحدةٌ ممّا ذكرنا ذوق العربي ، وتدفعه نفسه الثائرة إلى السكون .

إنهم لم يبرعوا بالرسم لأن الحبر لم يعرفوه ، ولم يتغنَّوا بالنحت لانعدام الحجارة في أراضيهم . لذا تحولت أذواق العرب إلى « البلاغة » ، وبها يسمون

---

(١) أخطأ المؤلف إذ نسب هذا البيت إلى كعب ابنه . وقد عُرف عن العرب أن « المرء بأصغريه ، لسانه وجنانه » .

بفنهم ، ويبرعون بذوقهم ، ويُجمعون على سمو البلاغة . يقول أرنست رينان الفيلسوف العالم الفرنسي : لو وردت كل علوم الأمم الأخرى وفنها ، ولا سيما أمة الفرس التي برزت بعد الاسلام ، إلى أرض العرب ، وغدت من إبداع أهلها وبراعتهم ، لما بقي شيءٌ مما ذكرنا إلا العربي وجمله . وأعتقد أن في كلامه هذا إجحافاً ونقصاً . وكان الأصح أن يقول : لو غدت فنون الأمم ، ولا سيا فن أمة الفرس ، عربية ، لفاقت البلاغة كل هذه الفنون بلا شك .

لم يستطع العربي أن يبني القصور ، ولا أن يزخرفها ، لأنه لم يملك في بلاده ادوات هذه الفنون ، لكنه استطاع أن يغطي كل تلك الفنون ببلاغته . وهكذا فإن فن الشعر هو التراث الوطني الوحيد ، ينصبُّ في قوالبه تاريخ العرب وأدبهم وفنهم . فمن رغب في معرفة الأنساب ، أو تاريخ العرب ، أو علومهم ، أو فنونهم فلا بد له من مطالعة . دواوين العرب . والشاعر في الأمم الأخرى أديب ، أما في جزيرة العرب فهو طبيب ، وواعظ ديني ، وحَكم ، وعالم .

كان بإمكان الشاعر أن يجعل من شعره سماً زعافاً لخصمه ، أو دواءً شافياً ينعش المريض والعليل . وبعد أن بُعث محمد (ﷺ) خاطب حسان بن ثابت في ساحة إحدى الحروب ، قائلاً :

- اهجُهم ، لأن هجاءك ينسلّ نحوهم كما تنسلُّ الرماح نحو الخصم ، و« وإن روح القدس لا يزال يؤيِّدك » .

فالشعر عند العرب من ضرورات الحياة المهمة ، ولا يقل أهمية عن الهواء والشمس والطعام. ولكل مقام عندهم قصيدة ، كالسرور والقلق ، وسوء الحال والسعادة ، والاحتفاء والعزاء ، والسلم والحرب . وعندما ينفعل العربى ينشد أشعار زهير ، وحين يرهب يتمتم بشعر النابغة ، وإذا ثار تباهى بشعر الأعشى ، وإذا حمل على العدو أنشد رجز عنترة .

ليس بإمكان كل إنسان أن يغدو شاعراً ، لأن الشعر نبوغ . يقول أحدهم :

لقد شقَّ العقاب صدري بمخالبه ، وسكب المقدرة الشعرية في فؤادي . ويقول شاعر آخر : عندما يهتاج دماغي بنظم قصيدة أحسُّ وكأن الجنّ تعبث بخَلَدي ، ولا تدعني مرتاح الفكر . . ولا أجد وسيلة للارتياح إلا بقذف ما يعتمل في نفسي من شعر .

ولقد أجاد هذا الشاعر في وصف حالة شعراء العصر الجاهلي بشكل مختصر . كان الشعراء العرب ذوي فكر حر واستعداد ذاتي ، يخالفون بذلك أفراد قبائلهم . ولهذا فهم يجابهون قيود عشائرهم وعاداتهم . ولما كانوا يرفضون الانصياع أحياناً لأهواء رؤسائهم ، رأيناهم ينطلقون إلى الصحارى ، ينشُدون فيها الحرية . ولكن كثيراً منهم كان يموت في قلب الصحراء جوعاً أو عطشاً ، لأن كل من ابتعد عن حيِّه ، راغباً في العيش المنفرد ، حكم على نفسه بالموت . كما تحول بعض هؤلاء الشعراء إلى قطاع طرق ، ليؤمنوا لأنفسهم عيشاً وحرية .

يؤمُّ الشعراء سوق عكاظ كل عام ، وينشدون فيه أشعارهم . ومن فاق أنداده في فن القول لقي التجلّة والتقدير ، ودوّنوا قصيدته بماء الذهب على قماش حريري ، وعلقوه على جدار الكعبة ، ليتباهوا به أمام الجموع الغفيرة التي تفد على مكة . وتبقى هذه القصيدة معلقة عاماً كاملاً . ولهذا دعيت هذه القصائد بـ « المعلقات » .

وكلام الشاعر ذو أثر فعال في نفوس المستمعين ، لدرجة أن رجلاً كان له سبع بنات قبيحات ، ولم يوفق إلى تأمين أزواج لهن . فاتصل بأحد الشعراء أيام الحج[1] ، فرجاه أن يصف بناته أمام الرجال ، علَّ الحظ يواكبهن . فنفذ الشاعر رجاء هذا الأب التعس ، وذكرهن في شعره ، فلم يبق واحدة إلا توافد عليها عدد من الخطاب .

●

---

(١) هو الأعشى .

عندما أصغى محمد (ﷺ) إلى إنشاد الشعراء في سوق عكاظ لأول مرة تأثر كثيراً بأقوالهم ، وقدر بلاغتهم . لذا صار دأبه أن يستمع إلى شعر هؤلاء الشعراء الفصحاء . وقد أعجب بشعر كعب بن زهير في أحد الأيام ، فما كان منه إلا أن خلع عباءته ، وقدمها هدية إليه .

ومما اختص به سوق عكاظ أنه إذا بَعث أحد أمراء الأطراف شيئاً ذا قيمة كسيف أو قماشة مذْهبة ، اعتقد العرب أن هذا الشيء الثمين يجب ان يشتريه أبرز الرجال العرب . فيعلو البائعون مكاناً خاصاً ، ويأخذون بالتعريف عن سلعتهم شعراً . وإن لم يستطيعوا ذكر خصائصها شعراً طلبوا إلى أحد الشعراء أن يقوم بهذه المهمة عنهم .

والخطابة كذلك أمر مهم جداً بين قبائل العرب . ويشترط برئيس القبيلة أن يكون خطيباً مُفوَّهاً . ولذا كانت الكلمات التي تؤدي معنى « رئيس القبيلة » كالأمير والسعيد وغير ذلك ، تدل كذلك على المفوّه والفصيح .

امرؤ القيس شاعر يعرفه المسلمون جميعاً . هو أحد الشعراء السبعة الذين علقت قصائدهم على جدار الكعبة . بل إنه يعتبر أبرز شعراء الجاهلية بما فيهم أصحاب المعلقات فصاحة وتماسكاً . ولم أجد في الشعر العربي أبرز من هذه القصائد المؤثرة في النفس إلا القرآن . ولقد أحبَّ رسول الله (ﷺ) شعر امرىء القيس ـ كما تذكر السيدة عائشة ـ لدرجة أنه كان يردد شعره على لسانه دائماً ، ويحفظه غيباً . ورواية السيدة عائشة صحيحة ، لأن العرب جميعاً كانوا يعتمدون على حافظتهم ، لأنهم بشكل عام أميون .

عشتُ في جزيرة العرب رَدَحاً من الزمان ، ولاحظت أن البدو ما زالوا أميين حتى اليوم ، ولكنهم يحفظون شعر الشعراء غيباً . وقد أنشدني أحد عرب البادية بضعة أبيات من شعر امرىء القيس . ولقد أكد المؤرخون الذين دوّنوا تاريخ رسول

الله (ﷺ) أمثال : ابن هشام ـ ابي داود ـ ابن حنبل ـ حميد الله[1] ـ ابن سعد ، على أن رسول الله (ﷺ) كان يحب الشعر ، ويردده على لسانه في بعض الأحيان . ولو كان غير هذا الأمر لكان باعثاً على الحيرة . لأن الشعر بالنسبة إلى العربي في ذلك العصر بمثابة نسغ الحياة ، وهواء التنفس ، ومن دونهما لا يقوى على العيش .

ومحمد (ﷺ) اكتملت فيه شمائل الرجل البدوي . ولو قيل فيه مثل هذا الكلام بعد بعثته لكان نوعاً من التملق . ولكنهم ـ في الحق ـ نعتوه بالأمين والصبور قبل خمسة وعشرين عاماً من عام بعثته . ونحن نستنبط اليوم من كلمة « الأمين » أنه صادق . ولكن العرب قديماً كانوا يصفون الرجل الصادق والوفي بأنه أمين . وصبرُ محمد (ﷺ) مثل أمانته ، عُرف به قبل أن يغدو نبياً . ولعل هذه الخصلة دعت الله تعالى إلى وصف نبيه بها في كتابه العزيز . والصبر من الأوصاف الحميدة عند العرب . ولم يكن الفقر عند العرب عيباً ، ولكن العيب يكمن في زعزعة الانسان عندما يصاب بمكروه ، ولا يصبر عليه . وكانت شهرة محمد ، بصبره ووفائه ومحبته ، فاقت شهرة أي رجل في قريش قبل أن يغدو رسولاً لله (ﷺ) .

يقول أبو داود في سننه : عندما كان رسول الله في سن الثلاثين وعده أحد التجار أن يلقاه في مكان معين للتباحث في قضايا تجارية . ولكن التاجر نسي موعده ، فلم يحضر . وحينما مرّ بعد ثلاثة أيام بذلك المكان ـ صدفةً ـ ذُهل عندما رأى محمداً (ﷺ) هناك ينتظره منذ ساعة الموعد .

كان الذهب في تلك الأيام نادر الوجود في الجزيرة . وكان الدينار الذهبي ـ الذي يعادل وزنه خمسة غرامات ـ ثروة بالنسبة إلى الفقراء . والذي سبب غلاء الذهب في الدنيا اكتشافه في أمريكة ، ثم تلاهم الاسبان في اكتشافه . وقد انتقل هذا المعدن الثمين من قارة أمريكة إلى اوروبة ، ومنها إلى إفريقيَّة وآسية .

---

(١) صاحب « الوثائق السياسية » .

كان محمد (ﷺ) يعمل لحساب « قيس بن زيد » . وقيس كان يرسله مع بضائعه ليبيعها ويشتري بثمنها غيرها . وحين يعود يحمل لقيس أرباحاً تبلغ ألفاً وخمسمئة دينار أو ألفين بكل أمانة وإخلاص ، في حين أنه كان يستطيع أن يهرب بهذا المال الكثير إلى إحدى البلاد ، ويُمضي بقية حياته سعيداً منعماً . ولكن لأنه « أمين » لا تمتد يده إلى الأرباح مطلقاً . وعندما ترك محمد (ﷺ) عمله قال له قيس :

- روحي فداك يا محمد (ﷺ) ، لن أجد بعدك رجلاً بهذه الأمانة وهذه الأصالة .

كان محمد (ﷺ) عندما يعود من تجارته في سن الشباب يعرض عليه كبار التجار أن يحمل لهم تجارتهم ، وهم مستعدون لأن يدفعوا ما يريد . كان يبيع البضائع ، ولكنه ما كان يأخذ أجراً على عمله[1] ، كما يذكر قيس . ويقول ابن حنبل في كتاب « المسند » المطبوع سنة ١٣٦٨ هـ بالقاهرة صفحة ٤٢٥ : « عندما يعود محمد (ﷺ) من تجارته يستفسر عن أصحابه جميعاً . وإذا لمس عجزاً مادياً لدى أحدهم قاسمهم ماله ، ومثل هذا الأمر يسترعي الاهتمام ، ولا سيما من تاجر » .

●

أول حرب اشترك فيها محمد (ﷺ) تلك هي الحرب التي جرت بين قبائل قريش وإحدى القبائل البدوية الضاربة خيامها في جنوبي مكة ، إذ انتهكت حرمة الأشهر الحرم التي لا يَحترب فيها العرب مطلقاً ، ليسهلوا حركة زوار مكة وقوافلهم . والمعروف أن سكان مكة لا يتيسَّر لهم العيش من دون الأشهر الحرم ،

---

(١) لعله يعني : أجراً زائداً .

وإن لم تُـحترم هذه الأشهر لا يُـفتح سوق عكاظ ، ولا يفد الزوار[1] .

كانت القوافل عندما تعبر الصحراء في سائر الشهور تدفـع ضريبـة لقطـاع الطرق حتى لا يهاجموهـم . أما في الأشهر الحرم فإنهم لا يدفعون هذه الضريبة . وإذا ما هوجمت القافلة من قبل قطاع الطرق حاربتهم قبيلة قريش . وإن ارتكب أحدهم جريمة قتل ، ثم احتمـى بقبيلتـه ، انتقمـت القبيلـة المنكوبـة من قبيلـة القاتل .

غير معروف متى جرت الحرب بـين قريش والقبيلـة التـي فَـجَـرت ، لأن المؤرخين العرب لم يدققوا كثيرا في أحـداث رسـول الله (ﷺ) التـي جرت قبـل بعثته . ولكن الذين ذكروا اشتراك رسول الله (ﷺ) فيها أشاروا إلى أنه كان مرافقاً عمه أبا طالب وغيره من رجال قريش . ويقول بعض المؤرخـين إنـه كان صغـير السن ، ولذلك رافق عمه ، وكان يلـقّـم له النبل بالقـوس . وذكر بعضهـم أن محمداً (ﷺ) كان بيده سيف ، وجرح به رئيس القبيلة المعادية واسمه « بَـوبرة » .

---

(١) هي حروب الـفِـجار ، وهي ثلاثة حروب . اشترك رسول الله (ﷺ) مع أعمامه ، وكان يناولهم النبل . وانتهت عام ٥٨٩ م . (أيام العرب في الجاهلية : ٣٢٢) .

حلف الفضول[1]

لا نعلم في أي سن انتسب محمد (ﷺ) إلى « حلف الفضول » ، لأننا قلنا أن المؤرخين العرب لم يدقّقوا في دقائق حياة محمد (ﷺ) قبل الإسلام . ونحن الآن على اطلاع ببعض أحداث ، في حين أننا نجهل بعضها الآخر .

كان حلف الفضول عبارة عن كوكبة مؤلفة من رهط من الفتيان المسلَّحين ، هدفهم ألا يضيع حق المظلوم . ونرى ضرورة بعض الشرح لمعرفة كيفية تجمع هذا الرهط الذي يرفض رجاله ان يتقاضوا شيئاً :

لم يكن للبدوي مسؤولية شخصية ، فإن قتل أحد العرب فرداً من قبيلة أخرى ، عُدَّت قبيلة القاتل هي المسؤولة . ولكن حين غدا البدو الرحل سكان مدن ، واستوطنوا مكة لم يعد هذا القانون مُتَّبعاً . لأن العربي إذا ظلم أحداً في مكة لا يتمكّن من محاربة قبائل قريش العشر . ولم يكن في مكة شرطة ولا محكمة ، إذ تحل كل قبيلة قضاياها بنفسها ، أكانت حقوقية أو كانت جزائية . أما حينما يهاجم أحد الخصوم الغرباء مكة فإن قبائل قريش كلها تتجمع وتتّحد لصدّ عدوان هذا الهجوم الغادر . أما إذا قدم أحدهم إلى مكة ، ولقي فيها ظلماً ، فإنه لا يجد وسيلة لدفع هذا الأذى إلا بعودته إلى قبيلته ، واستنهاضها ضد سكان مكة . وبالتالي فإن القبائل العشر تنهض جميعاً لمحاربتها ، لأنها تعتبر هجومها غدراً لا استعادة لحق مهدور . وهناك عرب يفدون إلى مكة ، فيلقون جوراً من أحدهم ،

---

(١) جاء في ثمار القلوب : ١١٠ : قال رسول الله (ﷺ) : لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيت إلى مثله اليوم لأجبت .

ولكنهم لا يقدرون على إلهاب حماس قبائلهم ، ولهذا ظل الجور جاثماً .

يقول السهيلي المؤرخ العربي إن بدوياً قدم إلى مكة أثناء الحج ، ومعه ابنته الصبية ، من الجنوب فتسلط عليه أحد التجار الأثرياء وصادر أبنته . ولم يجد الأب وسيلة إلا أن يعود إلى قبيلته يستحث رجالها على حمل السلاح ،ليسترد شرفه المهدور في مكة . ولكنه تذكر أن قبيلته قليلة عدد الرجال ،ولا يقدرون على محاربة قريش . وقد اطلع محمد (ﷺ) في تلك الاثناء على ظُـلامة الرجل ، فطالب رجال قريش بألا يقبلوا ما فعله التاجر القرشي . فاجتمع عدد من شباب قريش قرب الكعبة ، وأقسموا قسماً هذا نصه :

« نُـقسم أن نحمي المظلوم حتى يستعيد حقه من الظالم . ونقسم ألا يكون لنا هدف معين من وراء هذا العمل . ولا يهمنا أن يكون المظلوم فقيراً أو غنياً » .

وبعد أن أقسم الرجال قسمهم ـ ومعهم محمد (ﷺ) ـ غسلوا الحجر الأسود بماء زمزم ، وشربوا من هذا الماء حتى يثبِّت قسمهم . وبعد ذلك ذهب محمد (ﷺ) وصحبه الشباب إلى منزل التاجر الثري الظالم ، وحاصروا منزله ، وطالبوه بإعادة الفتاة التي صادرها عذراءَ كما تسلمها . فقال لهم التاجر :

ـ أنـظِـروني ليلة ، وغداً صباحاً أعيدها إلى أبيها .

ورفض الشباب كلامه ، وفرضوا عليه تسليمها إلى أبيها فوراً . فما كان منه إلا أن أطلق سراحها .

خبر آخر ، فقد اشترى أبو جهل بضاعة من تاجر غريب ، ولكنه امتنع عن تسليم ثمنها . ولم يكن التاجر الغريب يعلم بوجود كتيبة من الشباب اسمها « حلف الفضول » ، فعاد إلى قبيلته ، واستنهضها فلبَّت وقدمت إلى مكة . ولما كانت القبيلة قليلة عدد الرجال لم تستطع ان تتصدَّى لقبائل قريش العشرة . وحين علم محمد (ﷺ) بهذا ، ذهب إلى منزل أبي جهل ، وطالبه بدفع قيمة

البضاعة التي استولى عليها ، فاضطر إلى الدفع .

واشتهر أمر « حلف الفضول » ، وغدا منذ هذا الحدث المرجعَ العدل لحل قضايا المظلومين . وقال رسول الله (ﷺ) فيما بعد : لقد كنت سعيداً في حلف الفضول كثيراً ، بحيث لو أنهم عرضوا عليّ مئة جمل أحمر الوبر على أن أترك عضويتي في هذا الحلف لما قبلت . وكانت فكرة إيجاد « حلف الفضول » من قبل رسول الله (ﷺ) قبل البعثة ذات أهمية كبيرة ،لأنه استطاع بهذا الابتكار أن يُحدث انقلاباً في استرداد حقوق العرب ، وتمكن من زعزعة فكرة الانتقام من القبيلة كلها ، وفيما بعد نزل القرآن بإلغاء هذه العادة أصلاً .

لا يمكن الاستخفاف بفكرة جماعة « حلف الفضول » ، واعتبارها حدثاً عادياً غير ذي بال ، لأن هذا الحلف قلب من عادات العرب رأساً على عقب . فحتى ذلك التاريخ لم يكن في بال العرب أن يحاسب الظالم على ظلمه . وإن كانت قبيلة المظلوم قوية لم تسكت على الضيم ، ولم تعتبر ظلمها ، هباءً منثوراً . وكذلك الأمر يهدر دم المقتول إن كانت قبيلة الظالم أقوى من القبيلة الأخرى . وكان هذا الظلم يعتبر عادياً جداً في الجزيرة ، لأن الناس ما كانوا يتصورون أن استرداد مثل هذا الحق ممكن ، وأن تبديل هذه العادات الاجتماعية محتمل .

ألمح محمد (ﷺ) بتأسيس « حلف الفضول » إلى وجوب استرداد حق المظلوم من الظالم ، وإعادته إليه ، وإن لم يكن لهذا المظلوم قبيلة قوية ، أو إن كانت قوية ولكنها غير مستعدة لأن تقوم بعمل عدائي .

وبلا شك إن النبوغ من أبرز الشمائل التي كان يتحلى به محمد (ﷺ) قبل بعثته . ولو لم يكن نابغاً لما كان نبياً . وقد أشارت أعماله قبل بعثته إلى أنه ذو استعداد نادر يفوق استعداد الآخرين ، وإدراكه للمسائل الاجتماعية والسياسية والحقوقية ، واستنباطه لها يدل على أن عقله الراجح يفوق مستوى الآخرين .

كان عمه أبو طالب يحب ابن أخيه ، ولكنه كان فقيراً . فلم يستطع الاستفادة من خبرة هذا الفتى النابغ . ولقد ترامى إلى أسماع تجار مكة أمانة محمد (ﷺ) ، فرغبوا في الاستفادة من خدمته . ومن هؤلاء التجار امرأة تدعى « خديجة » . كانت في سن الأربعين ، ومحمد (ﷺ) في الخامسة والعشرين . ولما سمعت به دعته ليعمل في تجارتها ، ويرافق قافلتها . فأبلغ محمد (ﷺ) عمه دعوةَ خديجة ، وشاوره في أمر العمل معها . فقال له أبو طالب :

- خديجة امرأة ثرية ، وبإمكانها أن تدفع لك أجراً حسناً ، وأرى أن توافق على عرضها .

كانت خديجة ، حتى ذلك التاريخ ، قد تزوجت اثنين ، وخلّفت من أحدهما صبياً صغيراً يدعى هنداً ، وابنة صبية تدعى هندة . وحازت خديجة شهرة كبيرة في مكة من النواحي التجارية ، وكانت تسكن في منزل يعتبر من أجمل منازل مكة . وذهب محمد (ﷺ) إلى خديجة يعرض عليها موافقته ، واستعداده للسفر . فقالت له خديجة :

- عليك أن تذهب بقافلتي إلى سورية ، وسوف يرافقك اثنان من المقرّبين لدي ، الأول هو ابن أخي خزيمة ، والآخر غلامي ميسرة .

وتحركت قافلة خديجة برئاسة محمد (ﷺ) نحو الشام ، حتى وصلت إلى بصرى . وقد قلنا إن في بصرى زاهداً مانوياً ، كان يحيا هناك ، ويدعى « بَحيرا » . ولكن حينما وصل محمد (ﷺ) في سفرته هذه إلى بصرى كان بحيرا قد فارق الحياة ، وحلّ محلّه زاهد آخر يدعى « نسطوريوس » .

لم يذكر التاريخ أن «نسطوريوس» كان مانوياً مثل بحيرا. ولكنه حين رأى محمداً (ﷺ) أعاد عليه كلام بحيرا ، وأعلمه أن الله لا يخص عنايته ديناً معيناً ولا أمة دون أخرى . وما قول اليهود بأن الله اختارهم من بين سائر ملل الدنيا إلا

افتئات وادعاء وتكبر . إن الله يُحِلّ رحمته كل أمم الدنيا ، يهوداً وغير يهود . كما أخبره نسطوريوس أنه سيبعث نبيٌّ من بين العرب ، وسيغير كثيراً من عقائدهم واعتقاداتهم .

حينما عاد محمد من سفرته أهدته خديجة جملاً هدية له . وحتى نقدر قيمة هذا الجمل في ذلك الزمان نرى أن نقارنه بأشياء أخرى . إن ثمن الجمل الذكر في تلك الحقبة أربعمئة درهم ، وتتراوح قيمة العبد بين مئة وخمسين وثمانمئة درهم ، وتتحدَّد قيمته بشبابه أو شيخوخته ، وبجماله أو قبحه . وثمن النعجة أربعون درهماً ، والعنزة بخمسة وعشرين . وقد بيع النبل في أسواق مكة بأربعة دراهم ، كما بيع سرج الجمل الكامل بثلاثة عشر ، والفأس الذي يستخدم في حفر الأرض بستة دراهم ، ورغيف الخبز بستة . وهذا يدل على غلاء ثمن الخبز . وكان الذين يأكلون هذا الخبز الأغنياء والقادرون ، في حين أن الآخرين يُحرمون من أكله . ويكتفون بلبن النوق والتمر .

ولقد رضي محمد (ﷺ) بالأجر الذي تقاضاه من خديجة ، كما رضيت هي بدورها عن خدمته ، مما دعاها إلى إرساله ثانية مع قافلتها .

زواج محمد (ﷺ) بخديجة

عندما عاد محمد (ﷺ) من سفرته الثانية ، وأرادت السيدة خديجة (التاجرة) أن تدفع له أمعنت النظر فيه ، فرأته فتىً وسيماً مهيباً ، ذا عينين سوداوين وشعر أسود . كانت عيناه واسعتين نجلاوين صافيتين ، وشعر رأسه طويلاً ، يمتد حتى كتفيه ، بفرقة في وسط رأسه ، كعادة العرب . وكان كثير التبسم في أثناء حديثه ، فتبرز أسنانه الناصعة ، ويتّضح فمه المنسّق . . كانت هذه التقاطيع تجذب المرء إلى الاستمرار بمحادثته .

وبالإضافة إلى وسامته ، كان ينبعث منه عبير جذاب ، يزيد من محبة الناس لمعاشرته في أيام شبابه . كان العرب في تلك الأيام يتطيّبون ، ويضمّخون أجسامهم بالعطور ، كما كانوا يعطرون الكعبة ، وينشرون الطيب في مساكنهم بمكة ويثرب . ويذكر المؤرخون العرب أن عطر محمد (ﷺ) لم يكن من النوع الشديد .

كان (ﷺ) رزيناً في حديثه ، متأنياً في أداء كلماته ، مما يجعل حديثه فصيحاً واضحاً . كل هذه الأمور ساعدت على تأثير كلام محمد (ﷺ) في الناس . وكما قيل كان كلامه يرسخ في الأذهان ، ولا يحيد عنها .

وبعد أن دفع محمد (ﷺ) ثمن البضاعة إلى خديجة حاولت أن تستفسر منه ، بطريق غير مباشر ، عن رغبته في الزواج ، بصورة عامة . غير أن الأجوبة التي سمعتها منه بيّنت لها أنه خالي الذهن من هذا الموضوع . ولكن خديجة أعجبت به وهامت بخُلقه وخَلقه ، ولم تستطع أن تحدثه عن موضوع الزواج بشكل

مباشر ؛ يعوقها ثلاثة أمور : أولها أنها في سن الأربعين ، وذات طفل وصبية ، في حين أن عمر محمد (ﷺ) لما يبلغ الخامسة والعشرين . والأمر الثاني أنها كانت ثرية ، وهو فقير معدم . والأمر الثالث خاص بعادات العرب ، ذلك أن قبيلة خديجة وقبيلة محمد (ﷺ) يجب ان تتفقا على هذا الزواج ، وقد ترفض قبيلة خديجة هذا الزواج .

ولما كانت خديجة لا تستطيع مخاطبة محمد (ﷺ) بشأن زواجها مباشرة فقد أمرت غلامها ميسرة أن يتذاكر مع محمد (ﷺ) في هذا الأمر . وسأل ميسرة محمداً :

ـ أتعلم أن خديجة أرمل ؟ وهل ترغب في الزواج بها ؟

وعجب محمد (ﷺ) من هذا العرض ، وقال :

ـ إن زواجي بها غير معقول ، لأنها امرأة غنية وأنا رجل فقير . فضلاً عن أنني سمعت أن عدداً من أغنياء التجار يتمنونها ، في حين أنها لم توافق على واحد منهم ، فكيف تقبل برجل مثلي ؟

ولكنّ ميسرة أخبره أن خديجة أرسلته لترى إذا كان يوافق على الزواج بها أولا . كما أرسلت خديجة امرأة تدعى نفيسة إلى محمد (ﷺ) لتحدثه عن الأمر بوضوح تام . كانت نفيسة امرأة مولدة ، أي إن أبويها غير عربيين ، وهذا ما دعاها لأن تخاطبه متخلية عن أعراف العرب . أي من غير استخدام للكناية والإبهام . وذهبت نفيسة إلى منزل محمد (ﷺ) وسألته :

ـ أنت فتىً وسيم وفي ريعان الشباب ، فلـمَ لا تتزوج يا محمد (ﷺ) ؟

فأجابها :

ـ لأنني فقير ، ولا يمكنني تأمين عيش زوجتي وأطفالي في المستقبل .

فقالت له :

ـ ولكنك تعمل ، وعملك يساعدك على تأمين إعالة أسرتك .

قال لها محمد (ﷺ) :

ـ إن عمي أبا طالب رجل عجوز وفقير . ولقد رعاني لما كنت طفلاً . والآن وقد شببت عليّ أن أقوم بواجبي تجاهه وتجاه أسرته ، بأن أقدم له كل ما أحصّله من عملي .

قالت نفيسة :

ـ بإمكانك الزواج من امرأة من غير أن تضطر الى تأمين عيشها .

فسألها محمد (ﷺ) :

ـ أيمكن أن يتزوج رجل امرأة ، ولا يؤمن لها عيشها ؟

أجابت نفيسة :

ـ أجل يا محمد (ﷺ) . فإنه إن تزوج بامرأة ثرية تُعفيه من تأمين سبل عيشها .

قال محمد (ﷺ) :

ـ امرأة ثرية يطلبها رجل ثري ، وبالتالي لا تقبل برجل فقير مثلي .

قالت نفيسة :

ـ لكن خديجة ترغب في الزواج بك . فإن كنت موافقاً فهي موافقة .

وأطرق محمد (ﷺ) يفكر ، بينما تابعت نفيسة كلامها قائلة :

ـ أنت شاب جذاب ، وخديجة تميل إليك فلا تخيّب ظنها . أنت تقول إنك

فقير ، وعليك أن تُـعين عـمّـك وأسرته . فإن تزوجـت بخديجـة تحقـق لك هذا الأمل .

عندما فهم محمّد (ﷺ) أن خديجة تقبل به كما هو ، قال :

ـ دعيني أفكر في الأمر .

وصادفته خديجة في اليوم التالي ، وحدثته بأمر الزواج مُـصادقة على ما قالته نفيسة ، عارضةً عليه موافقتها حين يرغب هو في ذلك . ومع أن خديجة لم تكن بكراً ، وكان عمرها أربعين سنة وذات صبي وصبية فإن تقاليدهم تقضي بأن توافق قبيلتها (قبيلة أسد) على زواجها من محمد (ﷺ) . كان رئيس قبيلة أسد رجلاً يدعى عمرو بن أسد ، قال :

ـ أنا موافق على أن محمداً (ﷺ) أمين وصبور ، ولكنه فقير . وعندما تعلم قبائـل العـرب أن خديجـة تزوجـت برجـل مثلـه ستلـوك قصتَـهـا الألسـن ، وسيتساءلون : أحصل جدب بالرجال في مكة حتى تزوجت خديجة به ؟ .

حينما لمس أبو طالب مدى انتفاع ابن أخيه في هذه الزيجة دعا عمرو بن أسد وبعضاً من سادة قبيلته إلى وليمة . وبعد أن رُفع الطعام قال أبو طالب :

ـ إن لم يكن محمد (ﷺ) غنياً فإنه حسـن السمعـة ، ومـن آل هاشـم . وحسبُـه ونسبه ، إن لم يكونا أرفع من قبيلة أسد فإنهما ليسا بأقل منها . ثم إنه فتىً ينضج بالشباب والجمال، والشباب والجمال غنى وثروة. وإن أنت مانعت ياعمرو ابن أسد في إتمام هذا الزواج تكون آذيت ليس محمداً وحسـب، بل خديجةأيضاً. هي تستطيع أن تتزوج رجلاً غنياً ، ولكنها لن يتيّسر لها الزواج بشاب مثله ، ذي صفات حميدة ، ومن قبيلة آل هاشم .

أثرت كلمات أبي طالب في عمرو بن أسد ، فوافق على زواجهما . ومن عادة العرب أن يدفع الزوج مهراً لزوجته . وكان مهرها خمسمئة درهـم قدمهـا محمـد

(ﷺ) ، ولا يمكن للمرء في ذلك الزمان أن يشتري بهذا المال جملين . ولا نعلم لماذا سجل بعض المؤرخين العرب أن محمداً قدَّم عشرين جملاً مهراً لخديجة ؟ لأن الخبر الصحيح هو ما ذكرنا . وقدِمت حليمة مرضع محمد (ﷺ) من الصحراء يوم زفافه ، فنالت خمسة جمال من خديجة ، ثم عادت بعد حين الى طفلها بالرضاع ، فحصلت منه على أربعين خروفاً وجملاً واحداً . وقد كان محمد (ﷺ) وفياً لحليمة طيلة حياتها ، لا يتوانى عن مساعدتها .

وكان أول عمل قام به بعد زواجه تعهّده تربية علي بن أبي طالب ، وإعتاقه غلاماً مسيحياً من أهالي سورية ، يدعى « زيد بن حارثة » ، كانت خديجة قد وهبته له . ولكن زيداً لم يتخلَّ عن محمد (ﷺ) . ولم يكن يعلم والدا زيد أن ابنهما حي ، ولكن عندما بلغهما الخبر قدما من سورية ، ليستعيدا زيداً ، لكنهما فوجئا برفضه مرافقتهما ، وقال :

ـ إن محمداً (ﷺ) أفضل عندي من أبي وأمي .

وبزواجه من خديجة ودَّع الفقر . وظل طيلة حياته يُعين الفقراء ويطلق العبيد . ولم يوصِ أي كتاب سماوي بالمحتاجين والمساكين بمثل ما أوصى به القرآن النازل على محمد (ﷺ) . يقول الله تعالى في السورة ذات الرقم تسعين ، والتي عنوانها « والضحى » : ﴿ ألم يجدْكَ يتيماً فآوى ، ووجدَكَ ضالاً فهَدَى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأما السائلَ فلا تَنْهرْ ﴾ . كان هدفُ محمد (ﷺ) حتى آخر حياته ألا يبقى أحد ضالاً ولا جائعاً .

لم يكن بعض الكتاب الغربيين على اطلاع بوضع حياة العرب قبل الإسلام ؛ فذكروا أن محمداً (ﷺ) ركن إلى حياة الدعة والرفاهية بعد زواجه هذا . لكن الحقيقة أن حياته كلها لم يعتَوِرها شيء من علائم النعمة . وقد تبعه خلفاؤه الراشدون في هذا التقشف . ولم تدخل الأبهة سدَّة الخلافة إلا في زمان بني أمية .

كان محمد (ﷺ) عربياً أصيلاً ، أي من صميم أهل البادية . لذا شابههم بالقناعة في طعامه وشرابه ، الناجمة عن العيش في الصحراء . والرفاهية الـوحيدة التي نَـعم بها هي رغبته في التطـيُّـب . والبدو الذين قلما يجدون الماء للشراب كانوا يتعطرون . ولهذا كرر القرآن الكريم ذكر المسك والكافور والطيوب الأخرى .

كان مصدرغذاء البدو الجمالَ. ولولم يكن في الصحراء جمال لماأمكن عيش القبائل فيها . والجمل يصبر في أيام الشدائد ، ولهذا يحافظ عليه صاحـبَـه . فهو يبقى عشرة أيام ، من أيام الصيف في الصحراء الحارة ، بلا ماء ، من غير أن يفقد حياته . نحن سكانَ أوروبة نصرف في كل ساعة أربعين غراماً من العرق ، في حين أن العربي في صحرائه يصرف في الساعة ، وهو ماشٍ ، ألفاً ومئتي غرام ، أي ليتراً واحداً . لهذا فإننا نحن الأوروبيين سرعان ما نفقد حياتنـا إن عشنـا في صحـراء الجزيرة صيفاً ، لأن الماء المتخزن في جسمنا سرعان ما يتبـخَّـر . وإن نضح خمسة بالمئة من ماء أبداننا على شكل عرق اسودَّت عيوننا ، وإن نضح عشرة بالمئة اعترانا الهذيان وأصابتنا الحُـمى والقُـشعريرة ، وإن نضح اثنا عشر أغمي علينا . فإن لم يمكن تعويض الماء المنضوح مات الإنسان .

أما الجمل فإنه ينضح خمسة وعشرين بالمئة في أيام الصيف ، من غير أن تهِنَ قوته ، أو أن يعتريَـه خلل في حركاته . ويتحمل الجمل عشرة أيام بلياليها . بلا ماء ، حتى يبلغ به صاحـبُـه الماءَ . ويكتفـي الجمـل بأن يتـركه صاحبـه مرةً كل يومين ، حيث يرعى طليقاً من أعشاب الصحراء . وبعد أن يطوي الجمل الأيام العشرة لا ينام ، لكنه يبرك . ولا ينهض من مكانه ما لم يحشُّـوه على ذلك ، ولا سيما إذا كان جائعاً . ولقد خَـبر البدوي طبيعة الجمل وعاداته ، وأنِسَ به لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يفهم هل صبر الجمل وتحمله أكثر أم الأعرابي ساكن الصحراء ؟ هذا الذي يعايش الجمل في أسفاره .

أمضى محمد (ﷺ) مرحلة طفولته كلها وقسماً كبيراً من مرحلة الشبـاب في

الصحراء ، مثلُه مثل سائر الأعراب ، يشرب من لبن الناقة أو النعجة ، ولا يأكل الخبز ولا التمر ، ما لم يعد إلى مكة . وعلينا أن نشير إلى أن التمر ـ على خلاف تصورنا ـ قليل في صحراء الجزيرة ، لأن النخل غير متوفر في كل مكان ، بل إن مناطق واسعة تخلو من شجر النخيل . وحتى تثمر شجرة النخل تحتاج إلى الشمس والماء . لهذا السبب فإن ابتعدتَ عن شواطىء البحر قاصداً الأقسام الداخلية من الصحراء لم تجد أشجار النخيل ، لأن الأمطار لا تهطل في قلب الصحراء .

واليوم ، يمكنك أن تشاهد بعض أشجار النخيل في الداخل ، وذلك في الأماكن التي تمرُّ بها أنابيب البترول السعودي ، المتجهة من طرف الخليج العربي إلى شواطىء البحر المتوسط . لأن هذه الأنابيب ترافقها أنابيب المياه . والامريكيون الذين مدوا هذه الأنابيب مدوا معها أنابيب المياه ، لكي يسهل عيش الذين يرافقون أنابيب البترول . ولكن إن بعدتَ عن حدود أنابيب البترول متجهاً إلى الداخل فلن تجد أشجاراً للنخيل ، إلا في مناطق تجمعت فيها المياه .

لذا فإن عرب البادية على طول شواطىء شبه الجزيرة ، أو في المناطق المرتفعة التي تهطل فيها الامطار يَطعمون ثمر النخيل ، وفي غير ذلك من الأماكن يكتفون بشرب لبن النوق ، وكذلك فعل محمد (ﷺ) في أغلب أوقاته . وكان حين يعود إلى مكة يأكل التمر أو الخبز . ولم يجتمع لديه خبز وتمر للطعام معاً . إذ كان يتناول نوعاً واحداً ، ويكتفي به . فإن تناول الثاني معه عَدَّه إسرافاً . وكان طيلة حياته يتناول وجبة واحدة ، وحين يأكل يجلس على الأرض ، وسماطه عبارة عن حصير منسوج من ألياف النخيل .

ذكرنا أن عائشة قالت : لم يكن في بيتنا غربال طيلة حياة محمد (ﷺ) لكي ننخل به الطحين . ولم يكن يُرى في منزله غير الخبز والتمر، بالإضافة إلى طعام آخر هو مطبوخ القمح والعَدس . إذ كان مَن في منزل محمد (ﷺ) يغلي القمح والعدس ، ويصنعه بشكل غذاء ، ولا يجتمع الطعامان في يوم واحد . وكان اللحم

في غذاء محمد أمراً استثنائياً ، ويروى أنه يأكله مرة واحدة في السنة .

فمن عادة العرب ، أن يذبحوا القرابين أيام الحج ، ويأكلوا لحومها . ويظلوا بلا لحوم حتى موسم الحج القادم[1] ، وكان محمد (ﷺ) يحيا حياتهم ، ويصرف النظر عن اللحم لغلائه .

لم يكن في منزله منضدة ولا كرسي . وكان يجلس على حصير منسوج من ألياف النخل ، يأكل عليه وينام . وكذلك كان خلفاؤه الراشدون يحيون . فقد كانوا يكتفون بوجبة واحدة من الطعام . وقد استطاع الإسلام بمدة عشر سنوات في هذه المرحلة أن يُطيح بثلاثة ملوك عظام : في إيران وسورية ومصر ، وأن يستولي على أراضي تلك الدول .

كان محمد (ﷺ) على معرفة بقبائل الجزيرة كلها ، وكان يعرف أين مضارب خيام كل قبيلة ، وما هي أخبارها ؟

---

(١) غالى المؤلف في هذا الأمر ، وسها عن كرم العرب وذبحهم للجمال والنوق ، وصيدهم لحمر الوحش وبقر الوحش .

مرحلة بناء الأسرة

أنجبت خديجة لمحمد ثلاثة صبيان ، فكُني بالأكبر ، ودعي « أبا القاسم » . ولكن قاسماً توفي في سنواته الأولى . وتبعه أخواه فيما بعد . كما رزقه الله أربع بنات هن : رقية ، زينب ، أم كلثوم ، فاطمة . ولم تُنجب من هؤلاء البنات ، إلا فاطمة فقد خلفت .

ومن أهم ما تجدر الإشارة إليه أن محمداً (ﷺ) غدا احد أعضاء اسرة خديجة ، وتعرَّف إلى رجال قبيلتها . وقد كان منهم شخصيات بارزة ، ويُعدّون جميعاً من الحنيفيين . . وقد شرحنا « الحنيفية » قبلاً ، ومع أن المعتقدين بالحنيفية لم يعزفوا عن زيارة الأوثان ، فإنهم لم يؤمنوا بها تمام الايمان . وكانوا دائماً يبحثون عن حقيقة الخالق ، ويسعون للوصول إلى حقيقة يتعبَّدون لها . وأحد هؤلاء « ورقة بن نوفل »[1] ابن عم خديجة ، الذي غدا صديقه المقرب . والرجل الثاني يدعى « عبيد الله بن جحش » ، والثالث « عثمان بن حوارية » ، والرابع « زيد بن عمرو »[2] .

---

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قريش ، حكيم جاهلي ، اعتزل الأوثان قبل الاسلام ، وقرأ كتب الأديان ، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة . وهو الذي زارته خديجة بعد أن عاد رسول الله من غار حراء ، وفي البخاري تمام الحوار بينه وبين رسول الله (ﷺ) . توفي سنة ١٢ ق . هـ على الأشهر .

(٢) زيد بن عمرو ، هو ابن عم عمر بن الخطاب ، أحد الحكماء . لم يدرك الاسلام ، وكان يكره الأوثان ولا يأكل مما يذبح عليها . لم تستمله اليهودية ولا النصرانية ، فظل يعبد الله على دين ابراهيم . وجاهر بعداء الأوثان ، فأخرجوه من مكة ، فانصرف إلى حراء . رآه النبي (ﷺ) قبل النبوة ، وسئل عنه بعدها فقال : يبعث يوم القيامة أمة وحده . توفي قبل مبعث النبي (ﷺ) بخمس سنين سنة ١٧ ق . هـ .

وكلما صادفه هؤلاء الرجال وغيرهم حادثوه ، بمسائل دينية ، ورغّبوه وشجعوه على الدخول في الدين الحنيف . وكانت هذه المحاورات مهمة جداً ، فيما لو سجّلها أحد المؤرخين ، ولكننا ـ مع الأسف ـ لا نملك منها إلا ما جاء عَرَضاً وبإيجاز من قبل المؤرخين العرب أمثال : ابن سعد والعيني . ونحن إن جمعنا هذه الشذرات على مدى عشر سنوات من سن محمد (ﷺ) . . من الخامسة والعشرين إلى الخامسة والثلاثين لقينا تحوُّلاً ملموساً في فكر محمد (ﷺ) ، مما ساعده على توضيح فكره لاستقبال الرسالة السماوية . لأن المرحلة التي امتدت من عمر محمد (ﷺ) منذ الخامسة عشرة حتى زواجه بخديجة ، ثم يوم بعثته ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلينا .

وكما ذكر المؤرخان الآنفا الذكر ، ان الرجال الذين على دين ابراهيم الخليل كلما صادفوه طالبوه بالبحث عن الحقيقة ، وكان في كل مرة يجيبهم « لا إله إلا الله » . وصرَّح محمد (ﷺ) لأحد الحنيفيين أن الحقيقة ستنجلي له قريباً ، وسيوضحها لكل راغب في معرفتها . وقد سهَّلت السيدة خديجة لزوجها كل سبل الراحة الفكرية ، حتى قال ابن سعد على لسان آدم : « قال آدم لحواء : من المزايا التي وهبها الله تعالى لرسول الله (ﷺ) زواجه بخديجة ، فكانت تساعده على إتمام مشيئة الله . في حين إنك كنت السبب في مخالفتي أوامر الله في الجنة » .

●

طرأ حادثان مهمّان عام ٦٠٥ م عندما كان محمد (ﷺ) في سن الخامسة والثلاثين . الحادث الأول هو احتراق الكعبة ، والحادث الثاني السيل الذي زعزع بنيانها . فقد كان المطر يهطل في مكة لماماً ، وقد يفاجئها سيل عارم . وكان السيل في ذلك العام عنيفاً جداً حتى إنه هدم الكعبة . فقررت قبائل قريش العشر جمع المعونات لترميمها . وفيما كانوا منشغلين في جمع الإعانات حطت سفينة قادمة من « رومية الصغرى » (تركية الحالية) في ميناء « شعيبش » والذي يدعى اليوم

« جُـدّة » والذي كان بوابة مكة البحرية . وكانت السفينة متجهة نحو اليمـن ، ولكنها غرقت في الميناء ، من غير أن تغوص فيه ، لأنها توقفت على الأتربة المترسبة في قاع الميناء ، ولم يعد بالإمكان إنقاذها ، لأن الطين أحاط بها من كل جانب .

كانت السفينة قاصدة اليمن لبناء كنيسة هناك . وبطبيعة الحال فإن حمولتها من الرخام ، والفسيفساء ، والخشب ، وبعض المعادن ، وغير ذلك مما ينفـع في مهمة البناء . وكان من جملة ركاب السفينة مهندس معمار يدعى « بكوم » ، قدم للإشراف على بناء الكنيسة . فقال له العرب (وكان مسيحياً) :

ـ لا يمكن تحريك السفينة ، ولا شك أنها ستغوص بما تحمل . ولهذا نريد منك أن تساعدنا على ترميم الكعبة بهذه المواد ، على أن تتعهد بنفسك المهمـة ، باعتبارك مهندساً .

وافق بكوم الرومي على اقتراح العرب ، فأمرهم أن يُـخرجوا مواد البناء من السفينة ، وأن ينقلوها إلى مكة . واستعد بكوم للعمل المذكور . وعندمـا لاحـظ رجال قريش أن بكوم يريد هدم الكعبة ، عارضوه وقالوا له :

ـ لا يجوز هدم الكعبة . وأنت إن هدمتها حلت بنا كارثة أهلكتنا .

فقال لهم المهندس الرومي :

ـ ولكن هذا البناء احترق مرة ، وهاجمه السيل اخرى ، فتزعزعت حجارته وكاد ينقـضُّ . وترميم حجارته وحدها لا يكفـي . فلا بـدَّ من إنـزال حجارتهـا لإعادة بنائها . ولما كان قصدنا تجديد البناء المتهدم ، فلا حرج من ذلك ، ولن يحـلَّ بنا البلاء .

ولكن رجال قريش لـم يوافقوا ، وأمعنوا في رفضهم . يروى أن قرب الكعبة بئراً يخرج منها ثعبان بين الفينة والفينة ، يستدفىء بأشعة الشمس ، ثم يعـود إلى البئر . وكان سكان مكة يرهبون هذا الثعبان كثيراً ، ولكنهم لا يجرؤون على قتله .

وفيما كان العمار منشغلاً في عمله خرج الثعبان من البئر وجثا تحت أشعة الشمس . في تلك اللحظة كان عقاب ضخم يحلق في سماء مكة ، ولما لمح الثعبانَ انقضَّ عليه وحمله بمخالبه القويتين وطار به . ولم يعد سكان مكة يرون هذا الثعبان . وقال العارفون بعد تلك الحادثة إن فناء الثعبان من قبل العقاب ، ودفع شره بهذه الطريقة دليل ثابت على أن رب البيت سمح بهدم البناء وإعادة تجديده .

ولقد قلت في كتابي هذا ، إن كل ما أراه غير منطبق مع الوقائع التاريخية أذكر أنه رواية . ولهذا أحب أن أشير إلى أن موضوع وجود الثعبان ، وخروجه من البئر ، وانقضاض الثعبان عليه رواية وليس تاريخاً . ربما فكر رجال قريش في أن الكعبة لا يمكن إعادة بنائها ما لم تُهدَّم . وهكذا وافقوا على الأمر ، وشرع المعمار الرومي في عمله . وبعد أن تم البناء لزم رفع الحجر الأسود السماوي ، الذي يروى أنه هبط من السماء ، لوضعه في مكانه الأصلي . فقد أنزلوه حينما فكّوا حجارة الكعبة ، ليعيدوه فيما بعد إلى مكانه بعد أن يتم البناء . ولكن قبائل قريش العشرة اختلفت فيمن يَتشرَّف ويُعهد إليه نصب الحجر الأسود .

فما كان من مشايخ كل قبيلة من القبائل العشر ، إلا أن ملؤوا وعاءً دماً ، ووضعوه قرب الكعبة ، وغمسوا أصابعهم فيه ، وأقسموا : « لن ندع قبيلة أخرى تحظى بافتخار نصب الحجر الأسود غيرنا » . وكادت الحرب تقع بين هذه القبائل . وفي تلك الأثناء دنا محمد (ﷺ) من الكعبة . فعندما رآه رجال قريش قالوا :

ـ نحتكم إلى محمد الأمين ، ليعرض علينا رأيه ، ويقترح اسم القبيلة التي تتبنى رفع الحجر .

فطلب إليهم محمد (ﷺ) أن يحضروا رداءً كبيراً ، فأحضروا قماش خيمة . ثم طلب منهم أن يضعوا الحجر على القماش ، ويُمسك سادة قريش كلهم بالقماش ، ويحملوه . وشاركهم محمد (ﷺ) نفسه في الحمل ، حتى وضعه في مكانه .

أرضى هذا الرأي الحكيم جميع الرجال ، واستحسنوا رأيه ، وازدادوا إعجاباً به . ولم نر بعد هذه الحادثة أمراً جللاً آخر في حياة محمد (ﷺ) حتى كان عام ٦١٠ م ، حين بلغ محمد (ﷺ) سن الأربعين ، وشرع يدعو الناس إلى دين الإسلام . ولا نعلم ماذا كان يفعل بين ٦٠٥ و٦١٠ ، وكيف كان يُمضي هذه السنوات الخمس .

وعادت الكعبة كما كانت ، وأعيدت الأوثان والصور التي تخصُ كل عقائد عرب الجزيرة إلى مكانها . وكان يجري في كل عام سوق عكاظ العام ، وينشد فيه الشعراء شعرهم . وليس بين أيدينا شيء عن محمد (ﷺ) في هذه السنوات ، سوى أنه كان ينزوي في غار حراء ، ويعتزل الناس ، وينشغل في تفكيره .

في غـــار حـــراء

لم يكن الذهاب الى الغار في مكة والانعزال فيه بالأمر غير الطبيعي ، فمثل هذا كان يحدث في بلاد الهنـد ، فبعـد أن يُـرزق الهنـدي عدة أولاد ينفصـل عن أسرته ، ليحيا في الغابة وحيداً ، يُـمضي فيها مدة من الزمـان ، يفـكر في أسرار الخليقة . وفي مكة بعد أن يرزق بعضهـم عدة أولاد ، يختـار شهـراً من شهـور السنة ، ينفصل فيه عن أسرته ، ويقيم في أحد الكهوف .

كانت مدة الشهر في حياة الأعرابي تمتد من طلوع الهلال إلى طلوع الهلال مرة ثانية . ولما كانت هذه المدة مقياساً زمنياً معيناً فقد كان الأعراب (من يريد) يختفون في بعض الزوايا مدة الهلال . وكان عبد المطلب جـدُّ محمد (ﷺ) ينعزل في غار حراء المعـروف كل سنـة شهـراً . وكذلك الأمـر لدى عدد من الرجـال بعـد أن يشيخوا .

كانت عدة محمد (ﷺ) أن يذهب إلى غار حراء طيلة شهر رمضان من كل عام . وسبب اختياره لهذا الشهر أنهم يعتقدون أن في هذا الشهر ليلة تدعى « ليلة القدر » ، حيث يتمـنّـى المرء في هذا الشهر ما يريد فيحـقّـق له ، لأن المعجزات يمكن تحقيقها في مثل تلك الليلة . يذكر « أسد بيك »[1] المحقق العربي المعاصر في اثناء حديثه عن محمد (ﷺ) : « يعتقد العرب أن الطبيعة ترتاح تلك الليلة ، أو أنها تغفو ، وتلبث الأنهار عن جريانها ، وتتوقف الرياح عن هبوبها . . وهكذا تهدأ

(١) لعله يقصد « ناصر الدين الأسد » .

الدنيا ، فيسمع الإنسانُ حركة نموّ الأعشاب ، وتفتّح البراعم . والذين يدركون سعادة ليلة القدر ، ويكونون يقظين يلبّى لهم ما يدْعون ويرجون » .

ولقد طفت في جزيرة العرب ، وزرت غار حراء ، وهأنذا شارح بعض ما رأيت . فمكة تحيط بها بعض التلال ، ويطلق سكان مكة اسم الجبال على هذه التلال . ومن هذه التلال « جبل النور » ، ويقع في أعلاه غار حراء . والذي يبعد عن منزل محمد (ﷺ) مسافة ألف وخمسمئة متر تقريباً . وقد نشأ الغار بسبب سقوط بعض الأحجار ، وتجمعها فوق بعضها بعضاً ، وانفتاح أحد أطرافها . ويمكن للمرء أن يقف داخله من غير أن يصطدم رأسه بسقفه . كما يبلغ عمقه مسافة تسمح للمرء بأن يستلقيَ فيه وينام .

ولما كان باب الغار مفتوحاً نحو طرف مكة أمكن مراقبة الكعبة منه . وأرض الغار ممهَّدة ، بشكل يمكن للمرء أن يفترشها وينام . ولقد تغير وضع الغار في هذه الأيام ، وغدا مدخله مخالفاً لما كان ، لأن المرء يلقى الآن بعض الصعوبة ليبلغ الغار . ويعتقد العرب اليوم أن هذه الموانع لم تكن موجودة قبلاً .

لا يستطيع أي انسان أن يقدِّر الموضوعات التي كانت تحوم في أفق تفكير محمد (ﷺ) وهو في ذلك الغار . ولكن بحسب رواية خديجة ، التي دوَّنها ابن هشام أنه لم يكن يفكر في أمور دُنيوية .

وفي إحدى الليالي ، وبينما كان محمد (ﷺ) في غار حراء ملتفاً بعباءته ، متمدِّداً فيه ، يغافله النوم أيقظه هاجس ، وعرض عليه نمطاً من ديباج ، كما ذكر ابن هشام في كتابه . ويتابع ابن هشام فيقول بأن ذلك النمط قُماش حريري ، كُتب عليه بعض الكلمات المكتوبة بماء الذهب . وقد كان يسطع من ذلك الرجل الذي أيقظه نور مشرق . وبعد أن أيقظه ذلك الشخص أراه ذلك النمط الحريري وقال : « أقرأ » . فأجاب محمد : « ما أنا بقارىء » . فوضع ذلك الشخص يده

على كتف محمد ، وأعاد عليه قوله : « اقرأ » . وكان جواب محمد (ﷺ) : « ما أنا بقارىء » .

ويقول ابن هشام إن ذلك الشخص وضع يديه الاثنتين على كتفي محمد (ﷺ) ، وضغطبهما وقال : « اقرأ » فتألم محمد (ﷺ) من هذا الضغط الذي لقيه من ذاك الشخص وكادت قوته تنهار . فسأله : وماذا أقرأ ؟ قال الذي أيقظه من نومه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

لا حاجة بنا لأن نذكر الحالة التي يؤول إليها انسان آخر غير محمد (ﷺ) وهو في ذلك الغار . إن أثر هذا الخطاب عظيم جداً ، وكذلك يحصل لكل انسان عربي في أي عصر يقرأ هذه الجملة بالعربية . أما قراءتها بلغة أخرى (مترجمة) فغير مؤثرة ، وكذلك الأمر في سائر آيات القرآن .

لهذا تجدر الإشارة إلى أن ترجمات القرآن باللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيتالية وغيرها من اللغات لا تؤدي المعاني حقها من البلاغة الدقيقة . ويعجبون من العرب إذ كيف يعتقدون بمحمد (ﷺ) نبياً لهذا الكلام ؟ ولا سيا أن القرآن ، كغيره من الكتب السماوية ، ذو أسلوب خاص بارز . ويلقى قارئه عدداً من الجمل المكررة ، وتكرارُ الجمل بنظر الفرنسي أو الإنكليزي يقلِّل من أهمية الإيقاع الأسلوبي .

أما من يجيد اللغة العربية ، فإنه عندما يقرأ الآية الأولى من سورة العلق[1] بعد قوله ﴿ بسم اللهالرحمن الرحيم ﴾ يقدِّر المغزى البلاغي المؤثر في نفسه .

●

حفظ محمد (ﷺ) من ذلك الشخص كلامه الذي قرأ عليه ، ثم كرره . وقد اتفق العلماء المسلمون على ان المقصود من : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ أن

---

(١) اقرأ باسمِ ربِّك الذي خلقَ ، خلقَ الانسانَ من عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم . . » .

يذكر اسم الله كلما أراد تلاوة شيء من القرآن الكريم ، ولهذا السبب بدأت كل سورة بالبسملة . كما يتفقون على أن أول سورة نزلت على محمد (ﷺ) في غار حراء هي سورة العلق المؤلفة من ثماني عشرة آية . وهي من حيث المعاني التي اشتملت عليها من السور البارزة في القرآن . ففي الآية الثالثة من هذه السورة (على اعتبار ان الآية الأولى هي البسملة) قال تعالى : ﴿ **خلقَ الانسانَ من عَلَق** ﴾ أي إن الله خلق الإنسان من قطعة دموية (مُضغة) تخلَّقت في رحم المرأة . وفي الآية الخامسة قال : ﴿ **الذي علَّم بالقلم** ﴾ أي إن الله علَّم الإنسان كيفية الكتابة بالقلم . وفي الآية السادسة ﴿ **علَّم الإنسانَ ما لم يَعْلم** ﴾ **أي إن الله علم الإنسان ما كان يجهل** .

وبعد أن سمع محمد (ﷺ) ثماني عشرة آية من السورة المذكورة (عدا البسملة) من ذلك الشخص حفظها غيباً . وقد كان استماعه لها مرة واحدة كافياً لكي ترسخ في ذاكرته . وقد كان محمد (ﷺ) أمياً ، ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكنه اعتاد أن يسمع شعر العرب ويحفظه . ومع أنه أمي فإن الآيات الأولى التي نزلت عليه شملت الحديث عن القلم والعلم ، أي التعلم والتعليم ، ومعرفة الكتابة ووجوب تعليمها .

ولا يجد المرء في أيٍّ من الكتب السماوية اهتماماً بالمعرفة كما يجده في القرآن ، ولا يمكن أن يعادل مفهوم المعرفة والعلم في الدين الإسلامي ما في أي دين آخر . ولو كان محمد (ﷺ) عالماً لما كان نزول هذه الآيات عليه في غار حراء مبعث الحيرة ، لأن العالم يقدّر أهمية العلم ، في حين أن محمداً (ﷺ) أمي ، لم يدرس على أحد . وهو لا يختلف عن الأعراب من حيث الفصاحةُ وبلاغة الكلام ، لأن إدراك قيمة الفصاحة جزء من فطرة الأعراب .

وإنني أهنىء المسلمين بنزول الآيات الأولى التي تحضُّ على كسب المعرفة . ولهذا اعتمد العلماء المسلمون القدماء على هذه السورة ، ليعتبروا العلمَ من

واجبات الدين . ويرون أن على كل مسلم يصلي ويصوم أن يشتغل بالعلم .

●

واختفى ذلك الشخص الذي أيقظ محمداً (ﷺ) وعلّمه ثماني عشرة آية . ويقول محمد (ﷺ) روايةً عن خديجة في كتاب الطبري : وبعد ان غاب ذلك الشخص ، توقفتُ ، ولكن ركبتيَّ ناءَتا بحملي ، حتى إنني لم أصبر على الثبات واقفاً ، فتريثت في مكاني ، إلى أن عادت إليّ بعض روحي . فاستطعت النهوض ، فخرجت من الغار أعدو ، وكان كتفاي يرتجفان[1] ، « حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل » قال : فرفعت رأسي الى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صافّ قدميه في أفق السماء ، يقول (ثانية) : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عمّا أردت ، فما أتقدّم وما أتأخر ، وجعلت صرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلتُ واقفاً ما أتقدّم أمامي ، ولا ارجع ورائي » ، وحين أحسستُ بالإرهاق حملتُ نفسي على العودة إلى المنزل . وتحكي خديجة أن محمداً (ﷺ) : عندما وصل إلى المنزل كان لونه متبدلاً ، وتبدو عليه علائم الاضطراب .

نحن يجب ألا نعجب من جزع محمد (ﷺ) وإرهاقه الشديد في تلك الليلة من ليالي شهر رمضان ، لأن مجرد سماع الله من قبل إي إنسان أمر جلل وقاس على المرء ، ولا شك أن هذا يرهقه ويُجزعه . والأشياء التي تعتبر فوق طاقة البشر تتعب ، فكيف بسماع صوت الله الذي يهدر في مسامعه كعدو جواد يطوي الأرض . وطبيعة البشر ذات إمكانيات معقولة ، وعظام الإنسان وعضلاته لا تقوى على تحمل الضغط الناجم عن حدود اللامعقول .

---

(١) من هنا نقلاً عن الطبري مباشرة ، كما ترجمه المؤلف .

نستطيع اليوم بعون العلم أن نخترع أشياء تنقلنا بسرعة أقصى من سرعة الطيران ، ولكن عضلاتنا اليوم لا تقوى على تحمل العدْو أكثر من الجواد أو أسرع من الطائر . وسماع صوت الله ، يعني سماع صوتِ شيءٍ غير محدود في مكان أو زمان أو بدء أو نهاية ، ولا متناسب مع قوة الجاذبية . هذه القوة الجاذبة خرجت عن نطاق إمكانية الإنسان .

عندما نسمع صوت زلزلة أو هدير رعد أو صوت سقوط الصاعقة تأخذنا الرعشة ، في حين أن كل هذه الأصوات من الطبيعة نفسها ، ونعلم حتماً مصادرها وأسباب صدورها . لهذا فلا ينبغي بنا أن نعجب من ارتجاف محمد (ﷺ) إثر سماعه صوت جبريل ، ولا من جزعه بعد غياب صورة جبريل من أمامه .

وعندما رأته خديجة على هذه الحالة ، أمسكت بذراعه ، وسألته عن الذي جرى له حتى جاءها بهذا الإرهاق والتعب . فحكى لها محمد (ﷺ) كل ما جرى معه ، وقال لها : إنني خائف . فسألته : ولـمَ أنت خائف ؟

وتبدأ هنا روايتان : بعض المؤرخين سجلوا أن محمداً (ﷺ) قال لخديجة : إنني خائف من الله ، وقد أثر ذلك الصوت الذي بلغ مسامعي في نفسي كثيراً ، حتى إنني لم أعرف الاستقرار والطمأنينة ، وبعض آخر - ومنهم ابن هشام والسُّهيلي - يذكرون أن محمداً (ﷺ) ظل مدة وحيداً في الغار ، يفكر في أمر الصوت ، أهو صوته أم صوت الله ؟ ولكن هذه الفئة صرّحت بأن محمداً (ﷺ) طلب من خديجة أن تدثِّره ، فغطته بدثار حتى يستريح ويهدأ روعه .

نحن يجب ألا نعجب من تساؤل محمد (ﷺ) بعد أن اعتراه الجزع من مصدر الصوت ، لأن أكثر الناس إذا سمعوا صوت الله يصابون بالرعشة ، ويقعون في تساؤلات طويلة لمعرفة سر مصدر هذا الصوت ، ويشكون في أنه منبعث من الله تعالى .

تقول القديسة تريزا ، والتي تعتبر من أولياء ديانة السيد المسيح : « عندما يترامى إلى مسامع المرء صوت الله يتيقَّن أنه صوته فعلاً ، لأن له إيقاعاً وبياناً متمايزين . ولكن بعد أن يمضي حين على ذلك الصوت يعتريه الشك ، ويتساءل : هل حقاً كان صوتَ الله أم أنه تهيأ له ذلك ، أو أنه صوت الشيطان ؟ . وكم يتمنى أن يسمعه ثانية ليطمئن قلبه ، ويزيح عنه كابوس الشك » .

ولم يستطع محمد (ﷺ) المدثِّر أن يهدأ وينام . ويذكر بعض المؤرخين العرب أن جبريل زاره ثانية في الليلة نفسها ، أو في اليوم الثاني ، حيث أعاد عليه الرسالة الأولى . وينفرد آخرون في أن جبريل عاوده بعد ثلاثة أيام ، وأسمعه السورة ذات الرقم (٧٤) ، والآية الثانية (والتي ترد بعد البسملة) هي : ﴿ يا أيُّها المدَّثِّر قُمْ فأنذِرْ ﴾ .

كانت كل آية تنزل على محمد (ﷺ) من قبل جبريل تنقش في ذاكرته . وغدا مسلَّماً بالنسبة إليه أن هذا الصوت الذي يسمعه هو صوت الله ، ولا يمكن لغير الله أن يتكلم مثل هذا الكلام وينطق بهذا البيان .

وبعد أن أدَّى جبريل رسالته ، وهدأ روع محمد (ﷺ) انطلقت به خديجة الى ابن عمها « ورقةَ بنِ نَوفل » ، الذي ذكرنا أنه حنيفي ، باحث عن الحقيقة . وعندما دخلت خديجة ومعها محمد (ﷺ) إلى منزل ورقة كانت أخته منشغلة بقراءة الإنجيل . وقصَّ محمد (ﷺ) على ورقة ما جرى معه في غار حراء ، ثم كيف نزلت عليه ﴿ يا أيُّها المدَّثِّر ﴾ . فقال له :

ـ لا شك أن هذا الكلام كلام الله ، « لقد جاءك الناموس الذي كان يأتي موسى »[١] .

---

(١) ذكر الطبري هذه الرواية : ٢/٣٠٢ .

ويذكر بعض المؤرخين الإسلاميين أن ورقة قال : « لا شك أنه الناموس الذي أخبر به عيسى » . والناموسُ لغةً عبارة عن مجموعة القوانين الإلهية التي توضَع لنوع البشر ، ولفظوها « نوموس » كذلك . ثم قال ورقة :

ـ كل من كان مكانك ، وجرى له ما جرى لك سيقع في خصومة مع قومه ، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه . وسيطردك قومُك .

والطرد يعني نفي المرء من مضارب القبيلة ، وهذا أقصى ما يعاقب به المرء في الجزيرة . وعندما يُطرد المرء يُهدر دمُه . وإن قتله أحداً لا يطالَب القاتل بدمه . كما بإمكان أيِّ امرىءٍ استعباده . ولا يختلف المطرود عن أي قطعة من حجر الصحراء . بحيث يستطيع العربي أن يقلعها وأن يقذف بها بكل حرية . وقد أنشد أحد شعراء العصر الجاهلي شعراً مضمونه :

« أخشى أن يرمي بي قَدري إلى أناس لا يُولونه حقَّه » .

« أخشى أن يعتبرني الناس حجراً يقذفون بي » .

من يُطرد من قبيلته ينطبق عليه قول هذا الشاعر ، ولا يختلف عندئذ عن العدم . وهذا ما تخوَّف منه ورقة . ولكن محمداً الذي سمع صوت الله لن يخاف إن طرد. وتابع محمد ذهابه إلى جبل النور، وانزواءه في غار حراء كل ليلة. ولكن ذلك الرجل الذي أيقظه من نومه في الليلة الأولى لم يأتِهِ . وكرر ذهابه إلى الغار ، من غير أن ينعم بذلك الصوت . وكان محمد (ﷺ) بعد أن يحل الظلام ، يترك خديجة في منزلها ، ويتجه نحو غار حراء ، منتظراً ظهور جبريل ، ولكن من غير طائل . وكثيراً ما يظل في الغار حتى الصباح . ثم غدا يُمضي ليله ونهاره في رأس جبل النور . . ولكن جبريل لم يظهر له .

وفي إحدى الليالي وبينما كان محمد (ﷺ) مستلقياً على أرض الغار ، حزيناً ، سمع صوت جبريل الحبيب إلى قلبه ، يقول له :

ـ يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فنهض محمد (ﷺ) جالساً ، منتظراً عودة جبريل إليه بعد هذه الجملة ، ولكنه لم يعد ، ولم يقل له شيئاً . وعاد في صبيحة اليوم التالي ، فلاحظت خديجة أن زوجها مسرور وقال لها :

ـ لقد سمعتُ ليلة امس صوت جبريل ، ولهذا فأنا سعيد اليوم ، وهذا يثبت أن الله لم ينسَني .

ومنذ ذلك الوقت ـ ولمدة ثلاث سنوات ـ كان محمد (ﷺ) يذهب إلى غار حراء كل ليلة وحتى الصباح يفكر بالله ، وأحياناً يسمع صوت جبريل ، يقول له : « يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل » . ولم يكن يسمع غير هذه الجملة . فكان يمضي الليل كله يفكر في الله ، وبمغزى هذا الكلام المنزل عليه .

ويسمي المسلمون هذه السنوات الثلاث مرحلة الفتور ، يعني مرحلة توقف نزول القرآن عليه . ويعتقد المسلمون أن هذه المرحلة التي اعترت محمداً (ﷺ) إنما هي لإنجاز الأعمال الكبيرة التي ستعترضه ليفكر بها ، وينمّي بها معنوياته ونفسيته .

بدء الرسالة

وفي إحدى الليالي ، بعد مرور ثلاث سنوات ، ظهر جبريل لمحمد (ﷺ) ، وأبلغه سورة « والضُّحى » من عند الله ، وهي السورة الثالثة والتسعون . ونحن إن لم نحسب البسملة رأيت عدد آياتها يبلغ إحدى عشرة آية ، وهي السورة الثانية بعد نزول السورة الأولى قبل ثلاث سنوات .

ولقد اختلفت آراء المحققين الإسلاميين في مدة « مرحلة الفتور » . فيرى بعضهم أنها دامت عدة أيام ، ولا تتعدى العشرة . ويعتقد آخرون أنها طالت مدة عشرة أشهر ، بينما ترجِّح فئة ثالثة ، أمثال الطبري ، والبيهقي ، والبخاري ، أن الفتور استمر ثلاث سنوات . وكان محمد (ﷺ) فيها نبياً ، والمسلمون « مسلمي مرحلة النبوة » .

ولكن بعد أن نزلت سورة « والضحى » بدأت مرحلة الدعوة فعلاً . كان محمد (ﷺ) في مرحلة النبوة نبياً ، وغدا بعد نزول « والضحى » رسولاً لله . فالنبي هو الذي يبشِّر الناس أو يُطلعهم على أمر الله ، والرسول هو الذي يبلِّغ قوانين الله المدوَّنة . ولم يفرِّق علماء الغرب بين « النبوة » و« الرسالة » ، ونراهم يستخدمون الكلمتين في معنىً واحد . أما العرب فقدَّروا الفرق بين الكلمتين ، واعتبروا مرحلة النبوة سابقةً لمرحلة الرسالة . ويقولون إن النبي يبشّر الناس ، والرسول يبلغهم أوامر الله وقوانينه .

امتازت سورة « والضحى » بطابع الإنعاش والإراحة ، بسبب مجيئها خاتمة لمرحلة الفتور ، إذ عبَّرت عن محبة الله لرسوله . فقد قدّر الله تعالى أن مرحلة

الفتور جعلت رسوله حزيناً مضموماً . وكم كان يتردد في نفس محمد (ﷺ) أن الله نسيه وقلاه وجاءت هذه السورة داحضة هذا التردد ، موضحة محبة الله له ، مُـزيحة الغمة عن نفس رسول الله (ﷺ) ، وقد بدأت الآية الأولى (إذا استثنينا البسملة) بقسم الله لنبيه : ﴿ والضحى ، والليلِ إذا سَجى ﴾ .

لا نجد نظيراً لهذا النوع من القسم إلا في آداب الديانة المصرية القديمة وفي آداب ديانة « وِدا »[1] الهندية ، التي عِرفت قبل أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة من ميلاد المسيح . ولكننا لا نلمس في ألفاظ قسمها ما نلمسه في قسم القرآن من لطف عبارة ، وفصاحة ، ووضوح .

ولقد أقسم الله لرسوله (في مطلع السورة) بقسمين : الأول هو القسم بشروق الشمس ، والآخر بحلول الليل . وكم في هذين القسمين من جاذبية ولطف ! فعندما يقرأ الإنسان آية كهذه ، يتجلى له فيها شروق الشمس في صبيحة يوم ربيعي ، تفتحت أنواره المنتشرة في أرض معشبة . ولقد أقدم أحد كتاب الغرب ، ممن لا يجيدون اللغة العربية ، على ترجمة « والضحى » بالشروق ، ولكنها في الواقع ذات مَعنى مجازي أبعد من الواقعي . إن معناها في العربية هو : القَسم بوقت شروق الشمس ، حين تشرع أشعتها بالانتشار ، وتضفي على الكون بهاءً .

و﴿ والليل إذا سجى ﴾هو القَسم الثاني ، وهو ، كالقسم الأول ، ذو معنى مجازي أوسع من المعنى الظاهري . وما يقدّره العربي ويفهمه لا يمكن للغربي ان يتذوقه . فعندما يرغب الأوروبي في ترجمة هذا القسم إلى إحدى اللغات يقول : « أقسم بوقت الليل ، حيث يعم الظلام الأرجاء » . ولكن المعنى في الحقيقة أنه : « أقسم بلحظة انتشار الظلام ، حيث تسكن الدنيا كلها وتهدأ ، بحيث تصل إلى الأسماع كل نأمة تصدر » .

---

(١) VIDA كتب الهندوكية المقدسة ، كتبت باللغة الفيدية وهي اللغة الأم للسنسكريتية .

ومع جهدي في ترجمتها ، فإنني أعترف بأنني لم أؤدِّ معناها حق أدائه . فحينما يقرأ عربي هذا القسم ، تتجسَّم في مخيلته ليلة في الصحراء العربية ، تغطي الفيافي بظلمتها ، وتنيرها النجوم المتلألئة في كبد السماء . هذه النجوم اللامعة ، في الصحراء العربية الصافية ، تجعل المرء يتصور أن بإمكانه أن يتناول النجوم بيديه . هذه الصحراء المظلمة ، تحت سماء نصف مضاءة بنور النجوم يسمع فيها الإنسان أبعد الأصوات وأدقَّها ، فيتهيأ له أن مصدر الصوت قريب جداً منه ، ولا سيما إذا كانت النسائم هادئة . ويتخيل العربي الذي يعيش في الصحراء وحده أنه هو وهذه الصحراء وجدا معاً منذ بدء الخليقة .

إنني إن حاولت أن أبيِّن المعنى أشعر بالإحراج تجاه القرّاء ، لأنني لا أظن أنني استطعت أداء معنى : ﴿ والليلِ إذا سجى ﴾ تماماً كما يتجلى ذلك في ذهن الأعراب . والحقيقة أنني لم أفصح إلا عن مفهوم القسمين من غير وصول إلى فصاحتهما ، او إدراك العرب أنفسهم أو عارفي العربية لهذين القسمين .

ويخاطب الله تعالى محمداً (ﷺ) في الآية : ﴿ ما ودَّعكَ ربُّكَ وما قَلى ﴾ بمعنى مجازي أبعد من المعنى الأصلي ، تماماً كالآيات السابقة . ويجيب الله على قلق محمد (ﷺ) ، فيقول له : كنتَ مضطرباً ، وتظن أن إلهك بعد أن اختارك حبيباً له قلاك وعافك ، ولم يعد يريدك رسولاً له . والواقع فإن مثل هذا غير وارد أصلاً ، فلن يتركك الله لأنك حبيبه ورسوله .

أزاح الله كابوس القلق عن ذهن محمد (ﷺ) ، فجعله مرتاح البال ، غير شاكٍّ في محبة الله له . ومع أن هذه السورة هي الثانية من السور النازلة عليه ، فإن الله أوصاه باليتامى والفقراء ، لأنه يعلم أن محمداً (ﷺ) نفسه كان يتيماً ، قاسى الأمرَّين في أيام طفولته لفقده أبويه ، وعاش بلا مال في الصحراء المحرقة بين الشوك والأعشاب اليابسة ، حافي القدمين ، خاوي البطن . لو لم يكن محمد (ﷺ) يفكر بالفقراء واليتامى ، ويقلق عليهم لما أنزل الله عليه بعد مضي ثلاث

سنوات (مرحلة الفتور) السورة الثانية ، يوصيه بهؤلاء الضعاف .

وفي الآية التاسعة من هذه السورة يحضُّ الناس على لسان نبيه فيقول : ﴿ وأما السائلَ فَلا تَنهرْ ﴾ ، أي إنْ رجاكَ سائل أمراً فلا تعبس بوجهه ، ولا تُعرض عنه ترفعاً .

نحن نعتبر الاستجداء عاراً ، بحسب مفاهيمنا المعاصرة ، والمستجدي عضواً غير لائق في المجتمع . ونعتقد اليوم أيضاً أن من يستجدي إمّا كسول لا يبحث عن العمل وإمّا فاسد لا يرغب في العمل ، ويلهو بأسوأ العيوب والعادات ، كعادة شرب الخمور . وقد كان الاستجداء عيباً منذ أربعة عشر قرناً في الجزيرة ، ولا نكاد نجد أحداً في تلك المنطقة العربية يتسوَّل أو يستجدي ، مع أن أغلب الناس كانوا فقراء ، مع ضرورة الإشارة إلى أن الناس كانوا يضطرون إلى طلب العون من الآخرين . فمثلاً إذا هاجم قطاع الطرق أحد المسافرين في الصحراء فلا يجد المسكين مناصاً من السؤال وطلب العون من الآخرين وحين يهاجم سيل قرية ما ويهدمها ، ويُبيد كل موجوداتها ، فإن سكانها المبتلين لا يجدون وسيلة إلا طلب العون من جيرانهم ، لأن ذلك الزمان لم يكن فيه مؤسسة إنسانية تدعى الصليب الأحمر تؤازر المتضررين ، ولا جمعيات خيرية أخرى تشبع المصابين وتكسوهم .

●

كان محمد قبل بعثته يعين السائلين ، ولا يهمل المحرومين . وإذا لم يستطع أن يمدَّ لهم يد العون حادثهم بحرارة وصداقة ، وخفَّف عنهم ، وشرح صدورهم ، فتراهم ينفضُّون من حوله وهم يشعرون باطمئنان وراحة بال . لهذا نزلت السورة الثانية تحضّ الناس على حسن معاملة السائلين والمحرومين . وقد طالب محمد (ﷺ) منذ بدء دعوته ، الناس بتحرير أنفسهم من ربقة الفقر والخرافات .

ويصادف المرء غيرُ المتحيِّز أموراً في رسالة محمد (ﷺ) تسترعي الانتباه . من ذلك أن رسالة محمد (ﷺ) لم تكن دينية فقط ، بل كانت إلى جانب ذلك اجتماعية واقتصادية . إن خلق نهضة اجتماعية واقتصادية على أرض كجزيرة العرب قبل أربعة عشر قرناً ، مع وجود هذه العادات والتقاليد التي ذكرنا بعضها باختصار ، أمرٌ غير طبيعي . وقد تعهَّد محمد (ﷺ) أن يؤدي هذه الرسالة العظيمة .

وحتَّى نوضح هذه الحقيقة ، حقيقة أن رسالة محمد (ﷺ) لم تكن دينية فقط ، بل اجتماعية واقتصادية أيضاً ، نعود إلى القرآن ، ونقرأ ستة آلاف ومئتين وتسع عشرة آية ، فتلقى دلائل متصلة برهاناً على ما ذكرنا . ونحن إن عددناها أوقعنا القرّاءَ الغربيين ، والذين ليسوا كالمسلمين على معرفة بآيات القرآن ، بالملل . ولقد سمعت من عالمين فرنسيين ، وهما أستاذان للعربية ، ومتخصصان في تاريخ أدب العرب ، أن محمداً (ﷺ) إنما هو مبشر لقوانين دينية ، أمره الله أن يبلِّغها الناسَ ، وهذا خطأ طبعاً لقد كان محمد (ﷺ) مبلغاً دينياً ، وموجهاً لنهضة اجتماعية عظيمة واقتصادية مهمة . ولهذا فإنه يبلغ هذه الأوامر ، ويدعو لها كما تنزل عليه تباعاً .

ولقد عجب العرب إذ لمسوا أن أوامر السماء التي نزلت قبل محمد (ﷺ) ، نزلت دفعة واحدة ، وليس تدريجياً . وسبب ذلك أن الأنبياء قبله بُعثوا فنزلت عليهم القوانين مرة واحدة من أجل بيئة معينة . أما قوانين محمد (ﷺ) فقد نزلت بمدة خمسة وعشرين عاماً ، من عام ٦١٠ الى عام وفاة رسول الله (ﷺ) على التوالي . وعلة هذا النزول التدريجي المتفرِّق ، كما ورد في السورة الخامسة والعشرين باسم الفُرقان ، والآية الثالثة والثلاثين ، سببه تسهيل حفظ هذه الآيات على محمد (ﷺ) . والسبب الآخر أن الآيات تنزل بحسب مقتضى الحال والأحداث وضرورة وضع القوانين الجديدة .

والأنبياء الذين حملوا الكتب السماوية قبل محمد (ﷺ) لم يكونوا أميين ، لهذا نزل عليهم دفعة واحدة ، في حين أن محمداً (ﷺ) أمي . ولهذا نزلت عليه الآيات تباعاً ، بشكل يكفي لأن يحفظها غيباً .

ولقد تقدَّم العرب فعلاً بظرف نصف قرن تقدماً محسوساً . وبفضل النهضة الاجتماعية والاقتصادية التي قادها محمد (ﷺ) استطاعوا القضاء على ثلاث إمبراطوريات تعتبر من أعظم الدول القديمة ، وهي : إيران ، ومصر ، وسورية . . والتي كانت متاخمة لحدود الإسلام . فكان أن دخل سكان هذه المناطق في هذا الدين الجديد . ونحن لم نستطع أن نلقى ديناً في العالم كله ، حظي بالانتشار الذي كان للإسلام . ولو كانت قوانين الإسلام دينية فقط لما انتشرت بهذه السرعة . وهذا يثبت أن الإسلام كان يحضُّ على النهضة الاجتماعية والاقتصادية .

والدعوة الاجتماعية الأولى التي دعا إليها الله ، على لسان نبيه محمد (ﷺ) هي أن الناس سواسية ، والبشر طبقة واحدة . يقول القرآن إن البشر جميعاً أمة واحدة . وما هذه الاختلافات التي تبدو في الدنيا بين الناس إلا بسبب الظلم والجور والفساد . والآية التي تضم كل هذه المعاني هي الثالثة عشرة بعد المئتين من سورة البقرة ، والتي تقول : ﴿ كان الناسُ أمةً واحدةً فبعث الله النبيينَ مبشِّرين ومنذرين ، وأنزلَ معهم الكتابَ بالحقِّ . . ﴾ .

ليس من شك في أن أحد أهداف محمد (ﷺ) وحدةُ الأمم تحت راية الإسلام ، ولهذا اعتبر دينَه تتمة لدين إبراهيم . لأن ابراهيم لم يكن يهودياً ولا مسيحياً ولا عابد أوثان ، إنما هو حنيفي يعبد الله الواحد . وفي الوقت الذي يَقبل به اليهود ويعتبرونه نبياً يؤمن به المسيحيون أيضاً . وهكذا فإن دين محمد (ﷺ) مرتبط بملة ابراهيم ، ليكون صلة الوصل مع اليهود والنصارى . وهذا ما دعا محمداً (ﷺ) منذ بدء رسالته إلى عدم التعرض للأديان السماوية التوحيدية ، في حين أنه كان يدعوهم إلى قبول الإسلام ديناً .

يرى نبي المسلمين أن مبشري اليهودية والنصرانية غيروا من أحكام الله التي أنزلها على موسى وعيسى (عليهما السلام) . ولما كانت استنتاجات هؤلاء المبشرين خاطئة فإن اليهود والنصارى ليسوا سعداء بهذه الدعوة . وإن هم انضووا تحت راية الإسلام أحاطت بهم السعادة من كل جانب .

« الإسلام » من أعذب الألفاظ العربية ، و« القرآن » من أبرز كلماتها وأكثرها جاذبية . وتذكر الروايات أن الله ذكر الإسلام مرة واحدة قبل رسالة محمد (ﷺ) ، كان ذلك في زمان ابراهيم الخليل ، عندما عزم ابراهيم على ذبح ابنه قرباناً إلى الله . ويروى أن الله ذكر أن ابراهيم وابنه أسلما ، أي سلّما أمرهما إليه . والإسلام يعني التسليم إلى الله ، و« المسلم » هو الذي يسلم أمره إلى الله .

و« القرآن » ويدعى أيضاً « الفُرقان » ، أي الفاصل بين شيئين . وسبب تسمية القرآن بهذا الاسم ، أنه لم ينزل دفعة واحدة ، بل نزل جزءاً جزءاً . وكما نعلم فإن عدداً من الكلمات العربية ذات جذور أعجمية . وعدد من الكلمات الدخيلة قبل الإسلام تسرب إلى القرآن ، ومن هذه الكلمات كلمة « القرآن » نفسها . و(القراءة) و(القرآن) من جذر واحد ، دخلت العربية من اللغة السريانية . و« قرآن » بمعنى القراءة ، أو تعلم الكلام المقدس . لهذا فلا يجوز لنا أن نطلق هذه الكلمة على قراءة الكلام العادي . ولما غدا « القرآن » اسماً خاصاً يطلق على مجموعة أوامر الله وكلامه الذي نزل على محمد (ﷺ) لم يمكنّا اطلاق هذا التعبير على كلام آخر .

يعتقد عدد من العلماء المسلمين أن السورة الثالثة هي سورة « القيامة » ، ذات الآيات الأربعين ، إن لم نحسب « البسملة » معها . وقد كان محمد (ﷺ) يردد دائماً سور القرآن ، خشية أن ينسى كلام الله ، ولهذا نزلت سورة القيامة ، وفيها الآية السابعة عشرة : ﴿ لا تُحرِّكْ بهِ لسانَكَ لتعجلَ بهِ ﴾ ، والآية الثامنة عشرة : ﴿ إنَّ علينا جمعَهُ وقرآنَهُ ﴾ ، والآية بعدها : ﴿ فإذا قرأناهُ فاتَّبعْ

قرآنـهُ ﴾ ، والآية العشرون : ﴿ ثم إنَّ علينا بيانَـهُ ﴾ . وبعد نزول هذه الآيات لم يعد محمد (ﷺ) يقرأ القرآن بعجلة وتكرار ، وانما يقرؤه قراءة طبيعية .

قلنا إن القرآن نزل على مدى خمسة وعشرين عاماً . وإن نحن أسقطنا من الحساب مرحلة الفتور علمنا أن المدة كانت اثنتين وعشرين سنة فقط ، وبالطبع إذا استثنينا السورة التي نزلت عليه أول مرة ، وهو في غار حراء . واليوم ونحن نقرأ تاريخ العرب ، ونتعرف به إلى أوضـاع الأعـراب ، وكيف كانـوا يعيشـون قبـل الإسلام ، نقـدِّر سبب نزول القرآن على مراحل ، أكثر من تقدير القدماء له . وإن هذه الـ / ٦٢١٩ / آية لو نزلت دفعة واحدة ، والعرب على جاهليتهم وجهلهم وسذاجتهم لما فهموا شيئاً منه ، ولما وعوهُ في القرن العشرين ، ومع هذا التوسع الثقافي والاتصال العالمي الذي فاق ما كان عليه الناس قبل أربعة عشر قرنـاً ، لا تستطيع حكومة ما ، وجدت في الحياة حديثاً أن تضع مئات القوانين دفعة واحدة لأمتها ، فكيف قبل أربعة عشر قرناً ، وهم سكان الصحراء ؟ إن الطريق الطبيعي والعقلاني هو نزول القرآن متوالياً متتابعاً ، ليتمـكن منـه العـرب ، ويُـدركوه ، ويأنسوا بكلام الله ، ويفهموه ، وبالتالي يقبلوه .

أوائل المسلمين

كانت السيدة خديجة أول من آمن بمحمد (ﷺ) وتلاها في الإيمان ابن عمه علي بن أبي طالب ، الذي كان بمثابة ابنه ، والمسلم الثالث كان زيداً ، غلام محمد (ﷺ) ، الذي قلنا إنه كان غلام رسول الله (ﷺ) ثم أعتقه ، ورفض أن يعود مع والديه ، وفضّل العيش في كنف رسول الله (ﷺ) . واستمر الإسلام على هؤلاء الثلاثة مدة ثلاث سنوات من غير أن يوافق أحد على الدخول في الدين الجديد .

وفي عام ٦١٣ م أسلم أبو بكر ، فصار عددهم أربعة أشخاص ، من غير أن تُكلل مساعي محمد (ﷺ) بالنجاح . ومع رفض أهل قريش لدينه الجديد فإنهم ما كانوا يعارضونه أو يمنعونه عن أداء مهمته ولا كانوا يأبهون لكلامه . وقد ذكرنا أنه وجد في الجزيرة قبل محمد (ﷺ) أكثر من أربعة آلاف ومئة وعشرين نبياً ، لا يُعرف منهم إلا بعضُهم ، وشيء من تاريخهم . لذا اعتاد العرب جيلاً بعد جيل أن يلقوا أنبياء ، ولا يأخذهم العجب إذا رأوا نبياً يؤدي رسالته ، كما لا يتألمون لحالهم ، ولا يقدِّرون العناء الذي يعانونه .

وبعد أن أسلم أبو بكر كانت ابنته « عائشة » أول وليد في الإسلام ، لأن أباها كان مسلماً .

ونزلت الآية (٢١٥) من السورة (٢٦) والتي تسمى ﴿ الشعراء ﴾ تحضُّ رسول الله (ﷺ) على دعوة أقربائه إلى الإسلام . هذه الآية هي : ﴿ وأَنذِرْ عَشيرتَكَ الأَقْربينَ ﴾ . ويروى أن محمداً (ﷺ) بعد نزول هذه الآية طلب إلى ابن عمه علي أن يدعو أعمامه وأبناء عمه إلى وليمة . وتذكر الرواية أن عميه أبا

طالب وأبا لهب وأبناء عمومته لبوا الدعوة جميعاً . وبعد ان طَعـم الجميع دعاهم إلى الإسلام ، ولكن لم يقبل بدعوته أحد ، ولـم يستجب لها إلا ابن عمه علي ، فقد نهض وقال :

- أنا أستجيب لدعوتك ، وأؤمن بالله .

اختلف القسم الأخير من هذه الرواية عما ذكره جمهور علماء المسلمين ، لأن علياً أسلم قبل الوليمة بحين من الزمان ، وذكرنـا أنـه كان ثانـي من أسلـم[1] . وبحسب الرأي المطابق لأحداث التاريخ أن محمداً (ﷺ) بعد أن أمره الله بدعوة أقربائه شرع بمحادثتهم فرداً فرداً . وكان عمه أبو طالب أول من علـم ، وقد كان رجلاً شريفاً وصادقاً . ولكنه امتنع عن الإسلام لكبر سنه ، ولاستحالة التنازل عن عقيدة آبائه .

وبعد أبي طالب سيد بني عبد المطلب ، اتجه نحو أبي لهب عمه الآخر . فقد كان تاجراً غنياً ، غير معتنٍ بالمسائل الدينية إلا في مدى استفادته لسيرورة تجارته ، وكذلك كان أغلب تجار قريش ، إذ كانوا يحمون معتقداتهم لازدهار تجارتهـم . ومن أبرز هذه المعتقدات أنهم في كل سنة يحرِّمون القتل والنهب أربعـة أشهـر ، فتنطلق القوافـل بكل حرية ، ويُفتـح سوق عكاظ في مكة . وقـد صرف محمـد (ﷺ) النظر عن إيمان عمه أبي لهب كما صرفه عن إيمان أبي طالب .

كانت زوج أبي لهب امرأة متمكنة ، وتدعى « جميلة » ، وهي أخت أبـي سفيان ، وأبو سفيان أغنى تجار مكة . وعدا هذه القرابة بـين أبـي لهـب ومحمـد (ﷺ) ، فقد جمعتهما صلة رحم أخرى ، إذ تزوج ولدا أبي لهب وجميلـة ابنتـيَ محمد (ﷺ) ، لذا كان هذان الولدان صهري ابن عمهما محمد (ﷺ) . وكانت

---

(١) لعله آمن به سراً ، ولم يقبل أن يدعو رسول الله (ﷺ) من غير أن يستجيب له أحد ، فكرر إعلان إسلامه .

جميلة شاعرة ، حسنة الشعر ، بارعة في فن الهجاء . وحينما شرع محمد (ﷺ) بدعوته بدأت هي بهجائه . والحقيقة أن أبا لهب وزوجه لم يقبلا بالإسلام ، كما لم يمل قلبهما إلى أي دين آخر . فقد كانا ينظران إلى الدنيا من زاوية تجارية بحتة . والدنيا بنظر أبي لهب عبارة عن بيع وشراء ، ونفع وأذى لا غير .

ودعا رسول الله (ﷺ) الابن الثالث لعبد المطلب إلى الإسلام ، واسمه حمزة . كان حمزة بهلواناً ، لا يفهم الحياة إلا على أنها رياضة ومباهاة بالفوز البطولي . وكان كغيره من الأبطال يحتقر من لا يهتم بالرياضة والفروسية ، كما كان صديقاً صادقاً . ولم يتصور محمد (ﷺ) أن حمزة سيستجيب لدعوته ، لأنه إنسان لم يمل قلبه إلى عقيدة .

والولد الرابع هو العباس ، وكان صرافاً مرابياً ، يتعامل مع تجار مكة ويثرب والطائف ، والناس في نظره طبقتان : طبقة مستدينة ، وأخرى دائنة . وكان يدأب حتى يزيد من أمواله عن طريق الربا ، ولكنه لا يُدين إلا بضامنٍ أو بوثيقة .

وبعد أن استرجع محمد (ﷺ) أحوال أبناء عبد المطلب ، تناهى إلى فكره أن أبا طالب رجل مسنّ وضعيف ، وأبا لهب تاجر ، وحمزة رياضي ، وعباساً مراهن ، وليس بينهم من هو أهل لأن يستجيب نداء الدين الجديد ، لأن نظراتهم جميعاً إلى « العقائد » مادية . كان يعلم محمد (ﷺ) أنهم غير مستعدين لأن يستمعوا إلى كلام الحق ، ولكنه لن يتهاون في تنفيذ أمر ربه ، لأن الله حثّه على دعوة ذوي رحمه الأقربين .

عندما لاحظ محمد (ﷺ) إهمال أقربائه الادنين له ، وانعدام حماسهم نحو دعوته تألم كثيرا ، ووقع في مرض شديد . وقد نصحه أعمامه بأن يحاول ثانية مع أقربائه الأبعدين ، فلعلهم يميلون إليه ، ويقبلون دينه الجديد . وأجابهم محمد (ﷺ) بأن الله أمره بأن يدعو الأقربين ، وإنه لا يمكنه أن يتناسى أمر ربه . وفي النهاية فكر بدعوة أربعين نفراً من أقربائه الأدنين ، على أن يتقدم الجميعَ أبناءُ عبد

المطلب الأربعة ، وبالفعل دعاهم إلى وليمة في منزله[1] . وكان علي هو الذي يستقبل الضيوف . ويروى أن علياً وضع بين أيدي الضيوف قليلاً من الطعام ، فقال لهم محمد (ﷺ) :

- كلوا باسم الله .

لم يكن ما وضع أمام الضيوف طعاماً كافياً ، ولكنهم كانوا يأكلون منه ويأكلون من غير أن ينفد الطعام . ومع أنهم شبعوا تماماً فإن الطعام لم ينتهِ . ثم قال محمد (ﷺ) لعلي :

- أسقِ القوم .

فأحضر عُسّاً فيه لبن يكفي لرجل واحد . ولكن بعد أن شرب الضيف الأول من الوعاء لم يحتج إلى ملئه ثانية ، فنقله إلى الضيف المجاور ، وهكذا حتى ارتوى الجميع ، وما زال في العُسّ بقية ، فعجب الحاضرون كثيراً مما رأوا . فما كان من أبي لهب إلا أن قال :

- سحركم صاحبُكم !

وخرج الجميع من منزل محمد من غير أن يُفسحوا له فرصة لدعوتهم إلى قبول الدين الجديد . وهناك رواية أخرى ، تابعة لهذه الوليمة . فبعد أن أنتهى الضيوف من الطعام أحب محمد أن يحادث الضيوف عن الله تعالى . ولكن الحاضرين خرجوا من غير أن يسمحوا له بشرح أسباب دعوته لهم . وأحب أن أشير إلى ما عنيته سابقاً ، من أنني أذكر الخبر الذي وصل إلينا رواية ، وما ذكرناه من الأخبار المروية .

عندما أطلع أحد مؤرخي الغرب على هذه الحادثة قال: نريد دليلاً، إذ

---

(١) يذكر الطبري، أن محمداً (ﷺ) قال لعلي : فاصنع لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رَحل شاة ، واملأ لنا عُساً من لبن .

كيف يأكل المدعوون من النَّذر ، ويشربون من القليل ، فلا ينتهي الطعام ولا يفرغ الاناء ؟ إنني عندما أروي هذه الحادثة لا أنقلها من نظر علماء التاريخ . وكل ما أريد الوصول إليه أن محمداً (ﷺ) دعا أهله مرة واحدة ليبلِّغهم رسالة السماء ، ولم يتمكن بعد هذه الدعوة من لمِّ شملهم . ونتج عن هذه الدعوة أن أقرباءه ، انفضُّوا من حوله ، ولم يعودوا إلى مخاطبته . وقد هجته جميلة زوجة أبي لهب بعد ذلك .

حين أيقن محمد (ﷺ) أنه لن يتمكن من نشر دعوته بين أقربائه وأهله ، وجَّه أنظاره نحو أهل مكة ، فعزم على جمعهم في جبل الصَّفا قرب تلك المدينة . وجبل الصفا كجبل النور عبارة عن تل ، يدعوه الأعرابُ جبلاً . وفكر أنه إن دعا أهل مكة جميعاً إلى جبل الصفا سيفد معهم ذوو رحمه ، وسيتمكن من دعوتهم جميعاً إلى هذا الدين الجديد . فدعا سكان مكة إلى التجمع في جبل الصفا ، ليعرض عليهم أمراً ذا بال . فتوافد الناس إلى المكان المعهود ، ومعهم بنو عبد المطلب . فعلا محمد (ﷺ) مكاناً بارزاً ، وقال لهم :

- أرأيتم إن عرضتُ عليكم أمراً ، أتقبلونه أم لا ؟

فقالوا له :

- بلى يا محمد نقبل ، لأننا نعلم أنك رجل صادق ، ولم نسمع عنك كذباً .

قال محمد :

- فإن الله اختارني لأداء رسالته ، وقد أمرني أن أدعوكم إلى عبادة الله الواحد ، فاقبلوا هذا وأطيعوا الله . فإن لم تطيعوه حلَّ بكم بلاء عظيم[1] .

---

(١) ما ذكرناه ترجمة . وقد أورد الطبري عدة روايات منها أن رسول الله (ﷺ) صعد يوم الصفا فقال : يا صباحاه ! فاجتمعت إليه قريش . فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيت إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم او ممسيكم أما كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال ابو لهب : تباً لك ! ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخر السورة (الطبري : ٢ / ٣١٩) .

يذكر الطبري أنه بعد أن أنهى محمد (ﷺ) كلامه صرخ أبو لهب قائلاً :

- أدعوتنا يا محمد (ﷺ) لتُسمعنا الكلام ؟ ألم تفكر في أن هذا الكلام هُراء ، لا يعادل ترك أعمالنا وقدومنا إليك ؟

ثم توجه أبو لهب نحو القوم وقال :

- لا تصغوا إلى كلامه أيها القوم ، عودوا إلى بيوتكم ، فهو رجل مجنون .

فتفرق الجمع ، وعادوا إلى منازلهم ، عدا اثنين ظلا مع محمد (ﷺ) هما : علي وريد . فاشتدَ عليه بنو عبد المطلب إثر هذه الحادثة ، لا يتوانَون عن السخرية به ومحاربته . فاعترى رسولَ الله (ﷺ) ملل وضيق لم يصب بمثلهما قبلاً . وعندما لاحظ أبو لهب وزوجه جميلة أن الكلام القاسي لم يؤثر في محمد (ﷺ) عمدا إلى إيذائه بطرق أخرى . ومع أنهما ضَخما الجثة فقد حملا حجراً وقذفاه نحو منزله ، فتحطمت النافذة . وكانوا يمنحون الأطفال بعض الدراهم ليحصبوا منزل محمد بالحصى وبالجيف وبأقذار أخرى . فإذا خرج محمد (ﷺ) من منزله قذفه الأطفال بالحجارة . وكانت بعض الضربات تصيب وجهه ورأسه ، فيسيل دمه ، فيمسحه بثوبه . وحين يعود إلى منزله تسأله زوجه :

- أآذوك اليوم أيضاً يا محمد (ﷺ) ؟

وكان رسول الله (ﷺ) يجيب :

- إذا قدَّر المرءُ هدفه لم يعبأ بالآلام التي تعترضه .

قلنا قبلاً : كانت جميلة ترمي الشوك في طريق محمد لتؤذي قدميه . وكان عندما يعود إلى منزله ويخُرج الشوك تَدمى قدماه . وحينما اشتد ألمه من إيذاء ذويه خاطب ربه بقوله :

- أنت تعلم يا رب أن هؤلاء القوم غير مستعدين لقبول دينك !

ونزل جبريل بعد هذه الشكوى على محمد (ﷺ) ، وبلَّغه بضعة آيات مذكورة في سورة « الحجر » وهي السورة الخامسة عشرة ، والآية الرابعة والتسعون فما بعدها . هذه الآية هي : ﴿ فاصدعْ بما تؤمرْ وأعرض عن المشركين ﴾ ، والآية بعدها : ﴿ إنّا كفيناكَ المُسْتهزئين ﴾ ، والآية السابعة والتسعون هي : ﴿ ولقد نَعلمُ أنكَ يَضيقُ صدرُك بما يقولون ﴾ . ونزلت الآية الأخيرة خاتمة لما أُنزل عليه في هذه السورة ، هي : ﴿ واعبدْ ربَّكَ حتى يأتِيَكَ اليقينُ ﴾[1] .

يأمر الله تعالى رسوله في الآية الأخيرة أن يتابع عبادة ربه ، ونشر رسالته ، وأن يتحمل كل الآلام ، حتى آخر يوم من حياته . وعلى أثر نزول هذه الآيات ، التي يشمل بعضها مواساة رسول الله (ﷺ) ، وإعلامه بأن المشركين لن يفوقوه طابت نفس محمد (ﷺ) ، وتحمل أصناف العذاب .

●

ذات يوم ، وبينما كان محمد (ﷺ) وخديجة في منزليهما شاهدا ابنتيهما زوجتي ولدي أبي لهب يدخلان المنزل ، ومعهما أمتعتهما الخاصة بهما ، وقالتا لأبويهما :

ـ لقد طلقَنا زوجانا ، وطلبا إلينا أن نعود إلى منزل أبوينا .

فسألتهما خديجة :

ـ ولِمَ طلقاكما ؟

فأجابتا :

ـ لقد طُلقنا بناءً على أمر والديهما أبي لهب وجميلة ، فقد قالا لهما إنه ليس من اللائق لولديهما أن يتزوجا بابنتي محمد (ﷺ) ، لأن الناس جميعاً ينفرون من أبينا اليوم ، ويشعرون بالمهانة إن بقينا عندهم .

---

(١) حتى يأتيك اليقين : أي حتى نهاية حياتك .

تألمت خديجة لهذا الأمر كثيراً ، فطيب محمد (ﷺ) خاطرها .

كان محمد (ﷺ) أعرابياً ، ويتعصب تعصب عرب البوادي . والأوروبي - بطبيعة الحال - يختلف عن الأعرابي من النواحي الأيديولوجية[1] ، وقد اقتبس الغربيون عن اليونانيين والرومانيين مبدأ الأيديولوجية . إن بإمكان الأوروبي استيعاب الأفكار الجديدة العديدة بسهولة ، في حين أن البدوي لا يتقبل هذه الآراء بسهولة . إن البدوي لا يفكر - كالغربي - بعدة أنواع من الأفكار دفعة واحدة . فعندما يعتقد بشيء ويؤمن به يغدو من الصعب عليه جداً تحويل عقليته ، إلا إذا تبنّى عقيدة أقوى مما في نفسه .

إن مثل هذا الموضوع صريح وصادق في الجزيرة العربية ، ولا يزال عرب الجزيرة على هذا التمسك والاعتقاد في عصر عبور أنابيب البترول من قلب جزيرتهم ، ومرور الطائرات ليلاً ونهاراً في سماء صحرائهم . واليوم أيضاً لا يتّسع قلب البدوي لأكثر من فكرة أو اثنتين ، ولا تزيد عن ثلاث . ولكنه إذا ما استوعب فكرة ما وتبنّاها غدا من المحال زحزحة هذه الفكرة عن مخيلته .

والحديث عن تصميم الشنفري شاعرِ العصر الجاهلي ذو أهمية في هذا المجال . والشنفري لم يكن مشهوراً في زمانه فقط بل إن شهرته ما زالت تطبّق آفاق صحارى الدول العربية ، أي إنهم يحفظون شعره ويعرفونه . فيحكى أنه بينما كان يجوب الصحراء يوماً أهانه أحد أفراد « بني سليمان » . وحسب عادات العرب ، لا بد من الانتقام لردِّ كرامته من قبيلة سليمان . لأن الفرد وحده لا يُعاقب مطلقاً ، بل يُحكم على القبيلة كلها . فآلى الشنفري على نفسه أن يستردَّ كرامته بقتل مئة رجل من رجال هذه القبيلة . فترك مضارب خيام قبيلته منذ يوم التصميم ، وكمنَ لأفراد القبيلة الخصم ، يقتلهم واحداً تلو الآخر بقوسه ونبله .

---

(١) الايديولوجية : علم الأفكار والمعاني والمسلك السياسي أو الاجتماعي .

وقد استطاع بعد مرور خمسة عشر عاماً أن يصيب منهم تسعة وتسعين نفراً . وفيما كان منشغلاً بشرب الماء من أحد الآبار هاجمه قطاع طرق ، وضربوه على رأسه وقتلوه ، وأمست جثته طعاماً للضباع ، ولم يبق منها إلا عظام متناثرة . وظلت جمجمته مرمية قرب البئر ، حتى قدم نفر من قبيلة بني سليمان يَرِدون ماء البئر . كانت الرياح في ذلك الوقت شديدة ، مما سبَّب تطاير جمجمة الشنفري ، لتقع على قدم أحدهم . فانسلَّ جزء من هذا العظم في جسد ذلك الرجل ، فأحدث جرحاً بليغاً نتج عنه موت هذا الرجل . وهكذا تحقق للشنفري ، حتى بعد موته ، قَسمه ، فبلغ عدد قتلى بني سليمان مئة بسببه . .

من الواضح أن القسم الأخير من هذا الخبر رواية لا يقبلها المؤرخ . وهدفنا من هذا أن البدوي ذو عصبية خاصة لا تزول بموته ، بل تنتقل إلى أبنائه من بعده . وما محمد (ﷺ) إلا واحد من هؤلاء العرب ، ثابت العقيدة ، لا يتزحزح عنها .

عندما بعث الله محمداً (ﷺ) نبياً للإسلام تقبَّله وتمسك به لأنه أقوى من أي دين عُرف في الجزيرة ، تمسك به ولم يتراجع عنه ولا عن الدعوة إليه على الرغم من إيذاء قومه له . بل إن هذا الإيذاء كان يشدّ من عزمه ليتمكن من نشر الدين بين الملأ . وبعد أن أيقن محمد (ﷺ) أنه رسول من الله ، ومكلف بأداء مهمة علمية لم يعد يأبهُ للعذاب ، وإن أدى ذلك إلى مقتله .

توقف أفراد أسرته وأبناء قريش عن تعذيب محمد (ﷺ) بعد السنة الرابعة من بعثته ، لأنهم صمموا على قتله . وسبب عزمهم هذا أنهم لاحظوا أنه وسَّع أفق دعوته ، ولأنه طالب الناس بعدم عبادة آلهة هم صنعوها ، ليعبدوا إلهاً واحداً . وسأله أحد أفراد أسرته :

ـ أتحثُّنا على ترك عبادة آلهة عبدها آباؤنا ؟

أجابهم محمد :

ـ بلى ، دعوا عنكم هذه العبادة ، وقولوا : ﴿ لا إله إلا الله﴾ تظفروا .

فازداد غضب قريش ، وعزموا عندئذ على قتله . كان من عادة محمد (ﷺ) أن يذهب إلى الكعبة يتعبد الله فيها . فصممت قريش على منعه من دخول الكعبة إلا بإذن . فأجابهم محمد (ﷺ) إن الكعبة بيت الله ، ولا حاجة بي إلى إجازة لزيارته . وبينما كان محمد (ﷺ) راكعاً في الكعبة يتعبد الله دخل أبو جهل ، أحد رجال قريش ، مع مجموعة من أفراد قبيلته خلسة ، وفي يده معدة جمل ممتلئة بالدم والاقذار .

في جزيرة العرب عدة أنواع للإعدام ، منها إلباس رأس المحكوم عليه معدة جمل ممتلئة ماءً أو دماً أو سوائل أخرى ، بحيث تغطي رأسه ووجهه تماماً ، ويشدّون القسم السفلي منها على رقبة المحكوم ، فلا يستطيع التنفس ، فيختنق . وقد أراد أبو جهل وصحبه ذلك اليوم أن يقتلوا محمداً (ﷺ) بهذه الطريقة . ولم ينتبه محمد (ﷺ) لدخولهم الكعبة ، لأنهم مشوا بتؤدة من غير أن يُشعروه . وفجأةً ألبس أبو جهل معدة الجمل في رأس محمد (ﷺ) ، وغطى بها وجهه ، وربطها على رقبته . فنهض محمد (ﷺ) من مكانه ، يحاول التخلص من المعدة من غير جدوى . وتأكد مَن يحيطون به أنه سرعان ما يختنق ، لأنه يتلوى ويتخبط . فحاول بعضهم الإقدام على مساعدته قبل أن يفارق الحياة ولكنهم أحجموا خوفاً من أبي جهل .

كان بين الحاضرين امرأة من قريش لم تستطع أن ترى ما يؤلم محمداً (ﷺ) ، فعدت نحو منزله ، وأخطرت ابنته رُقية قائلة :

ـ عجلي إلى أبيك في الكعبة ، وإلا فارق الحياة .

فعدت رقية صارخة نادبة . وعندما لمح أبو جهل ورجاله رقية مسرعة تراجعوا ، فأزاحت الغشاء عن وجه أبيها بسرعة ، ومسحته بثوبها . فعاد محمد (ﷺ) إلى رشده ، ولكنه ظل متمدداً يعاني من آلام الاختناق . وبعد حين أنهضته رقية ،

وأسندته إلى كتفها ، وعادت به إلى المنزل . وهناك نظفت رأسه ووجهه ، وبدلت له ثيابه ، وغسلت رداءَه الملطخ بالدم ، ونشرته في الشمس ليجف .

واتجه محمد (ﷺ) في اليوم الثاني إلى الكعبة من غير أن يعتريه الخوف ، وشُغل بعبادة ربه ، وكأن شيئاً لم يكن . عاد إلى الكعبة لأنه ذو تصميم وعزيمة لا تنثنيان . فحين يعتقد بشيءٍ لا يتمكن الآخرون من أن يزحزحوه عن إرادته ، مهما كان تهديدهم شديداً . وكذلك الأمر نفسه لدى المعارضين ، فهم عرب بداة أيضاً ، وذوو عصبية وتصميم . فعندما رأوه يدخل الكعبة ثانية عزموا على قتله . وتصدى له هذه المرة رجل يدعى عقبة ، فورد الكعبة حافي القدمين متئداً ، وفي يده رداء . ودنا من محمد (ﷺ) ، وكان منشغلاً بعبادة ربه ، غير آبهٍ لما يجري حوله . وفيما كان ساجداً غطاه بالرداء ، وجعل يلكمه لكمات عنيفة ، سال لها دمه من أنفه وفمه . كان يحاول بضربه الشديد هذا ان يفقد الرسول (ﷺ) شعوره ، ثم يقضي عليه قبل أن ينهض من سجدته . ولكن عقبة لم يوفق إلى هدفه ، فقد استطاع محمد (ﷺ) أن يتخلص من قبضة هذا (المجرم الآخر) ، وأن يعود إلى منزله سليماً ، ملطخاً بالدماء . فنظف وجهه وثوبه ، من غير أن يصدر عنه شكوى . لم يكن يشكو لأنه ، كما قال هو عن نفسه ، إن المرء يشكو عندما لا يعلم لماذا يعذب ، ولكن إن علم السبب لا يشكو أبداً .

قد يتبادر إلى ذهن الأوروبيين وهم يقرؤون هذه السطور ، سؤال ، هو : أمن المعقول أن يتمكن ابو جهل من خنق النبي (ﷺ) ، والناس من حوله ، يرون بأم أعينهم مدى ما يعاني ، ولا يتقدمون لإنقاذه ؟ وفي الرد على هذا السؤال أجيب إن مثل هذه الحادثة التي جرت لمحمد (ﷺ) يجري أمثالها اليوم في الجزيرة العربية ، ونحن في القرن العشرين ، من غير أن يُظهر أحد رأفته نحوه . فقد رأيتهم بنفسي ، وأنا في اليمن ، يقطعون يد السارق ، وشاهدتهم مرة أخرى يقطعون رأس قاطع طريق ، من غير أن تبدو ملامح الأسى على وجوه المتفرجين من الرجال ومن النساء ، لأن مفهوم الرأفة عندهم ـ ولا سيما لدى الأعراب منهم ـ غير هذا .

من عادات العرب وخصالهم

في عصر الجاهلية ، مرحلةِ ما قبل الإسلام نوع من عادات العرب وتقاليدهم . استمر تداولها بعد الإسلام (والحديث هنا خاص بالجزيرة العربية) . وما زالت بعض هذه الأعراف متداولة حتى يومنا هذا . من ذلك الكرم وقرى الضيف (ويتجلى هذا في البادية أكثر من المدن) . يطلق على هذه العادات والأعراف كلها كلمة واحدة هي « المروءة » .

كانت « المروءة » مفهوماً جامعاً لأعراف عرب الصحراء ، وهم يرون فيها ثلاثة أشياء : أولاً قرى الضيف ، وثانياً حماية المظلوم ، وثالثاً مراعاة قوانين القبيلة . يلتزم بهذه الأشياء البدو نحو الآخرين . ومن التزم بها شجاع ، لا يعرف الغدر ، ولا يطعن الخصم من الخلف ، ويستعد لأن يموت أو ينتصر في سبيل حماه .

والرأفة المتعارف عليها في أوروبة يخالف مفهومها عما هي عليه في البلاد العربية . ولهذا عندما يسرق أحدهم يقطعون يده من غير أن يرأف لحاله أحد . ولهذا لا نلحظ ذكراً للرأفة في قانون الأعراب المتجلي في « المروءة » . مع التقدير الكامل للركنين الآخرين وهما : حماية المظلوم ، واحترام قوانين القبيلة .

فالذين كانوا في الكعبة ، ويرون بأم أعينهم خنق محمد (ﷺ) ، لم يعتبروه مظلوماً ، ولعل بعضهم كان يعتقد بأن قتله ضروري ، لأنه كان يصرّح بأشياء تخالف مفاهيم القبيلة ، أي تخالف أحد أركان قانون الأعراب العام .

كان الأعراب يكرمون الضيف ويحمون المظلوم ، ولكن ليس من طريق الرأفة والرحمة ، بل من وجهة الشجاعة والنبل . ففي الصحراء العربية المحرقة يعاني بعض الأعراب كثيراً لتحصيل قوت يومهم ، ويقاسون الكثير حتى لا يقعوا رحمةً للشفقة من قبل الآخرين ، وهذه هي الأنفة . وما زال العرب في الجزيرة العربية ، ونحن في عصر البترول ، يفخرون بالأنفة ، ولا يتنازلون عن تلك الأعراف .

إن عادات الأمم وأعرافها مرتبطة تمام الارتباط بوضع حياتهم ، ومتأثرة بالأوضاع الجغرافية والبيئية . وقد أشاد العالم الفرنسي « أرنست رينان » بها عندما تحدث عن آرائه الخاصة بحضارة عرب العصر الجاهلي ، واعتبر « المروءة » ناشئة بين عرب البادية لأسباب بيئية وأوضاع جغرافية خاصة بالجزيرة العربية .

عندما يلجأ بدوي إلى خيمة أعرابي في قلب الصحراء الممزقة جائعاً عطشانَ ، أو هارباً من وجه قطاع الطرق فإن أنفة صاحب الخيمة تستدعيه لأن يحمي اللاجىء إليه . وإن لم يسعفه مات وسط الصحراء .

ولا حاجة بنا لأن نكرر موضوع طرد العربي من قبيلته ، لأن طرده يعني الحكم عليه بالفناء . ومع أننا نصادق على نظرية « رينان » في أن طبيعة الجزيرة تؤثر في معنويات الأعراب ، فإنني أرى أن أذكر طُرفة تدل على أنفة العرب وسخائهم من غير تفاعل الطبيعة والبيئة مع عاداتهم وأعرافهم .

لما كان من الصعب جداً الحصول على وسائل العيش في بعض المناطق (كالمناطق الجبلية في أوروبة) فإن سكان تلك البقاع يتصرفون بأسوأ أنواع التصرف في سبيل الوصول إلى حاجاتهم ، وهم غير مستعدين لاستقبال الضيوف ، كيلا يتضرروا مادياً . أما في الصحراء العربية الحارة ، فمع أن الحياة أقسى من تلك البقاع الأوروبية ، فإن العرب يذبحون الجمل الوحيد الذي يملكونه ، ويعتمدون عليه في حياتهم ، ليقدموه مشوياً للضيف الجائع . ويستدرك رينان فيقول في كتابه

إنه لم يجد في حضارة الأمم أفضل من حياة العرب في الجاهلية .

ولكن في هذا المجتمع تبرز النبالة والسخاء ، عن طريق قرى الضيف ، وليس عن طريق الرأفة أو النفور من سفك الدماء . إنَّ قطع اليد والرأس في نظر الأعراب من الأمور العادية جداً . إنهم يحمون المظلوم ، كما قلنا ، فعندما يلجأ مظلوم إلى خيمة أعرابي ، فإن صاحب الخيمة يسلُّ سيفه ، ويحمي المستجيرَ به . وما دام حياً فإن أحداً لن يجرؤ على مسِّ المستجير به بأي أذى .

ولم يكن محمد (ﷺ) مظلوماً في نظر قريش ، ولهذا هاجموه مرتين من غير أن يُقدم أحد على مساعدته . ولعل أحداً يسأل : ألم يروا بأعينهم أنهم يحاولون قتل محمد (ﷺ) ؟ ونجيب : طبعاً ، ولكن المظلوم في نظر أعراب البادية شخص غريب يحتمي بقبيلة أخرى . ولو أن رجلاً غريباً دخل مكة ، واحتمى بقريش وقال : إنني مظلوم لفدوه بأرواحهم . في حين أنهم لم يعتبروا محمداً غريباً ولا لاجئاً ، والذين حاولوا قتله مرتين ولم يوفَّقوا ، ولم يساعدوه على نجاته اعتبروا هذا الأمر قانوناً مشروعاً .

المظلوم في عُرف الأعراب شخص جار عليه بعضُهم . ولكن إن وقع الظلم من قبيلته نفسها فلا يُعتبر المرء مظلوماً ، لأنهم ، بحسب أصول « المروءة » ، يعتقدون أن القبيلة لا تظلم فرداً من رجالها . وإن حكمت عليه بشيءٍ فعلى أنه عقاب قانوني ، لأن القاضي في الجزيرة هو القبيلة نفسها . فلا حاجة إذاً ، بعد أن عرفنا عقيدة العرب ، أن يأخذنا العجب . فاليوم في أوروبة ، وفي دولة كفرانسة ، إحدى المراكز المهمة للحضارة ، يعتقدون بما يعتقد العرب أنفسهم . فعندما يحكم قاض فرنسي بقطع رأس محكوم بالمقصلة لا يعتبر أحد هذا القاضي قاتلاً ، ولا يعدونه مجرماً . وقد جاء في المادة (٣٢٧) من قانون الجزاء الفرنسي ما يلي :

« عندما يُعدم أو يجرح أو يضرب أحد طبقاً لأحكام القانون لا يعتبر مُصدر

الحكم جانياً أو مرتكب جنحة » . يحـكم اليوم في فرانسـة قضـاة على مجرمـين ، ويحكمون عليهم بقطع الرأس ، وينفذ الجلاد هذا الحكم من غير أن يعـدَّ الناسُ القاضيَ أو الجلاد مجرميْنِ ، كما لا يصرح أحد المتفرجين بأن القـاضي جائـر وأن الجلاد قاتل .

لم يكن في الجزيرةالعربية قانون وقضاء إلا أعراف القبيلةنفسها وعاداتها. وهي لا تـصدر حكماً على فرد من افرادها إلا إذا كان يستحق هذا الحكم بحسب مفهومها . وحين صممت قبيلة قريش على قتل محمد (ﷺ) فلا شك أنها رأت فيه ما يستوجب القتل . ولقد رأف به أربعة اشخاص ، وهؤلاء هم المسلمون في ذلك الزمان ، وهم : خديجة ، وعلي ، وزيد ، وأبو بكر . وإن وجدت عائشة بنت أبي بكر بينهم عددناهم خمسة . ولكن هؤلاء الخمسة لا يقدرون على منع المجرمين من إجرامهم نحو محمد (ﷺ) . وقد ازداد عدد المسلمين ، بعد السنة الرابعة ، ولا سيا من كانوا يستحقون الرحمة من الله تعالى ، ويتمنون العيش الكريم . هؤلاء هم الغلمان والعبيد السود والغرباء والمطرودون من ديارهم وقبائلهم ، وسائر الأفراد الذين ينضوون تحت مغزى كلمة « الناس » .

يترجم الأوروبيون كلمة « الناس » بـ « العـامّـة » ، في حـين أن مفهـوم الكلمة بالعربية هو (الجماعة) التي ليس في يدها ما يحقق لها الدفاع عن نفسها . وعدد هؤلاء « الناس » اليوم ، وفي كل عصر ، أكثر ممن يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم . إنهم الغلمان والعبيد والغرباء والمطرودون من الديار والطبقة المعدمة . كانت هذه الطبقة تتمنى أن يأتي يوم يتساوون فيه مع الآخرين . وعندما جاء محمد (ﷺ) رسولاً قال إن الناس جميعاً أمة واحدة ، ولا فرق بينها . وقال الله تعالى أيضاً خلق الناس جميعاً من مادة واحدة هي الطين ، حيث ذكرها في الآية الرابعة عشرة من السورة الخامسة والخمسين ، وعنوانها « الرحمن » ، يقول : ﴿ خَـلَـقَ الإنسـانَ من صَـلصالٍ كالفَـخّـار ﴾ .

سمع العبيد والغلمان ، ولأول مرة ، أن الله اتخذ إحدى المواد التي يشتغلون بها في سبيل خَلقهم وخَلق سادتهم والأشراف . ولهذا فلا فرق بينهم وبين أسيادهم ، لأنهم خلقوا من مادة واحدة هي الطين ، ولا يفرّق الله بين لون ولون ووجه ووجه آخر ، ولهذا وجبَ أن يكونوا أمة واحدة . وقد كان بلال أول الغلمان المؤمنين بعد زيد ، وكان ذا بشرة سوداء .

في الجزيرة العربية ثلاث صفات تدل على سوء حظ المتصف بإحداها . أولها الغربة ، وثانيها العبودية ، وثالثها لون السواد . وقد اتصف بلال بالصفات الثلاث جميعاً . فهو غلام أحد أثرياء مكة ويدعى « أمية بن خلف الجمحي »(١) . فعندما فهم مولاه أنه أسلم أخرجه إلى ظاهر مكة ، وهناك خلع ثيابه ، ومدَّده على الأرض ، وربطه تحت الشمس المحرقة بأربعة أوتاد ، وقال له :

ـ ستبقى هكذا حتى تهلك أو تترك الإسلام .

ولكن عبد الله بن عثمان ، والمشهور بأبي بكر صمَّم على إنقاذ بلال ، فذهب إلى مولاه ليشتريه منه . وعندما رأى أمية أن أبا بكر مستعد لدفع أي ثمن وافق على بيع العبد . وبعد أن اشتراه أبو بكر أعتقه ، فعينه محمد (ﷺ) مؤذناً . والمؤذن في اللغة العربية هو الذي يوصل إلى آذان الناس كلاماً ليسمعوه جميعاً . و« المؤذن » في الإسلام هو من يدعو إلى عبادة الله بصوت جَهْوري عال .

عندما رأت الطبقة المحرومة و« الناس » أن عبداً أسود يؤذن في المسلمين ، أقبلوا على الدين الجديد بكل جرأة فأسلمت أُمتان لعمر بن الخطاب اسم الأولى « لبنى » واسم الثانية « زنيرة »(٢) . لم يكن عمر قاسي القلب مثل مولى بلال ،

---

(١) أمية بن خلف بن وهب ، أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم . أدرك الإسلام ولم يسلم . وهو الذي عذب بلالاً . أسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر ، فرآه بلال ، فصاح بالناس يحرضهم على قتله فقتلوه سنة ٢ هـ .

(٢) جاء في أسد الغابة أن « زنيرة » رومية من السابقات إلى الاسلام، كانت مولاة بني مخزوم، وكان =

فلم يربطهما بالأوتاد ، بل اكتفى بضربهما بالسوط ، وقال لهما : سأظل أضربكما حتى تنزعا الإسلام من قلبيكما . ولكن الأمتين لم يرهبهما السوط ، ولا الدم الذي نضح من جسديهما . ومرة أخرى أسرع أبو بكر لإنقاذهما ، فاشتراهما وأعتقهما .

وهكذا غدا عدد المسلمين سبعة ، ثلاثة منهم نساء . والمرأة الرابعة التي دخلت في الإسلام ، امرأة من سكان البادية تدعى « غزية »[1] ولم تكن أمةً . فبعد أن أسلمت قدمت إلى مكة ، وأعلنت للناس جميعاً إسلامها . فقد كانت نساء البادية كرجالها ، لا يرهبْـن شيئاً . لذا فإنها لم ترتدع تجاه تهديد بني قريش . وعندما لاحظت قبيلة قريش أن تلك المرأة لا تتوانى في الدعوة إلى الإسلام سرقوها ، وقادوها إلى قافلة كانت ذاهبة من مكة ، فأركبوها جملاً ، وربطوها به ، وربطوا جملها بجمال القافلة ، وأوصوا أصحابها ألا يقدموا لتلك المرأة طعاماً ولا ماءً حتى تموت جوعاً وعطشاً . وبعد ذلك عليهم أن يحلوا حزامها ، ويرموها في الصحراء طعاماً للضباع .

وتحكي الرواية أن « غزية » ظلت عطشى وجائعة ومتعبة ثلاثة أيام بلياليها . وفي الليلة الرابعة شعرت بأن ماء يتسرب إلى فمها ، فرشفته ، فاستعادت نشاطها . وتهيأ لرجال القافلة أنها ماتت ، ولكن عندما رأوها حية ، وسمعوا منها ما جرى لها ليلاً خجلوا من أنفسهم ، وفكوا قيادها . وتحكي رواية أخرى أن رجال القافلة أسلموا .

حادثة طريفة أخرى عليّ أن أذكرها ، وهي أن قبيلة قريش عندما صممت على سرقة غزية لم يكن أبو بكر مطلعاً على عزمهم ، ولم يكن يعلم بطوية نفوسهم ، وإلا لأقدم على إنقاذها . لقد صرف أبو بكر في صدر الإسلام كل ما

= أبو جهل يعذبها . ولما رأى أبو بكر أنها تعذب اشتراها وأعتقها وهي أحد السبعة الذين أعتقهم أبو بكر . أما أمة عمر فاسمها « زائدة » أو « زيدة » . ولعل المؤلف خلط بين الاثنتين .

(١) غزية ، ويقال غزيلة بنت جابر بن حكيم الدوسية ، أم شريك ، هي التي وهبت نفسها للنبي (ﷺ) .

يملك في سبيل انتشار دين محمد (ﷺ) حتى غدا فقيراً . ولكنه لم يتضايق من فقره مطلقاً . وكان كلما سمع بإسلام عبد أو أمة أسلما ، ويرزحان تحت وطأة ظلم مولاه ، اشتراهما بأغلى الأثمان ، وأعتقهما .

أول شهيدة في الإسلام

كان لأبي جهل أمةٌ تدعى « سُميَّة » ، وهو تصغير « سماء » ، أي المشهور والمعروف . وبالإضافة إلى أنها أمة لأبي جهل كانت تذهب إلى منازل الحوامل من النساء ، لتساعدهن على وضع حملهن . وعملها هذا غير عمل « القابلة » . أي إن النساء يستشرنها في أمور حَملهن . ولهذا حظيت بالاحترام في منزل أبي جهل أكثر من غيرها من الجواري الأخريات . وظلت على هذه الحال حتى أعلنت إسلامها . وحالما سمع أبو جهل بنبأ إسلام سُمية قال لها :

ـ عليك أن تَدَعي هذا الدين الجديد .

فأجابته :

ـ لن أدع دين محمد .

فما كان من أبي جهل إلا أن جعل يضربها بالسوط حتى أُغمي عليها . ووصل نبأ تعذيبها إلى أبي بكر ، فأسرع نحو منزل أبي جهل ، فرأى سمية ما زالت فاقدة الوعي ، فطلب إليه أن يبيعه هذه الأَمة . لكن أبا جهل رفض طلبه . فقال له أبو بكر :

ـ أدفع لك ثمنها مئة دينار .

ولم يقبل أبو جهل بالثمن ، فرفع المبلغ إلى مئة وخمسين . وظل أبو جهل يرفض بيعها ، واستمر أبو بكر يرفع الثمن . ولقد ذكرنا قبلاً أن أبا بكر صرف كل ثروته في سبيل انتشار الإسلام . وعندما لمح إصرارَ أبي جهل قال له :

ـ بعني سمية بإبل قاضية[1] .

« الإبل القاضية » اصطلاح خاص لدى الأعراب ، وتطلق على الجمال التي تقدم فداءً لأهل المقتول . وبعبارة أبسط هي ثمن الدم المهدور يتسلمه الوارث . ولكن أبا جهل الحاقد على محمد (ﷺ) وعلى الإسلام ، رفض بيعها بالإبل القاضية ، ويجب أن نوضح هنا أن أبا بكر حرر حتى الآن ستة عبيد ، وقد أسلموا جميعاً ، وهم رجلان وأربع نساء ، إلا أنه عجز عن تحرير سمية . وعندما سمعت نساء قريش أن سمية تضرب بسوط أبي جهل كل يوم توسَّطن لديه بأن يعفيها من التعذيب ، لأن لها فضلاً عليهن أثناء وضعهن . ولكن أبا جهل رفض هذه الوساطة أيضاً . وبلغ من تعذيبه لها أن تشقق جسمُها ، وتجرح بدنها من رأسها إلى قدمها ، ولم تعد قادرة على الحركة ، ومع ذلك فقد ثبتت على عقيدتها الراسخة .

وعندما يئس من زحزحة عقيدتها صمّم على قتلها ، فساقها في أحد الأيام إلى الكعبة . وأمام الناس جميعاً سألها :

ـ ألا تتركين دين محمد ؟

فأجابت سمية :

ـ لن أدع ما أنار قلبي .

فقال أبو جهل :

ـ فأنا قاتلك الآن .

وأمام سكان مكة رفع رمحه ، وطعنها في صدرها ، فخرج من ظهرها . وهكذا عُدَّت سمية أول شهيد في الإسلام . وبعد أن قتلت سمية أعلن أربعة من سادة قريش ، وهم : أبو سفيان ، وأبو جهل ، وأبو لهب ، وزوجه جميلة ، أنه لا

---

(١) الابل القاضية : ما يكون جائزاً في الدية وفريضة الصدقة .

يسمح لأي إنسان بأن يبيع عبيده لأبي بكر . فقد لاحظوا أن الإسلام قد انتشر بين العبيد ، ولقي في قلوبهم هوًى ، وأن كل عبد يسلم يشتريه أبو بكر ويحرره . لذا منعوا بيع العبيد له حتى لا يزداد عدد المسلمين .

وبعد ذلك أقبل على الإسلام عدد من الرجال الأحرار أمثال : عثمان بن عفان (ابن أخي عبد المطلب) ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص (ابن أخي آمنة أم محمد (ﷺ) ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو (وهو من أشراف مكة ، وأبوه حنيفي) .

ولقد استاءت قريش من تزايد عدد المسلمين ، ولا سيما حين لاحظت أن الذين دخلوا في الإسلام مؤخراً كانوا رجالاً مشهورين . فصمموا على إيذاء محمد (ﷺ) أكثر من ذي قبل ، وقرروا ألا يسمحوا له بدخول الكعبة ، وأوعزوا إلى عدد من رجالهم أن يكمنوا له في الطريق ، فإذا ما خرج من منزله ضربوه بالحجارة ، وقذفوه بالأقذار والأوساخ . فغدت حياته مهددة بالخطر . ولكنه لم يكن يعبأ بالتهديد بل ثابر على قصده الكعبة ، ليؤدي صلاته وعبادته فيها .

يروى أن الكعبة أول معبد بناه الإنسان ، وآدم هو الذي بناه ، وجدّده ابراهيم . ويروى أيضاً أنه عندما حصل الطوفان كان يطوف نوح على سفينته حول الكعبة سبع مرات .

ولم يمض يوم ذهب فيه محمد إلى الكعبة إلا عاد ملطخاً بدمائه ، ملوثاً بما يرميه الكافرون المشركون . وكانوا يعادونه ولا يراعون حرمة الكعبة . لأننا نعلم أن الكعبة وما حولها حرم لا يمكن النزاع فيه منذ قديم الأزمان . ولكنهم تناسوا هذا الأمر وأجمعوا على إيذائه داخل الكعبة أو حولها . وقد ذكرنا كيف حاولوا قتله مرتين ، وكيف قتل أبو جهل سمية في حرم الكعبة .

وأذكر الآن كيف استشهد أول رجل في الإسلام في الكعبة . ففي أحد الأيام عاد محمد (ﷺ) من الكعبة وقد أصيب بأحجار قريش . ولم يدخل منزله حتى وقع

على الأرض فاقداً وعيه . واشتد به الألم لدرجة أنه لم يتمكن في اليوم الثاني من مغادرة المنزل ليذهب إلى الكعبة . وطال انتظار صحابته في الكعبة لتأدية الصلاة . ولما قطعوا الأمل أدوا صلاتهم وحدهم . وبينما كانوا ساجدين هاجمهم نفر من قريش ، فجرحوا عدداً من المسلمين وقتلوا الحارث بن خديجة (وهو ابن أحد زوجيها قبل زواجها بالنبي محمد (ﷺ)) . وهكذا عُدَّ الحارث أول شهيد في الإسلام ، قتل في حال سجوده .

ومنذ ذلك اليوم وفتيان قريش يترصَّدون محمداً (ﷺ) ورجاله ، ليمنعوهم من دخول الكعبة . وعندما استحال عليهم دخول الكعبة لأداء الصلاة بحثوا عن مكان منزوٍ آمن في ظاهر مكة . واختاروا بقعة في الصحراء يصلون فيها ويجتمعون . وحين يكتمل العدد يؤذن بلال فيهم ، وبعد إنجاز الصلاة يقرأ عليهم محمد (ﷺ) ما تيسَّر له من القرآن الكريم . ومضت عليهم مدة لا يتمكنون فيها من أداء صلاتهم في مكة بحرية . ومن أبرز من كان يعاديهم في تلك الأيام : أبو سفيان أخو محمد (ﷺ) في الرضاع ، أي إنهما رضعا من ثدي قابلة واحدة ، وهو نفسه الذي يعلن أن عليهم التخلص من محمد (ﷺ) ، ليبعدوا عنهم خطره .

ولعل من يقرأ بحثنا هذا يتساءل : ولماذا كانت قريش تعادي محمداً ، في حين أن مكة مدينة جامعة للعديد من الأديان ؟ والحقيقة أن مكة مركز أديان قبائل الجزيرة ، يفد عليها الناس ليؤدوا مناسكهم في حجراتهم الخاصة بأوثانهم . ولكل عربي مطلق الحرية في زيارة الكعبة وفي التعبد لوثنه والركوع والسجود له . ولهذا يجب ألا يمانع شكان مكة من دخول محمد (ﷺ) وصحبه إلى حرم الكعبة لأداء عباداتهم .

وردُّنا على هذا التساؤل أن القادمين إلى مكة من سائر أطراف الجزيرة يفدون من أجل أوثانهم ، في حين أن محمداً ، منذ أن أعلن رسالته ، خالف عبادة الأوثان ، ودعا إلى تركها وهدمِ هذه الحجارة ، وإلى عبادة الله الواحد . وقد رأى

سكان مكة أنهم إن تبعوا محمداً (ﷺ) وعملوا بدعوته ، بأن عزفوا عن عبادة الأوثان ، وأخرجوها من الكعبة ، خسروا خسارة فادحة ، لا سيما وأن سوق عكاظ لن ينعقد كل عام . وذكرنا قبلاً أنه لا يوجد في مكة زراعة ، وأن سبيل معيشتهم يجري ما بين : التجارة ، ورعاية الإبل ولا سيما الجمال .

كانت الكعبة في الجاهلية مجمعاً ضخماً لأوثان الجزيرة كلها (واليوم هي ملاذ المسلمين جميعاً ، والكعبة محجّ كل فرق الإسلام) . ولهذا فإن العرب كانوا يقصدون مكة من غير انقطاع على مسار السنة ، بالإضافة إلى تزاحمهم فيها أيام الأشهر الحرم . فإن هدموا الأوثان ، فلن يزورها أحد ، ولن يقصد السوق العام . لهذا فإن سكان مكة وجدوا في دين محمد (ﷺ) خطراً على اقتصاد بلدتهم وفكرهم ، ولا شك أن نهايتهم بفوز دين محمد (ﷺ) .

والسبب الثاني في عداوة قريش لمحمد (ﷺ) أن هذا الدين الذي يحارب به محمد هو دين أجدادهم . وهذا يعني أنه يتهجم على معتقدات أسلافهم ، لأن أجدادهم كانوا عبدة أوثان . وحين أعلن محمد بطلان عبادة الأوثان فكأنه أبطل عبادة الأجداد ، في حين أن العرب في الجاهلية كانوا يجلّون أجدادهم كثيراً ، أي إنهم كانوا يعبدونهم كما يعبدون أوثانهم . والعقيدة مهمة جداً في الجزيرة العربية . ومما هو ملموس أن جميع الأمم ، وفي كل العصور بما في ذلك عصرنا ، تهتم بمظاهر عقائدها أكثر من جذورها وأصولها . إن احترام مظاهر ديانة الأجداد أمر يتبعه السلف عن الخلف من غير تبديل أو تغيير . وكذلك الأمر في الجزيرة ، فقد اهتم الجاهليون بعبادة أجدادهم ، وقدّروها كل التقدير ، ولم يستطع أيٌّ من الناس تغيير ما قد ورثوه ، ولا التفكير في تخطئة عقيدة الأجداد ، أو التعبير عن تقصيرهم في تفكيرهم . ولكن محمداً (ﷺ) قال هذا وأعلنه ، ولهذا عاداه أهل مكة . حتى عندما علم أهل مكة أين يجتمع المسلمون ، وأين يؤدون صلاتهم منعوهم .
ويروي سعد بن أبي وقاص :

« نحن (المسلمين) لم نعد نستطيع الاجتماع في الكعبة ، فكنا نجتمع في منزل أحد المسلمين لنؤدي عنده صلاتنا ، ثم حيل علينا هذا أيضاً بعد حين لاكتشاف قريش مكاننا . فحتى نتمكن من الاجتماع في منزل ذلك الرجل وجب علينا أن نفد عليه زرافات ، وسيرانا المارون وأهل الحي حتماً ، وسيحملون علينا ويقتلوننا جميعاً . ولهذا عزمنا على الخروج إلى الصحراء الواحد تلو الآخر ، وكنا نجتمع في مكان معين ونتعبد الله فيه . وكنا قبل أن نعود إلى مكة نعين بقعة أخرى للاجتماع في اليوم الثاني ، بحيث يتعذر على المشركين مراقبتنا ، ولا معرفة المكان الذي نجتمع فيه كل يوم .

واجتمعنا يوماً في وادٍ يدعى « أبو دوب » ، وبعد التطهر شرعنا بعبادتنا . وفيما كنا نصلي فاجأنا عدد من أفراد قريش منهم « أبو سفيان » و« الأخنس بن شريق »[1] ، وطالبونا بالدفاع عن أنفسنا. فالتقطت عظمة جمل كبيرة ، أدافع بها عنا ، وضربت بها أحدهم ضربة قوية ، فنفر الدم من رأسه . وحين رأى الرجل المصابُ الدمَ يسيل من رأسه هرب . وهكذا كنت أول رجل في الإسلام فجّر دم كافر » .

كان رسول الله (ﷺ) المسلم الوحيد في تلك المرحلة الذي تجرأ وخرج من منزله من غير خوف من الموت ، في حين أن الآخرين لم يستطيعوا الخروج من منازلهم إلا في الصباح الباكر أو في آناء الليل ، والناس نيام . وعلى أية حال فإنهم كانوا يخرجون من منازلهم بمظاهر تخفى على القرشيين ، أو يسيرون في الطرقات من غير أن تقع أبصارهم على أبصار أحد من المشركين . ومع ذلك كان عدد المسلمين يتزايد ولكن ببطء . وأغلب من يفد على الإسلام : العبيد ، والفقراء ، أو الذين يعدُّهم الأشراف غير مرغوب فيهم ، ولكن النبي محمداً (ﷺ) لم يكن ينظر إليهم

---

(١) اسمه أبي بن شريق ويعرف بالأخنس ، وكان حليفاً لبني زهرة ومقدماً فيهم . أعطاه الله مع المؤلفة قلوبهم .

بمنظار أشراف قريش وسادتها ، ويكتفي بمنظار رأيه الخاص به .

إذا حكم على فرد في الديانة المسيحية بأن له سوابق سيئة أجازوا سفك دمه .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين رجل سيىء حقاً ، ورجل حُكم عليه بالسوء . وإذا قدم أحد أصحاب السوابق إلى محمد (ﷺ) يريد إعلان إسلامه نظر اليه بفكره الثاقب من زاويتين : إما أن الأشراف يعتبرونه سيئاً ، وفي هذه الحال يدرس التهم الموجهة إليه ، فإن كان بريئاً رحب به في الإسلام ، وإما يرونه ذا ماض سيىء حقاً ، فإن لاحظ عليه الندم والتوبة فإنه يسمح له بالدخول في الإسلام ، وإلا فلا . وخير مثال على هذا الموضوع قصة إسلام أبي ذر الغفاري :

تقع في شمالي مكة أرض تعتبر من أرهب أراضي الدنيا ، كانت تحيا فيها قبيلة تدعى « غِفار » ، تعيش على الإغارة وقطع الطرق . هذه المنطقة ـ كانت وما زالت كذلك بعد أربعة عشر قرناً ـ وعرة ، حارة ، تكثر فيها الأحجار ، لا تنبت فيها الأعشاب ولا الأشواك ، ولا يرى فيها حيوان ولو كان الحرباءَ . والمتجه إلى هذه المنطقة يتعثر ببعض التلال القليلة الارتفاع ، وذات الجروف العمودية السحيقة ، وكأنها قُطِعت عمودياً بالسكين . ويختفي بين هذه التلال وديان عميقة ، جافة ، مرهبة . وإذا ألقى المسافر ببصره من أعلاها إلى أعماقها وقع نظره على صخور غير متكافئة ، منها الأسود ، والأخضر ، والأصفر ، فتعتريه قُشعريرة من رهبة المكان . وعندما عبرتُ هذه المنطقة ـ إبان زيارتي ـ تصورت أنني أمرُّ فيها منذ بدء الخليقة ، أو أنني أجوس أرض القمر ، لأن مظهر هذه الأرض شبيه بمظهر أرض القمر المكتشفة حديثاً . وكانت بعض هذه المناطق سوداء كالقطران ، وبعضها الآخر أصفر اللون . وتشتد الحرارة في فصل الصيف ، فتغدو الصخور محرقة ، فتتلألأ وتنعكس الحرارة من الأرض على الفضاء . فيستحيل على المرء تحمل هذه الحرارة التي لا تطاق . ويكفي الوقوف عدة ساعات في هذه المنطقة ليهلك فيها الإنسان .

تعيش قبيلة غفار في هذه المنطقة ، معتمدة في حياتها على الإغارة والغزاة . ولم تكن الإغارات والغـــزوات في عُـرف العرب عيباً أو منقصة . بل إن المنتصر في إغارته يتباهى بين أقرانه . وتكمن القبيلة الغازية لقبيلة أخرى ، حتى إذا لمحت غفلة منها أغارت عليها . وفي الإغارة يجب ألا يَـسفك المغـيرون الدمـاء ، وألا يسرقوا أموال النساء والأطفال بالإكراه . ولم يكن من الأعراف خلع ملابس نساء القبيلة المغار عليها ، ولا أخذ حليهن كرهاً ، ولا التعرض لأعراضهن . وإن طلب المغيرون من النساء ان يخلعن حليهن وملابسهن الجديدة ، استدار المغيرون وغضوا الطرف حتى لا تقع أبصارهم على عوراتهنّ . وكانت الإغارة في أشهر الحرم الأربعة محـرّمة ، وكذلك لا تجوز الإغارة على الذين اتجهـوا نحـو مكة ، وهـم في لبـاس الإحرام ، ويجب ألا يُـقتلوا ما لم يُـشهروا سيوفهم في وجه المغيرين .

أما قبيلة غفار ـ التي كانت تحيا في تلك البقاع في شمالي مكة ـ فإنها لم تكن تراعي هذه الأعراف مطلقاً ، وكانت تغير على القوافل في أي وقت تشاء ، حتى من كان مُـحرماً من المسافرين . وفي أحد أيام شهر ذي القعدة (وهـو أحـد الأشهـر الحرم) عبرت قافلة الصحراء بالقرب من منطقة بني غفار ، فأغاروا عليها . ولم يكتفوا بسلبها ونهبها ، بل سفكوا دماء الرجال ، وهاجموا النساء . وعندما شاهد أبو ذر ما فعلته قبيلته ، وسمع عويل النساء وبكاء الأطفال فوق جثث أمهاتهم تألم لهذا المنظر المؤلم ، وقرر أن يخلع نفسه من قبيلته ، وألا يحيا في وطنه . وهكذا ترك أمه وأباه ، وكان بعـدُ فتى ، وخرج يعبر الصحراء . ومن يترك قبيلته أو تطرده هي يُـحكم عليه بالفناء ، فكيف بفرد من أفراد قبيلة غفار ؟

كان العرب قد أهدروا دم بني غفار ، وكلما رأوا فرداً منهم قتلوه . لأنهم لم يراعوا حرمةً لأعراف العرب ولا لتقاليدهم . وابتعد أبو ذر عن مضارب قبيلته ، وتوسط الصحراء وحيداً يطوي البيد ليلاً ونهاراً . وظل على هذه الحال عدة شهور ، يختـار أرضـاً ، فيقتلـع منهـا جذور بعض النباتـات فيأكلهـا ، ويصطـاد بعض

الحرباءات فيقتات بها . ومن لم يكن بدوياً لم يتمكن من الحياة على مثل هذا النوع من الغذاء . ولكن الأعراب ، كما ذكرنا قبلاً ، اعتادوا على الجوع والعطش ، فغدا الأمران من طباعهم ومن فطرتهم .

كان السير ريتشارد باتون الإنكليزي في سياحة للجزيرة العربية عام ١٨٥٠ م . ولم تكن السيارات قد راجت في الجزيرة . ومما سجله في مذكراته : « يعتقد العرب أن الطعام سبب كبير من أسباب الموت ، لا العطش . وما دام البدوي في صحرائه جائعاً فهو سالم ، وإذا نزل إلى المدينة ، وأكل الكثير من الطعام اضطربت معدته ومات بعد سنتين أو ثلاث » .

وهكذا تحمل أبو ذر العيش في الصحراء عدة شهور جائعاً عطشان وحيداً ، يتأمل ليلاً لمعان النجوم في السماء ، ويفكر فيها ، وظل على هذه الحال حتى وصل إلى مكة . وأقام فيها ثلاثين يوماً من غير أن يعرفه أحد . وفي غضون هذه المدة سمع بمحمد (ﷺ) وبدعوته الناس إلى عبادة إله واحد ، وبترك الفسوق والشرك . فصمم أبو ذر على الاتصال به بعد مضي ثلاثين يوماً . فسأل أحد الأشخاص :

- أين يقع منزل محمد (ﷺ) ؟

نظر الرجل متعجباً وصاح :

- يا أهل قريش، أقبلوا على هذا الرجل واقتلوه ، لأنه مسلم .

فحمل الناس على أبي ذر ، ولكنه طلب النجاة فهرب . فتعقبه الناس يحصبونه بالحجارة . وقال أبو ذر :

- من كثرة ما أُصبت به من الحجارة ، فقدتُ وعيي وسقطت على الأرض ، فظنني الناس فارقت الحياة ، فتركوني وعادوا . وعندما عاد إليّ رشدي رأيت جسمي كلّه ملطخاً بالدم . وظللت في مكاني حتى حلّ الظلام ، فقدم إليّ رجلان وأعاناني . وعرفت - فيما بعد - أن أحدهما كان أبا بكر . فقد وصل نبأ

ضربي بالحجارة إليه عن طريق أحد المسلمين ، وبعد حلول الظلام قدم برفقة أحد أصحابه إلي .

وتمكن أبو ذر من رؤية محمد (ﷺ) في اليوم الثاني . فسأله رسول الله (ﷺ) عن اسمه وعن قبيلته . فقال له أبو ذر :

- إنني من قبيلة غفار . ولما كنت غير راض عن أعمال قبيلتي تركتُ أهلي ، وانطلقت أهيم في الصحراء وحدي إلى أن وصلت إلى مكة . وسمعتُ هنا أنك تدعو إلى عبادة إله واحد ، فعزمت على الاتصال بك لتعرِّفني بهذا الخالق .

فسأله رسول الله (ﷺ) :

- وكم يوماً مكثت في مكة ؟

فأجابه أبو ذر :

- ثلاثين يوماً .

فسأله رسول الله (ﷺ) :

- أكان لديك ما تَعيش به في هذه المدة ؟

فأجاب :

- كلا ، لم يكن لدي شيء .

فسأله محمد (ﷺ) :

- وكيف كنت تعيش ؟

فأجاب أبو ذر :

- كنت أكتفي بشرب ماء زمزم .

فسأله محمد (ﷺ) :

ـ ألم تأكل طعاماً طيلة هذه الأيام ؟

أجاب أبو ذر :

ـ كلا[1] .

يجب ألا يأخذنا العجب من كلامه ، لأننا نعلم أن الإنسان يظل حياً إن اكتفى بشرب الماء ! إلا أن وزنه يتناقص ، ويضؤل جسمه . والذين اعتادوا على الجوع يستطيعون البقاء أحياء بلا طعام بشرط أن يستمروا على شرب الماء . ومع أن محمداً (ﷺ) كان يعلم أن أبا ذر غفاري أي قاطع طريق فإنه وافق على دخوله في الإسلام ، لأنه لاحظ في أثناء حديثه مظاهر الأسف والندم بادية على محياه ، مما فعلته قبيلته ، وأنه كان يبحث عن طريق سليم آخر يخالف طريق قبيلته . وهكذا غدا أبو ذر أحد رجال الإسلام البارزين ، وله الفضل في هداية رجال قبيلته جميعاً ، وفي إسلامهم وتوبتهم عن الاغارة والسلب والنهب .

وقد استشهدنا على حياة أبي ذر لنبلغ النقطة التي ينطلق منها محمد (ﷺ) مع الداخلين في الإسلام . وهي أن من عرفوا بأعمال مشينة في الجاهلية ثم تابوا يقبلهم النبي في الإسلام . كما أننا أردنا أن نشير إلى مدى عداوة قريش ، بحيث إن قصد أحدهم منزل محمد (ﷺ) قتلوه ، لأنهم يعتقدون أنه مسلم أو أنه يريد أن يسلم . ولهذا كانوا يمنعون قاصديه من الوصول إليه .

(١) ورد في الإصابة : ٤/ ٦٣ عدد من الروايات في قصة إسلامه ، يدنو مجموعها مما ورد في هذا الفصل .

كيف أسلم عمر بن الخطاب أشجع العرب؟

مما يثير الإعجاب أن المشركين لم يتمكنوا من قتل محمد (ﷺ) رغم محاولاتهم المتعددة . وسبب عدم توفيقهم وجرأتهم على قتله أن قريشاً منقسمة إلى عشر قبائل ، إحداها بنو هاشم . والقبائل التسع الباقية كانت تسعى إلى التخلص منه ، وعليها جميعاً أن تدفع الدية المناسبة لبني هاشم . لهذا ما كانوا يجرؤون بشكل جدي على قتله . وقد قالت قريش لمحمد (ﷺ) :

ـ إنك رجل ضعيف ، ولو لم تحمك قبيلتك لقتلناك وتخلصنا منك .

وبعد أن انخذلت قريش مرتين في مساعيها ، ولم يتيسّر لها قتله أحجمت عن الأمر لوجود حام جديد إلى جانبه . ففي أحد الأيام ، وبينما كان محمد خارجاً من منزله هاجمه فتيان قريش ، وضربوه بالحجارة حتى أدمَوه ورموه أرضاً . فتضايق أحد المشاهدين من فعل المشركين ، فذهب إلى منزل حمزة عم النبي (ﷺ) ، يحكي له الأمر ، وكان في تلك اللحظة قد عاد من صيده ورياضته . فقال الرجل له :

ـ كيف ترضى أن يُضرب ابن خيك ، ويُهان ، ويُسمع أقذع الكلام ولا تتقدم لحمايته وأنت الهُمام ؟

لم يكن حمزة يعبأ بدين محمد (ﷺ) حتى تلك اللحظة ، لأنه سمع أنه يخالف عقيدة الأجداد ، ومن طبعه أن يحترم عقائد أسلافه . ولكنه عندما سمع ما يفعله المشركون بابن أخيه ، ولا سيا أنهم يشتمونه سأل الرجل :

ـ وماذا كانوا يقولون له ؟

فقصَّ الرجل على حمزة بعض ما سمعه من الكلام النابي فثارت ثائرة حمزة ، وغلى الدم في عروقه ، وبدت عليه علائم الغضب . والعرب بطبعهم يولون « الكلام » أهمية كبيرة ، لائقاً أو غير لائق . ويعتبرون الإهانة اللسانية جرماً لا يمكن التغاضي عنه . حتى إن الرجل إذا قال لزوجته : كفلك يشبه كفل أمي غدت المرأة محرَّمة عليه . ثم إن سماع الكلام النابي يعتبر سُبَّة لكل أفراد القبيلة ، لأن القبيلة الواحدة مرتبطة برابطة الدم الواحد .

فشهر حمزة سيفه ، وخرج متجهاً نحو منزل أبي جهل ، لأنه يعلم أنه رأس الفتنة والعداء . وقرع الباب قرعاً شديداً ، وقال لأبي جهل ، والشرر يتطاير من عينيه :

ـ أو تظن أن محمداً (ﷺ) من غير حماية ؟ فتضربه بالحجارة وتشتمه بالكلام القبيح ، لقد دخلت في الإسلام منذ اليوم . فمن مسَّ محمد (ﷺ) بإهانة لم يسلم من عقابي .

واشتدَّ أزر المسلمين بحمزة ، لأنه بطل ، مبارز ، مرهوب الجانب . ومع ذلك فإن قريشاً لم تدع فرصة لم تؤذِ محمداً (ﷺ) فيها ، على الرغم من إسلام حمزة . فقد ظل المسلمون يجتمعون لأداء صلاتهم في منزل مبني على تل الصفا ، وكان هذا المنزل مقابل الكعبة . وقد زرتُ هذا المنزل ، فرأيته غدا مدرسة اليوم .

وعندما كان المسلمون يؤمُّون المنزل ليتعبدوا ، كان بعضهم يشهرون سيوفهم، ليكونوا يقظين من مغبة حملة مفاجئة، يقوم بها نفر من المشركين. كان المسلمون نظاميين تماماً في اتِّباعهم أوامر رسول الله (ﷺ) ، فهم يحضرون جميعاً في الوقت المحدَّد لأداء الصلاة جماعة ، لأن رسول الله (ﷺ) لا يقبل عذراً لغياب أو تأخر ، إلا إذا كان لمرضٍ يمنعه من النهوض .

يخاف الأعراب من أن يفاجئهم أحد فيقتلهم ، ولكنهم حين يحملون السلاح

ويتأهبون ينزاح عن قلوبهم الخوف ويشجعون . وإن شهر أحد الأعراب سيفه جابه عشرة أشخاص بكل جرأة ، والمسلمون من هؤلاء الأعراب ، وبالإضافة إلى قوة معنوياتهم هذه كانوا يعتقدون بالأجل المحتوم النازل من الله الخالق . لذا فإن شهر أحدهم سيفه ، ونزل ساحة الوغى فلن يموت إلا إذا دنا أجله . ومع ذلك فما كانوا يرمون بأنفسهم إلى التهلكة ، كما كانوا لا يعرفون الأناة في مجابهة العدو ، أي إنهم كانوا ذوي بصيرة وحلم . وقد امتاز عرب الجزيرة بهذه البصيرة ، وكانوا يعلمون أن التواني في ساحة الحرب خطر .

بعد أن أسلم حمزة وفد على الإسلام عدد من الرجال ، حتى بلغ عددهم ثلاثين شخصاً . وكان سكان مكة ، ولا سيما قبيلة قريش ، يتخوفون من ازدياد عددهم . لهذا اجتمعوا في « دار الندوة » ليتدارسوا مسألة إنهاء هذا الدين الجديد . ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة مرضية . وكان من جملة السادة المجتمعين رجل يدعى عمر ، وقد أعلن لهم بعد انتهاء المجلس :

ـ أنا أقتل لكم محمداً ، وأُريح مكة من شره .

كان أشراف قريش يتمنون قتل محمد (ﷺ) ، ولكنهم ما كانوا يجرؤون على ذلك ، في حين أن عمر يستطيع ذلك ، فهو أحد ذوي العزم المتعصبين لمكّة . ثم هو ذو قامة فريدة ، لا شبيه لها في مكة ، وكان طويلاً لدرجة أنه عندما كان يدخل إلى مسجد المدينة (بعد الهجرة) كان يبلغ رأسه سقف المسجد . وأهل مكة على ثقة من كلام عمر ، ويعرفون أنه لا يتراجع عن كلامه مطلقاً . فإن قال : « سأقتل فلاناً » فإنه يقتله حتماً . وحين أعلن عمر أنه سيخلصهم من محمد (ﷺ) كان ذلك عام ٦١٤ م و٨ ق . هـ . وفي ذلك الوقت كان محمد (ﷺ) والمسلمون في المنزل الذي ذكرنا أنه على تل الصفا . فذهب عمر إلى منزله ليأتي بسيفه ليقتل به محمداً ، واتجه بعد ذلك نحو الصفا . وفي الطريق لقيه شخص يدعى « نُعيم بن عبد

الله »[1] ، وهو مؤمن سراً من غير أن تعرف قبيلة قريش ، فسأله :

ـ إلى أين يا عمر ؟

فأجاب عمر بصوته المرتفع المعهود :

ـ لم يخطر ببالي يا نعيم إنني سألقى رجلاً يهيننا مثل محمد طيلة حياتي ! بل إنه أهاننا أكثر من أن يهيننا عدونا . لقد جاء هذا الرجل بدين جديد ، ونشره بين سكان مكة ، وسخر من أجدادنا ، ومرّغ عقيدة آبائنا بالتراب ، ويطالبنا اليوم بترك عبادة آلهتنا . لقد صبرنا عليه كثيراً لأنه واحد من قريش ، ولكن إهاناته ازدادت الآن ، ولهذا فأنا ذاهب لأقتله وأريح سكان مكة من شره .

يعلم نعيم أن عمر رجل صادق اللهجةوصريح وشريف وذوتصميم لا يتراجع عن قراره إلا إذا قارن عقله بتصميمه وترجّح العقل لديه ، لأن الصادق والشريف يهدف إلى العقل والعدالة ، ولا يرمي إلى اللجاجة والإصرار . فتبعه نعيم وقال له :

ـ تمهلْ يا عمر ، فلي معك كلام .

فتريث عمر حتى وصل إليه نعيم ، وعندما وقف قربه لم يبلغ رأسه صدر عمر . ومن عادة عمر أنه لا يشهر سيفه إلا في الحرب ، وفي غير ذلك يضرب خصمه بالسوط . ولكنه في ذلك اليوم كان شاهراً سيفه ليقتل به محمداً . وعندما توقف عمر قال له نعيم :

ـ أنت لست راضياً حتماً عن دين محمد (ﷺ) لأنك تقول إنه يُقلق دين

---

(١) هو نعيم بن عبد الله النحام من بني عدي . أسلم قديماً ، ويقال : أحد العشرة الأوائل وقيل أكثر ، ولكنه على أية حال أسلم قبل عمر . وكان يكتم إسلامه ، ومنعه قومه لشرفه فيهم من الهجرة لانه كان ينفق على أرامل بني عدي وأيتامها . قتل يوم اليرموك شهيداً في خلافة عمر (أسد الغابة) .

سكان مكة . ولكن قبل أن تمنع الناس عن هذا الدين الجديد ، ألا ترى من الأفضل أن تهتم بأمور منزلك ؟

فسأله عمر متعجباً :

- ماذا تريد أن تقول ؟!

قال عمر :

- إثنان من أقربائك أعلنا إسلامهما ، وهما يقيمان الآن في منزلك . أحدهما أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد(١) . فأرى أن تهتم بمن في منزلك قبل أن تهتم بسكان مكة .

عندما سمع عمر كلام نعيم وافقه على رأيه ، لأنه رجل منطقي ، وقال له :

- إن ما تقوله صحيح ، علي أن أقلع جذور الإسلام من منزلي قبل أن أنهيه من مكة .

وهكذا انصرف عن مهاجمة تل الصفا ، وعاد إلى منزله . وشاهد هناك أخته وزوجها سعيداً ورجلاً آخر اسمه خَبَّاب(٢) ، وكان مسلماً أيضاً ، مشغولين بتلاوة آيات من القرآن . فهجم عمر على أخته يضربها بالسوط ، وشدّد في ضربها حتى سال دمها من عدة أجزاء من جسمها . وقال لها :

- عليك أن تتركي دين محمد (ﷺ) .

---

(١) هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي . هاجر إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها إلا بدراً ، كان غائباً في مهمة أرسله فيها النبي (ﷺ) . وهو أحد العشرة المبشرين ، وكان من ذوي الرأي والبسالة . ولاه أبو عبيدة دمشق بعد اليرموك . توفي بالمدينة سنة ٥١ هـ .

(٢) هو خباب بن الأرت التميمي . قيل : أسلم سادس ستة ، وهو أول من أظهر الإسلام. كان في الجاهلية قيناً يعمل السيوف بمكة . ولما أسلم استضعفه المشركون فعذبوه . شهد المشاهد كلها ، ونزل الكوفة فمات فيها سنة ٣٧ هـ وهو ابن ٧٣ سنة .

وقالت فاطمة له :

ـ لو قتلتني بسوطك ما تنازلت . وأنت إن قرأت القرآن علمت أن دين محمد (ﷺ) حق .

وهنا تعترضنا روايتان ؛ إحداهما أن عمر تناول القرآن من يد سعيد ، وشغل بقراءته . والرواية الثانية أنه طلب من زوج أخته أن يقرأ له ، ليرى اثر الذي قالت عنه أخته . تُشعرنا الرواية الأولى بأن عمر أخذ القرآن من يد سعيد ، وهي رواية لا تتناسب والوقائع التاريخية ، لأن القرآن في السنة الثامنة قبل الهجرة لم يكن بالشكل الذي نعرفه اليوم . بل إنه لم يكن كذلك طيلة حياة النبي (ﷺ) . ولم يجمع القرآن إلا في عهد خلافة عثمان .

كان القرآن متداولاً ومعروفاً بشكل آيات متفرقة ، وأكثر المسلمين كانوا يحفظونه غيباً ، ولم يكتب منه إلا بعض الآيات ، لأن أكثر المسلمين في صدر الإسلام أميون ، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة . لم يكن القرآن في ذلك الزمان بالشكل الذي نراه الآن ، لأن آياته لم تكن قد جُمعت ولا اكتملت ، لأن بعضها نزل بالمدينة بعد الهجرة .

وعندما فاجأ عمر أخته وضربها كان ذلك سنة ٨ ق . هـ . ولعل بعض المسلمين كتبوا بضعة آيات ، ومنهم أحد هؤلاء الثلاثة ، حتى لا ينساها ، وسقطت بيد عمر . ولا نعلم على أي شيء كُتبت ولا بأي شكل ، أكانت طوماراً ملفوفاً ، أو كانت صفحة مفتوحة ؟ لم تكشف الرواية شيئاً من هذا . على أية حال فإن عمر قرأ آيات من القرآن ، وتأثر بها تأثراً عظيماً . فقبَّل أخته واعتذر لها ، وقال لهؤلاء الثلاثة إنه يرغب في الإسلام فوراً . وذهب الثلاثة ، ومعهم عمر ، إلى تل الصفا ، حيث كان محمد . وعندما شاهد المسلمون من أعلى التل أخت عمر ، ووجهها ينزف دماً ومعها عمر ، تصوروا أنه قدم لقتالهم . ولكن عمر طيب خاطرهم ، وأخبرهم أنه قدم ليعلن أسلامه . وقد بلغ عدد المسلمين بإسلام عمر

أربعين شخصاً . وإسلامه هذا شجع كثيراً من الناس على الالتفاف حول محمد (ﷺ) كما أثر في تاريخ صدر الإسلام .

كان مظهر عمر من أبرز المظاهر المشهورة في عصره . فهو كما ذكرنا طويل القامة ، جهم ، وذو صوت جَهْوري . ويبلغ صوته مسافة ألف قدم . ولقد اكتملت فيه كل صفات الرجل الأعرابي . وبالإضافة الى ذلك كان ، وهو على جاهليته ، يمتنع عن المنهيات كلها ، كما كان يُمسك عن الطعام الكثير ، ويكتفي بخمس لقيمات في وجبته ، ولا يأكل غيرها . وليس بعيداً أن تكون قوته هذه عملاً خارقاً للطبيعة . فحينما غدا خليفة كان يشتغل خمس عشرة ليلة بلا انقطاع ، ومن غير أن يشعر بالكلال أو بالملل . ولم يكن يتهاون في معاقبة المجرم ، ولا يخفف من العقاب المناسب ، ولكنه كذلك لا يعاقب بريئاً .

استمرت خلافة عمر عشر سنوات ، وتمكن في هذه المدة القصيرة أن يزيح ثلاثة أباطرة عن حكوماتهم العظيمة في سبيل الإسلام ، وهي امبراطوريات : إيران ومصر وسورية . لكنه ظل حتى آخر ساعة من عمره يحيا على حصير مضفور من أوراق شجر البلح ، ويكتفي في وجبته بخمس لُقيمات ، على الرغم من أنه كان يحكم معظم بلدان العالم القديم .

في ذلك العام ، عندما صعد التل وأعلن إسلامه قال :

ـ فلنذهب إلى الكعبة .

ومشى المسلمون ، لأول مرة في تاريخ الإسلام ، بشكل جماعة في أحياء مكة ، حتى وصلوا إلى الكعبة . وتجمع أبو جهل وأبو سفيان وأبو لهب وسائر أشراف قريش مقابل الكعبة ، من غير أن يجرؤوا على دخولها . وبعد أن أتمّ المسلمون صلاتهم ، خرجوا إلى منازلهم . فتقدم عمر من أشراف قريش وقال :

- إن كنتم في حاجة إلى شيء من محمد (ﷺ) بعد الآن فكلموني ، لأنني أعلنت إسلامي هذا اليوم .

كان سادة قريش يخافون من عمر كثيراً لدرجة أنهم لم يجرؤوا على إجابته .

وسار عمر مرافقاً لمحمد وحامياً له حتى أوصله إلى منزله . فلم يجرؤ أحد على إهانته أو قذف الحجارة عليه . ولاحظ المشركون أن عمر تعهد حماية محمد (ﷺ) أكثر من تعهد حمزة له . فسبّب هذا الأمر تخوفاً شديداً .

كان حمزة ، كما أشرنا ، مبارزاً وصياداً ، ولكن قريشاً كانت ترهب شخصية عمر أكثر ، لإرادته القوية ، وشجاعته ، ووفائه . ويقال إن إبليس يرتجف من عمر . ومع كل هذا ، فإن أعداء محمد (ﷺ) كانوا أعرابيين كما كان محمد (ﷺ) وعمر ، وهم شديدو التمسك بعقيدتهم وبدين آبائهم وأجدادهم ، ولا يمكن أن يقبلوا من محمد (ﷺ) أن ينال من أجدادهم ، أو أن يسفّه آلهتهم .

وبعد المشاورة قرروا أن يقصدوا أبا طالب سيد قبيلة هاشم ، ليطلبوا إليه أن يطرد محمداً (ﷺ) من قبيلته ، ليتمكنوا من قتله . فما دام محمد (ﷺ) في قبيلة هاشم فإن جماعة قريش لا تجرؤ على قتله . وإن وافقهم أبو طالب على هذا أُبيح لهم سفك دم رسول الله (ﷺ) . وإن قتلوه من غير طرد طولبوا بدفع الدية ، هذا إذا وافقت قبيلة المقتول على قبض الدية . وهكذا اختاروا عدداً من الأفراد يعرضونهم على أبي طالب ، لينتقي واحداً أو اثنين تعويضاً عن محمد (ﷺ) حين يطرد من قريش .

يحتار الباحث ، إذ كيف تطلب قريش من أبي طالب طرد ابن أخيه من قبيلته ، والاستعاضة عنه بفتى أو فتيين . ويقتضي توضيح هذا الأمر الإشارة إلى أنه لم يكن هناك عقاب معنوي لقتل النفس قبل الإسلام في الجزيره العربية . وعندما يَقتل شخص شخصاً لا يشعر القاتل بشعور الندم والأسف ، كما لا ينظر

الآخرون نحوه نظرتهم إلى مجرم ، ذلك أن الإحساس بالإثم عُرف بعد الإسلام . لهذا فإن عرب البادية كان الواحد منهم يقتل العشرات من غير إحساس بالذنب من قبله ، أو بالجرم من قبل الآخرين . إن الفرد في القبيلة يشبه جواداً أو جملاً ، فحين يقتلونه يطالَب القاتل بدفع ثمن دمه . فإن وافقت قبيلة المقتول على تسلم الدية لم يبق في رقبته ذمة معنوية ما . وأحياناً يقدمون فرداً من قبيلة القاتل إلى قبيلة المقتول فيتعادل الأمر . لأن رجال البادية يعتبرون الرجال رأس مالهم المادي ، ويعتقدون أن قتل فرد إنقاص من قوة قبيلة المقتول المادية . فإن أُلحق فرد بقبيلة المقتول تعادلت كفة القبيلة ، ورفع عنها الضرر .

يرفض بعض شعراء الجاهلية هذا المبدأ الذي تسير عليه القبائل . فيعدّون أن ثمن الولد أو الأخ أو الأب لا يمكن تعويضه ، حتى وإن كان التعويض قتل أحد أفراد القبيلة الظالمة . بل إن أحد الشعراء صرّح بأن قتل القبيلة كلها لا يُعوض ما فُقد . وبشكل آخر ، هم يعتقدون أن الدم لا يباع بجمل أو بذهب . وقد اضطر هؤلاء الشعراء ـ بآرائهم الجريئة هذه ـ إلى أن يتركوا قبائلهم ، ويعيشوا بقية عمرهم وحيدين في الصحراء ، كأي رجل طريد . لأن رأيهم هذا يُعتبر مخالفة لـ « المروءة » ، و« المروءة » قانون الأعراب الأساسي ، وفيه أن القاتل مستعد لدفع ثمن دم المقتول ، فإن قبضه وارثوه لم يعد لهم ذمة نحو القاتل أو نحو قبيلته ، ولا حاجة إلى إبادة قبيلة من أجل واحد .

هذا هو رأي الشعراء ، ولكن الذين سيخاطبون أبا طالب تجار ، وتجار قريش ينصاعون للسنن القديمة ولأعراف « المروءة » ، ويظنون أنّ أبا طالب لن يتضرر إذا طرد محمداً (ﷺ) وعُوض عنه بفتَيين ، واثنان ينفعان أكثر في نظرهم ! من واحد .

وذهب ممثلو قريش إلى أبي طالب ، وأبلغوه اقتراح قبيلتهم . فأجابهم أبو طالب :

ـ أنا لن أعلن إسلامي مطلقاً ، وسأموت على دين آبائي وأجدادي . ولكنني لا أستطيع طرد ابن أخي لتقتلوه . بيد أني أعدكم بأن أحادثه ، ولعـلّـي أُوفّـق بردّه عن دينه الجديد . فتعالوا إلـيَّ غداً لأطلعكم على ما وصلت إليه .

وأستدعى أبو طالب ابن أخيه إلى منزله ذاك اليوم ، وقال له :

ـ لقد طلبت إلـيَّ قبيلة قريش أن أطردك ليتمكنوا من قتلك . ولكنني قلت لهم : إنني لن أقبل بدين محمد (ﷺ) . كما لن أطرده ، ولعـلّـي أصرفه عما هو فيه .

فسأله محمد :

ـ عن أي شيء تصرفني ؟

أجاب أبو طالب :

ـ لقد وعدتهم بأن أحادثك لتصرف عن فكرك هذا الدين الجديد ، وتسكت عن أمثال هذا الكلام الذي تقوله .

قال محمد (ﷺ) :

ـ أيْ عـمٍّ ، عندما أمرني الله بأداء رسالتي لم أعتمد إلا عليه في أدائها . والآن ليس لي اعتماد إلا الله ، فإن شئت أن تطردني فافعل .

ولكن أبا طالب لم يطرده لأن عمله هذا يعـدّ عيباً منه . فقال لقريش :

ـ لن أطرد محمداً (ﷺ) ، ولن أقبل دينه طوال حياتي .

عندما انخذل بنو قريش مع أبي طالب قرروا أن يحادثوا محمداً (ﷺ) وجهاً لوجه . فأرسلوا أجدر رجالهم ، المعروفين بالحلم والأناة ومعرفة الرجال . فذهب إلى محمد (ﷺ) وقال له :

ـ يا محمد ، حين شببتَ أسميناك « محمداً الأمين » و« محمداً الصبور » . وكم كنا راضين عن حسن أخلاقك ، ولم نعرف عنك أذى لأحد . ولكنك الآن تؤذي سكان مكة جميعاً بكلامك ودعوتك ، ولم يعد أحد راضياً عنك . ذلك أنك تُعلن على الملأ أن ديننا باطل ، وأن أوثاننا غير نافعة، وأن أجدادنا على باطل، في حين أنك واحد منا وابناً لأجدادنا ، فكيف تقبل أن تُهين أجدادنا ؟ أريد منك أن تحكي لي ما تطمح إليه ، فإن كنت تريد مالاً أعطيناك قدر ما تريد ، وسنجمعه لك من تجار مكة لتحيا غير محتاج . وإن كنت تريد امرأة أعدك بأن قبيلة قريش تقدم لك أجمل بناتها ، وبإمكانك أن تنام كل ليلة مع واحدة من القرشيات الجميلات . وإن كنت تطلب جاهاً ومقاماً أجبناك إلى طلبك ورأسناك على بلدتنا ، شريطة أن تغير عقيدتك ، وألا تخطِّئنا في عقيدتنا ، وألا تعلن أن أوثاننا ليست على حق ، لأننا لا نتمكن من الإصغاء إلى هذه الإهانات ، وكل كلمة تقولها في هذا السبيل أشبه برمح يُغرز في صدورنا .

كان محمد يستمع إلى ممثل قبيلة قريش بكل اهتمام . وبعد أن أتمّ كلامه أجابه :

ـ إن ما يصدر عني ليس مني ، إنما هو كلام الله ، وما يوحيه اليّ أقوله لكم ، وبإمكانكم أن تفهموه وتعملوا به . فعندما أقول لكم إن أجدادكم ودينكم على غير حق ، وإنكم مشركون ، فإنما هو كلام من عند الله ، أنطقنيه . وأنا رسول الله ، وعليّ أداء رسالتي ، وما تهدّدوني به أو ترغّبونني فيه لا ينفع . أطلب إليكم مخلصاً أن تبتعدوا عن طريق الشرك ، وتقبلوا دين الله ، والله يقول لكم : ﴿ قُل : إنّما أنا بشرٌ مثلُكُم يُوحَى إليّ أنّما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ، فاستقيموا إليهِ واستغفروهُ ، وويلٌ للمشركين ﴾[1] .

---

(١) الآية : ٦/ سورة السجدة : ٤١ .

بعد أن سمع ممثل قبيلة قريش جواب محمد (ﷺ) ، عاد إلى قبيلته وقال لهم :

ـ لم يعد بإمكاني عملٌ ما ، فاصنعوا بمحمد (ﷺ) ما شئتم .

وقد كان اسم الذي ناقشه « عتبة »[1] .

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية . كان موصوفاً بالحلم والرأي ، خطيباً ، نافذ القول . توسط للصلح في حرب الفجار بين هوازن وكنانة ، وانقضت الحرب على يديه . كان يقال : لم يسُد من قريش مملق إلا عتبة وأبو طالب . شهد بدراً مع المشركين ، فاجتمع علي وآخرون حتى قتلوه سنة ٢ هـ .

هجرة المسلمين الأولى

يذكر المؤرخون الإسلاميون أن لمحمد (ﷺ) عدداً من النساء ، ولكنهم أهملوا ذكر أغلبهن . ويقولون إنه في زمان خديجة لم يتزوج غيرها ، وظل خمساً وعشرين سنة وفياً لها . ويوم تزوج محمد بخديجة كان في الخامسة والعشرين ، في عنفوان شبابه ، ويوم فارقت خديجة الحياة بلغ عمره خمسين سنة . ولم تكن خديجة مجرد زوجة بالنسبة إلى محمد (ﷺ) ، بل كانت صديقة حميمة ومستشارة مدبّرة . ولما كان محمد (ﷺ) عربياً أعرابياً فقد أحب زوجه خديجة حب ذلك الرجل الأعرابي .

إن حيوية الرجل الأوروبي وتذوقه هذه البحار الزرقاء ، والأنهار الكبيرة ، والغابات الوسيعة ، والمروج الخضراء ، والرياض المزدهرة التي يراها ، وأصوات البلابل التي يسمعها لا تغنيه عن المرأة . فكيف بالعربي الذي يعيش في الصحراء الذي لا يرى بحراً ولا نهراً ولا غابة ولا مرجاً ولا رياضاً ، ولا يبلغ مسامعه صوت بلبل . وكل ما يراه أمام عينيه هو هذه المرأة ، فقد كان يسمع صوتها بتغريد البلابل ، وفي تبسمها ينعم بتفتح البراعم ، وفي شجرة النخل يرى قامتها . كما كان يرى في الروض والحقل وجهها الصبيح .

●

لقد استعار شعراء أوروبة كلهم تشبيهاتهم للمرأة في أشعارهم من أشعار العرب . فهم أول من وصف المرأة هذا الوصف الجميل المندمج بالطبيعة . كان شعراء الجاهلية صادقين في وصفهم لها في حين أن شعراء أوروبة مقلدون ، لأنهم لا

يستطيعون أن يُحسُّوا بأعماق روح العرب وإحساساتهم ، ولهذا لا نجد طلاوة في شعرهم ، كما نجدها في شعر الجاهلية .

لم يكن محمد شاعراً حتى يصف خديجة بشعره ، ولكنه كان كأي عربي يرى في المرأة جمال الطبيعة . وقد ظل خمساً وعشرين سنة وفياً من غير أن يفكر في غيرها . فبالإضافة إلى أنها بهذه الخصال الحميدة العديدة كانت صديقة وفية لمحمد (ﷺ) . وكلما رجع إليها يستشيرها دلته على أفضل السبل . وكثيراً ما كان يستفيد من آراء تلك المرأة . فقد كانت خديجة أول من آمن بمحمد (ﷺ) . ومع أنها امرأة ، فإنها تاجرة ، والتجار لا يفكرون بمسائل غير مربحة . لقد آمنت به منذ أن أطلعها على نبوته . ومنذ ذلك اليوم وهي تصرف أموالها في سبيل الإسلام ، حتى ماتت وهي لا تملك شروى نقير . ولقد بذل اثنان من المسلمين كل أموالهما في سبيل الدعوة هما خديجة وأبو بكر ، وقد كانا قبل ذلك من الأغنياء المقتدرين ، وحينما توفيا كانا خاويي الوفاض .

سنتحدث كثيراً حول مساعدات خديجة لمحمد في صدر الإسلام ، ولكننا سنضيق مجال حديثنا هنا حول حادثة تاريخية ذات أهمية في الإسلام ، ألا وهي هجرة فئة من المسلمين إلى الحبشة . فبعد أن أسلم عمر دخل عدد من بني عدي في الإسلام ، فازداد تضايق قريش . ولما رأوا أن حمزة وعمر يحميان محمداً (ﷺ) كثيراً ، ويمنعان عنه الأذى صمّما على وضع خطة حربية ، وهي التي ورد ذكرها في القرآن باسم « الفتنة » .

لم يكن إيمان بعض من أسلم مؤخراً بمستوى المسلمين الأوائل ، كما لم يكن لهم ذلك العزم الذي يجابه شدائد المشركين ، ولا سيما أن قريشاً زادت من عدائها ، حيث منعت الناس من بيع المسلمين أو الشراء منهم ، كما منعت الزواج منهم ، أو التزوج ببناتهم . ففي مكة ، التجارة هي الوسيلة الوحيدة للعيش . فعندما امتنعوا عن التعامل معهم شلّوا حركتهم . وهذا ما دفع بعض من أسلموا مؤخراً إلى

التخلي عن إيمانهم ، والارتداد إلى دين أجدادهم . وفكر محمد (ﷺ) بأنه إن لم يسع جدياً إلى طريقة منقذة ، فإن عدداً آخر من المسلمين سينسحب إثر ضغوط قريش . وقرّ رأيه أخيراً على ترحيل المسلمين إلى الحبشة ، بينما يبقى هو في مكة ، متحملاً كل الأخطار . ولم يقم أيٌّ من الأنبياء السابقين بمثل هذا التصميم .

في الحبشة حرية كاملة لأصحاب الأديان ، شريطة عدم مضايقة أصحاب دين أصحابَ دين آخر : ولهذا طلب محمد (ﷺ) من المسلمين أن يرحلوا إلى الحبشة حتى ينجلي الموقف في مكة ، وعندئذ يعودون إلى مكة . ولم ينتبه كفار مكة إلى ما عزم عليه المسلمون ، لأن محمداً (ﷺ) أمرهم بالرحيل فرادى ، أو بشكل جماعات صغيرة جداً . والذين كانوا في طليعة الراحلين :

١ ـ جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء . ركب السفينة ، وعبر بها بحر القَلزم . وهناك أسمى زوجه « بحريّة » ، لعبورها البحر . وقد كان لأبي طالب ولدان متبنَّيان هما : علي وقد تبناه محمد (ﷺ) وبعد ذلك زوجه ابنته فاطمة . والآخر هو جعفر ، وقد تبناه العباس عمه ، وبعد أن شب تزوج أسماء[1] .

٢ ـ عثمان بن عفان صهر النبي ، وهو زوج رقية . وهي التي طلقها ابن أبي لهب .

٣ ـ الزبير بن العوّام .

٤ ـ عبد الله بن مسعود .

---

(١) هي أسماء بنت عميس . هاجرت مع زوجها جعفر مسلمةً إلى الحبشة فولدت له في الحبشة : عبد الله وعوناً ومحمداً ثم هاجرت إلى المدينة . فلما قتل عنها تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً ، ثم تزوجها علي بعد وفاة أبي بكر فولدت له يحيى . وهي أخت ميمونة زوج النبي وأخت أم الفضل امرأة العباس وأخت سلمى زوج حمزة (أسد الغابة) .

٥ ـ عبد الرحمن بن عوف .

٦ ـ أبو حذيفة بن عتبة .

٧ ـ سهلة بنت سهيل بن عمرو (١) .

٨ ـ مصعب بن عمير .

٩ ـ أبو سلمة بن عبد الأشدّ وزوجه أم سلمة بنت أمية .

١٠ ـ عثمان بن مظعون .

١١ ـ حاطب بن عمر .

١٢ ـ سهيل بن البيضاء .

خرج هؤلاء من مكة خلسة ، واتجهوا نحو ساحل البحر ، وركبوا من هناك سفينة ، عبروا بها إلى الحبشة . وكانوا أول مجموعة رحلت إلى الحبشة . وتبعتهم بعد ذلك مجموعات أخرى . ولقد رأيت في بعض الكتب أن جعفر بن أبي طالب كان في جملة المجموعة الثانية ، وليس في المجموعة الأولى . ولكن الذي لا شك فيه أنه هو الذي تسلم دفّة الحديث مع نجاشي الحبشة . وفي اليوم الذي دخل فيه المسلمون عاصمة الحبشة وضعت أسماء زوجة جعفر ، التي لُقبت « بحرية » ، غلاماً . وفي اليوم نفسه وضعت زوج النجاشي غلاماً أيضاً . فأمرت الملكة أن تكون أسماء مرضع ابنها ، وهكذا ـ وبحسب أعراف العرب ـ غدا ابن جعفر وابن النجاشي أخوين بالرضاع .

وتوالت جموع المهاجرين إلى الحبشة حتى بلغ عددهم مئة وتسعة أشخاص . وأخيراً تنبه كفار قريش إلى أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة . فأرسلوا اثنين منهم ،

---

(١) هي سهلة القرشية من بني عامر بن لؤي ، وهي زوج أبي حذيفة بن عتبة ، هي من السابقين إلى الإسلام ، سافرت معه إلى الحبشة ، وولدت فيها « محمد بن أبي حذيفة » .

وهما « عمرو بن العاص » و« عُـمارة بن الوليد »[1] ، ليطلبا إلى النجاشي أن يعيد المسلمين المهاجرين إلى مكة . وعندما دخلا على النجاشي قال عمرو :

ـ أيها الملك . لقد آويـتَ أناساً فاسدين منشقين عن ديانة أجدادهم ، التي يعتبرونها باطلة ، ويرون آباءهم على خطأ . يا ملك الحبشة إن الذين حميتهم قد يكونون السبب في تبديل ديانة شعبك . والأفضل لك أن تسلمنا إياهم ،لنعيدهم إلى أهاليهم ، فهم ينتظرون عودتهم .

فأمر النجاشي أن يمثل المسلمون أمامه ، فسألهم :

ـ قدم هذان الرجلان من مكة ، وادَّعيا أنكم أناس مارقون ، وأن عليكم أن تعودوا إلى أهاليكم . فما تقولون في هذا الادِّعاء ؟

فتقدم جعفر خطوة وقال :

ـ يا مليك الحبشة . أسأل هذين الرجلين : أسرقنا شيئاً من مكة أو من أي مكان آخر في الجزيرة ؟ أقتلنا أحداً ؟ أقمنا بما يشين في مكة ؟

فسألهما ملك الحبشة ذلك ، فأجابا :

ـ كلا ، لم يسرقوا ولم يقتلوا .

فتابع جعفر كلامه :

ـ يا ملك الحبشة ، كنا نعبد الأوثان ، ونقضي أوقاتنا في اللهو والعبث حتى هدانا إلى الله الواحد نبي اسمـه محمـد بن عبـد الله (ﷺ) فتنزهـت نفوسنـا عن الشهوات ، وترفعت عن الموبقات ، وأهملنا عبادة الأوثان ، واتَّـبعنا تعاليم الله ، وأعـنَّـا الضعفاء . أما هذان الرجلان اللذان يريدان منا أن نعود إلى أوطاننا فهما من قوم يعبدون الأوثان المصنوعة من الحجارة أو من الخشب ، ويظلمون الضعفاء ،

---

(١) هو أخو خالد بن الوليد ، وعمارة من مسلمي الفتح .

ولا يألون جهداً في انتهاز كل فرصة للإساءة بمحمد ، حيث كانوا يحصبونه بالحجارة ، ويسمونه بأشنع الأوصاف .

وبعد أن استمع النجاشي إلى رأي الطرفين أمر بأن تعاد الهدايا التي أحضرها عمرو وعمارة ، وقال لهما :

- إن الذين دخلوا بلادي هم في حمايَ ، ومقربون مني جداً ، لأنهم يعبدون إلهاً نحن نعبده . ولا أسمح لكم بأن تُخرجوهم من دياري ، أوتؤذوهم .

وبعد أن خرج عمرو وعمارة من حضرة النجاشي ، طلب إلى جعفر أن يشرح ما يعرف عن رسول الله (ﷺ) وعن الإسلام . فقرأ للنجاشي وللحاضرين بضعة آيات من السورة التاسعة عشرة[1] ، والمتضمنة تفصيلاً عن قصة مريم والسيد المسيح . ولما استمع النجاشي إلى آيات القرآن غلب عليه البكاء ، وشاركته حاشيته في التأثر . ثم قال للمسلمين :

- إن نبيكم رجل عظيم وصديق ، وأنتم في بلدي آمنون ، ولن يجرؤ احد على إخراجكم منها .

لا شك أن الذين هاجروا إلى الحبشة أُنقذوا من تعذيب قريش لهم . ولكن أمراً آخر اعترضهم . فقد أُخذ اثنان بمظاهر كنائس الحبشة التي صادفوها ، فدخلوا في الديانة المسيحية . أحدهما « عبيد الله بن جحش » زوج أم حُبيبة بنت أبي سفيان . فقد كان عبيد الله قبل إسلامه حنيفياً ، أي باحثاً عن الحقيقة . وحين أعلن إسلامه اعتقد أنه وجد الحقيقة التي يبحث عنها . ولكنه بعد أن دخل الحبشة ، وشاهد كنايسها العظيمة ترك دينه والتحق بالمسيحية . المسلم الآخر الذي غدا مسيحياً هو « السكران بن عمرو »[2] ، وقد قدم مع زوجه « سودة » . ولكن

---

(١) هي سورة مريم .

(٢) هو السكران بن عمرو بن عبد شمس ، أخو سهيل بن عمرو . هاجر إلى الحبشة ومعه زوجه سودة بنت زمعة ، فتوفي هناك (أسد الغابة) .

حين رأت سودة أن زوجها عاف دين الإسلام عادت إلى مكة ، وهي التي غدت زوج رسول الله (ﷺ) كما سنرى .

أما قريش ، فإنها بعد أن أيقنت أن القسم الأعظم من المسلمين هاجر إلى الحبشة ضيقت الخناق على من تبقّى منهم في مكة . وكان رأس الفتنة أبا جهل ، وهو وحده الذي يجابههم . فإن بلغه أن أحد أشراف مكة أعلن إسلامه اعترضه وحقّره وأساءَ إليه ، وقال له :

ـ ألم تخجل من انسحابك من دين أجدادك ، واعتقاد أجدادك ؟ كيف تستطيع بعد هذا ان تحيا على أرض أسلافك الذين طوتهم السنون وهم يعتقدون باللات ومنات والعُزّى ـ الآلهة التي تُجلُّها غالبية العرب ؟

كان أبو جهل يسعى بكلامه هذا إلى زعزعة عقيدة ذلك الرجل الأصيل الشريف الجديدة ، عسى أن يرده عنها . وإن كان المسلم من التجار صار إليه ، وقال له :

ـ لن يشتريَ منك أحد ، ولن يبيعك شيئاً . كما سنمتنع عن أداء حقك التجاري .

لأن أحد الشروط الأساسية التي وضعتها قريش على المسلمين عدم التعامل معهم في أمور التجارة ، وامتناعهم عن دفع الأموال التي لهم . وما لم يكن المرء تاجراً لا يقدّر قيمة هذا التهديد . ولم يكن التجار المسلمون جميعاً يتحملون العناء والعذاب في سبيل الله مثل محمد (ﷺ) وبعض صحبه . ولهذا تزعزعت عقيدة بعضهم ، وأحجم عدد من التجار عن إعلان الإسلام . ومن صمد منهم عُدَّ في جملة « الناس » ، الذين لديهم إمكانية تحمل التعذيب الذي يلقونه من أبي جهل . إذ كان يضربهم بسياطه حتى يفقدوا وعيهم .

واستمرت قريش على تخوفها وبالتالي كان الراغبون في الإسلام يتراجعون عن

الدخول فيه ، مما يلقونه من عنت المشركين . وقد كان أبو بكر في هذه المرحلة الحرجة التاجر الوحيد الذي لم يتخوف من تهديد تجار مكة ، واستقبل ضياع أمواله بكل رحابة صدر ، لأن المشركين لم يدفعوا له ما استحق عليهم من أموال له . وبالتالي بذل ما تبقى لديه في سبيل الإسلام . حتى الذين هاجروا إلى الحبشة سافروا بأموال أبي بكر . كان يصرف بكل رغبة من غير أن يتوقع استرداد شيء منهم .

ورفض أبو بكر السفر إلى الحبشة ، حتى لا يترك محمداً وحيداً ، بل إنه لم يتركه منذ أعلن سلامه . ولكن حين اشتدت الأزمة بالمسلمين ، طلب إليه محمد (ﷺ) أن يرحل عن مكة خشية أن يقتل ، فاضطر أبو بكر إلى ترك رسول الله (ﷺ) ، وهو في أشد حالات الأسى لذلك . وصمم على الرحيل جنوباً إلى اليمن . وتسلل أبو بكر بعيداً عن أنظار قريش ، فمر بقبيلة يدعى رئيسها « رفاعة » ، فبلغه أن أبا بكر هرب من مكة ، فعجب ، لأنه يعلم أن أبا بكر من أكبر تجار قريش ، فسأله :

ـ أخرجت من مكة هارباً ؟

فأجاب أبو بكر :

ـ لقد عزمت قريش على قتلي لأنني دخلت في دين جديد ، لهذا خرجت من مكة ناجياً بروحي .

فقال له رفاعة :

ـ سأعيدك إلى مكة ، وأعلن للناس أنك لجأت إلى حماي ، فتحجم قريش عن إيذائك .

وهكذا عاد الاثنان إلى مكة . وهناك نادى رفاعة أمام قريش :

ـ هذا الرجل في حماي ، وله عليّ حق الجوار ، فمن آذاه آذاني .

حق الجوار من سنن الأعراب ، وهو أن تحمي القبيلة رجلاً ، وتعلن أنه في حماها ، فمن آذاه أو قتله توجب على قبيلته الاستعداد للحرب . وقبيلة « رفاعة » قبيلة محاربة ، ذات رجال مسلّحين ، ومضارب خيامها غير بعيدة عن مكة . لهذا فإن قريشاً عندما سمعت كلام رفاعة صرفت النظر عن قتل أبي بكر ، حتى لا تضطر إلى الحرب مع قبيلة رفاعة . وحين أمن أبو بكر شر سكان قريش بنى في منزله مسجداً صغيراً ، يتلو فيه القرآن كل مساء بصوت مرتفع ، ونبرة جاذبة .

ومما وصل إلينا من أخبار أن أبا بكر أول من رتل القرآن بصوت عال . كان المسلمون يقرؤون القرآن ، لكنهم ما كانوا يجرؤون على رفع صوتهم خوفاً من المشركين ، وأبو بكر إنما فعل هذا محتمياً بقبيلة رفاعة ، وشجعه على هذا صوته الجميل . والذين هم على معرفة باللغة العربية يعلمون أن القرآن ليس شعراً . إنما قسم من آياته موزون ، لا سيما سوره القصيرة التي نزلت في مكة ، مثل : « الإخلاص » و« اللهب » و« الكافرون » و« الكوثر » و« قريش » و« الفيل » و« الهمزة » و« العصر » و« التكاثر » و« القارعة » و« الزلزال » و« العلق » و« التين » و« الانشراح » و« الضحى » و« الليل » و« الشمس » و« البلد » و« الفجر » و« الغاشية » و« الأعلى » و« الطارق » و« البروج » و« الانشقاق » و« الانفطار » . هذه السور نزلت كلها في مكة ، وهي ذات آيات موزونة . وبالإضافة إلى الوزن فإن لبعضها قافية أيضاً . ولما كانت السور التي نزلت في مكة مسجوعة فقد تلاها أبو بكر بترتيل وإيقاع . وكان كل من يمرّ بمنزله ـ حتى من كان مشركاً ـ يتوقف ، ويصغي .

يقول المستشرق الغربي كليمان هوارت : لقد منحت الطبيعة العرب أربعة أشياء : الأول هو الجمل ، والثاني هو الخيمة ، والثالث هو السيف ، والرابع هو الشعر . والشعر هو الكلام الموزون المقفّى ، وهو من ضرورات الحياة العربية

تماماً كالجمل والخيمة والسيف . وبالطبع ، فإن العربي إذا سمع صوتاً جذاباً ذا إيقاع معين أخذ به .

ولقد أبدع العرب ، أول ما أبدعوا ، نوعاً من الشعر ، ذا إيقاع خاص ، يدعى « الحداء » ، ابتكره سائقو الأظعان ، حيث استلهموه من سير الجمال . فعندما يركب المرء جملاً يطوي به الصحراء (وبالطبع يمتنع عن السير في بعض ساعات النهار الحارة) يهتز ويتمايل مع حركة الجمل ، وهذا الاهتزاز ناشىء عن حركة ثابتة مُمِلَّة والذين لم يعتادوا ركوب الجمال لا بد أن يصابوا بدوار ، أشبه بدوار البحر .

عندما يركب العربي الجمل ، وينتقل به ينشد الشعر ، والإيقاع الثابت للجمل يجعله يطلق كلامه تباعاً مع حركة أطراف الجمل الأمامية والخلفية . هذا التطابق بين النغم ورتابة حركة الجمل يسمى « الحداء » في الجزيرة العربية . وقد استخدمه العرب بادىء ذي بدء لإبعاد الملل عنهم ، ولكنهم لاحظوا فيما بعد ان الترنم على هذا الإيقاع يجعل الجمال ترفع رؤوسها ، وتنشط في سيرها . وفهموا أن صوتهم هذا يؤثر في الجمال .

وما زال الحداء ، حتى اليوم ونحن في القرن الرابع عشر الهجري ، مؤثراً في سرعة الجمال التي تطوي الصحراء ، ويزيد من نشاطها . وقد تعلمت الحداء عندما كنت في الجزيرة العربية . وقصدي من هذا التعريج أن في هذه الأيام التي تعبر الطائرات فيه سماء الجزيرة ليلاً ونهاراً ، وتمر أنابيب النفط في الصحراء ، ويركب فيها العرب الأغنياء أحدث السيارات ، ما زالت عادة الحداء جارية مع قافلة الجمال ، التي تعبر الصحراء ليلاً باستمرار .

حالما يحل الليل ، وتهدأ أصوات مكة ، ويأخذ الناس طريقهم إلى منازلهم ، يشرع أبو بكر بتلاوة القرآن بصوته المرتفع الجذاب . ويذكر ابن هشام أن كل من كان يمر بمنزل أبي بكر يتوقف ليصغي إلى آيات القرآن . وكان الطريق

يزدحم بالناس حتى يصعب العبور . وعندما رأت قريش هذا أرسلت هدية إلى رفاعة ، ومعها رسالة تطلب إليه فيها : « انك حميت أبا بكر ، ونريد منك الآن أن تأمره بخفض صوته حين يقرأ القرآن ، حتى لا يزدحم الناس خلف منزله ، لأن تجمُّعهم هذا مخالف لنظم مكة » .

حين تسلم رفاعة الهدية والرسالة ، بعث إلى أبي بكر رسالة يطلب اليه فيها أن يخفض صوته . وهو إن أصرّ سحب عنه حمايته . فأجابه أبو بكر : إنني لا أستطيع التنازل عن ديني ، كما لا أقدر منع نفسي من لذة تلاوة القرآن ، لأن روحي مرتبطة بالآيات التي أقرؤها . وإن كنت ترغب في سحب حمايتك ، فدونك ذلك . وسأستجير عندئذ بالله ، مثلما فعل محمد (ﷺ) .

تحمل الجوع الشديد في الشعب

ذكرنا أن ورقة بن نوفل قال لنبي الإسلام : « ليتني أكون حياً حين يُخرجك قومُك » . قال ورقة هذا الكلام عام ٦١٠ م ، وحصل توقُّعه عام ٦١٦ . ذلك أن قريشاً حينما رأت أن قبيلة هاشم التي منها محمد (ﷺ) غير مستعدة لأن تسحب حمايتها عنه ، ليتمكنوا من قتله صمموا على طرده وطرد المسلمين جميعاً من مكة . والطرد الجماعي ، أو السجن العام ، أو الحرق العام مجموعة أمور جديدة في حياة العرب . وهدفهم من هذا هو الفائدة العامة للقبيلة . لأن من يطمح إلى إصلاح المجتمع ، بخلق شيء جديد يقع بإشكالات تجاه تغيير عادات ثابتة ورسوم متداولة منذ مئات السنين أو آلافها ، وإن كان هدف هذا التغيير هو المصلحة العامة . ولهذا جُوبه رسول الله (ﷺ) بخطر محدق ومعارضة شديدة لقاء دينه الإصلاحي الجديد .

عندما رأت قبيلة قريش أن ملك الحبشة غير مستعد لأن يرد لهم المسلمين ، وأن نفوذ محمد (ﷺ) يزداد في مكة ، صمَّموا على طرده وطردِ المسلمين ، لقلع جذور الإسلام من مكة . فكتبوا صحيفة علقوها على جدار الكعبة ، كتبوا عليها أن محمداً (ﷺ) وصحبه رجس يجب استئصاله من البلدة . وكانت الصحيفة ـ بحسب الاصطلاح الحديث ، أمراً أو قانوناً سجلوا عليه أنه لا يسمح لأيٍّ من سكان مكة أن يحادث المسلمين ، أو يلمسهم وإلا غدا نجساً مثله ، ولا يبيعهم أو يشتري منهم ، أو يُنكحهم ، أو ينكح منهم . وعلى كل قرشي أن يتمنع عن دفع ما عليه تجاه المسلمين . وتبقى هذه الشروط سارية المفعول ما دام محمد (ﷺ) على

دينه ، أو ما دامت قبيلة هاشم تحميه ، حتى يتسنى لها قتله .

وهكذا أُخرج المسلمون جميعاً من مكة عام ٦١٦ م ، ومعهم قبيلة هاشم لأنها لم تتخلَّ عن حماية محمد (ﷺ) ، ولهذا خرجت معه . وكما نعلم ، كان أبو طالب من عبدة الأوثان ، ولكن غيرته وحميته كعربي منعتاه من إهمال ابن أخيه في حين أنه رفض الدخول في دينه . ولكن الوحيد من آل هاشم الذي رفض الخروج مع محمد (ﷺ) من مكة هو ابو لهب . واتجه الجميع نحو الشعب الخاص بأبي طالب ، وأقاموا فيه . ونحن مضطرون الآن إلى شرح ماهية الشعب ، حتى تتضح للقارىء الفكرة .

« الشعب » لغةً : شق بين صخرتين ضخمتين ، ومجازاً هو شق يشطر الجبل . ولكلٍ من القبائل العشر القرشية « شعب » في ظاهر مكة ، يقع في المنطقة الجبلية . ومعلوم أن المنطقة الجبلية في مكة هي جبال قليلة الارتفاع ، ولا تعدو في نظرنا أن تكون مجموعة من التلال ، ولكن العرب يدعونها جبالاً .

عندما يلجأ أجنبي إلى إحدى هذه القبائل العشر فإن القبيلة تحميه ، وتُسكنه في شعبها . والقبائل الصحراوية تنصب خيامها بحسب نظام معين ، فإذا تأملها امرؤ في ذلك العصر من علٍ عرف منذ الوهلة الأولى خيمة الرئيس ، وخيام أقربائه . وعلينا ألا نخطىء في نظرنا نحو الشعب ، فنحسبه منزلاً صيفياً . ومع أن أبا طالب بنى منزلاً في الشعب ، فليس ليسكنه هو أو أحد من أفراد قبيلته ، بل ليحلّ فيه الغرباء الذين ينضوون تحت حمايته . ومع ذلك لا يجد المرء في تلك المنازل شيئاً ، فهي خالية تماماً ، وسط صحارى خاوية .

ولقد وصف عدد من الشعراء العرب البقاع المحيطة بمكة . ونحن نعلم اليوم أن تلك البقاع ما زالت عليه في عصر النفط وعصور تطور الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية ، ولم يعترها اصلاح يذكر . فليس في تلك البقاع أشجار ، ولا أعشاب . . بل فيها صخور جرداء تحرقها الشمس في أيام الصيف . ولا يشاهد

طيلة العام طائراً يحلق في السماء ، لأن الطائر يتبع النباتات والأشجار . وهم حتى اليوم لم يستطيعوا جلب المياه إلى مكة أكثر مما كان ، ولا نجد في مكة أكثر من بضع شجرات وقليلاً من الأعشاب . فإذا خرجنا من مكة ، وابتعدنا عنها قليلاً صادفنا التلال الصخرية الجافة .

ولما كان خروج محمد (ﷺ) وصحبه مفاجئاً واضطرارياً لم يتيسر لهم حمل مقادير زائدة من الطعام . ولو حملوا لما كان يكفيهم أكثر من بضعة أيام ، لأن الصحيفة حرّمت بيع المسلمين أو الشراء منهم . لهذا لم يستطيعوا الشراء من السكان . كما لم يكن شعب أبي طالب مكاناً مناسباً لمرور القوافل منه ، مما يسهّل على المسلمين شراء بعض ما يلزمهم منهم . ولقد قاسى المسلمون أشد أنواع الآلام ، لا سيما الجوع . والشيء الوحيد الذي منعهم من الموت جوعاً هو توقف العرب عن الحرب والغزو مدة أربعة أشهر . فكان المسلمون ينزلون فيها إلى مكة ، ويشترون ما يلزمهم ، ويجمعون جلود الذبائح التي تقدم قرباناً إلى الكعبة ، ويأخذونها إلى الشعب ، ويستخدمونها طعاماً يتغذون به .

في تلك المرحلة ؛ مرحلة إقامتهم في الشعب ، أرسل ابن أخي خديجة حملاً من الحبوب والأطعمة لمحمد (ﷺ) ولعمته . ولكن القرشيين الذين يحاولون ألا يصل الى المسلمين شيء ، استولوا على الحمل ، وضربوا الفتى . وقد مكث ثلاثة أيام يعاني آلام الضرب وهو بين الموت والحياة .

يُحجم بعض المؤرخين الإسلاميين الذين يحترمون النبي (ﷺ) عن ذكر تاريخ هذه السنوات الثلاث ، لأنهم تصوروا أن الحديث عن هذه الحياة القاسية التي تحملوها لا تتناسب وشخصية رسول الله (ﷺ) . في حين أنني أعتقد أن هذه الحادثة تسمو بشخصيته أكثر ، لأن عدداً من سادة مكة حاولوا التوسط عدة مرات بين قريش ومحمد (ﷺ) ، حيث طلبوا من قريش أن تسمح لمحمد (ﷺ) ولأتباعه بالعودة من الشعب . وكان جواب قريش أن على محمد (ﷺ) أن يصرف النظر عن

دينه حتى يعود . وعندئذ ليس لأحد علاقة معه ، وبإمكانه أن يشتغل بتجارته كما كان ، أو يستعد للموت .

فلو كان محمد (ﷺ) ضعيف الإرادة لتنازل عن دينه ، أو لتظاهر ، ولمدة معينة ، بأنه ترك دينه إلى أن تهدأ قريش . وحينئذ ينتهز الفرصة المناسبة للإعلان عن دينه من جديد . ولما كان رجلاً كامل الإيمان ، وواثقاً من أنه رسول الله (ﷺ) ، لم يتنازل عن دينه ، ولم ينفِ رسالته ولو إلى حين . فهو لم يقبل بهذا ولم يفعله . وصبر ثلاث سنوات في شعب الجبل صابراً على الجوع ، يصنع من جلود الخراف طعاماً ، من غير أن ينكر رسالته . وقد وقع في الشعب تحت تجربة قاسية ، خرج منها ناصع الجبين ، ثابت العزيمة .

ولم يكن لدى المسلمين في الشعب لوازم منزلية تستحق الذكر . فيذكر أن لخديجة قدراً وجرّة . وقد انكسرت الجرة يوماً ، ولما لم تستطع الاستفادة منها مكسورة ، اضطرت لرفعها إلى أحدهم ليرأب كسرها ، لحاجتها إليها . وأعترف بأن عدداً من المؤرخين الإسلاميين كانوا يحجمون عن ذكر الأحداث ، وأعتبر عملهم هذا تقصيراً . وأستنتج أن بقاء محمد (ﷺ) ثلاث سنوات في الشعب زادت من شخصيته ، وعملت على إعداده الإعداد الكامل كي يستقبل عداوة المشركين بكل عزيمة . وبالإضافة إلى الآلام المستمرة والجوع القاهر صُدم محمد (ﷺ) بفاجعة كبرى ، هي مرض خديجة . ولماكان الدواء والغذاء غير متوفرين توفيت عام ٦١٩ ، وهو العام الذي اعتبره المسلمون « عام الحزن » ، لأنها توفيت فيه وهي في الشعب .

عندما توفيت كان عمرها خمساً وستين سنة ، ومحمد في الخمسين . وظل محمد يومين يبكي على خديجة ، وبعد ذلك استمر يذكرها ، وتغرورق عيناه بالدموع كلما تحدث أحد عنها بحضوره ، حتى آخر حياته . ولا يذكر التاريخ رجلاً أحب امرأة تكبره بخمس عشرة سنة ، ولم يسلُها طوال حياته . ولم يُعرف

أي خلاف جرى بين الزوجين في حياتهما الزوجية ، والتي دامت خمساً وعشرين سنة . وما ذكر دل على أنهما عاشا زوجين عاشقين . وعندما توفيت لم يكن لدى المسلمين ما يكفنونها به ، فاضطروا إلى دفنها بصَوْقعتها[1] .

كانت خديجة عميقة الايمان ، استرخصت الغالي والثمين في سبيل الإسلام وإعزازه ، وقدّمت المساعدات المادية الكبيرة في مراحل البعثة الأولى ، حتى فقدت كل ما ملكت . كانت تتألم كثيراً لما يصيب النبي من آلام وجراح كلما عاد إلى منزله . فتسرع اليه لتغسل جروحه وتضمدها ، وتبدل ثوبه ، وتخفف من عنائه .

وفجع المسلمون بفاجعة أخرى عقب وفاة خديجة بيومين ، إذ فارق أبو طالب الحياة وعمره ست وثمانون . لقد تحمل ـ مثل خديجة ـ آلام الجوع وفقدان الدواء . وعلينا أن نذكر أنه لم يُسلم ، ورفض أن يتنازل عن دين أجداده . وعندما وصل نبأ نزع أبي طالب إلى أخيه أبي لهب ، خفَّ إلى الشعب ، وجلس على فراشه ، وقال له :

ـ إحلف إنك لم تدَخل في دين محمد (ﷺ) ، وإنك تموت على دين أجدادك .

فأقسم أبو طالب بأنه لم يقبل دين محمد (ﷺ) وأنه يفارق الدنيا وهو على دين أجداده . وربما ، لو أن خديجة وأبا طالب لم يذهبا مع محمد (ﷺ) إلى الشعب ، ولم يقاسيا ما قاسياه ، لطال عمرهما أكثر .

لم يكن فداء خديجة بحياتها ومالها في سبيل زوجها نبي المسلمين (ﷺ) بالأمر العجيب ، ولكن فداء أبي طالب في سبيل ابن أخيه أمر يثير الدهشة ، ويبعث على الإجلال ، لأن أبا طالب لم يؤمن بالإسلام ، ولم يعترف بمحمد (ﷺ) نبياً ، ومع هذا فإنه فاداه بالروح ، وظل مثابراً على واجبه في عصبيته . لأن

---

(١) الصوقعة : على وزن حوصلة ، وشاح الرأس الطويل الذي كانت نساء العرب تتّشح به .

العصبية لدى الأعراب صادقة وصميمية ، أوصلت أبا طالب إلى الوفاة ، حماية لابن أخيه ، حيث ترك مكة وراحته فيها ، وهو في سن الكهولة ، حتى لا يقال إنه لم يحم أحد أفراد قبيلته .

بعد أن توفي أبو طالب اضطرت قبيلة هاشم إلى انتخاب رئيس آخر ، وحسب سننهم صار أبو لهب رئيساً ، وهو أكبر خصم للنبي (ﷺ) في مكة . آنذاك تنبه بنو قريش إلى أن الأرَضة قرضت الصحيفة المعلقة بالكعبة ، ولم يبق منها إلا « باسمك اللهم » . والأرضة تكثر في المناطق الحارة ، كجزيرة العرب ، وتهاجم الخشب والورق وتأكله . واليوم أيضاً ، إن ترك أحد كتاباً في مكة في مكان ما ، ولم يحركه من مكانه ، يلحظ بعد حين أنه لم يبق من الكتاب إلا الجلد ، وأن الأرضة أكلت صفحاته . عندما شاهدت قريش أن الأرضة لم تترك كلمة لها علاقة بطرد محمد (ﷺ) والمسلمين ، ولم تبق إلا اسم صاحب الكعبة ، تخوفت . في هذه الأثناء توفي أبو طالب وغدا أبو لهب رئيس القبيلة .

وحالما تسنَّم أبو لهب منصب الرئاسة أحس بواجب حماية محمد (ﷺ) ، كجزء من واجباته . لذلك طلب إليهم أن يعودوا من الشعب ، وشجعهم على هذه الموافقة ما فعلته الأرضة بالصحيفة . وهكذا عاد المسلمون إلى مكة بعد مضي ثلاث سنوات . ومن الطبيعي أن يكون المسلمون قد عانوا الكثير من الأضرار والآلام في هذه المدة الطويلة ، لا سيما فئة التجّار منهم . حتى أبو بكر الذي كانت ثروته تشبَّه بثروة قارون ، لم يعد يملك أكثر من خمسمئة درهم . عادوا وقد بدا عليهم أثر الهزال ، فرؤوسهم كالجماجم ، وجلودهم سوداء أحرقتها الشمس . وسأل الناس أبا لهب :

- كيف توافق على إعادة محمد (ﷺ) من الشعب ، وأنت الذي كنت ألدّ أعدائه ؟

فأجاب :

ـ لأنني الآن رئيس القبيلة ، وواجبي أن أحمي محمداً (ﷺ) ، وإن كنت أخالفه في دينه . وحمايتي له مستمرة ما دام لم يـخُـن قبيلتنا ، فإن خاننا طردناه ، ولن أفعل عندئذ ما فعله أبو طالب ، إذ رحل معه إلى الشعب ليحميه .

ولم يمض وقت طويل حتى عجز أبو لهب عن عدم إظهـار خلافـه مع دين محمد، فابتدع طريقةليطرده بها. وقد أثرت هذه الطريقةفي معنويات النبي (ﷺ) كثيراً . فقد دعا أبو لهب أشراف هاشم إلى منزله ، ومعهم محمد (ﷺ) . وبعد أن أكتمل الجمع ، سأل أبو لهب محمداً (ﷺ) :

ـ أريد أن أسألك بحضور رجال قبيلة هاشم ، لأعرف رأيك بشأن جدك عبد المطلب . تـدَّعي أن المشركين مصيرهم جهنم ، أتعتقد بأن جدك في الجنة أم في جهنم ؟

فقرأ عليهم رسول الله (ﷺ) الآية الرابعة عشرة بعد المئة من السورة التاسعة « التوبة » : ﴿ ما كانَ للنبـيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركـينَ ، ولو كانوا أولي قُـربى من بعدِ ما تبـيَّـن لهم أنهم أصحابُ الجحيم ﴾ . ويعتقد كل العلماء المسلمين ، حسبما جاء في هذه الآية وما بعدها أن أقرب أقرباء النبي (ﷺ) هم في جهنم ، ما لم يكونوا مسلمين . ولا يحق له أن يطلب إلى الله أن يعفـوَ عنهم ، لأن المشرك يستوجب العقاب ، ومصيره جهنم . وسأله أبو لهب :

ـ ألا يُـغفر لأخي أبي طالب ؟

فأجاب محمد (ﷺ) :

ـ عندما توفي أبو طالب لم يسلم ، ولم يدع دين أجداده ، ولهذا لن يُـغفر له .

وراح أبو لهب يذكر أسماء الآباء والأجداد ، وهم في الوقت نفسه آباء محمد (ﷺ) وأجداده ، فأعاد محمد (ﷺ) على مسامعه الآية السابقة . وقال له إن حكم

الله قاطع لا يقبل الاستثناء . وران السكوت على الجميع ، من غير أن يحيروا جواباً أو سؤالاً ، وهم مذهولون بما قاله محمد (ﷺ) . فالأعراب يولون الأجداد أهمية كبرى . ولم يكن أجداد بعض القبائل محترمين فقط ، بل كانوا يستلهمونهم قوانينهم وأعرافهم وآدابهم . وكلما غمض عليهم أمر ، أو استحالت قضية ، رجعوا إلى السلف ، ليروا كيف حلّوا أمثال تلك المعضلات ، ليسيروا مسيرتهم . فتخطئة الأجداد لم تكن تودي إلى انعدام احترامهم فقط ، بل إلى إنكار كل القوانين والأعراف والآداب أيضاً .

حتى ذلك الوقت كان محمد يدعو إلى دينه الجديد ، وينشره بين الأعراب . ولكنه لم يظهر أخطاء الأجداد صراحة . أما الآن ، وفي ذلك المجلس ، فإنه خطّأ أجداد بني هاشم صراحة . ومحمد (ﷺ) رجل عربي ، ليس من عادته أن يتظاهر بأشياء ليست صحيحة . فلو أنه راعى وتظاهر لما عانى كل هذه المعاناة . كان رسول الإسلام يعبر عن عقيدته من غير أن يعبأ بانزعاج الآخرين . ولقد انفردت الأمة العربية ، منذ قديم الأزمان ، بصراحتها في التعبير من بين سائر الأمم الأخرى . وما يقوله البدوي هو الذي يفكر فيه ، ولا يقبل أن يبوح بما ليس في خلية نفسه .

نعتبر اليوم مثل هذه الصراحة عيباً ، هكذا ورثنا عاداتنا . عندما نبين ما في الضمير علينا أن نراعي الأشخاص . وحين نتحدث بشيء نحاول ألا نجرح المستمع . وعندما نتكلم أو نكتب ، نُحجم عن ذكر بعض الكلمات التي نعتبرها نابية ، كأعضاء بدن المرأة أو الرجل تقديراً لمشاعر المستمعين . أما الأعراب فصراحتهم، لا تمنعهم من ذكر أمثال هذه الألفاظ ، وفي القرآن شيء من هذا أيضاً . بل إن الأعراب يسمّون أبناءهم ببعض أعضاء أجسام الرجال . ويعلم هذا من هم على اطلاع باللغة العربية .

عندما خطّأ محمد (ﷺ) أجداد بني هاشم بحضورهم صراحةً ، سأل أبو لهب مَن في المجلس :

ـ والآن ، أمعي الحق في طرد محمد (ﷺ) من قبيلته ؟

فأقرّه الحاضرون ، لأنه ارتكب إثماً غير قابل للغفران . وقال أبو لهب :

ـ سأطرده من القبيلة .

وخُتمت الجلسة ، وتفرق الحاضرون . لقد طرد محمد (ﷺ) في المرحلة الأولى من قبل قريش ، في حين أن هاشماً لم تطرده ، إذ حماه أبو طالب ، وخرج معه من مكة إلى الشعب ، ومات هناك . ولكن قبيلة هاشم هذه المرة هي التي أقرّت طرده . ومنذ الساعة التي صمّم فيها رئيس قبيلة هاشم على طرد محمد (ﷺ) تبدلت شخصية محمد (ﷺ) نبي الإسلام ، وغدت أشبه برجال الثورة الفرنسية . فالذين يسيرون على مبدأ مخالفة القوانين غير محميين من قبل القانون نفسه . وساءت أوضاع محمد (ﷺ) بعد طرده بشكل يفوق من خرج عن حماية القانون أيام الثورة الفرنسية ، لأن من يقتل شخصاً من فرانسة يعاقب من قبل محكمة الثورة ، وهي وحدها التي تحاكم هؤلاء الأشخاص وتحكمهم . أما في مكة ، فإن من طرد من قبيلته هُدر دمُه ، وبإمكان أي امرىء أن يقتله ، أو يبيعه ، أو يستعبده . حتى إن أحرقه أحدهم حياً لا يعاقب حارقه . لأن المطرود من القبيلة يغدو شيئاً لا قيمة له ، وبالتالي غير لائق لأن يخضع أحد للمحاكمة بسببه ، فهو من طبقة لا تُعتبر من ذوي الحياة .

قبل أن يصدر القانون الجديد في الهند ويعمّم ، وهو الذي يجعل الهنود جميعاً طبقة واحدة ، كان مستوى المنبوذين (وهم الطبقة الثالثة) أعلى من مستوى الرجل المطرود من إحدى القبائل العربية . ذلك أن المنبوذين وإن لم يعاشروا لا يموتون جوعاً ، وبإمكانهم أن يعملوا ليحصلوا على لقمة عيشهم .

عندما طرد أبو لهب محمداً (ﷺ) من قبيلة هاشم ، أخرجه فوراً من طائفة الموجودات الحيّة إلى الصحراء الجافة . اليابسة . فبعد طرده غدا وحيداً . في الزمان الماضي عندما كان محمد يشكو الآلام النفسية أو الجسمية كان يلجأ إلى زوجه خديجة ، حيث تغسل جراحه وتضمدها ، وتخفف من آلامه وأحزانه ، أو إلى عمه يخفف عنه . . ولكنه الآن ليس معه خديجة ولا أبو طالب ، فهو وحيد تماماً . فاتجه نحو الله طالباً رحمته وحمايته . وكان الله معه ، وليس في حمايته وحسب . فرفعه إلى السماء . . هذه السفرة إلى الله يدعوها المسلمون « المعراج » .

التوضيح العلمي للمعراج

قبل أن أُدلي بنظرتي بشأن معراج رسول الله (ﷺ) أرى لزاماً علي أن أعـرِّج على ما ذكره المؤرخون المسلمون أولاً . ومرجعي في عرض هذه الوقائع المطابقة لآراء المسلمين معتمد على المؤلفين : ابن هشام ، وحميد الله ، والسهيلي ، والطبري ، والكتاني ، وأسد بيك . إنهم يذكرون أن المعراج حصل في شهر رجب ؛ الشهر الثامن العربي (القمري) . والليلة التي عرج فيها محمد (ﷺ) إلى السماء كانت الليلة السابعة والعشرين من الشهر المذكور .

وحسب روايات هؤلاء المسلمين أن العروج جرى على مرحلتين ، المرحلةِ الأولى هي التي رحل فيها من مكة إلى بيت المقدس . والمرحلة الثانية هي التي صعد فيها إلى السماء . ولقد دوَّن المؤرخون جزءاً من أحداث تلك الليلة بناء على لسان النبي (ﷺ) نفسه ، فقال :

ـ كنت في تلك الليلة نائماً في مكة ، ولما يُـصدر سادة قريش أمرهم بطردي ، إذا بسقف غرفتي ينشق ، وينزل منه جبريل . ففتح صدري ، وغسله بماء زمزم ، ثم أحضر إبريقاً ممتلئاً بالحكمة ، فصب ما فيه في صدري ، وأعاده كما كان ، ثم أخذ بيدي وقال : انهض واركب البراق .

البراق الذي ركبه محمد (ﷺ) تلك الليلة هو مركوب بين الجواد والبغل ، ويشبه وجهه وجه المرأة ، وطار به بسرعة البرق . عندما امتطى البراق كان في حالة غيبوبة هي بين الصحو والغفـو . وطـار به ، فتـوقف بادىء الأمـر . في مدينـة

« حَبْرُون »[1] لأن قبر ابراهيم فيها . وتلا محمد (ﷺ) على قبره دعاءً . ثم عاد فامتطى البراق وتابع الطريق ، فتوقف في بيت لحم مكان ولادة السيد المسيح ، وتلا دعاءً أيضاً . ثم امتطى البراق ثالثة ليتوقف بعد ذلك في بيت المقدس ، ويهبط في المسجد الأقصى . وهنا انتهت المرحلة الأولى لرحلة محمد (ﷺ) ، وهي المرحلة الأرضية . ومن المسجد الأقصى بدأت الرحلة الثانية ، أي الرحلة السماوية . وقبل ان يعرج إلى السماء أثرت قدمه فوق قبة الصخرة ، كما أثرت قدم ابراهيم في حياته فوق مقامه .

وصعد البراق برسول الله (ﷺ) إلى السماء ، وعبر سماء القمر أي السماء الأولى ، وهي أقرب السماوات إلى الأرض . فصادف هناك « آدم » . رآه واقفاً بين صفين من الخلق ، صعدو ا من الأرض مؤخراً . قد اصطف بعضهم عن يمينه ، وبعضهم عن يساره . أما الذين عن يمينه فـيتَّجهون نحو الجنة ، والـذين عن يساره مصيرهم إلى جهنم . ولما كان آدم « انساناً » فقد كان ينظر الى الفئة الأولى ويبتسم ، ثم يحدق في الفئة الثانية ويبكي ، لأنـه أبـو البشر . وكأي أب ينشرح صدره لسعادة أبنائه ، ويتألم لشقائهم .

وعبر محمد (ﷺ) السماء الأولى إلى السماء الثانية ، حيث لقـي « عيسى » و« يوحنـا » ، ثم صعـد الى الثالثـة فشاهـد « يوسف » ، وفي الرابعـة رأى « إدريس » ، وفي الخامسـة « هـارون » ، وفي السادسـة « مـوسى » ، وفي السابعة ـ وهي أعلى السماوات ـ لقي ابراهيم ، متكئا على جدار مسكن الملائكة . فبدا له شكل هذا المسكن لا يختلف عن شكل الكعبة . وبعد ان استقر في مكان من السماء السابعة ـ والذي يشبه الحرم (حـول الكعبـة) لمح في منتهـى السماء حرم « سدرة المنتهى » وهو شجرة خلفها مجهول مطلق ، لا يعلم أحد ما وراءَها .

---

(١) حبرون : اسم القرية التي فيها قبر ابراهيم الخليل ، وقد غلب على اسمها الخليل . ويقال لها أيضاً « حَبرى » . وروي أن أول من دفن فيها سارة ، وبعدها دفن ابراهيم .

ودنا النبي (ﷺ) كثيراً من مقام الله ، حتى كان يسمع صرير قلمه ، ففهم أن الله منشغل بحساب البشر . ومع أنه سمع صوت قلمه فإنه لم يره ، لأن الله لا يمكن أن يراه أحد ، وإن كان نبياً .

عندما بلغ محمد (ﷺ) السماء الأولى رأى مجموعة من الملائكة تحرس وتدقق في هوية القادمين لمعرفتهم . ومع أن محمداً (ﷺ) لم يستطع أن يسمع صوت الله مباشرة فقد وصله صوته عن طريق جبريل لعدم تمكن الآذان بما فيها آذان الأنبياء من التقاط صوت الله مباشرة . وخاطب الله محمداً (ﷺ) بواسطة جبريل ، فقال له :

ـ أعلم أنك طُـردت من قبيلتك ، ولكن عليك أن تتذرع بالصبر . واعلم أن الأنبياء قبلك قاسوا أكثر ، وزُجروا بأشد ما زُجرت ، وفارق بعضهم الحياة من الأرزاء التي حلت بهم .

وبعد ذلك خاطب الله رسوله (ﷺ) ، وشرح له واجباته في المستقبل ، وقال له :

ـ لقد جمع موسى أصحابه وهاجر بهم من مصر ، وعليك أنت أيضاً أن تهاجر بصحبك من مكة . وهجرتك تتطلب إرادة وعزيمة ، وحتى نشـدّ أزرك رفعناك الى السماء .

وحينما انتهت زيارة محمد (ﷺ) واستعد للنزول إلى الأرض ، أمره الله باثني عشر أمراً ، وأمره أن يبلّـغها المسلمين (كما أوصى موسى بعشر وصـايا) . هذه الأوامر هي :

١ ـ ألا يعبد المسلمون إلهاً غيره .

٢ ـ أن يبـرُّوا بوالديهم ، ويحسنوا إليهم .

٣ ـ أن يراعوا الأرحام .

٤ ـ أن يعينوا المساكين وأبناء السبيل .

٥ ـ ألا يسرفوا ولا يبذخوا .

٦ ـ ألا يكونوا لؤماء .

٧ ـ ألا يزنوا .

٨ ـ ألا يقتلوا نفساً من غير ذنب .

٩ ـ ألا يأكلوا أموال الناس ، ولا سيما اليتامى .

١٠ ـ الا يخدعوا الناس .

١١ـ أن يبتعدوا عن الأعمال التي لا يقبلها العقل .

١٢ ـ ألا يتكبروا .

وعلينا أن نذكر أن «دانتي» مؤلف « الكوميديا الإلهية » استفاد من تعريف الأشخاص والتعرف اليهم من قصة المعراج ، مقتبساً كامل عمله منها . وقد صادف محمد (ﷺ) في معراجه كل البارزين من البشر ، وقابلهم . قابل كل من حمل اليراع والأسل ، أي السيف والقلم ، رأى الأنبياء السابقين ، ورجال العلم الذين عاشوا في القرون الخالية . وكان هذا الموضوع ذا أهمية عظيمة بالنسبة إليه ، إذ تعرف إليهم عن كَثَب . وقد ذكر بعض المؤرخين أن محمداً (ﷺ) طوى سبع سماوات ، وبلغ سِدرة المنتهى ، وخاطب الله هناك ، وعندما عاد إلى منزله كان مزلاج الباب ما زال يهتز (تعبيراً عن السرعة) .

هذا الموضوع بديهي في هذا العصر بالنظر إلى فرضية « النسبية » لأينشتين [1] . وهو أمر ليس عجيباً ، لأن تلك الفرضية الآنفة الذكر تشير إلى أن

(١) هو البرت إينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) عالم أمريكي في الفيزيقا النظرية ، عرف بنظرية النسبية المشهورة . اكتسب شهرة عالمية لبحوثه القيمة . ونظريته النسبية تحدد العلاقة بين الجاذبية وبين انحناء الفراغ ذي البعد الزمني الرابع .

الزمان بين شخصين أو شيئين أحدهما ساكن وآخر متحرك غير واضح . وبناءً على هذا يمكننا أن نقبل شخصاً يخرج من منزله ويصعد إلى السماء ، ثم يعود إليه ، وما زال المزلاج يهتز على الباب . ولما كانت هذه الفرضية مطروقة كثيراً ، ويعرفها الجميع ، فلن أتطرق إليها . فهذا الأمر ليس عجيباً في معراج محمد (ﷺ) ، لكن الذي يدعو إلى العجب هو : هل استطاع محمد (ﷺ) بهذا الجسم المتشكل من لحم ودم وعظم وجلد أن يصعد إلى السماء ؟

لعلماء الإسلام نظريتان في المعراج . بعضهم يرى أن محمداً (ﷺ) صعد بهذا الجسم الترابي إلى السماء ، ويعتقد آخرون أن روحه فقط هي التي طارت إلى السماء . ولكن أحداً منهم لم يذكر أنه عرج نائماً ثم صاحياً حتى وصل إلى سدرة المنتهى . ويرى أصحاب الرأي الأول أنه لما كان نبياً ، تيسَّر له كل شيء . من ذلك قدرته بهذا الجسم الترابي أن يطويَ سبع سماوات . في حين أن الفئة الثانية لم تجد ضرورة ليصعد بجسمه ، واكتفوا بأن روحه هي التي عرجت ، وجابت السماوات السبع ، وبلغت سدرة المنتهى ، وخاطبت الله . فهم يرون اننا ـ من غير أن نكون أنبياء نستطيع أن نسافر في حال النوم إلى أي مكان ، وأن نقطع آلاف الكيلومترات ، ونخاطب الأموات .

نحن في حال النوم لا نخاطب من ماتوا في عصرنا ونعرفهم وحسب ، بل نخاطب من ماتوا قبل قرون ، ونحن نعلم أنهم أموات ، ومع هذا لا يأخذنا العجب إذ نحادثهم . ويبدو لنا مثل هذا أمراً عادياً ، ولا نقول لهم : « انتم اموات » ، حتى لا نزعجهم .

عندما نرى في حلمنا جسمنا الترابي ممتداً على الفراش من غير حراك ، ولكننا نحسُّ بخفته ، وانتقاله الى حيث نريد ، في مثل هذه الحال ،وحسب قول القدماء ، تخرج الروح من البدن ، وتتجول في الفضاء ، وتنطلق من بلد إلى

بلد ، وتخاطب الأموات . حتى إننا نخاطب من عاشوا في بلاد أخرى ، ولا نعرف لغاتهم ، لأن عدم معرفة اللغة لا يمنع من المخاطبة ، لأننا نفهم عليهم ونُفهمهم .

وقد لا تخرج الروح من أبداننا ، ولكن ، في حال النوم ، يبدو في كياننا (وندعوه اليوم في إحساسنا) أن الحجب تزول من أمام ناظرينا ، وتقصر الفواصل الطويلة ، فنرى شخصاً نعرفه في كل مكان ، ويبدو لنا أننا نعرف كل إنسان . قد يصعب علينا ، في حال الصحو ، أن نقفز من فوق نُهير ، ولكن في الحلم نطير فوق أعالي الجبال ، ونتخطى القمم الشاهقة . يبدو هذا القفز عاديا لنا ، تماماً كما نعبر شوارع مدينتنا . كل المحالات في اليقظة تبدو سهلة وعادية في الأحلام . وقد نظل في المنزل ، أو نطوف آلاف الكيلومترات ، كما نستطيع التكلم بأي لغة غريبة . وإذا زرنا مدينة أجنبية تبدو وكأنها معروفة لدينا ، كمن ولد فيها ونشأ .

ونلقى في حلمنا أصدقاءنا ومعارفنا ، وحتى أعداءنا ومن لا نراهم عادة في اليقظة يحبنا بعضهم ، ويُرهبنا بعضهم . . ولكننا نراهم أحياناً بشكل مرعب ، يجعلوننا نصرخ من هول منظرهم ، فنصحو من نومنا . نستطيع في الحلم أن نجوس بركاناً تتطاير لاباته ، ونحترق بناره ، وندخل إلى أعماقه ، ثم ما نلبث أن نخرج منه من غير أن تؤثر فينا النار . كما نتحمل في الحلم أشد درجات البرودة ، من غير أن نفارق الحياة .

لا يمكننا أن نحسب الزمان الذي نعيشه في حال الحلم ، وإن كنا نعرفه في أثناء اليقظة . كثير من الناس يزورون بلاداً في ليلة أو في يوم وهم نائمون ، في حين أنهم في حال الصحو لا تكفيهم لهذه الزيارة سنوات ، وحين يستيقظون يرون أنهم لم يغفوا غير دقائق معدودات .

لا تحتاج هذه الأمور إلى بحوث عميقة ، فقد جربها كل إنسان في حياته ،

ويعلم أنه في حال الرؤيا[1] تزول الفواصل ، ويسهل اللقاء ، ويمكن الكلام باللغات العديدة . وقد يستمع المرء في حلمه إلى أنغام لا نظير لها في حال الصحو ، وكأن هذه النغمات تأتيه من العالم الآخر . وكم أصغى إليها الموسيقيون ، فجذبتهم ، فاستيقظوا ، فسجلوها على الفور خشية أن ينسوها .

ليس في حال النوم زمان ماضٍ أو مستقبل أو حاضر للإنسان . . لأن كل الأزمنة سواسية لديه ، بل إن الزمان يتبدل بحسب الحلم . وليس عجيباً أن ينتقل المرء ألف سنة أو ألفين إلى الوراء ، فيحدث أُناس ذلك الزمان . . كما قد يحدث آخرين لم يُخلقوا بعد . وكثير من العلماء تعذر عليهم حل بعض المعضلات العلمية المستعصية ، ولكن رموزها تحل في أثناء الحلم . وما يؤثر على عقولنا في حال الصحو لا يؤثر عليها في حال النوم .

وبعد أن استعرضنا كل ما مرَّ ، ألا يمكن قبول : أن شخصاً كمحمد نبي الإسلام (ﷺ) استطاعت روحه ـ في حال الصحو ـ أن تترك هذه الدنيا ، وتنتقل إلى عالم آخر نراه في الحلم ؟ ألا يمكن قبول هذه الرؤيا في حال النوم التي تنسلُ الى إحساساتنا ، أن تتسرب إلى أعصاب عقل محمد (ﷺ) فتنقله إلى عالم شاهدناه في حال النوم ؟ ولما كانت أرواحنا تنطلق في الرؤى إلى عوالم أخرى ، أو يبدو لنا أننا انطلقنا من حدود الزمان والمكان ، فإنه يتضح لنا فيها الأزل والأبد[2] ، ونعيش كل هذه البسيطة ، وأحياناً نسمع أصوات الجمادات والنباتات ، ونفهم عليها . فإن وثقنا من حصول كل هذا في حال نومنا ، أو في حال شرودنا ، فان مثل هذا يجعلنا نثق ـ من الوجهة العقلية ـ بما جرى مع محمد (ﷺ) في معراجه ، ونقبل أن تكون رحلته هذه سريعة ، بشكل جعلته عندما عاد يرى زنجير الباب ما زال يهتز . ويقال

---

(١) الرؤيا : ما تراه في النوم ، الرؤية . النظر بالعين أو بالقلب ، وجمعها واحد هو : رُؤًى .
(٢) الأبد : الدهر ، القديم . الأزل : ما لا نهاية له .

إن حديث الزنجير استخدم مثالاً ، لا رواية ، يُقصد من ورائها إفهام الناس مدى سرعته في معراجه .

ولكن بعض المؤرخين الإسلاميين يعتقدون أن روحه لم تصعد وحدها إلى السماء ، بل صعدت مع جسمه الترابي ، وبسرعة خارقة للطبيعة ، ثم عادا . وإن دققنا في هذه النظرية اعترضتنا نظريتان من الناحية الفيزيائية ، إحداهما مسألة السرعة ، والأخرى كيف يمكن لجسم أن يطير بسرعة تفوق سرعة الضوء . وقد ذكرت الرواية أن سرعة عروج محمد (ﷺ) كانت أسرع من الضوء ، وبسرعة تأثير الجاذبية بالأمواج .

وقد تمكن محمد (ﷺ) في هذا العروج أن ينطلق إلى أبعد نقطة في الكون ثم يعود ، ونحن نعلم أن قطر الكون حسب نظرية إينشتاين يبلغ ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية . أي إن النور إن انتقل من طرف الدنيا إلى الطرف الآخر يحتاج حتى يصل إلى ثلاثة آلاف مليون سنة .

ولو أننا قلنا إنه صعد إلى السماء بروحه في حال صحوه لما احتاج الأمر إلى الحديث الفيزيائي . أما إذا قلنا إنه صعد بجسمه الترابي فإننا نضطر الى التساؤل عن كيفية تحمله هذه السرعة . ويذكر العلم الفيزيائي أن المادة غير قادرة على تحمل سرعة النور ما لم تتحول إلى نور . . والنور نفسه لا يمكنه أن يتخطى أكثر من ثلاثمئة ألف كم في الثانية ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الإسلاميين يؤكدون على رحلته بجسمه الترابي .

وعلم الفيزياء ، وإن لم يقبل هذا الموضوع ، فإنني أحترم العقيدة الإسلامية ، وأقبل كل ما جاءت به من الناحية الدينية . ولدينا نحن المسيحيين اعتقادات دينية لا يقبل بها علم الفيزياء كذلك ، ومع ذلك فنحن نقبل بها ، ونعتبرها من صلب معتقداتنا .

ايمان اشخاص غير مرئيين

بعد أن آب محمد (ﷺ) من رجوعه ، عاد إلى حيث كان بين أعدائه الذين يسعون إلى قتله من غير قصاص . وفي تلك الاثناء قدم نفر من بني حذيفة لقضاء العمرة ، فاستأجرت قريش واحداً منهم لقتله . وبلغ محمداً (ﷺ) هذا العزم ، ولما كان الله قد أمره أن يرحل عن مكة ، فقد قصد الطائف ليلاً .

والطائف مدينة تقع في جنوب مكة ، وتبتعد عنها مسيرة يومين على الجمل ، بيد أن المسافر إن حثّ راحلته وصلها بيوم واحد . وترتفع عن البحر ١٨٠٠ م ، وذات مياه (ومياهها كثيرة في تلك الأيام أيضاً) ، وتهطل فيها الأمطار ، ولهذا فإن طقسها لطيف ، وأشجارها كثيرة . ويعتبرها أغنياء مكة مصيفاً واليوم حينما يقطع المرء صحراء الجزيرة ويصل إلى الطائف يلقى حقولاً وبساتين ، ويلمس رطوبة في الطقس وكأنه ينتقل إلى عالم آخر . ولهذا كان سكان الطائف أغنياء ، وعملهم الأصلي هو « الربا » . وهم يربحون من قروضهم مئة في المئة . ومن خصائص سكانها أنهم يأكلون خبزاً ، ولهذا لا يعبؤون بشرب لبن النوق ، في حين أن غذاء عرب البادية يعتمد على هذا اللبن . وعندما يتذوق العربي اللبن يعرف عمر الناقة ، وأي نوع من الأعشاب أكلت .

ولقد خبرت في الجزيرة هذا الأمر بنفسي ، واستوضحت من أحد الأعراب مسألة لبن النوق ، فرأيته يحسب لي عمر الناقة، وفي أي بقعة رعت ، من غير أن يتلكأ في الإجابة ، أو يتأخر في التفكير . لأن لكل منطقة في الصحراء أعشاباً خاصة ، ربما لا تتوفر في أماكن أخرى ، وهم يعرفون كل هذه الأعشاب .

ولما كان سكان الطائف أغنياء كان بإمكانهم أن يشغلوا بعض وقتهم بالعلم والأدب . فقد كان الطبيب الوحيد في شمالي الجزيرة يقيم في الطائف ، ويدعى الحارث بن كَلَدَة[1] . وابن خلكان المؤرخ المعروف يذكر أنه تعلم الطب في بلاد فارس ، والطب الإيراني في ذلك العصر ذو شهرة ، وأطباؤهم عظام . كما كان المنجم الوحيد في شمالي الجزيرة الذي يشتغل بعلم النجوم على الطريقة العلمية ، ويرقب تحركات السيارات يحيا في الطائف أيضاً ، ويدعى « عمرو ابن أمية »[2] . والطائف مدينة ذات سور ، وهي المدينة الوحيدة المسوّرة في الجزيرة . ولكن العرب لم يبنوه ، بل بناه مهندسون ومعماريون فرس . فقد خدم أحد سكان الطائف ملك فارس خدمة جُلّى ، فسأله الملك عن رغبته رداً للجميل الذي قدّمه ، فأجاب ذلك الرجل :

ـ أتمنى أن ترسل مهندساً وبنائين ليسوّروا لنا مدينة « وجّ »[3] ، (لأنها كانت تدعى بهذا الاسم) فلبّى ملك فارس له هذا الطلب ، وأمر ببناء سور لها . ودعيت منذ ذلك اليوم باسم « الطائف » . وفي هذه المدينة تلّ حجري نُصب فوقه تمثال « اللات » (أحد الأوثان الكبيرة الثلاثة في الجزيرة) . ويدعى التل ، وما يحيط به « بست » . وكل من دخله ، وإن كان قاتلاً ، يلقى الحماية .

ودخل محمد (ﷺ) مدينة الطائف ، واتجه نحو منزل أحد ابناء عمومته ، واسمه « عبد يا ليل » . ولكن ابن عمه هذا لم يستقبله ، وأرسل بعض غلمانه خلفه ليضربوه بالحجارة ، لأنه كان يعلم أن قبيلة هاشم طردته . وتعقّبه غلمان

---

(١) هو الحارث بن كلدة الثقفي طبيب في عصره ، وأحد الحكماء المشهورين . رحل إلى فارس مرتين فأخذ الطب عن أهلها ، توفي نحو ٥٠ هـ ، واختلفوا في إسلامه . كان الرسول (ﷺ) يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده .

(٢) هو عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد قرشي أسدي .

(٣) ذكر ياقوت خبرين في مسألة تسمية « وج » بالطائف ؛ احداهما أن من بنى السور هو مسعود بن معتب الثقفي . وقد دعيت « وج » بوج بن عبد الحي من العماليق ، وهو أخو أجأ الذي سمي به جبل طيء .

عبد ياليل ، وهم يحصبونه ، فاضطر محمد للجوء إلى أحد بساتين الطائف والاختفاء فيه . وفقد الغلمان محمداً (ﷺ) ، ولكنهم ظلوا يبحثون عنه في مداخل الطائف ، بينما مكث محمد (ﷺ) في ذلك البستان .

كان ذلك البستان لأخوين من أهل مكة ، لم يريدا أن يحميا محمداً (ﷺ) بادىء ذي بدء ، ولكنهما حينما وجداه مجروحاً ، والدم يسيل من جراحه أشفقوا عليه ، وأمروا غلامهم المسيحي أن يقطف له عنقوداً من العنب ، فذهب ذلك المسيحي إلى كرم العنب ، وقطف له عنقوداً ، وقدمه إليه وقال :

ـ كُل .

وقبل أن يضع محمد العنب في فمه لفظ على لسانه « بسم الله » . فعجب الغلام المسيحي ، وسأله :

ـ أأنت مسيحي أيها الرجل الجريح ؟

أجاب محمد (ﷺ) :

ـ كلا .

فسأله الغلام :

ـ ولكن ما لفظته على لسانك قبل الطعام يلفظه المسيحيون . وما دمتَ لستَ مسيحياً ، فلمَ نطقت اسم الله ؟

أجاب محمد :

ـ إنني رسول الله ، والله الذي بعثني هو الذي بعث عيسى وهذا هو سبب ضربهم إياي بالحجارة .

قال له الغلام :

ـ وأنا أعبد إلهاً واحداً لأنني مسيحي .

وهكذا توثقت العلاقة بين رسول الله (ﷺ) وبين الغلام المسيحي الذي يدعى « عدّاس » . وقال له عداس :

ـ أترى هذا البستان ؟ إنه لأخوين أحدهما « عتبة » والآخر « شيبة » ، وهما ولدا ربيعة من قريش . ومع أن مولاي عتبة طلب إليّ أن أقدم لك عنباً لتأكله ، فإنني واثق من أنه لن يدعك في هذا البستان . غير أنني سأخرجك الليلة من البستان ومن الطائف ، وأنقذك من الذين يكمنون لك في بوابة المدينة ، سأخرجك من غير أن يروك .

وعاد الغلام المسيحي إلى عمله ، ثم قدم إلى رسول الله (ﷺ) ليلاً ، وخلّصه من المأزق ، ثم قال له :

ـ يا عبد الله ، ابتعد عن الطائف لأن روحك في خطر هنا .

ولم ير محمد بدّاً من العودة إلى مكة ، عاد إلى المكان الذي هرب منه . كانت أعضاء بدنه كلها تؤلمه من ضرب الحجارة ، كما كان جائعاً عطشان . ومن غير أن يعبأ بأوجاعه تابع طريقه ، لأن من الميزات الروحية والجسمية لعرب البادية « الصبر » على المكاره والمشقّات . فلولم يكن للعربي قدرة على المعاناة وجلد على المكاره لما استطاع أن يحيا في صحرائه ، والمثل المشهور « الصبر مفتاح الفرج » منبثق من عرب البادية . ومنذ أن أدرك العربي يده اليمنى من اليسرى كان ينتهج منهج هذا المثل في حياته .

في الجزيرة العربية أطفال يرعون الأنعام ، وقد يُمضون شهراً مع قطعانهم ، بعيدين عن ذويهم . فهم إن لم تسعفهم القطعان باللبن ظلوا جائعين . ويحكى أن طفلا في العاشرة تجول في الصحراء خمسة وأربعين يوماً بعيداً

عن مضارب خيام أهله . ولم يكن طعامه كافياً طيلة هذه المدة . وعندما عثروا عليه ، لم يروه يشكو ولا يضجر ، بل قال لهم يطمئنهم :

ـ لقد صبرت ، لأنني أعلم أنني سألقى أبي أخيراً .

فمن لا يصبر ليس بعربي . وما محمد إلا من هؤلاء الأعراب . ولهذا كان يستسهل ألوان العذاب الجسمية والروحية . وتوقف محمد (ﷺ) ليلاً في منطقة تدعى « بطن نخل »[1] . فأخذ هناك يتلو القرآن بصوت عال وحُرقة متأثرة ، فتأثر عدد من الجن ، فآمنوا وأسلموا . والآية الثلاثون من السورة السادسة والأربعين تذكر ما أشار الله الى هذا الايمان ، فيقول : ﴿ وإذْ صَرفْنا إليك نفراً من الجنّ يستمعونَ القرآنَ ، فلما حَضَروه قالوا : أنصتوا ، فلما قُضِيَ ولّوا إلى قومهم مُنذرينَ ﴾ . والقصد من الجن هنا سكان الصحراء الذين لا يُرون ليلاً ولا نهاراً .

قد تقطن مجموعتان في منطقة واحدة ، فلا ترى إحداهما الأخرى ليلا هذا إن لم تُسمع جلجلة أجراس الجمال ، أو إن لم تشاهد النار الموقدة ، أو إن لم تنبح كلاب القافلة (إن كان لديها كلاب) ، فإن القافلتين المسافرتين لا تشاهدان بعضهما بعضاً ، وإن كانتا على مسافة أمتار .

وقد انطلق محمد (ﷺ) في تلك الليلة وحيداً . وحينما وصل « بطن نخل » كان قد مضى من الليل جزء منه . ولم يكن الذين يعيشون في تلك البقعة يقظين ، أو كانوا يقظين، ولكن لم يتمكنوا من رؤية المسافر، بيد أنهم سمعوا صوته ، وانجذبوا نحوه ، وكما ذكرنا ، وآمنوا به . ولم يُفهم ممّا جاء في القرآن وورد في الروايات أن المؤمنين جن لا يُرون ، أو كانوا من سكان « بطن نخل » . والأمر

---

(١) بطن نخل : قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة ، بينهما الطرف على الطريق ، وهو بعد أبرق العزّاف . للقاصد إلى مكة .

المسلم به أن الذين لم يرهم محمد (ﷺ) في آناء الليل ، سمعوا صوته ، وآمنوا به ، متأثرين بالقرآن .

تطلق كلمة « الجن » في اللغة العربية على الأشياء المطلقة الخفية والمستورة والتي لا تُرى . ولهذا يطلقون على الطفل في بطن أمه « الجنين » ، وأصلها الجن . وبالإضافة إلى هذا فلها معنىً آخر يدل على الرهبة والاستيحاش أي الخوف من الآخرين . ولهذا اعتبر العرب ضد « الجن » كلمة « إنس » . والإنس هي الجماعة التي تستأنس بغيرها ، وتألفها ، في حين أن « الجن » هي الجماعة التي يُخاف منها ويُرهب جانبها . ولما كان سكان المدن بحكم تمدنهم متآلفين متآنسين ، فإن الإعراب قديماً كانوا يسمونهم « الإنس » ، ويسمون سكان الصحراء « الجن » . ولكن تبدلت الكلمتان بلفظين آخرين هما « أهلي » و« وحشي » .

ولكن علينا أن ننتَبه إلى أن استنباط العرب قبل أربعة عشر قرناً في بحث (الإنس والجن) ، أو الإنسان المتمدن والإنسان المتوحش مخالف لاستنباطنا نحن اليوم بين هاتين الفئتين الآدميتين . والإنسان الوحشي ، في نظرنا اليوم هو من لا يسكن المدينة ، ولا يرتدي ثياباً كثيابنا ، ولا يركب سيارة ، ولا يستخدم هاتفاً ولا برقيات ، ولا يطيع قوانين الدولة غير أن هذا التباين لم يكن واضحاً بين سكان مكة وعرب الصحراء ، ذلك التفاوت الذي نلمسه اليوم بين المتمدن والمتوحش ، لأن العرب بشكل عام بدو ، يتبعون سلسلة من القوانين الخاصة لا تختلف كثيراً فيما بينها (على الأساس القبلي) . والفارق الملموس بين حياة سكان مكة وسكان البادية أن أهل مكة يأكلون لحماً أحياناً ، وأحياناً يصيبون خبزاً ، ويبدلون ثيابهم ، ويتسلمون مالاً في تجارتهم ، وأذا عطشوا شربوا الماء . وفي غير ذلك لا يختلفون عن سكان البادية . كما أن سكان مكة لا يعتبرون سكان الصحراء متوحشين ، ولا

يطلقون عليهم لفظة « الإنسان الوحشي » . ولكن لما كانوا لا يروئهم ، ونادراً ما ينزلون إلى المدينة ، لهذا يدعونهم جناً .

لا يخالف هذا الموضوع ما جاء في بعض آيات القرآن التي تذكر أن الجن موجودون، وقد خُلقوا من النار. والنظريات الحديثة المتعلقة بطبوغرافية الكرة الأرضية تثبت أن أصلها كتلة نارية ، وأن كثيراً مما عليها أصله من النار ، وقد تبرّدت هذه الكتلة النارية قبل ٤٥٠٠ مليون سنة ، وتوضّعت الأرض على شكلها الحالي .

لستُ مضطراً هنا لأن أدافع عن القرآن (فهذا أمر لا حاجة إليه لبداهته) ، وقصدي من هذه المعالجة اطلاع الذين لا يعرفون اللغة العربية ، وبالتالي لا يتمكنون من قراءة القرآن بلغته الأصلية . ولما كان هؤلاء يقرؤون القرآن مترجماً إلى بعض اللغات الأوروبية ، ولا يجيد كل المترجمين رموز العربية ومجازاتها ، فيقعون في أخطاء ، فيتساءلون : وكيف يمكن أن تُصغيَ الجن إلى القرآن ؟ وأراني مضطراً إلى أن أوضح لهم هذه النقطة :

فحتى يصير نبي الإسلام إلى مكة ، سار في طريقه حتى دنا منها . كان النبي قبل عشر سنوات يحيا في مكة بشكل حسن ، ويرتدي الألبسة النظيفة ، فإذا جاع أكل ، وإذا عطش شرب . ولكنه حينما وصل إلى مكة هذه المرة كان متعباً ، جائعاً ، كثير الجراح . ولعل سائلاً يسأل : لماذا يعود النبي (ﷺ) إلى مكة وقد طردته قبيلة هاشم ؟ وجوابنا أن محمداً عربي ، ولا يجرؤ العربي أن يحيا من دون قبيلة . وعندما طردوه من قبيلته أخذ يبحث عن قبيلة أخرى يلتجىء إليها . والبدوي كالذرَّة لا يحيا وحده ، وكذلك الذرة يجب أن تتحد مع ذرات أخرى لتشكل جزءاً قادراً على الحياة . وهو يشبه النحلة كذلك ؛ فالنحلة لا يمكنها أن تحيا بلا خلية ، وهي إن ابتعدت عن خليتها حيناً ماتت .

طلب الله إلى محمد (ﷺ) أن يغادر مكة ، فرحل إلى الطائف ، يستطلع فيها

معارف وأتباعاً ، ليرى أبإمكانه العيش فيها ؟ إلا أنه فهم أن الطائف لا تقبل المسلمين ، فعاد إلى مكة ليفكر في مكان أكثر أمناً يرحّل المسلمين إليه . ولما كان لا بدٌّ له من الاتصال بقبيلة ، أرسل »لى « الأخنس بن شريق »[1] حليف قبيلة « زهرة » ، يطلب منه حق الجوار . فوافق الأخنس على حماية محمد (ﷺ) ، ولكنه لا يجرؤ على ذلك لاتحاده مع قريش ، إذ لا يحق لامرىء متحد مع طائفة أن يحمي طريدها . فبعث برسالة إلى « سهل بن عمرو »[2] طالباً إليه حمايته . ويعتبر سهل هذا من قبيلة قريش ، إلا أنه من فرع آخر ، ومع ذلك فقد رفض حمايته ، فاضطر للخروج إلى الصحراء .

صادف ذلك الوقت شهر رجب ، ومن عادة العرب أن يحجوا العُمرة ، لأنهم يعتبرون العمرة في رجب « حجاً أصغر » . فانتهز محمد (ﷺ) فرصة قدوم عدد من القبائل إلى مكة لقضاء العمرة ، فاتصل برؤسائها . ولكنه كان كلما قدم إلى رئيس يعرض عليه حمايته ، ويعدهم بأنهم سيحكمون العالم المجاور في المستقبل ، لم يوفق إلى واحد منهم ، بل إن بعضهم كان يسخر منه ، ويعتبره مجنوناً ، ويصرف السمع عنه . ومع أنه لقي سلبية من قبل خمسة عشر رئيساً فإنه قصد الأخير ـ السادس عشر ـ . قدم هذاالرئيس الذي لجأ اليه مع خمسةمن أعضاء قبيلته من يثرب ، والتي دعيت فيما بعد بـ « المدينة » . لم يسخر هذا الرجل من محمد (ﷺ) ، بل أصغى إليه بكل اهتمام ، وما أن شرع بتلاوة بعض الآيات حتى آمن به . وبعد ذلك ناداه مرافقوه الخمسة ، وطلبوا إليه أن يتلو عليهم بعضاً من القرآن . وهكذا سلم الرجال الستة . وبعد أن أدَّوا عمرتهم ، عادوا إلى يثرب بعد أن أعلموا محمداً (ﷺ) أنهم سيعملون على إسلام بقية قبيلتهم .

---

(١) هو أبي بن شريق ، ويعرف بالاخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكان حليفاً لبني زهرة . وأعطاه رسول الله مع المؤلفة قلوبهم ، وتوفي في أول خلافة عمر .

(٢) هو سهل بن عمرو بن عبد شمس ، أخو السكران زوج سودة . أسلم يوم الفتح .

وبعد مضي عدة أيام من بقاء محمد خارج مكة وافق رئيس قبيلة نوفل ، والتي تعتبر واحدة من قبائل قريش العشر على حماية محمد (ﷺ) . وإثر ذلك استطاع أن يعود إلى مكة ، ويدخل منزله . وفي ذلك الوقت تزوج بسودة ، التي ذكرنا أنها عادت من الحبشة . وكانت قد رحلت مع زوجها بعد أن أسلما . ولكن زوجها ومعه عبيد الله بن جحش[1] ارتدا عن الإسلام ، ودخلا في الدين المسيحي . ورأت سودة أنها إن بقيت في الحبشة فسيكرهها زوجها على الدخول في الدين المسيحي ، لذا طلبت إليه أن يطلقها . وعادت بعد ذلك إلى مكة . وهناك غدت زوجة للنبي (ﷺ) . لم تكن سودة صبية ولا جميلة . وقد صرّح محمد (ﷺ) بأن زواجه منها إنما كان لمساعدة أولاده من خديجة ، حتى لا يعيشوا بلا مشرف . وبعد أن تزوجها عرض عليه أبو بكر صديقه المخلص أن يخطب ابنته عائشة ، وقال له :

- ابنتي أول مخلوق في عهد الإسلام ، فحري بها أن تكون زوجك .

فقال له محمد (ﷺ) :

- ولكنها فتاة صغيرة ، ولما تبلغ السابعة من عمرها !

فقال له أبو بكر :

- اخطبها يا رسول الله ، ثم نصبر عليها حتى تكبر ، وبعد ذلك تتزوجها .

وقد حصلت هذه الخطوبة عام ٦٢٠ م .

(١) عبيد الله بن جحش : أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله (ﷺ) ، وأخته زينب زوج النبي .

ماذا يعني: الأمة على دين الاسلام؟

وتلاحقت على محمد مشقات كثيرة سنة أخرى ، وهو في مكة . ومع أن أحداً لم يطالب بقتله فإنه لم يكن يخشى الموت . كان البدو يصرّحون ـ ورأيهم كذلك اليوم ـ بأنه في اليوم الذي تقرّر أن نُخلق في هذه الأمة لم نُسأل أنريد أن نخلق أم لا ؟ ولو سألونا ربما كان جوابنا نفياً . واليوم الذي نُسلب فيه من هذه الدنيا لا يسألنا أحد أنريد أن نموت أم لا ؟. إن حياتنا بيد الله ؛ هو الذي خلقنا وله الحق بأخذنا من هذه الحياة في أية لحظة . . . فليس لنا خيار في المجيء ، ولا في الرحيل .

الحياة رأس مال يهبنا إياه الله ، ولنا أن نستفيد من هذا الرأس المال من غير أن نتملكه ، لأنه ليس لنا تماماً . لذا يجب ألا نخاف من طالبي قتلنا ، لأن موتنا ليس بيدنا ، كما يجب ألا نخاف من الموت إن أتى ، لأن الخوف لا يبعده عنا . ومحمد (ﷺ) عربي ، ولديه الإيمان الكامل بمسألة الموت ، لهذا فإنه لم يكن يخافه ، لكنه لم يكن طالبه . . وهذا ما دفعه إلى تحمل العناء والمشاقّ .

وبعد عام ، أي في عام ٦٢١ م قدم عدد من سكان يثرب إلى مكة لأداء الحج ، وكان عددهم اثني عشر رجلاً ، وواضح أنهم مسلمون قدموا لزيارة مكة . عشرة منهم من قبيلة ، واثنان من قبيلة أخرى . واتخذوا « العقبة » مركزاً لهم ، وتشاوروا فيه مع رسول الله (ﷺ) . والعقبة شق بين جبلين ، يقع بين مكة ومنى ، وهو المحل الذي عبر منه إبليس والأرواح الشريرة قديماً . ويقال : عندما أراد ابراهيم أن يذبح ابنه قرباناً لله ليثبت إيمانه به ، لحق به الشيطان في ذلك المكان

ليحول دون ذبح ابنه في سبيل الله . فاضطر ابراهيم إلى قذفه بالحجارة . ليبعد عنه شره . والذين يذهبون اليوم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج يرمون الحجر عليه .

وقد دعي هؤلاء الاثنا عشر رجلاً من مسلمي المدينة في تاريخ الإسلام ، كما دُعي معهم سائر مسلمي المدينة باسم « الأنصار » . وبعد أن وصلوا إلى ذلك المكان ، أخبروا محمداً أن المسلمين زادوا في يثرب ، وسبب زيادتهم اطلاعهم على القرآن .

يعتقد الأنصار أن اليهود منذ مدة يتوقعون بعثة نبي وقال له الأنصار : نحن سعداء اليوم إذ حصل ما كان متوقعاً ، وبعث النبي من قومنا وليس من قوم اليهود . كنا نشعر بالذل والصَّغار تجاه اليهود والنصارى ، لأنهم أهل كتاب ، في حين أننا لا نملك كتاباً ، وإن كنا نأمل أن نحظى بكتاب مثلهم . وكم نحن سعداء اليوم بنبي هدانا إلى كتاب هو القرآن ، وحين يصغي إليه المرء تعتريه هزة وقشعريرة .

وبعد ذلك راجعه هؤلاء ببعض المسائل السياسية الخاصة بمدينتهم وقالوا له :

ـ لقد حصل خلافَ بين قبائل يثرب في مسألة انتخاب « ملك » لهم ، مع أن الصائغ أعدَّ تاجاً لأحد سادة القوم ، ويدعى « عبد الله بن أُبي » ، إلا أن عدة من القبائل لم توافق على سلطنته ، واقترحت بدلاً عنه نبياً لحل مشكلاتها . ولما كان محمد (ﷺ) من طائفة قريش ، وأبوه عبد الله المدفون في ظاهر يثرب ، وهو نبي ، فإن سكان يثرب يُجمعون على استقباله . وهم يعلمون أن للنبي ميزات على السلطان ، لأنه يستلهم الله في حكمه .

فقال لهم محمد (ﷺ) :

ـ أأنتم مستعدون لأن تبايعوني « بيعة النساء » ؟

وبيعة النساء عهد ووفاء تقدمه القبيلة لرجل فاقدٍ قبيلته ، أو أنه قسم تؤديه عدة قبائل نحو قبيلة واحدة . وبايعه ممثلو القبيلتين في ذلك الشعب « بيعة

انساء » ، أي على الوفاء . ويقسم المبايع في هذه البيعة على أن يكون وفياً كوفائه لزوجه وأولاده ، ولهذا يدعوها العرب بيعة النساء . وبعد أن أقسم هؤلاء الرجال قال محمد لهم :

- إن بررتم في قسمكم دخلتم الجنة ، وإن نكثتم فعقابكم عند الله ، هو يجازيكم أو يعفو عنكم .

وأرسل معهم أحد المسلمين ليعلمهم القرآن ، ويدعى « ابن عُمير »[1] . وابن عمير رجل عجوز ولكنه حسن الحديث ، ويتلو القرآن بصوت عذب جميل . وقد استطاع بعد أن وصل يثرب أن يُدخل عدداً من المشركين في الإسلام[2] . وتقدم الإسلام في يثرب ، فلم يكد ينتهي عام ٦٢١ م حتى غدا كل السكان مسلمين عدا اليهود تقريباً . ومع أن اليهود لم يكونوا مستعدين للدخول في الإسلام فإنهم لم يمانعوا في قدوم محمد (ﷺ) إلى يثرب ، لأنهم بواسطته سيحلون الخلافات بينهم وبين الآخرين . وبعد أن استطلع محمد (ﷺ) أوضاع يثرب بدأ يستعد للهجرة إليها ، ومعلوم أن هذا حدث جلل .

ظل محمد يتحمل كل المصائب التي تحل به حتى ذلك الوقت ، من غير أن ينفصل عن قبيلته ، وهو يعلم أنه حينما يهاجر ستنقطع الصلة بقريش . وفي اللغة العربية اصطلاح خاص للانفصال ، يستخدمه الآخرون في معان أخرى غير معناه الأصلي ، هذا الاصطلاح هو « الفتنة » . وتعني في العربية « قطع الارتباط » ، وهي أن ينفصل عن قبيلته في كل شيء . ولكن لما كان هذا الاصطلاح غير وارد في هذا المجال فقد تصوَّروا أنه بمعنى خلق الفساد ، في حين أنه ليس كذلك .

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، صحابي شجاع من السابقين إلى الإسلام . كان ممن هاجر إلى الحبشة . وكان أول من جمع الجمعة في المدينة وعرف فيها بالمقرىء . شهد بدراً ، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد . كان يلقب « مصعب الخير » .

(٢) منهم : أسيد بن حضير وسعد بن معاذ .

كان النبي (ﷺ) يعلم أن هجرته من مكة فتنة أي انفصال . وعلى أثر هذه الهجرة سيحلُّ مجتمعاً جديداً ، يختلف عن مجتمعه القديم تماماً ، وليس فيه نسب ولا حسب ، ولا ثروة ، ولن يكون فيه فرق بين أبيض وأسود ، وغني وفقير ، وابن أمير وابن رجل عادي . وسيُدعى الناس هناك جميعاً بـ « الأمّة » . وسيكونون متساوين جميعاً لأنهم على دين الإسلام الواحد ، وستكون الطاعة الوحيدة لله ، وممثل الله في هذه الأمة هو رسول الله ، وكل أفراد هذه الأمة الجديدة متساوون أمام الله ، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة .

والأمة تختلف عن العشيرة والقبيلة في الحسب والنسب والدم ، والذي يفصل بين الناس جميعاً في هذه الأمة هو قانون القرآن ، وبين الأمة وسائر الناس سدٌّ هو هذا القانون . وللناس جميعاً الحق في عبور هذا السد ، والدخول في هذه الأمة ، شريطة أن يقبلوا حكم الله ، أي يعتبرون مسلمين . وما أن يخطو المرء خطوة واحدة في هذه الأمة حتى يغدو أحد أفرادها ، متساوياً معهم جميعاً .

في ذلك الوقت فقط فهم محمد أن إيجاد هذا المجتمع الجديد ، أي المجتمع الإسلامي ، الذي لا يعبأ بالأحساب ولا الألوان إنما هو ثورة اجتماعية عظيمة ، ستتكوَّن في جزيرة العرب . ولقد كانت ثورته التي أرادها آنئذ ، إذا قارنّاها بعادات العرب وتقاليدهم ونفوذ رؤساء القبائل ، تفوق الثورة الفرنسية العظيمة بمراحل . فالثورة الفرنسية لم تستطع أن تحقق المساواة بين الفرنسيين ، في حين أن الثورة المحمدية حققتها ، وأزالت كل معالم الطبقات ومزايا الأشراف .

وقدمت فئة أخرى من المدينة لأداء فريضة الحج عام ٦٢٢ م ، فلقيهم محمد (ﷺ) ليلاً في ذلك الشعب ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين . وحين اكتمل جمعهم قرأ عليهم محمد (ﷺ) بضعة آيات من القرآن ، ثم طلب إليهم أن يبايعوه بيعة النساء ، كما بايعه الذين سبقوهم. فبايعوه بيعةً يدافعون فيها عنه كما

يدافعون عن نسائهم وأولادهم . وأكد لهم محمد أن بيعتهم هذه تضطرهم للدفاع عنه كما يدافعون عن أهلهم . وقال لهم :

- قد نضطر إلى الحرب في سبيل الإسلام ، فهل أنتم مستعدون للحرب ؟ وهل أنتم مستعدون لبيعتي بيعة الحرب ؟

هناك فرق بين بيعة الحرب وبيعة النساء . فإن كنتم تريـدون أن نوفق بين هذين الاصطلاحين مع اصطلاحات العصر الحاضر فعلينا أن نقول : إن « بيعة الحرب » عبارة عن **« عهد على الهجوم » ، و« بيعة النساء » هي « عهد على الدفاع »** . وإن بايع أحد أحداً بيعة النساء فإن أعلن الحرب على خصم لم يحارب معه ، في حين أنه إن هوجم من قبل أعدائه حاربوا معه ودافعوا عنه . ولقد أفهمهم **محمد أنه يقصد ببيعة الحرب إمكــان المهاجمة والمحاربة التي قد يضطرون إليها .** وعلى هذا فإن بيعة الحرب أوسع مفهوماً من بيعة النساء ، لأن بيعة الحرب تشمل الدفاع والهجوم معاً . ووافق مسلمو المدينة على مبايعة محمد بيعة الحرب ، وعاهدوه على الدفاع وعلى الهجوم ، ولكنهم قبل المبايعة قالوا له :

- ولكننا ، يا رسول الله ، نخشى أن تتركنا وتعود إلى مكـة إن أظهرك الله ونصرك .

ولهذا أقسم لهم وقال :

- يا مسلمي يثرب ، إن دمكم دمي ودمي دمكم ، أنا منكـم وأنتم مني . وكل من يحارب منكم في سبيل الله سأحارب معه .

وبعد أن بايعه الناس انتخب منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من طائفة ، وثلاثة من طائفة أخرى . ثم قال للنقباء الاثني عشر :

- أنتم ممثلوي ، فاشرحوا لأهل يثرب أحكام الله ، وقولوا لهم : المسلمون

سواسية ، والله يقول : ﴿ **إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فأصلحوا بينَ أخويكُم واتَّقوا الله لعلكَّم تُرحمون** ﴾[1] .

هذه الآية من سورة الحجرات ، وقد نزلت سورة الحجرات في المدينة ، وعلى هذا فلا يمكن لرسول الله أن يتلوها عليهم (وهو في مكة) ، ما لم يكن قد قرأ مضمونها لا الآية نفسها[2] . ومهما يكن من أمر ، فإن النبيَّ محمداً (ﷺ) أزال كل الفوارق الطبقية عندما أزمع على الهجرة . كما أن الآية الثالثة عشرة من السورة نفسها تتضمن هذا الموضوع ، وهي : ﴿ **يأيُّها الناسُ ، إنَّا خَلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجَعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتْقاكُم ، إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ** ﴾ .

إن كل من يجيد العربية يفهم ان المقصود من هذه الآية هو تقسيم « الناس » إلى فئات ، ليس على أساس المباهاة والتفوق بل على أساس معاشرة الأمم فيما بينها . إن كل من يعرف العربية يفهم أن كلمة « تعارفوا » ذات معان مجازية . وليس المقصود منها هنا التعرف العادي وحسب ، بل التعرف إلى أوضاع الآخرين وأحوالهم وفتح باب المؤاخاة لرفع الاحتياجات فيما بينها .

وقد أفهم محمد النقباء الاثني عشر أنهم رواد نهضة عظيمة جديدة في الجزيرة ، وعليهم أن يكونوا أهلاً لهذه الوظيفة . حتى ذلك اليوم كان محمد (ﷺ) مجرد نبي ، ولكن منذ ذلك اليوم فما بعد غدا رئيساً سياسياً لأمته بالإضافة إلى رسالته السماوية . ولهذا خاطب الله محمداً (ﷺ) في القرآن ، وحثَّه على الاستفادة من حياة النبي موسى ، لأنه كان مدبِّراً وحاكماً .

هذا ، ولم يعد لذلك الشِّعب الذي لقي فيه محمد (ﷺ) مسلمي المدينة وجود اليوم ، وقد بني مكانه مسجد .

---

(١) الآية : ١٠/ من سورة الحجرات ذات الرقم : ٤٩ .
(٢) ودوّنها المؤرخون .

الهجرة
ذلك الحدث العظيم في الإسلام

تمَّت بيعة الحرب في شهر رجب من عام ٦٢٢ م ، وبرز منذ تلك البيعة اصطلاح لدى العرب ، ولا سيما المسلمين منهم ، هذا الاصطلاح هو « الأنصار والمهاجرون » . فالأنصار هم مسلمو المدينة الذين أسلموا منذ شهري رجب من عامي ٦٢١ و٦٢٢ . والمهاجرون هم مسلمو مكة الذين هربوا من التعذيب الذي كانوا يلقونه من المشركين . ولم تذكر أيٌّ من كتب التاريخ الإسلامية ميزةً ما لإحدى هاتين الفرقتين على الأخرى ، لأنهما عانيا معاً الكثير في سبيل الإسلام . وقد أطلق لفظ « الأنصار » في بادىء الأمر على الفرقة التي قدمت إلى رسول الله (ﷺ) وآمنت به ، وفيما بعد غدت علماً شائعاً لكل سكان المدينة .

وقد تمت بيعة الحرب هذه سراً ، ومع هذا فإن فئة من قبيلة قريش اكتشفت أن محادثة جرت بين محمد (ﷺ) وبين سكان يثرب ، وأن الطرفين اتفقا على شيء ، ولهذا سألوا فئة قدمت إلى مكة للحج :

ـ متى ؟ وأين رأيتم محمداً ؟ وماذا قلتم له ؟ وماذا سمعتم منه ؟

غير أن القادمين كانوا عبدة أوثان ، أقبلوا لزيارة أصنام الكعبة ، ولم يعرفوا شيئاً عن « بيعة الحرب » ، لأن الخمسة والسبعين مسلماً الذين اجتمعوا في العقبة ليلاً عادوا إلى يثرب بعد أن غيروا وجهة سيرهم خشية أن يتعقبهم أهل قريش . وبعد عودة مسلمي المدينة بثلاثة أيام أدرك المشركون من أهل قريش أن « عهد حرب » جرى بينهم وبين محمد (ﷺ) فقرروا أن يلحقوهم ليعيدوهم إلى مكة .

تقطع القوافل العاديَّة الطريق بين مكة والمدينة بأحد عشر يوماً ، بيد أن

الجمال السريعة البيضاء تطوي المسافة بثلاثة أيام مع لياليها . ولما غير المسلمون الطريق ، وامتطوا النوق النشيطة لم يستطع القرشيون أن يكتشفوهم ، وعوضاً عن ذلك أوقفوا أحد تجار يثرب ، وكان من جملة المسافرين مع القافلة المسلمة ، فأسروه وأعادوه إلى مكة . وهناك استنطقوه فقال لهم :

ـ لقد كنت مع قافلة يثرب ، وعدت معهم ، غير أنني لم أسمع بأن المسافرين صرحوا بأنهم لقوا محمداً (ﷺ) في مكة وتحادثوا معه .

لقد صدق التاجر المدني في كلامه ، لأن المسلمين لم يصرحوا لغريب عن اجتماعهم . وكان هذا التاجر غنياً ومن قبيلة ذات مكانة . فإن آذته قريش جوبهت بصعوبات جمَّة ، ووقعت في حرب قبلية . كما أن للتاجر المذكور أصدقاء متنفذين في مكة ، فأطلقوا سراحه ، وأرسلوا جاسوسين إلى يثرب ليستشفَّا أخبار المسلمين هناك ، ويعلموا ماهية القرار الذي جرى بينهم وبين محمد (ﷺ) . ولعل سائلاً يسأل : لماذا لم تقبض قريش على محمد في مكة وتحقق معه ؟ وجوابنا على هذا التساؤل أن محمداً (ﷺ) كان في جيرة أحد رؤساء القبائل كما ذكرنا فلم تتمكن قريش من إيقافه أو تعذيبه .

وحالما اطمأن رسول الله (ﷺ) إلى وصول المسلمين الخمسة والسبعين إلى يثرب أوعز لمسلمي مكة بالهجرة والإقامة في منازل الأنصار . وقد أخذ المسلمون بالهجرة على شكل مجموعات صغيرة ، بدقة متناهية ، حتى لا ينتبه أهل قريش . ولكن سكان مكة يعرفون بعضهم بعضاً (واليوم أيضاً يعرف الناس سكان جدة ومكة بعضهم بعضاً ، فما بالك بتلك الأيام ؟) ، وسفرُ عدد منهم ، وإن جرى بطريقة سرية ، يلفت النظر . ولما لاحظوا هجرتهم عزموا على منعهم من السفر .

وقد قرر ثلاثة من المسلمين الهجرة، هم : « عياش بن ربيعة »[1] ، وأخواه

---

(١) اسمه الصحيح : عياش بن أبي ربيعة . كان اسلامه قديماً قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم . ولما هاجر إلى المدينة قدم عليه أفواه لأمه وهما أبو جهل والحارث فذكرا له أن أمه حلفت ألا يدخل رأسها دهن لا تستظل حتى تراه ، فرجع معهما فأوثقاه وحبساه بمكة . قتل يوم اليرموك وقيل مات في مكة (أسد الغابة) .

« هاشم » و« أمية » أبناء العاص ، وكان موعد الرحيل ليلاً غير أن هاشماً فُـقد ولم يعثـر عليه . فاضطـر المسـلمان الآخـران إلى الـرحيل من دون أخيهما . وفهـم المسلمون ـ فيما بعد ـ أن هاشماً أسرته قريش لأنه مسلم . لم يكن في ذلك الزمان سجن في مكة ، وأول سجن عرف في الجزيرة كان بعد سنين طويلة من وفاة النبي (ﷺ) ، في الكوفة . وكانوا آنئذ يقيِّـدون المجرمين جنـازير حديدية ، ويرمونهم في الصحراء المحرقة . وهذا ما فعلوه مع هاشم . واستطاعت قريش أن تتعقـب اثنين آخرين خارج مكة .ولكنها لم تستطع أن تأسرهما .

وبعد أن وصل جاسوسا قريش إلى يثرب قصدا عـيّـاشاً وقالا له :

ـ إن أمك في مكة تشارف على الموت ، فإن أردت أن تراها قبل موتها فانهض ورافقنا إلى مكة لأننا عائدان إليها .

شك عياش في كلامهم هذا ، ولكنه خشي أن يكون ما قالاه صحيحاً . فهو يريد أن يرى أمه قبل أن تموت ، لهذا سار معهما إلى مكة ، وحـالما وصـل قيدوه بالحديد ، ورمَـوه في الصحراء إلى جانب أخيه . ومن حسن حظهما أن الفصل كان خريفاً ، وأن الشمس لم تكن محرقة ، وإلا أودت بحياتهما حرارة الشمس . ولكن عندما وصل نبأ أسر هاشم وعياش إلى يثرب قدم عدد من الأنصار على نوق سريعة ، ففكوا لهما قيودهما ليلاً ، وأركبوهما جملـين ، وعـادوا بهما . . ولـم يكن بقـي في جسميهما إلا الجلد والعظم .

عندما هاجر أحد المسلمين الأغنياء إلى يثرب ويدعى « بنـو جاش » (؟) استولى أبو سفيان على منزله الكبير وأقام فيه . مسلم غني آخر عزم على الهجرة ، ويدعى « صهيب بن سنان الرومي »[1] . وقبل أن يرحل التـفَّ حوله رجال قريش

---

(١) صهيب بن سنان بن مالك الربعي النمري (ولعله الربعي ، كناه رسول الله (ﷺ) بأبي يحى . وقيل له الرومي لأن الروم سبوه صغيراً ثم هرب منها عندما كبر . أسلم هو وعمار في يوم واحد . وقد عذب كثيراً في مكة ، ولما لحقوه دلهم على ماله فتركوه ، فنزلت به الآية : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه . . ﴾ . توفي في المدينة سنة ٣٨ هـ .

وقالوا له :

- يا صهيب يوم قدمت إلى مكة كنت رجلاً فقيراً فاشتغلت بالتجارة هنا ، وتمكنت بمساعدتنا أن تصبح من أغنياء مكة . والآن تريد أن ترحل عن بلدتنا بثروتك التي جنيتها منّا ، لهذا لا نسمح لك أن تخرج من المدينة بمالك .

فترك كل أمواله في مكة واتجه نحو المدينة ، ولهذا أنزل الله تعالى الآية ذات الرقم مئتين وسبع من السورة الثانية (البقرة) ، من غير أن يذكر اسمه صراحة : ﴿ ومنَ الناسِ مَن يَشْري نفسَهُ ابتغاءَ مَرْضاتِ الله ، والله رؤوفٌ بالعبادِ ﴾ ، ولكن العلماء يجمعون على أنها نزلت بسببه . وعجبت قريش مما فعله صهيب ، لأنها لم تتوقع أن ترى أحداً يعاف الدنيا ليلتحق بدين يخدمه بكل وفاء وإخلاص . ذلك أن مكة اعتادت ألا ترى شيئاً ذا قيمة إلا المال ، وأهل قريش يسعون إلى الاكثار من أموالهم وكنز ثرواتهم ، لهذا اعتبرت قريش صهيباً مجنوناً ، لأنها تصورت أن الإنسان المجنون وحده الذي يتخلى عن أمواله في سبيل دينه .

وبعد صهيب غادر عدد من المسلمين منازلهم نحو المدينة ، وهم يعلمون علم اليقين أن قريشاً ستستولي على منازلهم . ثم ما لبثت هجرة المسلمين أن اشتدت وتوسعت ، حتى لاحظت قريش أن مسيرتهم غدت تشبه نهراً أصابه الفيضان فطغى على طرفيه بعد أن ملأ سريره . فلم تقدر على مجابهة هذا السيل العرم . لذا أعملت فكرها لتصل إلى رأي تحدُّ به من خطر محمد (ﷺ) .

وقد قلنا إن قريشاً تنقسم إلى عشر قبائل ، تحيا كلها في مكة . وتبلغ مساحة مساكنها مئتي كيلومتر مربع ، وهي المساحة نفسها التي كانت ، وروي أن ابراهيم وضع حدودها من أجل الكعبة (واضح أن مقياس الطول لم يكن كيلومتراً آنئذ ، وقد ذكرته لأقرب المطلب من القارىء) . كانت كل واحدة من هذه القبائل تختص بقسم من مكة ، وإضافة إلى هذا فإن لكل قبيلة شعباً في المنطقة الجبلية ، حيث

يقيم فيه الغرباء والعبيد التابعون للقبيلة . وبالإضافة إلى أعضاء القبيلة وجدت ثلاث فئات من الناس :

أولاً : الموالي ، وتطلق على إخوة أعضاء القبيلة ، ولكن ليس الإخوة الأصليين ، بل الإخوة في الرضاع ، الذين بحثنا موضوعهم قبلاً . ولما كان الرسم المتبع في قريش عدم إرضاع نسائهم أولادَهن ، وتسليمهن إلى المرضعات ، فإن كان للمرضع ولد غدا هذا الولد أخاً لمن أرضعته .

ثانياً : الحلفاء ، وتطلق كلمة الحليف على الرجل الأجنبي الذي يتمتع بحماية القبيلة ، ويريد أن يحيا في كنفها .

ثالثاً : الجار ، وهو الذي يتمتع بحماية القبيلة ، ويعيش تحت رعايتها بشكل مؤقت ، في حين أن الحليف هو الذي يحيا مع القبيلة بشكل دائم .

هذه الفئات جزء من القبيلة ، وهم مع الغلمان والاماء يعيشون في الشِّعب ، ولا يقبل منهم العيش في مساكن القبيلة . ولا يعتبر العبيد من ضمن هذه الفئات الثلاث ، لعدم أهليتهم . ويعتبرهم أهل قريش من ضمن ممتلكاتهم كأثاث البيت والمتاع أو الحيوانات . ولكلٍّ من هذه القبائل العشر مجلس شورى يدعى « النادي » ولمجموع القبائل العشر مجلس شورى يدعى « دار الندوة » ، ورؤساء النوادي هم الذين يحق لهم الاشتراك في دار الندوة ، كما يحق الاشتراك به لكل من بلغ سن الأربعين من أفراد قبائل قريش . بيد أن أبا لهب دخل دار الندوة قبل هذه السن بشكل استثنائي ، لأنه رجل ذكي وذو استعداد خاص ، وكانت قريش ترغب في الاستفادة من ذكائه ومن استعداده . وتعقد جلسات دار الندوة في قاعة كبيرة ، وكان يستفاد من هذه القاعة أيضاً في عقد مراسم النكاح . ففي أيام الزواج تجتمع نساء قريش بأبهى زينتهن وأغلى حليهن ، وأغلبها من الذهب والجوهر . واللائي لا يملكن حلياً يذهبن إلى خيبر ويستأجرن ما يحلو لهن من

الصـيَّـاغ . وسنشرح هذا الأمـر فيما بعـد ، وسنشـير إلى ما جرى لخيبـر ، وإلى موقعها .

وهكذا ، عندما تنبه أفراد قريش إلى هجرة المسلمين أحسوا بوضع عصيب يعترضهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ، ليصلوا إلى حـلٍّ له . وأول ما فكروا به أن يقيدوا محمداً ويرموه في الصحراء ، تماماً كما فعلوا مع هاشم وعياش . ولكنهـم تراجعوا عن الأمر ، لأن مسلمـي المدينـة سوف يعلمـون بهـذا الأمـر ، ويأتـون ليحرروه . ثم رأوا أن يطردوه من مكة ، ولكن هذا الأمر خطر كذلك ، لأنه سوف يهاجر إلى المدينة ، وربما جهز جيشاً ، وحمل على مكة ، واستولى عليها . وفي نهاية الحوار والنقاش قرروا قتله ، وهو السبيل الوحيد للخلاص منه ، أي إنهم صمموا على ما قد فكروا به قبلاً .

لم يكن قتل الرجل في الجزيرة العربية مذموماً من الناحية الدينية ، ولا من الناحية الأخلاقية ، والمذمَّـة الوحيدة التي تعترض مسألة القتل هي دفع الدية ، في حين أن قتل النفس بعد الإسلام جرم يعاقب عليه من الناحيتين الدينية والأخلاقية . ولما كان المرء لدى الأعراب نوعاً من المال تحتَّـم عليهم عندمـا يقتلـون أحـداً أن يعـوّضوا عن دمه بالمال أو الجمال أو الأنعام . وبعـد دفـع الـدية لا يدان القاتـل مطلقاً . وحق الدم يزداد أو ينقص تبعاً للأشخـاص من حيث مكانتهـم ومكانـة القبيلة التي ينتمي إليها القتيل .

ولا يشكل قتل محمد (ﷺ) مشكلة لدى قبائل قريش ، إلا إذا مات أبو لهب وحـلَّ محله رئيس آخر لقبيلة هاشم ، حيث سيطالب الرئيس الجديد بحق دم محمد (ﷺ) . وقد ذكرنا أن أبا لهب طرد محمداً (ﷺ) من قبيلته ، فغدا دمه مباحاً . فإن قتلوه لم يدفعوا ثمن دمه ، بيد أن محمداً (ﷺ) في حمى واحد من سكان مكة ، وعليه حمايته ، لذا يجب أن يسلبوه هذه الحماية حتى يتمكنـوا من قتلـه . ووافـق الرجل على سحب حمايته التي منحها رسولَ الله (ﷺ) ، وعندئذ صـمَّـم أعضاء

دار الندوة تصميماً قطعياً على قتله ، وحتى يضمنوا عدم تدخل الرئيس الذي يلي أبا لهب في قضية دمه ، قرروا قتله بشكل جماعي ، بأيدي أفراد القبائل العشر بما فيها أبو لهب . فإذا اشتركت القبائل العشر بقتله لم يستطع أحد أن يطالب قريشاً بشيء ، لأن قاتله عندئذ غير معلوم ، ولا يجرؤ أحد في المستقبل على تعيين قاتل محمد (ﷺ) . حتى وإن عُين أحد فلا يجرؤون على المطالبة بدمه ، لأنه سيضطر إلى حرب القبائل العشر .

وبعد أن صمموا على قتله بشكل جماعي عينوا من سيقومون بهذه المهمة .. وقد أكثروا من عددهم ، ورفعوا من مقامهم ، لأنهم يعلمون أنه كلما ازداد عدد القاتلين قلَّت الخسارة (هذا إذا اضطروا إلى دفع المال) .

تعترينا اليوم الدهشة من هذا الاقتراح ، ولكن علينا أن نلاحظ أن سكان مكة تجار ، وأن التجار يفكرون بالمال كثيراً ، وهم دائماً يوازنون بين النفع والضرر . وقد فعلوا الأمر نفسه حينما صمموا على قتله ، ولهذا كان رأيهم أنه في حال دفع المال ثمناً لدم محمد (ﷺ) تشترك القبائل العشر كلها في ذلك . وعلمتْ إحدى عمات محمد (ﷺ) ، وتدعى « رُقية بنت أبي سَيف »[1] ، تصميم قريش على قتل محمد (ﷺ) في الليلة التالية وخطة قتله ، وهي أن يهاجموه في منزله ليلاً ، ويضربوه ضربة رجل واحد[2] . فأسرعت رقية إليه ، وقالت له :

ـ عليك أن تفكر في وسيلة تنقذ نفسك بها من القتل .

وأحسّ محمد (ﷺ) بالخطر يداهمه ، فذهب إلى منزل أبي بكر ، وشرح له خطة قتله . فخرج أبو بكر من مكة في الليلة نفسها ، أي في الليلة السابقة لقتله ، وأنزل محمداً (ﷺ) في غار في جبل « ثور » ، والذي يقع في ظاهر مكة ، وأبقاه فيه ، وأخبره أن لديه ناقتين بيضاوين (والبيضاء من النوق هي السريعة في

---

(١) لعلها « رقينة بنت صيفي بن هاشم بن عبد مناف » .

(٢) وكان الهدف الأصلي أن آل هاشم لا يمكنهم أخذ الثأر من عشر قبائل .

الجزيرة) ، وعليهما سوف يرحلان عن مكة . وقال له أبو بكر :

ـ إن أحضرتُ الناقتين الآن تنبهت قريش إلى ما سنفعله ، وعلينا أن نقوم بشيء غامض على قريش .

فطلب محمد (ﷺ) من أبي بكر أن يأتيه بعلي ابن عمه . وجاء علي إلى الغار ، فطلب إليه محمد (ﷺ) أن يرتدي ثيابه ، ويظل طيلة اليوم قرب النافذة جالساً ، وينام مكانه ليلاً حتى تتوهَّم قريش أنه موجود في المنزل ولم يخرج . فقال له علي :

ـ لقد خدمتني يا محمد (ﷺ) كثيراً ، واعتبرتني مثل ولدك . ولهذا فإنني أفديك بروحي ، وأنا سعيد بذلك .

وتمت الخطة بين محمد وعلي وأبي بكر كما رسمت ، حيث مكث محمد وأبو بكر في الغار عدة ليالٍ ، لأن هرب محمد (ﷺ) سيبدو واضحاً بلا شك لدى قبيلة قريش ، وسيلحقونه على جمال سريعة ، وسيجوبون كل البوادي المحيطة بمكة . ولهذا صمَّما على البقاء في الغار مدة تكفي لأن يعتري قريشاً اليأس من قبضهم على محمد (ﷺ) . وحين ملَّ الطالبون ، وعادوا يائسين أرسل علي الناقتين بواسطة شخصين موثوق بهما إلى الغار ، فركبا هما ، واتجها بهما نحو المدينة .

ارتدى علي في ذلك اليوم عباءة محمد ، وجلس خلف النافذة ، يُري قريشاً أن محمداً (ﷺ) موجود ، في حين أنه كان في الغار مع أبي بكر في أمان . وقد سعى أبو بكر لأن يُبعد النبي (ﷺ) عن مسالك القوافل والمسافرين حتى لا يعرفوه . وطوى الاثنان الصحراء من الصباح حتى المساء ، حتى بلغا غاراً آخر . ولما كان الطريق إليه ممتلئاً بالحجارة فقد تجرحت قدما محمد (ﷺ) ، إلا أنه لم يعبأ بآلامه . وكان أبو بكر عندما يرى محمداً (ﷺ) يفكر لا يكلمه ، لأنه يعلم بماذا يفكر .

اعظم عمل فدائي قام به محمد (ﷺ)

إن ما يجيش في نفس محمد (ﷺ) أنه منذ هذا اليوم ستنقطع صلته بأرومته ، كما سينقطع رحمه عن أهله . في حين أن « الأسرة » في عرف العرب أهم من البطاقة الشخصية اليوم . لأننا إن فقدنا بطاقتنا اليوم إستطعنا أن نستخرج غيرها ، ولكن حين ينفصل البدوي عن أرومته يشعر وكأنه فقد كيانه . والأسرة والقبيلة أمر واحد ، فإن فقد المرء رابطته بأسرته فكأنه فقد كل ما يملك في حياته المادية والمعنوية ، وهذا ما يدفعني لأن أستفيض في الحديث حول هذا الموضوع ، لأنني ألاحظ أن الكتاب المسلمين لم يولوا فداء محمد (ﷺ) أثناء هجرته للإسلام الأهمية العظمى . وفي اعتقادي أن انفصام محمد (ﷺ) عن قبيلته ، وهجرته إلى المدينة يعتبر أعظم عمل قام به محمد (ﷺ) في سبيل الاسلام . فقد أمسك محمد (ﷺ) بيده منشاراً وجبّ به صلته بأرومته فداءً لعقيدته . فإن انفصل المرء عن الشجرة التي تربطه بأجداده وذويه لم يعترف به أقرباؤه ولم يساعدوه .

يمتاز العرب بالكرم ، ويجدون لذة في السخاء . ومع أنه قدَّم أعظم فداء إطاعةً لأمر الله بانفصاله عن قبيلته فإنه لم يستطع أن يزيح عن فكره مسألة ارتباطه بقبيلته .

●

وعندما حل الظلام تابع محمد (ﷺ) وأبو بكر طريقهما ، وقد هان عليهما السير بعد أن خرجا من المنطقة الصخرية . وحين اضمحلَّ الظلام وأشرقت الشمس وصلا إلى الغار الذي أراد أبو بكر أن يُخفي فيه محمداً (ﷺ) . كان أبو

بكر أكبر من محمد (ﷺ) بثلاث سنوات ، وكما قلنا إنه كان من أغنياء مكة ، ولكنه بذل ماله في سبيل الإسلام . فمع أنه أكبر سناً وأكثر غنىً فإنه نظف الغار بيديه ، ومزّق عباءته ليسدّ بها الثقوب والفروج ، حتى لا تخرج منها الثعابين وتؤذي محمداً (ﷺ) . وحين اطمأن إلى أن الغار غدا مناسباً للاستقرار فيه دعا محمداً (ﷺ) إلى دخوله . وبعد ذلك أقبل على قدمي النبي (ﷺ) المقرّحتين ، ونظفهما وضمّدهما . ولما لم يكن في الغار شيء يضعه النبي (ﷺ) تحت رأسه لينام طلب أبو بكر أن يسند رأسه إلى ركبته ليستريح . بيد أن محمداً كان يعلم أن أبا بكر متعب كذلك ، وفي حاجة إلى النوم ، لذلك رفض عرض أبي بكر ، وأسند رأسه الى الأرض واستراح .

ويروى (وقلنا قبلاً إننا سنشير الى ما هو رواية) أن أبا بكر قبل أن ينام لاحظ أن قماش العباءة لم يكف لسد ثقوب الغار ، فأثبت قدمه إلى أحد الثقوب ونام . وحاول ثعبان أن يخرج من الثقب ، ولكنه صدم بكعب أبي بكر ، فعضّه ، فنهض أبو بكر مذعوراً من شدة الألم ، وتصبب العرق من وجهه ، فسقطت بعض القطرات على وجه محمد (ﷺ) النائم ، فاستيقظ . وعندما شاهد محمد (ﷺ) امتقاع لون أبي بكر سأله عن السبب . وحينما علم أن ثعباناً قرصه في كعبه مصّ مكان السم حتى يستريح أبو بكر .

في تلك الليلة التي أراد فيها محمد (ﷺ) وأبو بكر الوصول إلى الغار ـ الذي دعي بغار الثعبان ، اتجه أفراد قريش نحو منزل محمد (ﷺ) ليقتلوه ، ولكنهم لم يجدوا محمداً (ﷺ) ، فسألوا علياً عنه :

ـ أخرجَ محمد (ﷺ) من مكة ؟

ولما كان علي رجلَ صدق ، ولا يستطيع الكذب أجابهم :

ـ بلى ، خرج .

واندفعت جماعة قريش إلى ظاهر مكة ليلاً يتعقبون محمداً (ﷺ) . وبدأوا أول الأمر بالبحث عنه في البوادي المحيطة بالبلدة . وأرسلوا من ينادي في الناس أن من يسلِّم محمداً (ﷺ) أو يدل على مكان اختفائه جائزته مئة جمل . وفي صبيحة اليوم التالي ركب عدد من أبناء قريش جمالاً سريعة ، وأخذوا يبحثون عنه ، حتى وصلوا إلى « غار ثعبان » . ومع أنهم عبروا من أمامه ورأوه فإنهم لم يدخلوه ، لأن الله - كما جاء في الرواية - أمر بعض العناكب بأن تنسج خيوطها مقابل باب الغار . فعند ما رأى الرجال بابه موصداً بالعنكبوت اطمأنوا إلى أنه لا يمكن أن يكون قد دخل ، لأنه إن دخله تمزق نسيج العنكبوت لا محالة .

وبعد أن عبرت الفرقة الأولى من أمام الغار قدمت أخرى ، فشاهدت عند مدخله حمامة صنعت عشاً ، ووضعت فيه بيضاً . وقال أحدهم :

- لم يدخل محمد (ﷺ) ، بلا شك ، هذا الغار ، فلو أنه دخله لتمزق العنكبوت ، ولما حطت الحمامة في هذا المكان .

ومع هذا فإن الله - كما جاء في الرواية - بعد أن عبرت الفرقة الثانية أنزل صخرة من أعلى الجبل ، فأوقعها على باب الغار فسدّه ، ولم يعد يستطيع أحد الدخول إليه . كان أبو بكر مريضاً داخل الغار إثر عضة الثعبان ، ومن أثر الخوف . فأخذ النبي يخفف عنه ويسليه ، ويطمئنه الى أن الله معهما . ويقول الله تعالى من سورة التوبة (السورة التاسعة) في الآية الأربعين : « ﴿ إلاَّ تنصروهُ فقد نصرَهُ اللهُ ، إذْ أخرجَهُ الذينَ كَفروا ثانيَ اثنينِ إذْ هُما في الغار ، إذ يقولُ لصاحبِهِ : لاَ تَحزنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا . . ﴾

ولقد أمضى محمد (ﷺ) وأبو بكر ثلاثة أيام بلياليها في الغار . ويروى أن شجرة نبتت مقابل الغار . وعندما خرجا ورأيا العنكبوت ، وعش الحمام ، والصخرة والشجرة آمنا بأن الله كان معهما . وملت قريش بعد ثلاثة أيام من

البحث ، عندئذ قدم « عامر بن فهيرة »[1] غلام أبي بكر بناقتين بيضاوين ، فامتطياهما ، واتجها نحو المدينة ، وحتى لا يلحق بهما المتعقبون اتجها نحو ساحل البحر . ولم يكن لأبي بكر عباءة ، والسرعة التي دفعت محمداً (ﷺ) للذهاب إلى أبي بكر لم تسمح له بأن يرتدي ثياباً كافية ، فكانا ، كلاهما ، ممزقي الثياب ، وهما على جملين أبيضين (أفضل مركوب في الجزيرة) . واستمرت قريش ترسل المنادين ينادون أن من يقبض على محمد (ﷺ) أو يدل عليه جائزته مئة جمل .

كان « سراقة بن مالك »[2] رئيس قبيلة بني مدلج ، في أحد الأيام في خيمته مع نفر من صحبه فدخل عليه شخص وقال له :

ـ يا سراقة ، لقد رأيت اليوم رجلين راكبين جملين أبيضين يتجهان نحو ساحل البحر ، وأعتقد أن أحدهما محمد .

حين سمع سراقة هذا النبأ فهم من كلامه أن أحد الراحلين محمد (ﷺ) بلا شك . فإن قبض عليه نال مئة جمل . وحتى لا يشرك أحداً في هذه الجائزة قال له :

ـ لقد أخطأتَ فيهما ، إنهما ضيفاي ، كانا عندي مساء أمس ، وقد رحلا اليوم .

وحين ذهب الرجل من عنده نهض مع بعض رجاله (وقبيلته متفقة مع قريش) وركبوا خيلاً ، وهدفهم أسر محمد (ﷺ) ، ليحوزوا الجائزة . واستطاع سراقة أن يبلغهما ، لأن الجواد سريع . غير أن أطراف جواده غارت في الرمال .

---

(١) أبو عمرو ، كان مولداً من مولدي الأزد ، أسود اللون مملوكاً . وكان من السابقين إلى الإسلام ، وقد عذب في الإسلام ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه . كان يرعى الأغنام بالقرب من الغار ، ورافقهما في هجرتهما دليلاً . قتل يوم بئر معونة سنة ٤ هـ وهو ابن أربعين سنة .

(٢) هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني ، أبو سفيان . صحابي له شعر . كان في الجاهلية قائفاً بارعاً في اقتصاص الأثر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ،وله ١٩ حديثاً ، وتوفي سنة ٢٤ هـ .

وحاول سراقة ثلاث مرات الوصول الى محمد (ﷺ) ، إلا أن أطراف جواده كانت تغوص في الرمل كلما حاول التقدم .

من عادة العرب أن يقترعوا في جاهليتهم . فبعد أن امتنع جواد سراقة ثلاث مرات عن الاقدام ، اقترع : هل يتابع اللحاق بمحمد أم لا ؟ وجاءت القرعة سلبية ، ومع ذلك فإنه حاول بجواده مرة رابعة فغاصت أطرافه ، ولم يستطع الدنو من الجملين .

ورد في بعض الكتب أن عامراً غلام أبي بكر وغلاماً آخر (وهما من معتوقي أبي بكر) كانا يرافقانهما . وتذكر الكتب أيضاً أن عامراً كان دليلاً ، وهذا ما دفع أبا بكر إلى أخذه معه . وعندما رأى سراقة جواده يتعثر للمرة الرابعة ، ولم تحالفه القرعة نزل عن جواده ونادى :

ـ توقف يا محمد (ﷺ) ، أريد أن أحادثك .

وسلم سراقة جواده الى أحد المرافقين ، واتجه نحوه ماشياً ، وقال له :

ـ لقد اتفقت مع قريش يا محمد (ﷺ) على أسرك لاعادتك إليها ولأنال الجائزة . لكنني فهمت الآن أنك على حق ، لأن جوادي غاص في الرمل أربع مرات ، من غير أن يجرؤ على الدنو منك . ولهذا أتمنى عليك أماناً من أجل يوم تزعمك على قريش .

فسأله محمد (ﷺ) :

ـ وما هو قصدك ؟

أجاب سراقة :

ـ قصدي أنك يوم تغلب قريشاً سوف تعتبرني شريكاً معها في محاولة قتلك ، وقد تحارب قبيلتي .

فقال محمد (ﷺ) :

ـ ستكون في أمان ذلك اليوم ، ولن يؤذيك أحد أنت وقبيلتك .

وبعد أن أسلم سراقة غدا أحد القواد المشهورين في الإسلام . ومنذ ذلك اليوم ، والأيام بعده ، كان سراقة يحوّل الباحثين عن محمد (ﷺ) . فكلما قدمت فئة وجَّهها وجهة مخالفة . وصادف محمد وأبو بكر قافلة فيها « الزبير بن العوام » أحد أقرباء النبي (ﷺ) ، وبمساعدته حصلا على الثياب والطعام . وبعد يومين آخرين وصلا إلى قبيلة « أسلم » واسم رئيس هذه القبيلة هو « أوس بن هاجر » ، فأعدّ لهما دليلاً يدعى (مسعوداً) ليوصلهما الى المدينة .

لم يكن الدليل في الجزيرة العربية رجلاً يدل المسافرين على الطريق وحسب ، بل كان مرشداً مهماً خوفاً من الجوع والعطش . والذي يسير في الصحراء مع الدليل لا يفقد الطريق ، ولا يسلبه قطاع الطرق أمواله ولا يجوع ولا يظمأ ، لأن الدليل معروف لدى الجميع ، وهو نفسه يعرف الجميع ، ومن عادته أن ينادي بصوت عال ، معرفاً بمن معه . وهكذا لا يفقد المسافر شيئاً بصحبة الدليل .

وكذلك كان ، فقد قبل محمد (ﷺ) اقتراح أوس بن هاجر ، واتخذ مسعوداً دليلاً له . وقال مسعود لهما إنه يستطيع مرافقتهما حتى نهاية موطن قبيلته ، وسيعود بعد ذلك . وعليهما أن يتابعا طريقهما وحدهما . وقبل محمد (ﷺ) هذا الرأي أيضاً . وسار المسافرون بإرشاد مسعود حتى وصلوا إلى نهاية رمال قبيلته عندئذ قال لهما :

ـ إلى هنا أنا معكم ، ولن أتخطى حدود قبيلتي .

فسمح له محمد (ﷺ) بالعودة . وبعد أن تركوا موطن تلك القبيلة دخلوا أرضاً تنتهي بمنطقة « قُبا » . وحين وصلا إليها توقف محمد (ﷺ) وقال لأبي بكر :

ـ بعني هذه الناقة التي أركبها .

فسأله أبو بكر :

ـ لمَ أبيعك إياها ، وقد قدّمتُ هذه « القَـصيَّـة[1] » لك ؟

من عادة العرب في الجزيرة أنهم يجبُّـون جزءاً من أذان الناقة الأصيلة الخاصة بالركوب والسباق ، ويعتقدون أن قطع جزء من أذنها يجعلها تسرع أكثر . ولهذا إذا صُـلمت أذنها سميت « قَـصْـوة[2] » . ولما كانت الناقة التي امتطاهـا محمـد (ﷺ) مقطوعة الأذن دعوها « قصوة » .

وحين لاحظ أبو بكر أن محمداً غير مستعد لأن يقبل الناقة هدية باعه القصوة بمبلغ أربعمئة درهم ، وغدت الناقة ملكاً له . وظل إسمهـا مذكوراً في التـاريخ الاسلامي ، كما يعلم المسلمون الذين يقرأون تاريخ هجرة رسول الله (ﷺ) أن محمداً (ﷺ) دخل المدينة راكباً ناقة اسمها « قصوة » .

---

(١) القصية : مذكرها القَصّي وهي الناقة الكريمة النجيبة ، قيل لها ذلك لأن صاحب الإبل إذا جاء المصدِّق أقصها ضنّاً بها .

(٢) القصوة : سمة بأعلى الأذن .

الهجـرة ومكانتها

هجرة محمد حدثٌ مهم في تاريخ الاسـلام ، فقـد تبدلـت أوضـاع الأمـة الإسلامية إثر ذلك ، وغـدت واقعية لا تعبـأ بالأنسـاب ولا الطبقـات ولا بمـزايا الأشراف أو رؤساء القبائل . كما أن العصبية القبلية زالت من الوجود ، وأصبح المسلمون متساوين من حيث المكانة والمزايا . وهكذا عُـدت الهجرة حداً فاصلاً بين العالم القديم والعالم الجديد ، وفصلت بين الجاهلية والإسلام .

وزالت مزايا الطبقات ، فعندما قدم محمـد (ﷺ) إلى قُـبـا ، وقـرر بنـاء المسجد ، شرع عمر بن الخطاب بنقل الحجارة والتراب ، هذا الرجل الذي يعد من أوائل سادة مكة ، وطول قامته متران ، وصوته كالرعـد في السماء ، ويقـول الناس : حتى إبليس يهابه ، ومحمد (ﷺ) وأبو بكر يبنيان بالحجارة والأتربة التي ينقلها عمر ، في حين أنه قبل الإسلام كان يربأ عن رفع حفنة من التراب ، ويرفض نقل حجر من مكان إلى مكان ولو عُـرضت عليه أموال الجزيرة كلها ؛ لأن أعمال البناء في مكة كانت بيد العبيد والغلمان ، ويعتبر الأشراف أنفسهم أعلى مقاماً من أن يلوثوا أيديهم بالطين .

تقع قبا في جنوب المدينة ، وتعتبر من جملة ضواحيها . يذكر مؤرخو الغرب أن محمداً دخل قبا في اليوم الثاني من شهر أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٢ في حين أن مؤرخي العرب يؤكدون أن ذلك جرى في اليوم السادس عشر من شهر تموز (يونيه) من العام نفسه . ولما كان هذا اليوم أحد أيام الأشهر الحرم ، فإن المسلمين يعتبرون

اليوم الأول من شهر محرم مبدأ تاريخ جديد وكان في وسط فصل الصيف وما زال هذا التاريخ الهجري معروفاً ومتداولاً بين الأمم الإسلامية .

سمع الناس في قبا بأن محمداً (ﷺ) سوف يدخل منطقتهم ذلك اليوم ، فخرجوا من منازلهم منذ الصباح الباكر ، وانتظروه في الأزقة . ولما كانت الشمس حارة جداً ، والطقس قاسياً فإن الناس لم يتحملوا هذه الحرارة ، لذا عادوا إلى منازلهم . وعندما بلغت الشمس كبد السماء ، وغلت الرمال من أثر الحرارة الصيفية ، بحيث أن الانسان إن وطىء الأرض حافياً احترقت قدماه . في تلك اللحظة دخل محمد وأبو بكر قبا ، ولم يكن أحد في الأزقة آنئذ ، إلا يهودي لم يضبط التاريخ إسمه تماماً ، كان هذا اليهودي يعلم ـ كالآخرين ـ أن محمداً (ﷺ) سيصل ذلك اليوم ، فرأى الناقتين البيضاوين وجوادين . . فتأكد من قدومه . حينئذ عدا في الأزقة ينادي :

ـ أيها اليهود ، تنبهوا ، لقد أقبل سعدكم !

قال هذا ، لأننا ذكرنا أن يهود المدينة ـ كمسلميها ـ ينتظرون قدوم محمد (ﷺ) ، ليحسم الخلافات بين الفريقين . وعندما سمع الناس صوت ذلك الرجل خرجوا من منازلهم مسرعين . لم يخرج الرجال والنساء وحسب ، بل خرج معهم الأطفال أيضاً ، ليشاهدوا النبي (ﷺ) الذي بعثه الله .

كان محمد (ﷺ) وأبو بكر قد أناخا ناقتيهما في ظل شجرتي نخل ، واستظلاّ بهما . فأقبل سكان قبا نحوهما ، من غير أن يعرفوا من هو محمد (ﷺ) ومن هو أبو بكر ؟ وتنبه أبو بكر إلى أن الناس قد يظنونه هو لأنه أكبر سناً ، لذا تراجع ، ووقف خلف محمد (ﷺ) ، وخلع عباءته التي أخذها في الطريق من « الزبير بن العوّام » ، وظلّل بها رأس محمد (ﷺ) ، حتى لا تزعجه الشمس ، لأن ظل تينك الشجرتين لم يكن كافياً لحمايتهما من أشعة الشمس . عندئذٍ أدرك الناس تماماً من هو محمد ، فرحبوا به وهلّلوا . ويدعى المكان الذي وقف فيه محمد (ﷺ) وأبو

بكر وأناخا ناقتيهما « محلة بني عمرو بن عوف » ، وسأل نبي الاسلام (ﷺ) :

ـ لمن هذا المكان ؟

فتقدم فتًى من بين المتجمهرين ، وقال :

ـ هذه الأرض لي ، وأنا زرعت هاتين النخلتين .

قال محمد (ﷺ) :

ـ قصدي أن أسأل صاحب هذه الأرض : هل يُسمح لنا بالمبيت في هذا المكان ؟

أجاب الفتى :

ـ أجل يا محمد (ﷺ) ، بامكانك أن تُقيم في هذا المكان قدر ما تريد .

بيد أن أحد مسلمي قبا ، ويدعى « كلثوم[1] » رجا محمداً وأبا بكر أن ينزلوا في بيته ، فهو أكثر راحة لهما . غير أن محمداً رفض وقال :

ـ نحن لا نريد أن نزعج أحداً .

لكن كلثوماً قال :

ـ في داري غرفة خالية لا أسكنها ولا أستفيد منها . وبإمكانك أنت وأبو بكر أن تقيما فيها . وسأرعى ناقتيكما بنفسي وأُشبعهما .

فقبل محمد (ﷺ) دعوة كلثوم ، وذهب معه الى منزله ، ودخل تلك الغرفة . وعلم جميع سكان المدينة بوصول محمد (ﷺ) ، وأول من وصل من المدينة الى قبا ليسلم عليه عمر بن الخطاب ، وبعده قدم سائر المسلمين . وقد ازداد عددهم لدرجة أن الغرفة لم تعد تتّسع لاستقبالهم . وبعد ذلك سلمه رجل يدعى

---

(١) هو كلثوم بن هرم بن امرىء القيس الأنصاري الأوسي ، وكان يعرف بصاحب رسول الله (ﷺ) ، أسلم قبل وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة ، وهو الذي نزل عليه وأقام عنده أربعة أيام ، ثم خرج إلى أبي أيوب الأنصاري . توفي قبل بدر . وقيل إنه أول من مات من أصحاب الرسول (ﷺ) (أسد الغابة) .

« سعد بن خيثمة »[1] ، وهو مسلم أيضاً ، منزلاً كبيراً ، ليستقبل به المسلمين . وكان محمد (ﷺ) حين النوم يعود إلى تلك الحجرة من منزل كلثوم .

وصمّم نبي المسلمين منذ اليوم الثالث من وصوله إلى قبا أن يبني مسجداً . فأهداه أحد المسلمين أرضاً لهذا المسجد . إلا أن النبي (ﷺ) لم يقبل الهدية بل إشتراها . وقد ذكرت كتب التاريخ أن الأرض شُريت ، ولكنهم لم يذكروا أن رسول الله هو الذي دفع ثمنها .

يعتبر مسجد قبا أول مسجد في الإسلام ، وقد اشتغل ببنائه مسلمو المدينة جميعاً ؛ من المهاجرين أهل مكة ، ومن الأنصار سكان المدينة . وكان محمد (ﷺ) وأبو بكر يجبلان الطين ، وعمر يحمل الحجر على كتفه ، أو ينقل أكياس التراب ، حيث يُحضرها من مكان بعيد ، ليصنعوا منه طيناً ويجففوه . وعُدّ مسجد قبا أول مسجد جامع للمسلمين بالمعنى الصحيح ، لأن بناءه تمّ من قبلهم جميعاً . وقد اشترك في البناء عدد من الأشراف كعمر وأبي بكر وصُهيب بن سنان وفقراء المسلمين . وكان محمد (ﷺ) يشترك بالبناء منذ الصباح حتى المساء . وأقام في قبا عشرين يوماً حتى تمّ بناء المسجد . عندئذٍ انتقل الى المدينة التي كانت تدعى « يثرب » .

و« يثرب » في اللغة العربية معناها المكان الفاسد الذي يزعج الانسان[2] . وقد اختار الأعراب هذا الاسم لها ، لأنهم كانوا نادراً ما يرون المطر (إلا في الربيع) . وحيز يفدون على المدينة ، وتنزل عليهم الأمطار مدراراً يصابون ببعض الأمراض . ولهذا السبب اعتبرها العرب مدينة سيئة الطقس والهواء ، ودعوها « يثرب » ، في حين أن سكانها الأصليين يدعونها « طيبة » أي المدينة المطلوبة .

---

(١) قيل بل نزل في منزل سعد بن خيثمة . كان من مسلمي العقبة ، وشهد بدراً وقتل فيها ، كما قتل أبوه في أحد . وكان بيته الذي نزل فيه الرسول (ﷺ) بيت العزاب .

(٢) ثرّب عليه : لامه وعيرّه بذنبه وذكّره به . والتثريب الإفساد والتخليط .

و« طيبة » هو إسمها الأصلي ، لأن الانسان عندما كان يفد من الصحراء إليها كمن يفد على الجنة ، والأعراب يرتاحون بالطقس الصحراوي الجاف . فحينما يأتون إلى طيبة لا يطيقون هواءها الرطب ، فيقعون في المرض . ولكن بعد حين من الزمان يعتادون ويتلاءمون مع هذا الطقس .

ولقد وقع عدد من المسلمين المهاجرين بالمرض ، بما فيهم محمد (ﷺ) وأبو بكر وغلامه المعتوق عامر بن فهيرة . وحتى يزيح محمد (ﷺ) تناقض هذين الاسمين بين المهاجرين والأنصار ألغاهما وأسماها «المدينة». وتدل هذه الكلمة على معنى حسن ، وليس على صفة سيئة . وكانت مساحتها إبان قدومه ثلاثين كيلومتراً مربعاً ، بمقياس اليوم . وبالاضافة الى المنازل العادية كان فيها اثنتان وسبعون قلعة ، تسع وخمسون منها لليهود ، وثلاث عشرة للعرب . يتحصن في هذه القلاع الطرفان أيام الخطر . والمدينة تقع وسط فلاة مرتفعة ، كانت تقطع طولاً على الجمل بيوم كامل ، وعرضها كذلك . يحيط بها جبلان في الشمال والجنوب ، وثلاث صحارى ، تنتشر فيها الصخور البركانية في الشرق والغرب والجنوب .

وطقسها في ذلك الزمان (ومثله في هذا العصر) معتدل ، والمطر تكثر نسبته بالنسبة الى كثير من المناطق في الجزيرة ، وفي طرف المدينة بركة كبيرة تمتلىء بمياه الأمطار ، ولا تجفّ مطلقاً . وقد ذكرنا أن محمداً (ﷺ) تعلم السباحة فيها ، ذلك الطفل الذي لم يكن يعرف السباحة في مكة ، حيث وجد لذة لا تعدلها لذة فيها .

وسكان المدينة ، كسكان مكة ، ينتسبون الى طوائف وقبائل . وينتمي كل فرد إلى قبيلته . وكذلك لم يكن فيها شُرطة ، ولا سجن ، ولا محكمة (وكذلك مكة) . فإن ظُلم أحد لجأ الى قبيلته يستعين بها على رفع ظُلامته . وفيها أيضاً (كما في مكة) لا يُحسب للقتل حساب ، والضرر الأكبر الذي يجري إنما هو دفع دية المقتول إلى قبيلته . فقيمة الدية مئة جمل على الأقل ، ويطالب الأشراف بأكثر

من هذا العدد عادة . هذا ونصف السكان من العرب ونصفهم من اليهود .

واليهود ثلاث طبقات كبيرة فيها ، والعرب كذلك ثلاث طبقات . فالعرب يشتغلون بالزراعة ، ويرعون الأنعام ، وحرفتهم الأصلية هي التجارة . أما اليهود فهم يتفاوتون كثيراً من حيث العمل ؛ فطائفة تتعاطى الزراعة ، وأخرى الصياغة وبيع الجواهر ، وثالثة تتعاطى الدباغة .

كانت طوائف العرب تحترب فيما بينها قبل الإسلام ، وكانت الأرض سبب هذا النزاع . ولكن هاتين الطائفتين لم تستفيدا شيئاً من هذا النزاع ، وعوضاً عن هذا فإن رجلاً يدعى « عبد الله بن أُبي » كان تاجراً . ورأى سكان المدينة جميعاً أن ينتخبوه ملكاً عليهم . وقاس الصياغ رأسه لصنع تاج له ، ولكن حين سمعوا أن محمداً سوف يأتي الى المدينة ، وسيجمع الأطراف ، ويمنع النزاع أحجموا عن تنصيبه ملكاً عليهم . وقبل أن يفد محمد (ﷺ) إلى المدينة كان فيها رجل يدعى « أشنق » ، عين حكماً لتحديد قيمة الديات . وقبل أن يهاجر أبو بكر من مكة إلى المدينة ، كانت مهمته تحديد قيمة الديات للقتل وقلع العين وكسر السن . ولم يكن ميزان الدفع يختلف بين مكة والمدينة . فهم أيضاً يدفعون مئة جمل للقتل ، وخمسين لقلع العين ، في حين أن كسر السن يعادل كسر سن المعتدي .

واليهود الذين ذكرنا أنهم سعداء بقدوم محمد (ﷺ) ، كانوا يأملون باسترداد ديونهم . وقد إتبع محمد (ﷺ) حكمه حسب أوامر الله ، وهذا ما زاد في أملهم . وعندما بنى مسجد قبا حوّل المحراب نحو بيت المقدس . وحين رأى اليهود أن المحراب اتجه نحو بيت المقدس ، ولاحظوا أن القرآن يعتني بذكر الأنبياء الأسبقين أمثال إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) ، أيقنوا أن محمداً (ﷺ) سيتبع دين موسى . ذلك أنهم يعتقدون أن الأنبياء إنما يبعثون من شعبهم المختار .

وحين كان محمد (ﷺ) مشغولاً مع المسلمين في قبا ببناء المسجد زاره عدد من

أحبار اليهود ، وتذاكروا معه ليعرفوا منه إلى أي حد سوف يقبل دين موسى . وبرهنت الأجوبة على أنه لن يكون يهودياً . فقالوا له :

ـ إن كنت ، يا محمد ، تريد أن تكون نبياً فعليك أن تتهوَّد أولاً ، لأن الله خص أنبياءه منا ، لأننا شعبه المختار . ربما حادث الله أقواماً أخرى ، إلا أنه في مجال الأديان يخاطبهم عن طريق اليهود ، لأنهم يأتون في المرتبة الأولى ، والآخرون يأتون في المرتبة الثانية والثالثة والرابعة .

فقال لهم محمد (ﷺ) :

ـ أنا نفسي لم أُرد أن أكون نبياً ، بل الله الذي بعثني . والناس في نظر الخالق متساوون ، ولا يفضل قوم على قوم ، وهو الذي يختار من يخاطب من الناس ويبعثه .

●

كان أول يوم صلى فيه المسلمون في مسجد قبا يوم جمعة . واعتبر رسول الله (ﷺ) يوم الجمعة يوم عبادة المسلمين . وكبر هذا الأمر كذلك على اليهود ، لأنهم كانوا يتوقعون أن يعين يوم السبت ، لأنه يوم عبادتهم . ولم يُسلم أي من يهود قبا ، عدا واحد ، هو هذا الذي أعلمَ الناسَ بقدوم محمد (ﷺ) . وقد ذكرنا أن كتب التاريخ لم تضبط اسمه ، ولكن بعضهم أشار الى أن اسمه « شلوم » .

في يوم الجمعة الذي اجتمع فيه المسلمون لصلاتهم وعبادتهم في مسجد قبا اجتمع معهم اليهود في المسجد . فحادثهم رسول الله قليلاً ، وأراد أن يُفهمهم أنهم لا يمتازون من الأمم الأخرى ، ولا يفضل الله قوماً على قوم ، وهم جميعاً في مستوى واحد ، ولا فضل بينهم إلا بالتقوى . ولدى خروجهم تأكدوا أخيراً أنه لن يكون يهودياً مطلقاً . ومنذ ذلك اليوم أخذوا بمخالفته ومعارضته في كل أموره ، وشرعوا ينشرون الشائعات بين الناس ، من ذلك أن الله سيعقم كل النساء

المسلمات ، وكذلك ستغدو كل من أعلنت إسلامها عقيماً . وبينما كانت هذه الشائعات تسري بين مسلمي المهاجرين والأنصار حلّت الأمراض بالمسلمين من أثر جو المدينة الرطب . فوقع الرجال والنساء بالأمراض . . وأضعف من معنوياتهم هذه الشائعات ، فخافوا . فتلافى رسول الله (ﷺ) الأمر بأن طلب من المسلمين أن يجتمعوا في المسجد فوراً ، وأخبرهم أن ما شاع بين النساء المسلمات ليس من أمر الله إنما هو من أناس لا يوافقهم تقدم الإسلام وانتشاره .وحثهم على مراعاة نسائهم والتخفيف عنهنّ ، ولهم على ذلك أجر وثواب .

وفيما بعد أمر الله رسوله بأن يحوّل قبلة المسلمين نحو الكعبة . فبدّلت قبلة قبا . ولهذا أطلق المؤرخون على هذا المسجد اسم « مسجد القبلتين » .

المسيرة من قبا الى المدينة

بعد أن أتمَّ محمد (ﷺ) بناء مسجد قبا عزم على الانتقال إلى المدينة ، فامتطى ناقته المسماة « قصوة » ، واتجه نحو المدينة . ويوم وصوله كان المسلمون جميعا متجمعين في الأزقة . وتقدم الرجال من ناقة النبي (ﷺ) ؛ وأمسكوا بزمامها محاولين توجيهها نحو منازلهم . فأدرك محمد (ﷺ) أنه إن حطَّ رحاله في دار أحدهم سبَّب تضايقاً للآخرين ، وجعلهم يظنون أنه يفضل واحداً دون الآخرين . فقال لهم :

ـ خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة .

وعبرت قصوة عدة أحياء ، حتى وازت دار بني النجار ، فبدت عمارة بني بياضة ، ثم مرت بمنزل أخواله . وتوقع المسلمون أن الناقة ستقف مقابل ذلك المنزل ، ولكنها لم تفعل ، بل تابعت طريقها . . والمسلمون وراءها يريدون معرفة مبركها . ووصلوا إلى مكان فيه قبر عبد الله أبي محمد (ﷺ) ، ويعلمون أن قبر أمه آمنة لم يكن هناك ، بل هو في ظاهر المدينة . غير أن قصوة مرت بقبر عبد الله واستمرت ، حتى وصلت إلى منزل إمرأة تدعى « أنيسة » . . فحين كانت أم محمد (ﷺ) حية ، وابنها يعيش معها كانت أنيسة طفلة صغيرة تلعب معه ، وهي الآن إمرأة . ولكن الناقة لم تتوقف ، كما لاحظوا أن الناقة لا تبتعد عن ديار بني النَّجار . . وتراءت لمحمد (ﷺ) ذكريات أسرة أمه من بني النجار . وقد ذكرنا أن الرابطة الأسرية مهمة جداً لدى العرب . فهو إن فقد صلته بأرومة أبيه في مكة ، فها هي ذي أرومة أمه متصلة بالمدينة .

وتابعت الناقة طريقها مأمورةً حتى وصلت مربداً[1] لا سكن فيه فبركت . وحتى يتأكد محمد (ﷺ) من أن هذا هو المكان الذي اختارته حاول أن يحثها على النهوض والمتابعة ، لكنها تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها[2] ، فاطمأن إلى ذلك رسول الله . وكان أقرب منزل إلى هذا المربد لرجل يدعى « أبا أيوب الأنصاري » والأرض التي توقفت فيها تابعة له . وابتهج المسلمون لدى رؤيتهم ناقة النبي ، وقد اختارت مكانها ، وعلموا أن رسول الله (ﷺ) سيبني في هذا المكان مسجداً لهم ومنزلاً له . وستغدو هذه البقعة مركز نشاط الاسلام حسب الاصطلاح الحديث . وسأل محمد :

ـ لمن هذه الأرض ؟

فأقبل نحوه أحد المسلمين[3] ، وقال :

إنها تخصُّ أخوين صغيرين يتيمين ، وأنا أسعد بن زرارة[4] الوصي عليهما . وإنني أهبك هذه الأرضِ ، وبإمكانك أن تبني عليها مسجداً ومنزلاً .

فقال له رسول الله :

ـ لو لم تكن الأرض لليتيمين ، وكانت لك لما رضيت أخذها بلا ثمن ، فكيف وهي للطفلين ؟ فقد كنتُ يتيماً من الأب والأم ، وأقدّر ما يعانيه اليتامى من حزن وعذاب . لذا أقبل الأرض بشرط أن تبيعني إياها بأغلى مما تستحق .

---

(١) المربد : المكان الذي يجفف فيه التمر .

(٢) تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها : أي لزمت مكانها ولم تبرحه ، والجران : العنق .

(٣) يذكر ابن هشام أن الوصي هو معاذ بن عفراء ، واليتيمان هما سهل وسهيل ابني عمرو من بني النجار .

(٤) هو أسعد بن فررارة بن عدي النجاري من الخزرج . وهو أول الأنصار إسلاماً حين قدم هو وصديق له من يثرب إلى مكة ، فأسلما على يد رسول الله (ﷺ) . كان أحد الشجعان الأشراف في الجاهلية والإسلام . وهو أحد النقباء الاثني عشر ، كان نقيب بني النجار . ومات في السنة الأولى للهجرة ، أي قبل وقعة بدر بعام ، فدفن بالبقيع .

قال أسعد بن زرارة :

ـ قيمتها سبعة دنانير .

وتشاور محمد (ﷺ) مع المسلمين في مسألة تحديد ثمنها ، فأكدوا له كلام الوصي ، فقال محمد :

ـ فأشتريها بعشرة دنانير ، حتى يتمكن أسعد من شراء أرض أفضل منها ، تكون أكثر نفعاً لليتيمين .

كان أبو بكر خازنُ الاسلام واقفاً خلف محمد (ﷺ) . ففتح كيسه فوراً ودفع لصاحب الأرض عشرة دنانير . ويجب الانتباه الى أن عشرة دنانير تعني عشر قطع ذهبية ، وهي ذات قيمة كبيرة في عملة ذلك الزمان . ولم يكن للعرب عملة خاصة ، والرائج هو العملة الفارسية والعملة الرومية ، وما دُفع ذلك اليوم كان دنانير رومية (بيزنطية) والدينار مسكوك من الذهب ، ويدعى الدينار الفارسي « فروي » أو « دينار الأكاسرة » ، والدينار الرومي يدعى « هرقلي » ، نسبة الى هرقل امبراطور الروم .

وباشر محمد (ﷺ) في اليوم الثاني بمساعدة المسلمين ببناء المسجد . وأقبل المسلمون جميعاً ـ بما فيهم محمد (ﷺ) ـ على نقل الحجارة والأتربة ، وعلى تهيئة الطين اللازم للبناء . وكان بناء هذا المسجد صورة للمساجد الاسلامية كلها في صدر الاسلام . وقد استخدموا أحجاراً طول الواحدة ثلاثة أذرع ، ورفعوا الجدران بالآجر ، وغطوا سقفه بجذوع أشجار النخيل وعسبه وجرائده . وقد استمر المسلمون في بنائهم مدة سبعة شهور ، ولهذا كان متيناً . ولو لم يكن متيناً لانهار أمام الأمطار العنيفة المعروفة في المدينة . وقد وجهت القبلة نحو بيت المقدس ، لأن الله لم يأمر رسوله حتى ذلك التاريخ بتحويلها نحو الكعبة .

ولم يكن لعدد من المهاجرين مأوى ينامون فيه . لذا بنى رسول الله (ﷺ)

في طرف المسجد صفَّة كبيرة من الآجر ، يناموا عليها ليلاً ، ويحتمون في ظلال سقفها نهاراً . هؤلاء الذين ناموا على هذه الصفَّة دعوا « أهل الصفة » ، وكانوا من الفقراء . وقد حظي هؤلاء الناس بشهرة عظيمة في الاسلام . هذه الصفة التي كانت مهجع الفقراء يوماً ، غدت دار العلم الاسلامي فيما بعد ، وعُدّت أول جامعة إسلامية تقدَّم فيها الدروس .

بعد أن حط محمد (ﷺ) رحاله في المدينة ، وأنزل أمتعته من على الناقة ، ألقى نظره حوله ، بحثاً عن مكان يبيت فيه . في تلك اللحظة قدم إليه « أبو أيوب خالد بن زيد »[1] ، وهو صاحب أقرب منزل من هذا المكان ، فاحتمل رحله ، فوضعه في بيته . وسأله رسول الله (ﷺ) :

ـ أفي منزلك مكان يمكنك أن تمنحني إياه ؟

أجاب أبو أيوب :

أجل يا محمد (ﷺ) .

فقال محمد :

ـ أنام عندك بشرط ألا تتحمل عبء إطعامي .

قال أبو أيوب :

ـ وكم ستكلفني وأنت شخص واحد ؟

أجاب محمد (ﷺ) :

ـ مع أن طعامي قليل ، فلا أقبل أن تتحمله .

وحينما لمس أبو أيوب إصرار النبي (ﷺ) وافق . وهكذا بدأ ينام في منزل أبي أيوب . وفيما كان المسجد يشيَّد كان محمد (ﷺ) يفكر في أمر تنظيم أمة الإسلام .

---

(١) أبو أيوب ، من بني النجار صحابي شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد . كان شجاعاً صابراً تقياً محباً للغزو والجهاد . صحب يزيد في غزوة القسطنطينية ، فمرض هناك وتوفي ودفن في أصل حصن القسطنطينية .

وقد كان أكثر من هاجر فقراء . وكانت الكآبة تغشاهم لأنهم تركوا منازلهم ، وانفصلوا عن قبائلهم . وزادهم ألماً تلك الشائعة التي أثارها اليهود ، والتي تقول إن نساءهن لن يحملن . وكذب الخبرَ الخُبر إذ ولدت زوجة عبد الله بن الزبير ـ أحد المسلمين ـ طفلاً صبيحاً وذا صحة جيدة ، فبعث الحبور في نفوس المسلمين ، وأيقنوا أن نساءهن لن يكنَّ عقيمات .

وأوصى رسول الله الأنصار بالمهاجرين الفقراء ، وطلب إليهم أن يستضيف كل واحد منهم واحداً من المهاجرين ، ويعتبروهم إخوة لهم ، ويشاركوهم في أعمالهم ، ريثما يتحسَّن وضع المسلمين . وحين قوي عودهم وتحسَّن وضعهم المالي انفصلوا عنهم ، وبنوا بيوتاً خاصة لهم . فقد كان نفوذ كلام محمد (ﷺ) في الأنصار عظيماً ومستجاباً . . وهكذا تآخى الأنصار مع مئة وستة وثمانين من المهاجرين ، وأسكنوهم في ديارهم ، فصاروا أخوة . وفي القرآن (الآية الرابعة والسبعين) من سورة الأنفال (الثامنة) تصريح عن مكانة الأنصار الذين آووا إخوانهم المهاجرين ، يقول تعالى : ﴿ والذينَ آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل اللهِ والذينَ آوَوْا ونَصروا أولئكَ همُ المؤمنونَ حقّاً لهمْ مَغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ . وحتى يستمرَّ بناء المسجد تقرر أن يشتغل الأخ يوماً في البناء ويوماً في العمل ضماناً لتأمين العيش له ولأخيه ﴾ .

واستمر المسلمون على هذا بشكل متناوب وعادل . ولم يقبل محمد (ﷺ) أن يشارك أحداً من سكان المدينة في أخوته ، خشية أن يسبب هذا ألماً للآخرين ، لهذا أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال :

ـ هذا أخي .

ثم قال له :

ـ أنت تشتغل يوماً لإطعامنا ، وأنا أشتغل يوماً .

فقال له علي :

إن إشرافك على بناء المسجد يا محمد (ﷺ) ضروري ، والمسلمون بحاجة إليك يومياً لحل مشكلاتهم ، لذا ابقَ في المسجد كل يوم ، وأنا أعمل لتأمين معاشنا .

وقبل محمد (ﷺ) اقتراح علي . قد تتصورون أن علياً كان يشتغل في المدينة تبعاً لعادات أسرته . فعلي ـ مثل محمد (ﷺ) ـ من قبيلة هاشم ، ويعتبر من سادة مكة ، إلا أنه في المدينة كان ينقل الماء لتأمين معاشه ومعاش ابن عمه ، وقد كان مكان النبع بعيداً ، حتى إنه لم يكن يستطيع نقل أكثر من ست عشرة مرة ، وكانوا يعطونه على كل وعاء ماء حبة تمر واحدة . . فكان أجره اليومي ست عشرة حبة تمر ؛ ثمانية له وثمانية لابن عمه . وهكذا استمر الاثنان على العيش .

وقد قاسى مؤسسو الاسلام كثيراً في بدء حياتهم ، ولكنني ذكرت في مطلع كتابي أن من أبرز صفاتهم إبان طفوليتهم الصبر على الجوع والعطش ، لهذا لم يكن هذا الأمر صعباً عليهم . وقد كان نصف سكان المدينة يهوداً .

●

يذكر علماء الإسلام أن الشرائع لم تنزل مرة واحدة ، بل نزلت بالتدريج على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ولهذا لم تطبق الأحكام الجديدة كلها فوراً . وكان على محمد (ﷺ) أن يراعي ما جاء في التوراة التي نزلت على اليهود إبان تقرير الأحكام الجديدة . وعلة مراعاة هذا التحول التدريجي أنه لو ألغى كل أعرافهم دفعة واحدة ، وطبق الأحكام كلها لضاع المسلمون ، واستحال عليهم التنفيذ . لذا كان نزول أحكام الله بهذه الطريقة التدريجية كفيلاً بتقبلها وسيرورتها .

واليوم ، مع أن الثقافة الغربية متقدمة جداً بالنسبة إلى العصر الجاهلي ، مع تطور كبير في وسائل الإعلام ونشر الفكر كالراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والكتب ، فإن أي دولة من دول الغرب تعجز عن إصدار عشرات القوانين الجديدة

وتعميمها في أيام معدودات . وإن حصل أن تمكّنت من نشر مثل هذه القوانين بهذه السرعة فإنها ستفقد أعصاب أمتها وتوهن أدمغتها ، بل ستحل الفوضى ، وينتشر الفساد في المجتمع .

وبطبيعة الحال فإن البدو في الجزيرة لم يكن عندهم هذا الاستعداد الكبير الذي يخوّلهم إدراك قوانين الاسلام الجديدة في مدة وجيزة . وكذلك حصل ، فبعد بعثة محمد ونزول الأحكام من السماء ، لم يؤمر المسلمون بالغاء ما كانوا عليه . لهذا فإن القانون الخاص بالصلاة نحو بيت المقدس استمر بين المسلمين ، لأن الله تعالى لم يُنزل آيته بمنع الصلاة نحوه . هذه المسألة ، ومراعاة محمد (ﷺ) للأعراف القديمة دعت اليهود إلى اعتقادهم بأنه سيغدو يهودياً يوماً . وكانوا يقولون له :

ـ لستَ نبياً ، لأنك لست يهودياً . وقد بُعث الأنبياء جميعاً من بني اسرائيل . وحين تتهوّد ، ستبعث من بينهم .

وقبل أن يحوّل المسلمون قبلتهم نزلت الآية (١١٥) من السورة الثانية ، والتي تذكر أن الله موجود في كل مكان ، فحيثما اتجهتم في صلاتكم فستلقون وجه الله[١] . وحين اتضح لمحمد (ﷺ) أن اليهود لن يعاضدوا المسلمين أنزل الله عدداً من الآيات يأمر فيها المسلمين بتحويل وجهتهم أثناء الصلاة نحو الكعبة . هذه الآيات هي : ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٩ ـ ١٥٠ من السورة الثانية (البقرة) . والآية (١٤٢) تقول « : ﴿ سيقولُ السُّفهاءُ من الناس : ما ولاَّهُم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : للهِ المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ .

يستنتج علماء العرفان المسلمون من عدم تأكيده على المشرق أو المغرب (من حيث المكانة) أن الله موجود في كل مكان . ولهذا يرى شعراء العرفان أنه لا فرق

---

(١) والآية هي : « والله المشرقُ والمغربُ ، فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجهُ الله ، إن الله واسع عليم » .

في العبادة بين المسجد والصومعة والمعبد والكعبة . ولكن ورد في الآية إشارة مهمة جداً أنه لا فرق من حيث المشرق والمغرب ، إلا حين نزلت آية تحديد الوجهة نحو الكعبة » .

وقد خاطب الله اليهود والنصارى في الآيات المذكورة فيقول لهم إننا أمرنا بتبديل القبلة ، لنرى من منهم يتبع رسول الله ويغير وجهة صلاته ، ومن منهم يرفض ذلك ويبقى بذلك على كفره ؟ وتبديل وجهة القبلة أمر مهم جداً في تاريخ الاسلام ، لأن الاسلام في هذا الأمر انفصل تماماً عن اليهود والنصارى ، لاسيما الديانة اليهودية .

فالاسلام دين نزل على نبي عربي بلسان عربي ، والكعبة كذلك بناء عربي بناه لهم جدهم ابراهيم . فعندما أمرهم الله بتحويل صلاتهم شطر الكعبة دلّ هذا على أن الاسلام لم يعد بذي علاقة باليهودية أو بالمسيحية ، لا سيما الأولى ، وأنه دين قائم بذاته .

أول دستور في الإسلام

أورد الله ذكر ملة ابراهيم عدة مرات في القرآن . وإبراهيم ـ كما نعلم ـ عاش قبل عيسى وموسى ، وهو الذي بنى الكعبة ، لذا كانت ديانته ركيزة للدين الإسلامي . ولما كانت الديانتان المسيحية واليهودية تعتمدان على الديانة الإبراهيمية ، فقد اصطبغ الاسلام بالصبغة العالمية العامة ، وغدا ديناً يستقبل كل سكان الأرض. في حين أن هذا غير ممكن للديانة اليهودية ، لأن أساس اليهودية هو التفضيل العرقي ، وأنهم شعب الله المختار ، وأمتهم الوحيدة التي تستحقّ شرف مخاطبة الله . كما أن المسيحية التي جاءت متممة لليهودية لم يكن عندها هذا الاستعداد العالمي .

أما الإسلام ، فبعد أن انفصل عن الديانتين اليهودية والمسيحية ، واتخذ قبلة خاصة ، إصطبغ بالصبغة العالمية ، وغدا يصلح لكل الأمم في شتى البقاع . وسر العرب ، ولا سيما المهاجرين والأنصار ، بتغيير القبلة وتحويلها الى الكعبة . فبالاضافة الى أنها مقدسة لدى العرب[1] فإن المهاجرين لن ينسوا بذلك تلك المدينة التي نشؤوا فيها ، ناهيك عن سعادة العرب باعادة ربطهم بأجدادهم الذين كانوا يُجلُّون الكعبة .

كانت تلقى بعض القصائد الفخرية ـ بالثناء على الأجداد ـ في عصر الجاهلية . ولكن بعد أن نزل أمر الله بتحويل قبلتهم نحو الكعبة ، ذلك البيت الذي بناه (أبوهم) ابراهيم أبو اسماعيل ، وبالنظر إلى أن العرب يعتبرون

(١) ولدى غيرهم من الأمم المجاورة .

أنفسهم من نسل اسماعيل ، فإنهم كلما اتجهوا نحو الكعبة في صلواتهم أحسوا بالرابطة الوثقى تربطهم بجدَّيهم ابراهيم واسماعيل ، فيزدادون إجلالاً لهما وارتباطاً بهما .

ولقد استعان محمد (ﷺ) بالمسلمين في بناء المسجد ، ثم في بناء مساكن صغيرة لهم إلى جواره فلقد ترك كثير منهم أسرهم في مكة يوم هجرتهم ، ومن بينهم رسول الله (ﷺ) ، وعليهم الآن أن يطلبوهم ليعيشوا في كنف آبائهم ، لأن الفرد بالنسبة إلى أسرته كفرع للشجرة التي يرتبط بها . . والفروع كلها تتصل بالجذع ، وإن فصلت بعض الفروع عن الجذوع دنت من الهلاك . وقد رأى محمد (ﷺ) أن يعود أفراد أسرته من مكة قبيل الانتهاء من بناء هذه المساكن الصغيرة . فنزل الى السوق مع أبي بكر ، واشتريا ثلاث نوق بمال أبي بكر . وكنا ذكرنا ، عندما قدما إلى المدينة ، أنهما كانا يملكان ناقتين ، والآن صار في حوزتهما خمس نوق . فطلب رسول الله (ﷺ) عندئذ ابن عمه « علي » وقال له :

ـ أنت تعلم يا علي أن بناتي وزوجتيَّ سودة وعائشة في المدينة ، فاذهب وأحضرهنّ على هذه النوق ، وخذ معك زيداً ليُحضر زوجته « أم أيمن » .

معلوم أن بنات محمد (ﷺ) أربع ، هن : فاطمة ـ أم كلثوم ـ رقية ـ زينب . وقد قدمت رقية مع زوجها عثمان إلى المدينة ، بينما بقيت الثلاث في مكة . واتجه علي وزيد نحو مكة ، فعادا بسودة وعائشة وفاطمة وأم كلثوم وأم أيمن ، في حين أن زينب ـ الابنة الرابعة ـ لم تستطع ترك مكة ، لأن زوجها « أبا العاص » ، الذي ما زال على شركه لم يسمح لها بالذهاب . وهكذا التأم شمل أسرة محمد كلها عدا زينب . ومثل هذا جرى لأغلب الأسر المسلمة ؛ فقد آمن بعض الرجال من دون النساء ، وآمن بعض النساء من دون الرجال ، لذا لم يلتحق بعضٌ ببعض .

وهكذا زاد عدد المسلمين في المدينة . وقد خصص أبو بكر ومحمد نوقهما

الخمس لنقل أسر المسلمين من مكة إلى المدينة . وكم كانت هذه النوق الخمس تُولى العناية الخاصة لدى وصولها الى المدينة كل مرة . فقد كانت لا تُمنع مطلقاً عن رعي أي كلأ ، وتشرب من أي ماء .

وبعد أن تمَّ بناء المسجد ، وقدم أهل المسلمين من مكة وضع النبي (ﷺ) « دستوراً جديداً » لهذه المدينة المستقلة . وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً ، كلها من رأي رسول الله . خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين ، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، ولا سيما اليهود وعبدة الأوثان . وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية ، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم ، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء . وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة ، أي عام ٦٢٣م . ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده .

وسنعرض الآن بعض بنود الدستور للقارىء ، منبهين إلى أن محمداً (ﷺ) عندما راعى في دستوره أصحاب الأديان غير المسلمة استلهم مضمونه من كلام الله . يقول الله في الآية الثانية والستين من السورة الثانية : ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمنَ بالله واليومِ الآخر وعملَ صالحاً فلهم أجرُهم عند ربِّهم ، ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون ﴾ .

والصابئون الذين ورد ذكرهم في هذه الآية هم عبدة النجوم والملائكة ، ويعتقدون بالله تعالى . وكما يستفاد من هذه الآية أن الله يشمل برحمته اليهود والنصارى حتى الصابئين ، شريطة أن يصدقوا في إيمانهم . ويقول تعالى فيما يخص اليهود والنصارى في الآية السادسة والستين من السورة الخامسة : ﴿ ولوْ أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزلَ إليهم من ربِّهم لأكلوا مِن فَوقِهم ومن تحت أرجلهم مِنهم أمَّةٌ مُقتصدةٌ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعْملون ﴾ .

قصدنا من ذكر هذه الآيات السماوية أن نشير إلى دستور محمد الذي وضعه في المدينة ، وانتشر في السنة الأولى من الهجرة الذي استُلهمت أحكامه من القرآن من غير أن يدوَّن آياته . والذي لاحظناه أن الأنبياء الآخرين لم يعنوا بما عني به محمد (ﷺ) في مسألة مراعاة الأديان الأخرى . فنراه ـ وبكل رحابة صدر ـ يوافق على عيش أصحاب الأديان الأخرى في المدينة إلى جانب المسلمين . وطمأنهم إلى أن أحداً لن يزعجهم في عقائدهم . وسبب هذا التطمين أن الإسلام اعتمد على أساس الحرية والمساواة ، لهذا فلا خوف على معتنقي الديانات الأخرى . ويرى أنه من الممكن أن يؤثر الإسلام في الأديان الأخرى ، في حين أنها لا تجرؤ على عرقلة مسيرة الاسلام .

ذكرنا أن خمسة وعشرين بنداً من هذا الدستور متعلق بأمور المسلمين ، وسبعة وعشرين متصلة بأتباع الديانات . يقول محمد (ﷺ) في البندين الأول والثاني بعد أن يعدِّد أسماء القبائل المتواجدة في المدينة : « المؤمنون إخوة ، فلا يضايق أحدٌ أحداً ، وعليهم تقديم المساعدات بإخلاص ، وأن يفدوهم ويبذلوا الأموال لتحريرهم أو دفع الديِّات عنهم » . فقبل أن يأتي الاسلام ـ كما ذكرنا قبلاً ـ كان كل فرد عضواً في قبيلته . ومن قتل نفساً أخذت قبيلة القتيل الدية من قبيلة القاتل . وبعد أن حل الاسلام ساوى بين الناس جميعاً ، وألغى الامتيازات الخاصة بأشراف القبائل . وأبرز الدستور الجديد طبقة خاصة هي « المؤمن » ، الذي هو جزء من هذه « الأمة » . فإن أسر فرد من الأمة ، وطالب الآسرون بفدية لتحريره توجّب على المسلمين أن يدفعوا فديته ويفكوا أسره . وإذا حكم على مؤمن بالقتل (بشرط أن يكون بريئاً من هذه التهمة) فإن على المسلمين أن يدفعوا حق دمه لينقذوه .

ويقول محمد (ﷺ) في المادة الثالثة عشرة : « إذا ظَلم المسلم أو تجنَّى أو غمط حقَّ أحد بشكل ما ، أو أثار فتنة بين المؤمنين ، فلن يعان طبقاً لأحكام المادتين

الأولى والثانية . . وعلى المسلمين رفع هذا الجور بأية وسيلة .

وجاء في البند الخامس عشر : « الفقراء والأغنياء متساوون في جميع الحقوق » .

وجاء في البند السادس عشر أنه يجب معاقبة القاتل . قال محمد (ﷺ) : « من قتل نفساً عمداً من غير ذنب قُتل بها ، ولا يحق لأي امرىءٍ حماية القاتل » .

وجاء في البند الثالث والعشرين : « كل خلاف مرجعكم فيه إلى الله ، وبواسطة رسوله تحلّونه » .

وجاء في البند السادس والعشرين : « يحتفظ اليهود بدينهم ، وكذلك المسلمون ، ويسري هذا الشرط على من كان على دينٍ ومولاه على دين » .

وجاء في بند آخر : « لليهود حريتهم في مصاريفهم ، وكذلك المسلمون . ولكن إذا هاجم معتدٍ المدينة فعليهم أن يتحدوا ضده . وعلى الطرفين أن يحُسنا المعاملة فيما بينهما ، ولا يعتدي طرف على طرف » .

وجاء في مادة أخرى : « لا يُسمح لأي فرد من سكان المدينة حماية أحد من أهل قريش أو من أنصارهم » .

وجاء في مادة أخرى : « أرض المدينة حرام ، لا يُسمح أن يثار فيها الجدل » .

●

وسرَّ سكان المدينة جميعاً من هذا الدستور الشامل ، لأنه بُني على أساس العدل . كان عرب المدينة جميعاً مسلمين ، باستثناء عدد من الأشخاص ، وعلى رأسهم « عبد الله بن أُبي » ، وهم الذين دعاهم القرآن بالمنافقين . والمنافقون ، على خلاف ما يتصور بعض المؤلفين ، ليسوا مخالفين للاسلام ، كما أنهم ليسوا معه ، إنما هم حدٌّ وسط . فالمنافق هو الذي يولِّد النفاق ، ولكنه في العربية له معنىً

آخر ، فهو الذي يزحف ويتسلل كالثعلبان الذي يفتح جحراً ، ويسكن فيه خوفاً من الأخطار[1] . يقول الله تعالى بشأن المنافقين في الآية (١٣٧) من سورة النساء (الرابعة) : ﴿ إنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكنِ اللهُ ليغفرَ لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشّرِ المنافِقينَ بأنَّ لهم عذاباً أليماً ﴾ . ويقول أيضاً في الآية (١٤٥) من السورة نفسها : ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ ﴾ .

يضطرنا الأمر هنا إلى التوضيح ، بأن عذاب المنافق أشد عند الله من عذاب الكافر .

دانتي الكاتب الايطالي الذي ذكرنا أنه اقتبس من القرآن كوميدياه الإلٰهية ، وتمثّل بالأشخاص الذين ذكروا في القرآن ، نراه يضع المنافقين (الذين ليسوا موافقين ولا معارضين) في أسفل طبقة من جهنم في كتابه .

●

وبعد أن أقام محمد (ﷺ) في المدينة ـ مرتاحاً من جور مكة ـ ازدادت ضغينة قريش نحوه ، فكتب اثنان منهم رسالة ، وهما أبو سفيان وأبيٌّ بن خلف ، وأرسلاها الى مسلمي المدينة (الأنصار) ، وقد ختماها بإنذار أخير :

« يعزُّ علينا أن نقطع علاقتنا معكم ، ويهمنا الابقاء على صداقتكم . بيد أن ما قمتم به أزَّم الروابط بيننا . فقد آويتم رجلاً كان من رجالات مكة ، لهذا ننصحكم بألا يكون هذا الرجل سبب إيجاد العداء بيننا . فلو كان هذا الرجل ذا قيمة لعرفنا ذلك قبلكم ، ولا ستفدنا منه . ولكنه رجل سيء ، وعلينا معاقبته » .

فما كان من الأنصار بعد أن تسلموا هذه الرسالة إلا أن طلبوا إلى « كعب بن

---

(١) النفاق : خصل المنافق ، وهو مشتق من نافقاء اليربوع . وهي إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويُظهر غيرها . والمنافق (مجازاً) من ستر الكفر بقلبه وأظهر الايمان بلسانه ، فمثل اليربوع مثل المنافق .

مالك »[1] شاعر المسلمين أن يهجو قريشاً . وقد قلنا إن للكلام الشعري والنثري أثراً أيَّ أثر ، وقيمة لا تعادلها قيمة عند العرب ، حتى اعتقدوا أن الهجاء قاتل كالنَّبل . وحين سمعوا القصيدة الهجائية كتبوا رسالة أخرى لتوِّهم ، وأرسلوها إلى عبد الله بن أُبي رأسِ المنافقين ، وقالوا له :

« نطالبكم بردِّ المهاجرين الذين حميتموهم ، فإن لم تحوّلوهم إلينا هاجمنا المدينة وقتلناكم وسبينا نساءكم » .

ولكن عبد الله وسائر المنافقين معه لم يعبأوا بالرسالة ، كما لم يقوموا بأي عمل إيجابي أو سلبي . يقول العرب : المنافقون هم الذين لم يتمكنوا حتى آخر حياتهم من أن يثبتوا على أمر معه أو ضده ، في حين أنهم دائماً يحاولون التصميم ومعرفة الخير الناجم عنه ، ولكنهم في اللحظة المناسبة لا يُقدمون على شيء .

وحينما رأت قريش أن الرسالتين (للمنافقين وللأنصار) لم تُجديا نفعاً ، أرسلوا رسالة ثالثة الى اليهود ، طالبين منهم أن يسلموهم محمداً . لكن اليهود لم يعطوهم جواباً شافياً بمهاجمة محمد أو بأسره ، ولكنهم وعدوهم بالمساعدة الممكنة .

وحين لم تُجد رسائلهم فتيلاً عمدوا إلى محاربة محمد (ﷺ) اقتصادياً . ونحن نعلم أن رجال قريش كلهم تجار ، وسلاح التجار حرب اقتصادية ، تستوجب حصاراً إقتصادياً . فحاصرت قبائل قريش العشر كل مسالك القوافل المتجهة نحو الشمال ، حتى صار من المتعذر وصول الأغذية الى المدينة . ولو جرى مثل هذا الحصار لمكة لمات سكانها جوعاً لأن أرضها غير قابلة للزراعة ، ولا تنتج محاصيل . في حين أن الأراضي المحيطة بالمدينة خصبة زراعية ، والحقول تمتد

---

(١) كعب هذا بدري أنصاري خزرجي صحابي من أكابر الشعراء . اشتهر في الجاهلية ، وكان في الاسلام من شعراء النبي ، وشهد الوقائع وكان من أصحاب عثمان . توفي سنة ٥٠ هـ .

مسافات ومسافات . ومع هذا فقد شقّ عليهم العيش ، إذ ارتفعت أسعار الأغذية والحبوب كثيراً جداً بشكل لا يحتمل .

وبات محمد (ﷺ) في مسكنه قرب المسجد متأثراً من هذا الحصار الذي فرضته قريش ، وهدفت من ورائه إذلال المسلمين وإجاعتهم على الرغم من فقرهم أصلاً .

كان رسول الله يحيا حياة البساطة الكاملة في المدينة ، فقد بنى منزله الصغير من الخشب وألياف شجر النخيل . وقد علق بعض جلود الحيوانات على الجدران حتى لا يرى العابرون ما بداخل المنزل ، وحتى يكون أهل المنزل أحراراً في حركاتهم داخله . كما استخدم بعض هذه الجلود بساطاً يتمدد عليه . وكان أحياناً يتناول حبات من التمر طعاماً له ، وأحياناً يكتفي بالخبز . . إلا أنه لم يأكلهما معاً .

وتقول السيدة عائشة : في الأيام العصيبة كانت أسعار الأطعمة غالية جداً ، فلم نكن نوقد ناراً للطبيخ ، كما لم يتيسّر لنا أكل الخبز يومين متواليين . ومع أنني زوجته فقد كان يقوم بكثير من أعباء المنزل ، فيكنس الدار ، ويوقد النار يوم الطبيخ . والغذاء المطبوخ كان عبارة عن حساء . ولما كانت نساء النبي (ﷺ) يرغبن في أكل اللحم ، فإنهن كنّ يطبخنه بين الحين والآخر . وكان الرسول (ﷺ) يخيط ثوبه بنفسه ، ويصنع حذاءه بيديه . كان يحب النظافة كثيراً ، لذا كان يغسل ثيابه ويسوّك أسنانه ، ويقول : « النظافة من الايمان » .

والشيء الوحيد في حياته الذي يدل على ترفٍ ـ كما جاء في كتب التاريخ ـ أن له منديلاً يمسح به فمه ويديه بعد أن يأكل التمر . وليس في حياته شيء آخر يدل على الترف والرفاهية . وكانت نساؤه يجلسن على حصير من نسجهن ، ويمددن سماطاً ضفرنه من ألياف النخيل . وحين تأزم الوضع الاقتصادي إثر هذا الحصار ، وندر الغذاء اضطر محمد (ﷺ) الى تسنُّم زمام الأمر سياسياً . فمنذ أن اتخذ الانسان

صفة الحاكم القابض على زمام الأمور عرف أن عليه أن يقف تجاه خصمه إحدى وقفتين : السياسة أو الحرب .

منذ بدء التمدن حتى اليوم نرى أن كل من يحاول أن يخيط ثوباً مضطر الى استخدام الإبرة والخيط والمقص . . . ولا سبيل له غير ذلك . وقد لاحظ محمد (ﷺ)أنه لا يمكن معالجة الأمور مع قريش سياسياً ، ولم يرَ بدّاً من مجابهتها حرباً ، فصمَّم على أن يستلَّ السيف من غمده .

يصف أحد الشعراء العرب السيف فيقول :

« لقد صنعك الحداد خفيفاً كريش الطيور ، ليناً كالخيزران ، قاسياً كالصخر الأصم ، وبثّ فيك روح الشجاع المحارب » .

ويقول شاعر آخر :

« حدُّك ناعم يا سيفي ، فكأنني ألمس بك يد حسناء ، وقبضتك لذيذة تحت أناملي ، وكأنني أُمسك بفاكهة ناضجة » .

رأى محمد منذ ذلك اليوم أن يقرن دين الله بالسيف .

منع عبور قوافل مكة بالمدينة

بعث نبي الإسلام (ﷺ) رسالة إلى قريش ، أعلمهم فيها أن حصارهم الاقتصادي هذا سيضطره إلى منع قوافل مكة من أن تمر في منطقة المسلمين . وبعد هذه الرسالة انتخب أربعين رجلاً من المسلمين ، ووضعهم تحت إمرة « حمزة » بطل الإسلام وشجاعه . وسلمهم عشرين جملاً ، وأمرهم أن ينتشروا ما بين المدينة والبحر الأحمر ؛ معبر قوافل مكة . كان هؤلاء الأربعون من المهاجرين ، من الذين يطالب بهم أهل مكة ، يعملون بلا أجر ، ولم يكن لأحد منهم جواد ، في حين أن النبي يقدِّر أهمية الخيل بالنسبة إلى الحروب . لكن المسلمين لم يكونوا أغنياء حتى يشتروا الخيل ، ويستخدموها في مهماتهم .

●

في الجزيرة العربية منطقة تدعى « الحجاز » ، وهي متاخمة للبحر الأحمر ، يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب ألف كيلو متر ، يغلب عليها المرتفعات الجبلية . وفي الحجاز تربى أفضل أنواع الخيل في الدنيا . والجواد العربي المعروف هو الذي يُربى في الحجاز . وحتى في هذه البقعة يعتبر من عنوانات المباهاة والرفاهية ، ولا يتيسَّر لكل الناس اقتناؤه ، كما أنه لا يقدر على العيش في الصحراء لأنه لا يحتمل الجوع والعطش ، وإذا أراد العربي خوض الوغى على الجواد إضطر الى نقل الأعلاف والمياه على الجمال ، لأن الخيل لا تصبر على الجوع ولا على العطش . لهذين السببين ـ غلائها وعدم تحملها ـ تقلّ الاستفادة من الخيل في الصحراء .

يكتفي الجمل بقضم الشوك ليمنع عنه غائلة الجوع ، وترويه شربة واحدة

عدة أيام . كما أنه إن رعى عشباً أخضر خفّف عنه العطش . وأصحاب القوافل الذين عندهم خيل يحملون المياه الكثيرة ، لعلمهم أن الجواد كالإنسان لا يمكنه الصبر على العطش . في حين أن الجواد في ساحة الحرب مركوب لا نظير له ، ولا يعادله أي حيوان آخر في السرعة أو الحركة .

ورد في روايات العرب أن الله عندما خلق آدم عرض عليه كل الحيوانات ، لينتخب منها ما يريد ، فاختار الجواد . ورضي الله على اختياره هذا ، لأن الله نفسه يفضّل الخيل على غيرها من الحيوانات . يصف أحد الشعراء العرب الجواد فيقول :

« أتستطيع أن ترى امرأة ذات ضفائر أنعم من ذيل الجواد ؟ »

« أترى إمرأة ثدياها أبرز من قَرَبوسي سرج الجواد ؟ »[1]

« أرني امرأة عيناها أكثر بريقاً من عيني الجواد »

« ليس هناك إمرأة كخيلنا تقفز في ميدان الحرب ، وتهز جسمها كاهتزاز جسم الخيل »

ويقول شاعر عربيّ آخر يصف الصلة بين الفارس وجواده :

« هو ليل وأنا فجره ، هو طوفان وأنا هدوءه ، هو الدمار وأنا العمار »

« هو سوء الحظ وأنا حسنه . لا يؤثر فينا جوع ولا عطش ، ولا تجذبنا الفواكه الناضجة »

« ولا تحرفنا الحقول اليانعة عن طريقنا » .

إن مرادف كلمة « حملة » هو « غزوة » . وقد أنشد الشعراء العرب نوعاً من الشعر يدعى « الغزويات » ، والغزوات كلها مصدر إجلال من قبل الشعراء العرب ، وهم حين يصفونها لا بد أن يصفوا الخيل معها .

●

---

(١) القربوس : ضو السرج ، أي قسمه المقوّس المرتفع من قدّام المقعد ومن مؤخره ، وهما قَرَبوسان .

من المفروض بحمزة والأربعين مسلماً أن يقفوا سداً منيعاً أمام القوافل العابرة . ولما لم يكن عندهم خيل تضايقوا وحزنوا ، وفكروا أنهم إن حصلوا على الخيل أدّوا واجبهم خير أداء . ولقد ورد في بعض الأحاديث[1] (وليس من الأحكام الدينية) أن على المسلم أن يربي الجواد والفرس قدر إمكانه ، لأنه حيوان مفيد وأصيل ، على ألا يكون الجواد هجيناً ، لأن الهجنة تؤثر في نسل هذا الحيوان .

الحمى الذي جال فيه حمزة ورجاله يمتد مئة وثلاثين كيلومتراً ، ولا يمكن لقوافل مكة إلا أن تعبرها . وما هي إلا أيام حتى دنت قافلة يرأسها « أبو جهل » ، أكبر عدو للنبي (ﷺ) . فهو الذي غطى رأسه ووجهه بمعدة الجمل وربط رقبته بمعي الجمل حتى يخنقه . واستعد المسلمون لمهاجمتها عندما علموا أن رئيسها « أبو جهل » . لكن رئيس القبيلة الذي يتحكم بتلك البقاع ، ويدعى « محمد بن عمرو » قال لحمزة :

لا تهاجموا القافلة في حمانا لأننا على عهد مع قريش . فنحن لا نهاجم قوافلهم ولا نسمح لأحد بمهاجمتهم ، ومقابل حمايتنا لهم يمنحوننا مالاً كل عام . وهذا العهد نفسه قطعناه لتجار المدينة وقوافلها . وعهدنا مقدس . وعلينا أداؤه .

حمزة رجل عربي صميم ، ويعلم أن العهد يجب أن يوفّى ، ويقدّر أنه إن حمل على قافلة مكة في هذه الأرض فإن قوافل المدينة ستقع في خطر حتمي . ومع أن أبا جهل شرح للأشراف محاولة المسلمين ، فإن قريشاً لم تعبأ بمنع المسلمين ، وصممت على أن تستمر قوافلها ، لأنها مضطرة إلى العبور بذلك الدهليز الضيق الذي يربط المدينة بالبحر .

وفي المرة الثانية كان عدد المسلمين ستين شخصاً ، وكان رئيسهم أحد أعمام النبي ويدعى عبيد بن الحارث بن عبد المطلب » . هؤلاء الستون كأولئك الأربعين

---

(١) من ذلك قول رسول الله (ﷺ) : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة » . كما أقسم الله تعالى بها في محكم كتابه : « والعاديات ضبحاً » .

من المهاجرين . وقد راقبوا المنطقة مراقبة كاملة ، فاكتشفوا قدوم قافلة مكية ، وعلموا أن رئيسها « عكرمة بن أبي جهل[1] » ، وعدد رجال القافلة مئة وأربعون ، أي أكثر من ضعف كتيبة عبيد بن الحارث . ومع ذلك فحين رأوا المسلمين هربوا باستثناء إثنين منهم لأنهما مسلمان ، أحدهما يدعى « المقداد بن عمرو[2] » والآخر « عتبة بن غزوان [3] » . فقد هاجر الاثنان إلى الحبشة بأمر من رسول الله (ﷺ) . وحين عادا إلى مكة كان محمد (ﷺ) قد هاجر إلى المدينة . وتم حاولا لحاقه لكن من غير فائدة . ثم التحقا بقافلة مكة التي يرأسها عكرمة . وفيما كانت القافلة تدنو من المدينة ، إستفادا من هرب القافلة فالتحقا بالمسلمين . وأدخل التحاقهما هذا السرور في قلوب المسلمين .

وما هي إلا مدة وجيزة حتى تشكلت كتيبة ثالثة تضم عشرين جملاً برئاسة « سعد بن أبي وقاص » . وسبب تبديل الرجال المسلمين في كل حملة أنهم يرغبون جميعاً في أداء خدمةٍ في سبيل الاسلام . ولهذا كان محمد (ﷺ) يبدلهم كل مرة حتى لا يُحرم أحد من شرف هذا الواجب .

سعد بن أبي وقاص هو إبن أخي آمنة أم محمد (ﷺ) ، وكنا ذكرنا أنه أول من أسال دم كافر في سبيل الإسلام . والتقى سعد في منطقة تدعى « الخَرَّار[4] » بقافلة مكية . وحين حاول مهاجمة القافلة منعه رئيس الحمى ، وقال له :

---

(١) عكرمة : من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام . أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه ، وشهد الوقائع . استشهد في اليرموك أو يوم مرج الصفر وعمره ٦٢ سنة .

(٢) المقداد بن عمرو ، ويعرف بابن الأسود الكندي الحضرمي . صحابي من الأبطال ، وهو من السبعة الأوائل الذين أول من دخلوا في الإسلام . وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله . شهد بدراً وغيرها ، وتوفي سنة ٣٣ هـ قرب المدينة ، فحمل اليها ودفن فيها .

(٣) عتبة بن غزوان أبو عبد الله ، مازني . باني مدينة البصرة . صحابي قديم الإسلام . شهد بدراً ثم شهد القادسية ، ووجهه عمر إلى البصرة والياً . كان طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين . توفي سنة ١٧ .

(٤) الخرار : موضع بالحجاز ، وقيل : واد من أودية المدينة ، وقيل : ماء بالمدينة ، وقيل : موضع بخيبر . وفي حديث السرايا : بعث رسول الله (ﷺ) سعداً في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلقَ كيداً .

ـ المنطقة التي تقيم فيها قبيلتي دار أمان ، فلا نسمح لأحد بأن يهاجم قوافل مكة أو قوافل المدينة ، لأننا نأخذ ثمن الحماية لقوافل البلدتين .

وتستفيد القبيلة بالاضافة إلى ثمن الحماية قيمة الأعلاف التي يحتاجون إليها . وهكذا عادت الكتيبة من غير أن تهاجم . وشرح عندئذ سعد للنبي ضرورة إيجاد طريقة لهذه المشكلة التي تعترضهم . فأخبر محمد (ﷺ) سعداً وسائر المسلمين أن البدو يستفيدون من القوافل استفادة سكان مكة ، لذلك لا يوافقون على مهاجماتنا التي تحرمهم من النفع . ولن يقبلوا منا مالاً يعوِّض لهم الضريبة وقيمة الأعلاف فسأله المسلمون عن الذي سيقدمه لهم ويرضيهم به . فقال إنه سيمنحهم الجنة . وفكر محمد (ﷺ) بهذا الأمر ، وتباحث مع سكان البادية ، وقال لهم :

ـ أنتم تستفيدون من سكان مكة أموالاً لا قيمة لها ، فأصرفوا النظر عنها ، وسأعوضكم عنها بالجنة .

●

نحن ـ الأوربيين ـ نحكِّم أمور حياتنا من منطلق المنطق . ولهذا نقول إن الأعراب لن يقبلوا بعرض محمد (ﷺ) ، لأن عقليتنا تعتبر المال الحالي أفضل من الجنة الموعودة . في حين أن البدو وافقوا على عرض محمد (ﷺ) ، وأبدوا استعدادهم في سحب حمايتهم لقوافل مكة ، وقصدهم الفوز بالجنة بعد هذا العمر القصير . وقد دفعهم إلى الموافقة أمران ؛ أحدهما آيات القرآن المتعلقة بالجنة . من ذلك السورة رقم ٧٦ « الإنسان » يقول الله في الآية الثانية ﴿ **وجزاؤُهم بما صَبروا جنَّةً وحريراً** ﴾ ، وفي الآية بعدها : ﴿ **متكئينَ على الأرائكِ لا يَرَون فيها شمساً ولا زَمهريراً** ﴾ وفي الآية بعدها : ﴿ **ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلتْ قطوفُها تذليلاً** » .

الفصاحة التي جاءت فيها الآية الأخيرة هذه لا نستطيع فهمها نحن الأوروبيين ولا إدراكها ، والعربي هو الذي يدركها وحسب ، . . يدرك فصاحة

هذه الكلمات وبلاغتها . وحين تتلى هذه الآيات بلحن شجي على الأعراب الذين يقدّرون بفطرتهم بلاغتها ، تراهم يؤخذون بها ، فلا ينسونها مطلقاً . وفي الآية التاسعة عشرة من السورة نفسها : ﴿ ويطوفُ عليهم وِلدانٌ مُخلَّدونَ إذا رأيتَهم حسبتَهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ .

ولو أردنا إستعراض كل الآيات التي تذكر الجنة ولذائذها ، ومالها علاقة . بسعادة أهل الجنان والسعادة الأبدية لطال بنا الحديث . يقول الله في هذه الآيات للمسلمين عامة ، وللعرب الذين يريد النبي (ﷺ) أن يتحدوا معه خاصة ، إنكم سترفلون في ثياب حريرية ، وسترتوون بشراب كالكافور ، معطر كالزنجبيل ، وستلفون نساءً جميلات دائمات البكورة .

المرأة الجميلة ذات أهمية كبيرة للعربي في الجزيرة . فبعد متعة الشبع والارتواء يطمح إلى أعظم لذة ، ألا وهي المرأة الحسناء . . ويعتبرها بعضهم أعزَّ من شربة الارتواء ، ومن الجمل الغالي ، لأن بعضهم يُمضي مدة مديدة في الصحراء ، ثم لا ينزل الى المدينة ، كما لا يتهيأ لهم الزواج لقلة ما لديهم من مال . كما لا يرى عدد منهم من النساء إلا أمهاتهم ، فلا يعرفون كيف يكون شكل المرأة . وقد يشيخون ويموتون . ولا يرون تلك المرأة التي تبعث في نفوسهم السكن والسعادة .

لذا فلا عجب إن رأينا الله ـ حين يتحدث عن لذائذ ما في الجنة ـ يؤكد على الحور العين (للرجال) وعلى الولدان المخلَّدين (للنساء). وعلى أية حال فإن تأثير القرآن اتخذ شكلاً آخر في هذه المرحلة ، لذا كان العرب على أمل الجنة ، فامتنعوا عن أخذ الضريبة من سكان مكة ، واتحدوا مع محمد (ﷺ) والمسلمين . ولما كان هذا الموضوع ـ من حيث تأثير القرآن ، وتأثير شخصية محمد (ﷺ) ـ كثير الأهمية ، فإننا سنتحدث أكثر عن هذا الموضوع .

وحتى يُتمَّ محمد (ﷺ) هذا الاتحاد مع القبائل المعنيَّة ذهب بنفسه ومعه

ستون رجلاً ، جميعهم ممن تطالب قريش بعودتهم . ولم يكن للمسلمين هذه المرة خيل ، واعتمدوا برحلتهم هذه على الجمال . واتجه أولاً نحو منطقة قبيلة غِفار ، وهي أول قبيلة دخلت في الاسلام . وكان « أبو ذر » قبل عشر سنوات من هذا التاريخ قاطع طريق ، لكنه خجل من عمله هذا فدخل في الاسلام . فأرسله النبي (ﷺ) الى قبيلته ، ليرشد قومه إلى خير الاسلام . واستطاع بعشر سنوات أن يجعل من قومه مسلمين ، وامتنعوا عن قطع الطرق .

•

إمتدت مساكنهم في أرض تقع بين المدينة وينبع . وقبل أن يبلغها محمد (ﷺ) توقف في منطقة تدعى « الأبواء »[1] لأن فيها قبر أمه. ونزل عن جمله قرب القبر . وعلم المسلمون أنه يريد زيارة قبر أمه ، فلم يدنُ منه أحد إلا عمر بن الخطاب . فركع على القبر ، حتى لمس رأسه التراب ، وبكى . وكان قد مضى على وفاتها خمسون سنة ، ومع ذلك فقد بدا قرب القبر وكأنه طفل فُئد بأمه مؤخراً . لأنه يتذكر جيداً أنها عانت كثيراً في تربيته وتنشئته . وعادت إلى محمد (ﷺ) ـ وهو على القبر ـ ذكريات طفولته القاسية ، وترامى إلى خاطره المشقات التي كانت تهون ما دامت أمه إلى جواره . لأنه حين كان يعود إلى منزله تخفف عنه ، وتغسل له وجهه ويديه ورجليه ،وتُعدُّ له الطعام ، وتشوِّقه إلى أكله . أما بعد وفاتها فإنه أمسى بالوحدة تُطبق عليه رهبتها . فعندما كان يعود من الصحراء لم يكن يجد من يعتني به ويغسل له وجهه ويديه ورجليه ، ولا من يمسح على رأس هذا الطفل اليتيم ، بل لم يكن مَن ينتظر أوبته . فمن هو الذي يتوقع عودة يتيم لا أم له ولا أب ؟ وقبل عودته من يُعدُّ له طعامه وشرابه ؟ وطال بكاء محمد (ﷺ) على قبر أمه ، حتى إن عمر الذي كان يقال إن إبليس يخشاه ، وصوتَه أشبه بهدير الرعد قال :

---

(١) الأبواء : قبر آمنة . وكان السبب في دفنها هناك أن عبد الله والد رسول الله (ﷺ) كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمراً فمات بالمدينة . فكانت زوجته آمنة تخرج في كل عام إلى المدينة تزور قبره . فلما أتى على رسول الله (ﷺ) ست سنوات خرجت زائرة لقبره ومعها عبد المطلب وأم أيمن ، فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة ماتت بها .

ـ كفاك بكاءً يا محمد ، فقد كدت أبكي معك .

وقد ذكر عدد من المؤرخين الإسلاميين أمثال ابن سعد والبخاري وابن هشام أن عمر سأله ، وهو على قبر أمه :

ـ لمَ تبكي كل هذا يا محمد (ﷺ) ؟، لقد اغرورقت عيناي بالدموع أيضاً .

على أية حال ، بكى محمد (ﷺ) كثيراً حتى شاركه في البكاء رجل مثل عمر ، أو كاد . وبعد أن ودّع القبر ، وقبل أن يبلغ منطقة غفار مر ببقاع « وَدَّان »[1] ، وقبيلتها « بنو ضَمْرة[2] » . ولم يكن أحد من أفرادها دخل في الإسلام . وتعتبر هذه القبيلة فرعاً لغفار . ومكث في بقاع ودان مدة أسبوع يتباحث معهم . وعلى أثر مناقشاته معهم ، وقراءته القرآن عليهم تمّ بين الطرفين اتفاق حربي مكتوب، وهو أول اتفاق من نوعه يُجْريه المسلمون مع قبيلة بدوية. وقد تعهد محمد (ﷺ) فيه باسم الله واسم رسوله أن ينهض لحماية بني ضمرة إذا داهمها العدو ، على أن تقدّم بدورها العون للمسلمين إن احتاجوا إلى ذلك . ولم يكن من حق بني ضمرة ـ حسب هذا الاتفاق ـ أن تسمح لقوافل مكة أن تعبر حماها .

تبعد منطقة ودان عن المدينة مسيرة ثلاثة أيام ، وعن مكة تسعة أيام . ولعل ظاناً يظن أن سبب موافقة بني ضمرة على عقد هذا الاتفاق هو قربهم من المدينة وبعدهم عن مكة . والحقيقة غير هذا ، فقد كانت قبيلة قريش ذات هيبة على بعدها ، وقبيلة بني ضمرة تحسب لها حساباً . لكن الذي دفعهم إلى ترك قريش وعقد الاتفاق مع محمد (ﷺ) رغبتهم في الجنة إن ناصروا المسلمين ، وعيشهم الأبدي السعيد فيها ، لأنهم أيقنوا أن من يدخل الجنة لا يخرج منها مطلقاً ، ويحظى

---

(١) ودان : موضع بينه وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال ، وهو لضَمرة وغفار وكنانة .
(٢) ضمرة : نزلت عن يسار المصعد من الشام إلى مكة ، ونزل بعضهم في الأبواء .

بنعيمها الخالد . فالحياة في هذه الدنيا قصيرة ، وهي مع قصرها مفعمة بالمشقّات ، أما في الجنة فالعمر خالد ، والسعادة دائمة ، ثم إن بيع هذه الدنيا الفانية بأخرى دائمة صفقة ناجحة للانسان .

وبعد أن أتمَّ محمد (ﷺ) اتفاقه مع بني ضمرةرحل عنهم واتجه نحوغفار. وغفار اليوم معروفة في الجزيرة ، والكولونيل « لورنس الانكليزي » الغني عن التعريف ، والذي يعلم الناس جميعاً أنه كان يسعى في أثناء الحرب العالمية الأولى إلى توحيد الدول العربية كلها ، أقام حيناً من الزمان في منطقة غفار . ويذكر الكولونيل في مذكراته أن أفراد هذه القبيلة لا يختلفون اليوم ، من النواحي الروحيةوالأخلاقية ـ في القرن الرابع عشر الهجري ـ عن عيشهم قبل الاسلام ، فهم لا يعرفون حلولاً وسطاً في حياتهم ؛ عندهم الأسود والأبيض ، والحسن والسيء ، والصدق والكذب . . ولا يعترفون فيما بين هذه الأمور .

يرى الكولونيل لورنس أن أعضاء قبيلة غفار أطهر قبائل العرب . ولما كانوا لا يعترفون بالوسط في حياتهم فقد كانوا في الجاهلية يقطعون الطرق ، وبعد الإسلام رأينا رجالهم ونساءهم يحجمون جميعاً عن قطع السبل . ثم كانوا دقيقين جداً في الاسلام ، محافظين على تعاليمه ، حتى إن المرء منهم كان ، إن أخطأ ذهب إلى الرسول واعترف له عما ارتكبه ، ولو لم يطلع على خطئه أحد . فقد ارتكب أحدهم فاحشة مع إمرأة محصنة[1] ، ولم يره أحد في جرمه هذا حتى يُحدَّ عليه الحدُّ ، ولو رآه واحد لما كفى ، بل يجب أن يشهد عليه أربعة بالجرم المشهود . لكنه الجاني ، مع علمه أنه سيُرجم ، وكذلك كل من ارتكب فاحشة مع محصنة بين اليهود والمسلمين ، ذهب الى النبي (ﷺ) وقصَّ عليه جرمه وقال :

ـ لقد ارتكبت جريمة الزنى ، ويجب أن أعاقب .

---

(١) المحصنة : ذات زوج .

وبعد أن تأكد رسول الله من أنه كامل العقل ، أي لم يكذب لضعف في عقله ، أمر برجمه . حكاية أخرى ، ففي إحدى الغزوات ردّ النبي (ﷺ) عدداً من رجال غفار لقلة الجمال التي ستحملهم الى ساحة الحرب . ولما علم الغفاريون أنهم سيحرمون من شهود الغزاة بكوا ، واشتد بكاؤهم حتى لتظن أصواتهم أصوات ثكالى فقدن فلذات أكبادهن . ومنذ ذلك اليوم تحول اسم بني غفار إلى بني بُكاء من قبيل المزاح .

وعقد محمد (ﷺ) مع قبيلة غفار معاهدة حرب ، ونجم عن هذه المعاهدة اتفاق يقضي بأن يؤازرهم المسلمون إن هاجمهم مهاجم . وإن احتاج المسلمون إلى عون منهم فعليهم أن يعاضدوا المسلمين على أعدائهم . وقد غدت قبيلة غفار فيما بعد مُعتمد النبي ، حتى إنه في إحدى أسفاره عين أبا ذر مكانه في المدينة لتسيير أمور المسلمين .

وبعد أن تمَّ الاتفاق الحربي بين النبي (ﷺ) وقبيلة غفار ، ترك رسول الله (ﷺ) أرضهم واتجه نحو قبيلة جُهينة . وديار هذه القبيلة جبلية تدعى « رَضْوَى »[1] تقع في منطقة ينبع . واتحدت هذه القبيلة مع المسلمين أيضاً ، وغدا أفرادها من المتعصبين للإسلام . وقد بنوا بمالهم وجهدهم مسجداً في المدينة ، ويعتبر المسجد الثاني في الاسلام (باستثناء مسجد قبا) . وتابع النبي سفره الى رباع قبيلة « بني مَدلج » ، وهي نفسها التي يرأسها « سراقة بن مالك » الذي لقي الرسول (ﷺ) أثناء الهجرة ، وحاول أن يأسره . ومع أن أفراد القبيلة من عبدة الأوثان فإنهم أكرموا محمداً (ﷺ)، وأولوه احتراماً ، وعقدوا معه عهد الحرب . وفي السنوات التالية، بعد أن أسلم سراقة غدا من القواد المشهورين في الاسلام .

واطمأن النبي ، بعد أن عقد أربعة عهود مع أربع قبائل تمر بها قوافل مكة ،

---

(١) رضوى : جبل عند ينبع لجهينة ، وهو من ينبع على مسيرة يوم .

وهي الآن مستعدة لمساعدتهم . وعندما عاد محمد (ﷺ) إلى المدينة فوجىء بنبأ غير سار ، ذلك أن في غيابه هوجمت المدينة من قبل رجل يدعى « إبن جبير » ، مع نفر يركبون أسرع النوق ، فأحرقوا بعض منازلها ، وأغاروا على أموال المسلمين ونهبوها . واتضح أن هؤلاء الفرسان قدموا من قبل قريش . وأيقن النبي (ﷺ) أن الحرب بين المسلمين والمشركين وشيكة الوقوع .

موضوع الشهر الحرام وحملة عبد الله بن جحش

صمم رسول الله (ﷺ) في شهر تشرين الثاني من سنة ٦٢٣ أي في السنة الثانية للهجرة ، على ضرب قريش في حملة إسلامية في مكان ما . كانت القوافل المكية التي تعبر أراضي المدينة قوية جداً ، والقبائل التي عقدوا معها المعاهدات لا تستطيع محاربتها لأن القافلة الواحدة تضم ألفين وخمسمئة محارب تقريباً . فانتخب رسول الله في هذا الشهر ثمانية من المسلمين ، أحدهم « عبد الله بن جحش »[١] وهو رئيسهم ، وحمّله كتاباً وقال له :

ـ أعلُ نجداً (مكاناً عالياً) ، وهناك سترى نبع ماء ، فاسقِ جمالك منه ، ثم فُضَّ الرسالة وإعمل بما فيها .

كان عبد الله مطيعاً لرسول الله (ﷺ)، ومثله سائر المسلمين ، متبعاً أوامره بكل دقة . فاتجه غرباً مسيرة يومين ، حتى بلغ بئراً ، فروّى جماله ، وقرأ الرسالة . فرأى أن النبي (ﷺ) يأمره فيها أن يعترض لقافلة مكة على رأس الطريق الى الطائف في مكان يدعى « نخل » . فتابع طريقه حتى وصل إلى المكان المقصود في أواخر شهر رجب . وأتوقع أن الذين يقرأون هذا البحث على علم بهذه المنطقة ، فقد ذكرنا أنها ذلك المكان الذي رجم فيه ابراهيمُ إبليسَ وطرده . وفي ذلك الزمان نصب تمثال « مناة » ، وهو أحد الأوثان المعروفة في الجزيرة . كما أن

---

(١) عبد الله بن جحش : صحابي قديم الإسلام ، كان ممن هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وكان من أمراء السرايا . وهو صهر رسول الله (ﷺ) أخو زينب أم المؤمنين . استشهد في معركة أحد ، ودفن مع حمزة في قبر واحد .

هذا المكان هو الذي وصل إليه محمد (ﷺ) ليلاً إثر هربه من الطائف ، وشغل فيه بتلاوة القرآن ومناجاة ربه حتى تأثرت به الجن وآمنت .

عندما وصلت السرية المسلمة إلى ذلك المكان كان عددهم ستة أشخاص ، لأن اثنين منهما ضلاً الطريق ، ولم يتمكنا من تعقُّب رفاقهما ، وهما « سعد بن أبي وقاص » و« عُتبة بن غَزْوان » . وأمر ستة آخرون بالاتجاه نحو « نخل » ومهاجمة القافلة القادمة من الطائف والمتجهة نحو مكة ، ولكنهم حين وصلوا الى هناك كان قد حلّ شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحرم .

تجدر الاشارة إلى أن الأشهر الحرم لم تكن واحدة في كل أنحاء الجزيرة ، فلكل منطقة أشهرها الحرام حسب افتتاح سوقها العام . والأشهر الحرم في مكة هي الحادي عشر والثاني عشر أي ذو القعدة وذو الحجة ، والشهر الأول أي المحرم ، والسابع أي شهر رجب المرجَّب . وهذا الشهر بالاضافة إلى أنه أحد الأشهر الحرم فانه شهر الحج الصغير أي « العمرة » . والعرب يفدون على مكة فيه لأداء زيارتهم بكل اطمئنان .

عندما وصل عبد الله بن جحش مع أصحابه إلى « نخل » كان قد بقي يوم واحد لانقضاء شهر رجب . وفي هذا اليوم بالذات قدمت قافلة من الطائف متجهة نحو مكة ، كانت تحمل الزبيب والخمور والجلود . وحين وصلت القافلة إلى « نخل » قرر السَّفر أن يكتفوا بالاستراحة القليلة قبل أن يتابعوا سيرهم ، حتى يصلوا إلى مكة فقد يداهمهم أحد في الصحراء . وفكر عبد الله ، ماذا يعمل ؟ فإن هاجم القافلة خالف أعراف العرب ، وما زال يوم وليلة على أنقضاء الشهر الحرام ، حتى اللصوص وقطاع الطرق لا يهاجمون القوافل في هذه الأشهر . يمكنه أن يتابع القافلة بعد خروجها من نخل ، حتى إذا إنصرم الشهر هاجمها ، لكن المسافة إلى مكة لم تكن بعيدة ، وما تبقّى من الشهر يكفيها للوصول الى حمى مكة ، ولن يستطيع مهاجمتها كذلك ، لأن لمكة حرمةً دائمة . ومن ناحية أخرى يعلم أن مهاجمة

القافلة خدمة في سبيل اللـه ، وأشراف مكة ـ والقافلـة لهـم ـ يحـاصرون المدينـة اقتصادياً ، ويوقعونها في عذاب الجوع ، وحتى الآن لم يبادروا إلى عمل معاكس ، يمنع الأغذية عن وصولها إلى مكة .

ورأى في نهاية المطاف أن ينفذ ما جاء إليه ، ويهاجم القافلة . وقد كان على القافلة أربعة أشخـاص من قريش ، فقتلـوا واحـداً ، وأسروا إثنـين ، وهـرب الرابع . واستولى المسلمون على القافلة ، والمسلم الذي قتل القرشي يدعى « وقيد ابن عبد الله» ، وهو أول من قتل رجلاً في سبيل الله . أما الذي هرب فقد وصل إلى مكة ، وحكى لقريش ما جرى معهم . فقرر المشركون أن يلاحقوا المسلمين ويأسروهم ، غير أنهم لم يوفقوا الى هدفهم ، إذ وفقت القافلة ووصلت الى المدينة بسلام .

ولم يعترض القرشيون فقط على انتهاك حرمـة شهـر رجـب ، بل امتعض مشركو المدينة ويهودها ، وراحوا يسيئون القول نحو محمد (ﷺ) ، فقالوا إن هذا الرجل الذي يعتبر نفسه عابداً لله لا يحترم شهر رجب ، فيأمر بمهاجمة القوافل فيه . ذلك أن للأشهر الحرم قدسية خاصة في كل أنحاء الجزيرة ، وقد قلنا حتى اللصوص لا يحملون على القوافل فيها .

القوانين ـ بشكل عام ـ تقرَّر بشدة ، على أي أمر كان . والعربي لا يقدر على العيش في الصحراء ما لم ينفذ القوانين تماماً ، ومن غير استثناء . ولهذا كان من يسرق في الجزيرة تُقطع يده من غير مجابهة ، وإلا لما استطاعوا أن يحفظوا أموالهم من السارقين . وقانون الأشهر الحرم كذلك من مختصات حياة النـاس في الجـزيرة ، فأقسام واسعة من الأراضي (ومكة من هذا النوع) يابسة لا يمكن زرعها ، ويضطر الناس ، حتى يضمنوا عيشهم ، أن يسافروا الى مناطق قابلة للزراعة ، وتكثر فيها الحبوب والمواد الخام ، حيث يستوردون منها ما يلزمهم . وهذا ما جعل التجـارة

ذات أهمية ، والقوافل التجارية فيها مستمرة في تنقُّلها . ولما كان الأعراب جائعين فقد كانوا يهاجمون تلك القوافل لينالوا منها لقمة سائغة ، ثم إنهم لا يخافون من الموت ، لذا يحملون على أموال التجار . وهذا ما دفع العرب الى وضع قوانين تحرّم بموجبه الإغارات على القوافل في أشهر معينة .

لكن عبد الله بن جحش هاجم قافلة مكة متناسياً كل الأعراف . والأشهر الحرم مقدسة ، لدرجة أن الخصوم لا يحملون أسلحتهم فيها ، ويقفون في صف واحد في الكعبة أمام أوثانهم ، حتى إذا انقضت هذه الأشهر عادوا الى حروبهم .

كان في مكة عدد من الأشراف يتعهدون تنظيم هذه الأشهر الحرم . وحالما يبدأ شهر ذي القعدة يدخل رئيسهم الكعبة ، وينادي بصوت عالٍ أن حل الشهر الحرام وبدأت أيام السلام ، فلا يُسمح لأحد بعد الآن بالحرب أو النزاع ، وعلى الخصوم أن يحقنوا ضغائنهم . وإذا انتهى زمان الأشهر الحرم يعود الرجل إلى الكعبة ليُعلم الناس انتهاء هذه المرحلة ، وبإمكانهم أن يتشاجروا كما شاؤوا .

يجب الانتباه ، إلى أن العرب ، على خلاف تصورنا ، لم يتبعوا التقويم القمري وحسب بل كان التقويم الشمسي متبعاً أيضاً . وكانوا يضيفون شهراً كل ثلاث سنوات تعديلاً لتقويمهم . وعلى هذا فإن العرب لهم سنتان ، في كل واحدة منهما إثنا عشر شهراً ، وسنة ثالثة ذات ثلاثة عشر . والشهر الثالث عشر يدعى « الشهر الخالي » أي « شهر صفر » . لم يكن الشهر الخالي في البدء من الأشهر الأثني عشر ، بل كان يذكر زائداً . وفي هذا الوقت يكون للعرب شهران أحدهما محرم الحرام والآخر محرم الحلال . . . وشيئاً فشيئاً غدا شهر صفر من جملة الأشهر الأثني عشر ، يأتي مكان شهر المحرم الثاني .

على أية حال ، بعد أن وصل المسلمون بالأموال والقافلة الى المدينة ، وعرف محمد (ﷺ) أنهم هاجموا القافلة في رجب تضايق ، وأمر بأن تحفظ أموالها في مكان خاص ، حتى يفكر بشأنها . وتأثر محمد من هذه الواقعة كثيراً ، وأعلن أن نقض

مقررات الأشهر الحرم أمر جلل . لكن الله ، حتى يُطمئن رسوله (ﷺ) ، أنزل عليه هذه الآية ، ذات الرقم (٢١٧) من سورة البقرة : ﴿ **يسألونَكَ عن الشَّهر الحرام ، قتالٍ فيه ؟ قلْ : قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيل الله ، وكفرٌ بهِ والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبرُ عندَ اللهِ ، والفتنةُ أكبرُ من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم ، إنِ استطاعوا ، ومَن يَرْتَدِدْ منكم عن دينهِ فيمُتْ وهوَ كافرٌ فأولئكَ حَبِطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ ، وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد أيَّد الله حرمانية الحرب في الأشهر الحرم ، لكنه صرَّح بأن ما فعلته قريش بالنبي (ﷺ) والمسلمين إذ أخرجوهم من الكعبة ، ونفوهم عن أوطانهم هو أسوأ من الحرب في الأشهر الحرم . وقد أزالت هذه الآية إضطراب النبي ، وأشعرته بأن الحرب في شهر رجب لم تكن وخيمة عند الله . وتأكد له أيضاً من هذه الآية أن ما يعمل على نشر الاسلام يمكن إجراؤه ، ولو في الأشهر الحرم .

وقدم وفد من مكة إلى المدينة لاسترداد الجمال والمال والأسيرين ، وتناقشوا مع النبي (ﷺ). لكنه لم يقبل بأن يردّ إليهم ما طلبوا ، إلا أنه قبل فدية الأسيرين ، فتسلم على كل واحد منهم ألفاً وستمئة درهم لنفع المسلمين . ولكن أحد هذين الأسيرين أسلم ، ولم يرضَ بالعودة الى مكة . فكان هذا سبباً في إسعاد المسلمين .

تنظيم محمد (ﷺ) الحربي في معركة بدر
أمر يدعو إلى التقدير

ما إن مضت ستة أسابيع على حملة قافلة مكة في « نخل » ، حتى رجعت عيون المسلمين حاملة نبأ قدوم قافلة كبيرة مؤلفة من ألفي جمل ، تحمل بضائع قيمتها خمسون ألف دينار ، تدنو من حمى المدينة ، متجهة نحو مكة ، ورئيسها أبو سفيان . والقافلة تخصُّ كل تجار مكة ، ولا سيما القرشيين .

ولكن « إبنة عبد المطلب[1] » أخطرت قومها ـ قبيل وصول القافلة إلى المدينة ـ بأن سوءاً سيحلُّ لكل سكان مكة ، وأكدت أن الحادثة ستحلّ بهم بعد ثلاثة أيام تقريباً ، فقد كانت هذه المرأة تقرأ الغيب . لكن سكان مكة تجار ، ويعتبرون السوء هو ما يصيب أموالهم . ولما كانوا يصدّقون حدس إبنة عبد المطلب ؛ فقد توقعوا خطباً يعتري القافلة .

في العادة ، أن القافلة المكية حين تدنو من حمى مكة تبعث رسولاً على ناقة سريعة قبل ثلاثة أيام من وصولها ليبشّر أهلها بدنو الوصول . وكان هذا الرسول يدعى « النتّاف » أو « مزيل الشعر » . وسبب هذه التسمية أنه عندما يأتي هذا الرسول بالبشرى ، تكون النساء منتظرات أوبة أزواجهن ، فيسرعن في إزالة الشعر الزائد عن أجسادهن ، ويغتسلن ، ويتعطّرن ، ليستقبلن أزواجهن أحسن استقبال ، وتشاور رجال مكة فيما بينهم ، وقالوا : لو أن القافلة تقترب من مكة

---

(١) اسمها عاتكة الهاشمية ، عمة الرسول (ﷺ) . رأت في منامها قبل مقدم الرسول « ضمضم الغفاري » على مكة بثلاث ليالٍ رؤيا أفزعتها ، فلم يصدقها أبو جهل ، وصدقها الناس .

بشكل طبيعي لوصل الرسول الآن إلينا . فلا شكٌ أن حادثاً مفاجئاً حصل للقافلة ، منعها من إرسال الرسول بشيراً .

في مكة مجلس ، وظيفته إعلام الناس بالأخبار المهمة النافعة . ولهذا المجلس عدد من المنادين يدعى الواحد منهم « المؤذن » . ويطوف المؤذنون في حواري مكة أو في مفارق الطرق ، حيث يتوقفون وينادون بصوت عال ، معلنين عن الأخبار التي يحملونها .

ولكن في ذلك اليوم نادى المؤذن بالناس[1] ، ينذر بويل ما حصل ، وراح يصرخ ببطن الوادي ، واقفاً على بعيره بعد أن أفلت رحله إلى ما تحت بطن البعير ، مرتدياً ألبسة ممزقة وبشكل مقلوب . وبدت عيناه مضطربتين ، في حين أن الدم كان يسيل من أذني الجمل ، لأنه جدعها[2] ، ولوَّث وجهه بالطين . وكان يصرخ :

ـ يا معشر قريش ، اللطيمةَ اللطيمة[3] . أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى إلا أن تدركوها ، الغوثَ الغوثَ .

في مكة رسم ، حين يريد المؤذن إعلام الناس نبأً مفجعاً يطلع على الناس بمظهر نابٍ غريب ، فإما أن يلوث وجهه بالطين ، وإما أن يبدو للناس عارياً . وظهوره عارياً دليل على أسوأ أنواع الأنباء . وراح الناس يتصايحون مذعورين ، وكأن المسلمين يهاجمون القافلة الآن ، وينهبون ما فيها أمام أعينهم . فأسرع الناس ، واستعجلوا بعضهم بعضاً للعمل على نجاة القافلة .

ولم تمضِ ساعات حتى اجتمع ٩٥٠ رجلاً و٧٠٠ جمل و١٠٠ جواد ،

---

(١) حين علم أبو سفيان باستعداد محمد (ﷺ) له ندب « ضمضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكة يستنفرهم إلى أموالهم ، وغيرهم أن محمداً عرض لها في أصحابه .

(٢) في رواية ابن هشام أنه جدع أنف بعيره .

(٣) اللطيمة : الإبل التي تحمل البز والطيب .

بالإضافة إلى كثير من النساء اللائي فُجعن بالنبأ ، وكنَّ يتمنّين البشرى ، فشاركن الرجال في حملتهن ، وأعلنَّ أنهن مستعدات لمرافقتهنّ ولو إلى المدينة . وبالإضافة الى هذا الاستعداد السريع فقد جمعت مئتا ألف درهم وخمسون ألف درهم مصاريفَ للحرب . ولم يصدف أن جُمع مال كثير بهذه المدة القصيرة من قبل التجار . وسبب ذلك أنهم حتى الآن لم يتضرَّروا مادياً ، لكنهم أحسوا بالخطر المحدق ، فإن لم يرفعوه بأقصى سرعة خسروا القافلة والقوافل بعدها .

وتوقفت سرية محمد (ﷺ) لمهاجمة القافلة التي يُتوقَّع أن تمرَّ بأراضي المدينة . كان عدد سرية المسلمين ٣١٣ كلهم من المطالَبين بالعودة إلى مكة . في المدينة قبيلتان تدعيان : الأوس والخزرج ، وتطالب قريش من كل قبيلة بسبعين رجلاً ، رافقوا محمداً (ﷺ) في حملته . فعلى هذا فإن مئة وأربعين من الأنصار ، والباقين من المهاجرين . ولم يكن لدى المسلمين غير سبعين جملاً وجوادين . فأمر رسول الله أن يعتقب كل إثنين على جمل ، حتى إذا تعب المشاة ترجلوا ليركب الآخرون . وهذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها المسلمون على الجياد ، أعني جوادين ، في مهمة حربيةَ .

كان جيش المسلمين ينتظر قدوم القافلة في ١٧ رمضان من السنة الثانية الموافقة لـ ٦٢٤م ، في مكان يدعى « وادي بدر » ، والذي يبعد عشرين كيلومتراً جنوبي غربي المدينة . لكن القافلة لم تصل في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية[١] .

كان في المدينة عدا المسلمين فئتان ؛ الأولى هي اليهود والثانية المنافقون . . والفئتان لم تشتركا في الحرب . وقد تمكنت الفئتان من إخطار أبي سفيان وإعلامه النية المبيَّتة للمسلمين ، فبدَّل أبو سفيان طريق قافلته ، إلى طريق أبعد ، ولكنه أكثر أمناً ، واتجه نحو مكة . وهكذا عوضاً عن وصول القافلة إلى بدر قدم ٩٥٠

---

(١) حين أيقن أبو سفيان من نجاة قافلته بعث يطمئنهم ويطلب إليهم أن يعودوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر .

محارباً بأقصى سرعة . وسبق جيش المشركين إثنان من الطلائع[1] ، فأسرهما الجنود المسلمون ، وقادوهما إلى النبي (ﷺ) ، ففهم منهما عدد المحاربين القادمين . ثم أمر بأن يُحفظا أسيرين . وبعد ذلك خطب في المسلمين قائلاً إن القافلة لن تمر من هنا ، لأن بعضهم أخطرهم بعزمنا ، وبالتالي فإن جيشاً من قريش وعددهم ٩٥٠ رجلاً قدموا إلينا ليحاربونا بقيادة أبي جهل . نحن نستطيع أن نعود من هنا إلى المدينة ، لكن عودتنا لن تُنقذنا من مهاجمة جيش قريش ، لأنهم سيدخلون المدينة ويقاتلوننا . والأفضل أن نتوقف هنا ، ونستعد لمهاجمتهم ، لأن هذا المكان أفضل للحرب من المدينة ، وحظنا من النصر في هذا الوادي أوفر من حظنا في المدينة .

وادي بدر أرض قسم منها ترابي ، وقسم آخر صخري ورملي . يقع الوادي بين جبلين ؛ شرقي يدعى « العدوة القصوى » ، وغربي يدعى « العدوة الدنيا » ، ويطل عليه من الجنوب جبل يدعى « الأسفل » . وكان في هذا الوادي في صدر الاسلام عدد من الينابيع ، تتوقف حولها قوافل مكة فترتوي وتستريح . وبعد أن صمم رسول الله (ﷺ) على الحرب قرر أن يغير مكان الميدان .

كان المسلمون ـ حتى ذلك الوقت ـ عند المدخل الشمالي لوادي بدر ، ينتظرون قدوم القافلة . ثم اتضح لهم أن القافلة لن تمر ، فأعلن النبي أنه سيغير موقع الهجوم ، وينتقل إلى طرف الجبل الأسفل ، ويستعد هناك ، لتكون الينابيع في حمايتهم ، ولا يدع العدو يستفيد من الماء . ونُفذ أمر النبي (ﷺ) ، وانتقل المسلمون من شمال الوادي الى جنوبه ، واحتلوا منابع الماء . وهناك خاطب الرسول المسلمين ، وقال لهم : حتى هذا اليوم كان العرب يحاربون بشكل مبارزات فردية ، ويفضلون هذا النوع من الحروب ، وكل واحد يسعى لأن يبارز ويتقدَّم ويتباهى على أقرانه . ولكننا في هذه الحرب ليس من أجلنا نظهر شجاعتنا ، ونرمي بأرواحنا ، بل من أجل الله . فإن استشهدنا في سبيله لقينا الجنة ، كما أن

---

(١) أحدهما غلام أسود لبني الحجّاج . . وهو الذي حدّثهم عن قريش (الطبري : ٢/ ٤٢٢) .

عدد رجالنا يعادل ثلث عدد رجال مكة ، فإن حاربناهم عن طريق المبارزة فنينا جميعاً ، أما إن نازلناهم بشكل جماعي فإن أمل النصر كبير .

وبعد ذلك شرح النبي (ﷺ) خطته الحربية للمسلمين ، وهي خطة ابتدعها فيليب أبو الاسكندر المكدوني قبل ألف سنة تقريباً ، وتدعى باليونانية « فالانثر - PHALANGE [1] » ، وهي عبارة عن اصطفاف الجنود إلى جانب بعضهم بعضاً ، وتلتصق نهاية الصف الأول في أول الصف الثاني ، وهكذا حتى يتكون من المجموع شكل هندسي كالمثلث أو المربع أو الدائري . ويقف الجميع بهذه الأشكال مواجهين العدو ، في حين أن ظهورهم نحو الداخل . وبهذا الشكل لا يقدر العدو مهاجمتهم من الخلف ، لأنه حيثما اتجه قابله الجنود مستعدين . هذا « التكتيك العسكري » هو الذي يدعى باليونانية « فالانثر » . ولهذا سميت وحداتهم العسكرية اليونانية قديماً بهذا الاسم . وقد أتبع محمد (ﷺ) هذه الخطة لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، وفي معركة بدر بالذات . هذه الخطة ، وبالاضافة الى شجاعة المسلمين ، كانت سبب نصرهم في هذه المعركة .

وبعد أن علَّم الرسول (ﷺ) المسلمين خطته الحربية خطب فيهم ، قائلاً لهم إن الفرار غير مجدٍ ، لأنكم لن تجدوا مكاناً تلجأون إليه إلا المدينة ، وسيأسركم اليهود والمنافقون فيها ، ويسلمونكم لقريش ليقتلوكم . ثم تلا محمد (ﷺ) آية من القرآن تلاوة مؤثرة ، وهي الآية الخامسة عشرة من السورة الثامنة : ﴿ **يأيُّها الذينَ آمنوا إذا لَقِيتُمُ الذين كفروا زَحفاً فلا تُولُّوهم الأدبارَ(١٦) ومن يولِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتحرِّفاً لقتالٍ أو مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبِ اللهِ ، ومأواهُ جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ** ﴾ .

وقد رتبت « فلانثرات » المسلمين في ذلك اليوم بشكل مثلث . ارتفع فيه ثلاث رايات إسلامية في رؤوس المثلث وقد أبرز محمد (ﷺ) عبقريته العسكرية في

---

(١) فالانج : كلمة إغريقية تعني كتيبة مشاة مؤلفة من عدة صفوف متتالية ومتراصة .

تنظيمه هذا المثلث واستحكام كل جندي في مكانه واستقباله العدو من غير استدباره . وقد حمل راية الضلع الأول علي بن أبي طالب ، ورايته بيضاء نُقش عليها عقاب . وحمل راية الضلع الثانية « مصعب بن عُمير »[1] أحد المهاجرين . وحمل راية الضلع الثالث أحد الأنصار[2] .

وبعد أن اطمأن النبي (ﷺ) إلى ترتيب جيشه خطب في المسلمين قائلاً لهم إن انتصرتم فزتم بالجنة . ومن قتل في سبيل الله فهو شهيد وجزاؤه النعيم . ومن دخلها فلا يريد العودة الى الدنيا ، إلا من كان يرغب في الشهادة مرة أخرى في سبيل الله ، لأنهم يعلمون السعادة التي يلقاها الشهداء في الجنة .

عندما دنت الشمس من المغيب بدا جيش مكة ، غير أن الطرفين لم يرغبا في الحرب لحلول الظلام . وفي أثناء الليل بدّل الرسول (ﷺ) مكان معسكره حتى لا تُسلط أشعة الشمس نحو أبصار المسلمين . وتدل هذه الابتكارات على مدى نبوغ فن محمد (ﷺ) الحربي . ونحن لا نعلم أين تعلم هذا الرجل العظيم فنون القتال . وقد طلب النبي (ﷺ) في تلك الليلة من المسلمين جميعاً أن يناموا عدا الحراس المناوبين . حتى إذا حلَّ الصباح أقبلوا على الحرب مستعدين . ودعا لهم أن تهدأ قلوبهم ويناموا هانئين . وبهذه المناسبة أنزل الله الآية الحادية عشرة من السورة الثامنة : « ﴿ إذ يُغشِّيكمُ النعاسَ أمَنةً منه ، وينزِّلُ عليكم منَ السماء ماءً ليطهِّركمْ بهِ ويُذهِبَ عنكمْ رِجزَ الشيطانِ وليربِطَ على قُلوبكُم ويثبِّتَ به الأقدامَ ﴾ .

ومع أن المسلمين كانوا في تلك الليلة بالقرب من أعدائهم فإن طائف النوم

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم القرشي ، من بني عبد الدار . صحابي شجاع ، من السابقين إلى الإسلام . أسلم في مكة وكتم إسلامه ، فعلم به أهله فأوثقوه وحبسوه ، فهرب وهاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة ومنها هاجر الى المدينة ، فكان أول من جمع الجمعة فيها ، وعرف فيها بالمقرىء . شهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد . وكان يلقب بـ « مصعب الخير » .

(٢) يذكر الطبري أن اسمه « سعد بن عبادة » .

حام حولهم ، وجعلهم في غفوتهم هانئين ، حتى إنهم لم يصحوا من الغيث الذي أغاثهم به الله . يقول الله في كتابه العزيز إنه أنزل على المسلمين أمطاراً كي يطهرهم تطهيراً ، ويثبت أقدامهم ، لا تزيغ عن أمكنتها ساعة الحرب . وذكر بعض المؤرخين أن معركة بدر جرت في صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان . ولو أن المعركة بدأت صباحاً للزم أن يَصلوا إلى ساحة المعركة قبل يوم على الأقل ، أي يوم الخميس ، ليناموا ليلتهم . ومهما يكن من أمر فإن الحرب لم تبدأ إلا صباح السبت في الثامن عشر .

يعجب المرء ، إذ كيف يتمكن جيش محمد (ﷺ) من مجابهة جيش مكة الذي يفوق عدده ضعفي عدد جيش المسلمين . ولا يمكننا أن نتصور جنود مكة جبناء حتى ينتصر المسلمون عليهم ويهزموهم . فهم أيضاً بداة ، والشجاعة تسري في عروقهم ، والسيوف قوية في أيديهم ، والهلع لا يصيبهم إذا نزلوا ساحة المعركة . فالطرفان عرب ، يتحلّيان بصفات واحدة تقريباً .

لم تكن الحرب آنئذ كحرب العصر الحاضر . ففي هذا العصر يتمكن الجيش الصغير من غلبة الجيش الكبير بقوته الحربية ، أو بقوة سلاحه وحداثته . أما أولئك ، فسلاح الطرفين متشابه ، ولكن بنية أجسام الجنود هي التي تختلف . لهذا فإن عدد الجنود مهم جداً . وكان قواد الجيوش يحاولون معرفة عدد جنود خصومهم ، فالعدد في الحروب القديمة مهم للنصر . كما أن محمداً (ﷺ) في هذه المعركة لم يكن أكثر عتاداً من جيش قريش . فلدى المشركين سبعمئة جمل ومئة جواد . في حين أن لجيش المسلمين سبعين جملاً وجوادين . لكن الذي لا شك فيه أن محمداً (ﷺ) كان يعتمد على الله في حربه ، ويعلم أنه سيعينه ويشد أزره وأزر المسلمين معه ، ولن يدع جيش المشركين يغلب سرية المسلمين . وكان كل مسلم في معركة بدر يؤمن بمثل إيمان محمد (ﷺ) ، وبأن الله لن يتركهم وحيدين في معركتهم . ومن استشهد منهم لقي الجنة من غير حساب .

فبالإضافة الى خطة رسول الله الناجحة ، كان هذا الايمان القوي عاملاً كبيراً على انتصار المسلمين الذي كان جديداً على الجزيرة في كل شيء . وفي صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان ، أو السبت الثامن عشر أيقن محمد أن نهاية الاسلام حتمية إن هم خسروا معركتهم هذه . فالاسلام حتى ذلك اليوم لمّا يقوَ عوده ، فكيف يتحمل ضربة خاسرة ؟

كان في الجزيرة عرف ؛ يقف قائد المعركة في مكان بارز ـ ينتخبه بنفسه ـ ليشرف به على حركة المعركة ، ويرسل أوامره منه إلى جنوده ، ويدعو العرب هذا المكان « العريش » . واتخذ محمد (ﷺ) قائد معركة بدر مكانه في تل قليل الأرتفاع . ومن هناك كان يراقب سير المعركة ، وينسق حركة الجهاد .

وبدأت المعركة مع شروق الشمس . شرعت حسب أعراف العرب بإنشاد لشعر الذي يرفع من مقام منشده ، ويضع من مكانة خصمه . ثم برز ثلاثة فرسان ن بين صفوف قريش ، ثم ترجلوا وسط ساحة الميدان . أحدهم « عتبة » وهو أبو وجة « أبي سفيان » ، والثاني « شيبة » أخو عتبة ، والثالث « الوليد » أخو وجة أبي سفيان[1] . وحين وصل الثلاثة إلى وسط الساحة شهروا سيوفهم ونادوا :

هل من مبارز ؟

فتقدم ثلاثة من الأنصار نحوهم ، وقالوا :

ـ نحن مستعدون لمبارزتكم .

فسأل المبارزون القرشيون المشركون :

ـ من أنتم ؟

فأجابوا :

---

(١) أي الوليد بن عتبة .

ـ رهط من الأنصار .

فقال المشركون الثلاثة :

ـ مالنا بكم من حاجة ، فليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا .

فنادى عمر بن الخطاب بصوت كهدير الرعد :

ـ المسلمون متساوون جميعاً ، ولا يفضّل واحد على واحد .

فقال الثلاثة :

ـ نحن لا نحارب إلا من رجال مكة ، فهم الذين نعرفهم .

فقال رسول الله (ﷺ) :

ـ قم يا عبيدة بن الحارث[1] ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي .

فتقدم الأبطال الثلاثة المسلمون . وحين دنوا منهم شرعوا ينشدون الشعر . والشعر يعرِّف بمنشده . وبعد ذلك تبدأ المبارزة . ونادى علي :

ـ أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب .

وأخذ ينشد قصيدة لامرىء القيس الكندي ، أحد أصحاب المعلقات السبع ، والذي يعتبره الفصحاء العرب جميعاً أكبر شعراء العصر الجاهلي . وبعد أن عرَّف الوليد أخو زوجة أبي سفيان بنفسه أنشد بضعة أبيات للحارث بن حلِّزة اليشكُري ، وهو أحد شعراء المعلقات أيضاً . ثم التحم الطرفان .

يختلف استخدام السيف ساعة المبارزة بين العرب والأوروبيين . فالأوروبيون يهتمون كثيراً برأس السيف وقت المبارزة ، في حين أن العرب يعتمدون على شفرته ، ونادراً ما يستخدمون رأس السيف . ولهذا يعتقد بعضهم

(١) هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام . أسلم قبل دخول محمد (ﷺ) دار الأرقم . شهد بدراً وقتل فيها سنة ٢ هـ .

أن العرب ليس عندهم قواعد للمبارزة ، في حين أن لهم أصولاً خاصة . وهم مثل اليونان والروم وسائر شعوب أوروبة ، يتمرنون كثيراً في أيام السلم ليسهل عليهم خوض الوغى ، واستخدام الترس في الحروب مهم جداً ، لأنه يقي ضربة السيف .

كان علي يجيد المبارزة بالسيف ، ويضرب بأسرع من ضربات خصمه الوليد . لذا لم تطل الحرب بينهما أكثر من دقائق ، إذ سرعان ما لقي الوليد ضربة قتلته من سيف علي. وقتل حمزة خصمه كذلك. أما عبيدة، فمع أنه جرح فإنه استطاع أن يقضي على خصمه . ودلّ نصر هؤلاء الثلاثة على تفاؤل حسن للمسلمين ، رفع من معنوياتهم .

وحينما رأى المشركون أن فرسانهم الثلاثة قتلوا رفعوا حرابهم وهلّلوا ، إشارة الى بدء المعركة . كان المهاجرون يعلمون أن من بين المسلمين من هم أبناؤهم أو إخوتهم أو أبناء إخوتهم أو أعمامهم ، ومع هذا فقد حملوا عليهم . ولم يمرّ ، في تاريخ الجزيرة ، يوم كان يحمل فيه الأب على ابنه ، والاخ وعمه على إبن أخيه ، أو العكس . فهم أقرباء ، ومن قبيلة واحدة . وفي العادة لا يحترب رجال القبيلة الواحدة ضد بعضهم بعضاً .

وإذ رأى محمد (ﷺ) المعركة محتدمة نزل عن عريشه ، مربض القيادة ، وتوسّط الفالانثر ، وشرع بتلاوة القرآن بصوت عال مؤثر . كان يقرأ الآيات التي تحث على الاستشهاد ، وعلى ما يجنيه الشهيد وقاتل المشرك من رضاء الله . وبعد أن انتهى محمد (ﷺ) من تلاوة القرآن صاح بالناس يحرّضهم :

ـ والذي نفس محمدٍ (ﷺ) بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مُقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة[1] .

---

(١) كما قال (ﷺ) : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض .

وصاح :

ـ يا أجدادي ، أين أنتم الآن ؟ ليتكم اليوم معنا ، تضربون بسيوفكم في سبيل الله وتقتلون ، إذاً لنقلكم الله من ساحة الحرب إلى جنته .

وهاجت نفوس المسلمين من أثر سماعهم آيات القرآن وكلام محمد (ﷺ) . فما كان من « عُمير[1] إلا أن صاح :

ـ بخْ . بخْ ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء .

وبرز من بين الفالانثر ، واتجه نحو صفوف المشركين ، فظلَّ يقاتلهم حتى اجتمعوا عليه وقتلوه . وصاح محمد (ﷺ) :

ـ لا تنسوا ما أوصيتكم به ، لا تخرجوا من صفوفكم لتضمنوا جنتكم . وإن انفصلتم عن صفوفكم فاق عليكم المشركون .

في حين أن قريشاً كانت تحارب ـ على عاداتها ـ فُرادى من غير نظام بين رجالها . وكان محمد (ﷺ) يحضُّ المسلمين قبل المعركة ، ويخبرهم أن الحرب ليست للمباهاةالشخصية، وإنما هي في سبيل الله. وهو سيرعاهم وينقلهم إلى جنته . ولهذا كان المسلمون يحافظون على صفوفهم ، فلم يستطع المشركون اختراق صفوفهم لمفاجأتهم من الخلف . وكان لكل صف من هذا المثلث علامة خاصة ، يعرفون بها بعضهم بعضاً . فيقال إن أحد الصفوف بألبسة صفراء ، والآخر بألبسة خضراء ، والثالث علق رجاله على رؤوسهم ريشاً ، ومن جملتهم حمزة ، حيث وضع على رأسه عدة ريش من ريش الطيور ، كانت ترفرف على رأسه أثناء المبارزة .

يروي أن محمداً حين لاحظ أن المشركين يشدِّدون على صف علي طلب منه أن

---

(١) هو عُمير بن الحُمام ، كان في يده تمرات حين قال : بخ بخ . فقذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

يعطيه حفنة من الرمل . فانحنى علي وغرف غَرفةً من الرمـل ، ووضعهـا في يد محمد ، فنثرها في وجه قريش ، وقال :

ـ شاهتِ الوجوه .

وبعد ذلك تقدم رجـال المسلمـين الى الأمـام من غـير أن يتـركوا صفوفهـم وترتيبهم . فتحرك الرجـال وكأنهـم ثلاث قلاع تتقـدَّم ، فتراجـع المشركـون . ولاحظ محمد أن عمه المرابي « عباس » بين صفوف قريش فأمر المسلمين أن يأتوا به أسيراً . ومع أن عباساً قدم مع رجـال قريش الى منطقـة بدر فإنـه لم يشتـرك في المعركة ، واكتفى بالوقوف في المؤخرة ، لثلاثة أسباب : أولها أنه كان صرافاً مرابياً لا يعبأ بالحرب ، وثانيها أنه لم يُـرد أن يحارب ابن أخيه ، وثالثها أن زوجته مسلمة ، وهي التي طلبت إليه ألا يحارب نبيَّ الاسلام .

وفيما كان أحد الرجال المسلمين يتقدم في حربه مع صفه رأى عباساً عم النبي وعرفه . ومع أن الرجل المسلم دقيق الحجم قصير القامة ، وعباساً ضخم الهيئة ، فإنه أمسك به وقاده الى رسول الله ، وعاد بسرعة إلى مكانه من الفالانثر ، وتابع حربه .

ومع أن أبا جهل ، قائد جيش قريش ، كان يحيط به عدد من المدافعين عنه ، إلا أن المسلمين استطاعوا أن يقتلوا حماته ويصلوا إليه . واستطاع أحد المسلمين ، وإسمه « معاذ بن عمرو »[1] ، أن يصيب أبا جهل في قدمة فجرحه فقعد . وتقدم عكرمة ابنه نحـو أبيه يدافع عنه ، فرمى سيفه تجاه معاذ ، فقطع يده اليمنى ،

---

(١) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي . كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي . أسلم وهو فتى . شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) . توفي سنة ١٨ هـ . ويروي الطبري (٢ / ٤٦٣) أن الذي أسره « أبو اليَسَر كعب بن عمرو » .

ولكنها ظلت معلقة بالجلد . فلم يبدُ عليه أي ألم ، بل شدَّها بيده اليسرى ، ورماها بعيداً[1] ، وقال :

- في سبيل الله .

وانحنى يرفع سلاحه ، ثم عاد الى مبارزته بيده اليسرى ، وما هي إلا لحظات حتى قَتل أحد المسلمين أبا جهل ، وانهارت معنويات المشركين إثر مقتل قائدهم أبي جهل . وقد هالهم أن يظفر هذا العدد القليل من المسلمين ، ويضع السيف في رقابهم من غير أن يتمكنوا من فك هذا الفالانثر الذي حافظ عليه المسلمون. عندئذ فكروا بالتقهقر، ولما لم يكن بينهم رئيس يجمعهم ، وليس عندهم عزم ليكروا ثانية ، فقد لاذوا بالفرار .. مخلِّفين وراءهم سبعين جثة مشركة منثورة بشكل أشلاء في ساحة الحرب . في حين أن قتلى المسلمين أربعة عشر شخصاً .

وانتهت المعركة بفوز ساحق للمسلمين ، وبرفع لمعنوياتهم ، بسبب هذا التنظيم الحربي من محمد ، وبسبب الايمان العميق الذي كان يربط المسلمين بالحرب والدفاع . وبعد انتهاء المعركة راح أحدهم يفتش بين القتلى . هذا الرجل المسلم يدعى « عتبة بن ربيعة »[2] .. ولما كان من المهاجرين ، أي من أهل مكة أصلاً فقد أراد أن يتفحصهم ليرى هل يعرف أمراً ؟ وفجأة توقف تجاه أحد القتلى ، فانحنى نحوه ينظر إلى الجثة ، ثم نهض وقد ارتسمت على سحنته علائم الأسى . ومرّ بعد قليل محمد (ﷺ) بذلك المكان ، فرأى عتبة حزيناً فقال له :

- لا تحزن ، لأن الله نصر المسلمين اليوم .

---

(١) يقول : فلما آذتني جعلتُ عليها رجلي ، ثم تمطَّيت بها حتى طرحتها (الطبري : ٢/ ٤٥٥) .

(٢) هو عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية البهراني حليف الأوس . شهد بدراً ، واختلف بعضهم في شهوده بدراً .

فأشار عتبة الى الجثة ، وقال :

- إنني حزين لأنها جثة أبي .

فخفف محمد (ﷺ) على عتبة ، فقال له عتبة :

- إنني حزين ، لأنني كنت أتمنى أن يأتي يوم يصحو فيه أبي من عبادة الأوثان ليدخل في الاسلام . وحين رأيت جثته حزنت لأنه قتل على الكفر .

لقد شُرحت معركة بدر في كتاب « أيام العرب » ، وما زالت حتى اليوم من مفاخر المسلمين . كما تعتبر أول نصر للمسلمين ، تذوقوا فيه حلاوة الفوز ، وأيقنوا أنهم بهذا الايمان العميق ، ومراعاة أو امر قائدهم يستطيعون الانتصار على الجيوش مهما كانت كبيرة . وشُغل المسلمون بقية نهارهم بدفن موتاهم ، ورمي جثث المشركين في القَليب[1] . وكان رسول الله (ﷺ) قد أمرهم بألا يمثلوا بالقتلى ، ولا يحتفظوا ببعض الأطراف للذكرى ، لأن الاحسان واجب للحي والميت على السواء . وفيما كان المسلمون يدفنون الشهداء طلب إليهم أن ينظموا القبور في صف واحد ، فسأله أحد المسلمين :

- أيتضايق الموتى إن لم يكن مظهر قبرهم حسناً ؟

فأجابه إن الموتى لا يتضايقون ، لكن النظر إلى القبر الخرب يبعث على الحزن والغم .

---

(١) القليب : البئر . وصاح رسول الله قرب البئر : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

الإحسان إلى الأسرى سبق براءة به رسول الله

بعد أن وارى المسلمون شهداءهم التفت رسول الله (ﷺ) إلى أسرى الحرب ، وعددهم سبعون من أهل قريش . كان العرف في الجزيرة أن يكون الأسير عبداً للجندي الذي أسره ، له أن يقتله ، أو أن يبيعه في سوق النخاسة ، أو يبقيه عبداً لديه . وحين يريدون قتل الأسير يربطون يديه إلى الخلف ، ويُجلسونه ، ثم يربطون قيده برمح حتى لا يهرب . وبعد ذلك يضربون رقبته بالسيف ضربة قاصمة ، فينفصل رأسه عن بدنه ، ويفور الدم من جسده . بعد أن انتهى المسلمون من دفن موتاهم سأل محمد (ﷺ) المسلمين عن أسراهم ، فقال عمر بثورة :

- يجب قطع رقابهم جميعاً .

وقال أبو عبيدة :

- بل يجب أن يُحرقوا أحياء .

لكن أبا بكر اقترح أن يستفاد من فدية القرشيين الأسرى . وقبل محمد باقتراح أبي بكر . وفي ذلك اليوم واليوم الذي تلاه صدر أمر عن رسول الله (ﷺ) خاص بأسرى الحرب ، وأعتقد أنه أول أمر في الدنيا يراعي أسرى الحرب ويُحسن إليهم . قبل أن يضع محمد (ﷺ) تعليماته بشأن الأسرى كان الآسرون أحراراً في مأسوريهم ، كما ذكرنا . والأسير في الجزيرة العربية ملك مطلق لصاحبه . فإن دفع أهله فديته أطلق ، وإلا بيع أو قتل أو استُعبد . لكن محمداً في أمر مراعاته

لأسرى الحرب قرر أن تكون الفدية متناسبة والشخصيات المأسورة . ولما كان أكثر أسرى قريش من الأسر الغنية فإنه قرر أن تكون فدية كل واحد منهم أربعة آلاف درهم . وبإمكان الأسر أن تفدي أبناءها بعدد من السيوف والرماح . كما أن الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة يُعفون من دفع الفدية النقدية أو الأسلحة إذا علَّم كل واحد منهم عشرة أطفال مسلمين ، القراءة والكتابة ، وبعد ذلك يُطلق سراحه .

أمر النبي (ﷺ) المسلمين أن يقدموا لأسراهم الغذاء واللباس اللازمين ، كما أمرهم ألا يؤذوهم ، لأن الله لا يقبل من المسلم تعذيب الأسرى . ونفذ المسلمون القانون الذي وضعه النبي (ﷺ) تنفيذاً كاملاً ، فقدموا للأسرى اللباس والطعام ، في حين أن بعضهم كان يحتاج إليهما أكثر من أسيره ، خشية أن يبقى الأسير عارياً أو جائعاً .

وحين تفشَّى إنتصار المسلمين في معركة بدر صمَّم القرشيون على حرب أخرى مع المسلمين . وأحد الذين عزموا على قتل محمد أبو سفيان ، ثأراً لأبنه ولأبي زوجته وأخيها. وقد أُسر له ابن آخر فاضطر إلى دفع أربعةآلاف درهم لتحريره. وأقسم أبو سفيان ألا يعاشر زوجته حتى يثأر لهم من محمد وسائر المسلمين . كانت زوجة أبي سفيان حاضرة ، فأقسمت هي الأخرى أنه إذا قُتل قاتل ابنها وأبيها وأخيها أخرجت كبده من أحشائه ومضغته . كما أقسمت أن تقطع آذان قاتليهم وآنافهم وألسنتهم ، وتعلقها طوقاً على رقبتها . ويوم زوال الاسلام ستنزل الى أحياء مكة ، وترقص والطوق على نحرها .

وبينما كان الغضب يشتعل في نفوس أهل مكة ضد المسلمين وصل نبأ يُعلمهم أن سكان المدينة مستعدون لتحرير أسراهم بدفع أربعة آلاف درهم عن كل واحد . وحتى يحرروا سبعين أسيراً عليهم أن يدفعوا مبلغ مئتين وثمانين ألف درهم . وقد عارض أشراف قريش في البدء ، ورفضوا افتداء رجالهم ، وقالوا :

ـ إن المسلمين فقراء ، فإن دفعنا لهم هذا المبلغ غدوا أثرياء ، فعلينا أن نتأرَّب[1] وألا نكون سبب ثرائهم. لكن الأسر المفجوعةاتصلت بأشراف قريش، ومن جملتهم أبو سفيان ، واسترحموهم ورجوهم أن يقبلوا دفع الفدية ، لينقذوا آباءهم وأزواجهم وإخوتهم وأولادهم . وأخيراً وافق الأشراف على دفع الفدية . وكان أحد هؤلاء الأسرى « أبا العاص » وهو ابن أخي خديجة زوجة النبي الأولى ، وزوج زينب بنت محمد . فأرادت زينب أن تحرر زوجها من يد المسلمين ، فجمعت ثلاثة آلاف درهم ، ولم يتيسَّر لها تأمين الألف الرابعة ، فما كان منها إلا أن وضعت مع المال قطعتين من الجواهر ، تعادل قيمتها ألف درهم ، وأرسلتها وقالت :

ـ أطلقوا بها زوجي أبا العاص .

حينما رأى محمد المال والجواهر ، عرف أن إحدى القطعتين قلادة كانت لزوجته خديجة ، قدَّمها إلى إبنته بعد وفاة أمها ، وحين وقع بصره عليها بكى . ولاحظ المسلمون المتحلقون حوله أن نبيهم يبكي فتأثروا . ومن لم يعرف السبب تساءل عن سبب بكائه . وقال له عمر بن الخطاب ذو المهابة والجهامة :

ـ لمَ تبكي يا محمد ؟ عندما تغرورق عيناك بالدموع تتقرَّح أفئدتنا .

فقال محمد (ﷺ) :

ـ كانت هذه القلادة لزوجتي خديجة ، وحين تزوجت إبنتي زينب أبا العاص أهدتها القلادة . وها هي ذي زينب ترسل القلادة مع ثلاثة آلاف درهم ، وقطعة أخرى من حليها لتحرر زوجها أبا العاص . فترامى الى خاطري صورة زوجتي وابنتي ، فأجهشتُ بالبكاء .

فخاطب عمر بن الخطاب المسلمين قائلاً :

---

(١) نتأرب : نتشدد ونتأبّى .

ـ أقترح أن يحرر زوج زينب من غير مال .

فقال نبي الاسلام :

ـ لا فرق بيني وبين الآخرين يا عمر حتى يحرر زوج إبنتي من غير مال . ما لم يتعهد أبو العاص طلاق إبنتي وبقاءَها عندي ، وتصبح مسلمة .

فرأى المسلمون ما رأى محمد (ﷺ) ، وقالوا :

ـ ليس من اللائق أن تكون ابنة النبي (ﷺ) زوجة رجل مشرك .

وكذلك حصل ؛ فبعد أن حُـرر أبو العاص وعاد إلى مكة أطلق زينب الى المدينة . ولكنها فجعت بحادثة غير متوقّـعة ، كما سنرى في الصفحات القادمة .

●

كان من بين أسرى بدر عباس عم النبي (ﷺ) ، وقد ذكرنا أن رجلاً قصيراً استطاع أن يأسره وهو الرجل الطويل الجسيم ، ويقوده إلى النبي (ﷺ) . وكان محمد (ﷺ) عطوفاً رحيماً ، يحب ذوي رحمه . كان يرى عمه أسيراً ولا يستـطيع عمل شيء له . وبعد انتهاء المعركة جاء دور الأسرى فقال العباس :

ـ إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهوني .

قال محمد (ﷺ) :

ـ اللهُ أعلمُ بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فاللهُ يجزيك به . وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، وليس الاسلامُ دين خفاء ، فافدِ نفسك . ثم إنك كنتَ في المعركة بين صفوف المشركين ، وها أنت ذا أسير فافدِ نفسك[1] .

قلنـا إن العبـاس رجـل مرابٍ وصرّاف ، لم ينس حرفتـه حتـى في هذه

---

(١) في الطبري : افد نفسك وابنيْ أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال .

اللحظة . فقد شرع بالمساومة ، حتى يُـنقص من قيمة الفدية ، لكنه حـين رأى النبي (ﷺ) غير مستعد لإنقاصها قال :

ـ أنا رجل فقير ، فقد فقدت كل مالي في صفقات تجارية خاسرة . وما دمتَ وافقتَ على تقديم بعض الأسلحة فدية عوضاً عن المال فإنني أقـدم بعض الأشياء المادية .

قال محمد (ﷺ) :

ـ سنتحقق من كلامك ، فإن كنتَ حقاً بلا مال قبلنا منك الأشياء المادية .

لكن العباس ، حين علم أن النبي (ﷺ) عازم على التأكد من كلامه وقدرته أبدي استعداده لدفع الفدية المتوجبة . وقبل أن يحرر كان ثوبه قد تمزق ، ولم يكن معه ثوب آخر ، فرأف أحد المسلمين واسمه « إبن أبي » ، لحاله ، وقدّم له ثوباً ، فانشرح قلب محمد (ﷺ) لهذا العمل النبيل ، ودعا بالخير لهذا الفتى .

وبعد مضي عدة سنوات على هذه الحادثة ، مات « أبي » وهـو من سكان مكة ، ومن أعداء النبي ، ولم يكن لدى « إبن أبي » كفن يلفُّـه به ، فقدم له النبي ثوباً من عنده ، فكان هذا رداً لجميل هذا الفتى الذي قام به نحو عمه العباس .

القصد من هذا الخبر أن محمداً (ﷺ) كان شديداً في إجراء أحكام الله ، كما كان لا ينسى الرحمة مطلقاً ، ويحب أقرباءه . وهـكذا فتحـت معـركة بدر بوابـة التوفيق للإسلام حتى غدا المسلمون فيما بعد أقوياء ، إستطاعـوا في حروبهـم أن يُـعدُّوا عشرة آلاف جواد للحرب ، في حين أنهم كانوا يملـكون جوادين فقـط يوم بدر . ومع هذا فقد حظيت هذه المعركة بشهرة كبيرة لدى المسلمين ، في حين أن غيرها لم يحرز هذه الشهرة . وقد ذكرنا قبلاً أن أبا لهب أمر ابنه أن يطلق رُقيَّـة حين شرع أبوها محمد (ﷺ) بنشر رسالته . ورقية تحب أباها ، وهو أيضاً يحبها . فهي التي ركضت نحو الكعبة لانقاذ أبيها من الموت يوم غطوا رأسـه بمعـدة الجمـل .

وصبرت رقية شهوراً بعد طلاقها ، ثم تزوجها عثمان بن عفان ، وكان عثمان غنياً . وبعد زواجه بها هاجرا الى الحبشة مع من هاجر من المسلمين .

يذكر المؤرخون المسلمون ـ ومن جملتهم أوثقهم وهو الطبري ـ أن رقية من أجمل نساء جزيرة العرب . وانتشر أمر جمالها في الحبشة . فكان الناس الأحباش يتوافدون على منزلها من أقصى البلاد ، ليشاهدوا تلك المرأة الجميلة . وبعد عودتها إلى مكة هاجرت الى المدينة مع من هاجر من المسلمين ، حتى جاءت معركة بدر . فوقعت رقية طريحة الفراش من مرض عضال . وحين أزمع المسلمون على الذهاب الى الحرب أمر الرسول (ﷺ) عثمان بالاشراف على المدينة وعلى زوجه رقية . وحين انتهت معركة بدر وعاد المسلمون إلى المدينة كانت رقية قد ازدادت سوءاً ، ثم فارقت الحياة . وتأثر محمد (ﷺ) بوفاة ابنته ، لأنه كان يحب أفراد أسرته كثيراً ، ولا يستطيع رؤية موتهم .

وبعيد وفاة رقية حلت بمحمد مصيبة أخرى ، وهي موت حفيده (أول حفيد له) ، وبسببه فارقت زينب الحياة الدنيا ، وإليكم شرح مجريات هذا الخبر :

ذكرنا أن النبي أطلق سراح أبي العاص صهره شريطة أن يذهب إلى مكة ويعيد زينب الى أبيها في المدينة . ذلك أن النبي (ﷺ) عندما هاجر الى المدينة هاجرت معه بناته الا زينب ، إبنته الثانية التي آثرت البقاء مع زوجها المشرك في مكة . واشترك أبو العاص في معركة بدر ، وأسر ثم أطلق سراحه . وحين وصل الى مكة ، ووفى بعهده، أرسل زينب الى المدينة . وحتى تصل بسلام رافقها أخوه « كنانة »[1] . وعلمت جماعة من قريش أن ابنة النبي (ﷺ) مهاجرة لتلحق بأبيها ، فلم تكد تخرج قافلتها من مكة حتى لحقها عدد من الفتيان برئاسة « هَبَّار[2] » فحمل على القافلة ليمنع زينب من الذهاب ، فتصدّى له كنانة ،

---

(١) هو كنانة بن الربيع . وقد أدركها المشركون وهي بذى طوى .

(٢) هبار بن الأسود أول من سبق إليها ، فروّعها بالرمح ، وهي في هودجها . فوقعت وطرحت ذا بطنها .

لكن زينب حين تركت مكة كانت حاملاً ، فسقطت عن جملها في أثناء هذه المصاولة فسقط جنينها ، وكان صبياً ، فمات . وكان هذا الطفل أول حفيد ذكر لمحمد . وبعد أن علم النبي (ﷺ) بالأمر ، وأن هباراً هو الذي حمل على زينب ، وكان السبب في سقوط الجنين ، أمر بأن يؤسر ويؤتى به اليه . وحين وصل هبار ـ فيما بعد ـ كانت زينب قد فارقت الحياة من أثر سقوط الجنين . وعلى هذا توفي للنبي (ﷺ) ابنتان ، فكُوي بنار الأسى . وبعد أن وصل هبار قال أحد المسلمين :

ـ يجب أن يُحرق حياً .

فقال النبي إن الله وحده هو الذي يختار النار للانسان ، فينقله إلى جهنم . وأنا لا أستطيع إصدار أمر بإحراق أحد . فاقترح آخرون قتله . لكن النبي (ﷺ) الرحيم صرف النظر عن فكرة القتل .

قبل أن تموت زينب جرت حادثة ، دلت على المكانة المرموقة للمرأة في صدر الاسلام . فقد كان أبو العاص يحب زوجته زينب ، وزينب تبادله هذا الحب . فقدم إلى المدينة سراً[1] . وحين وصل اليها أعلنت بصوت عال لأبيها وللمسلمين أنها أجارت زوجها السابق . وقد ذكرنا أن من حقوق العرب « الجوار » الذي يُمنح للغرباء ومن شمله هذا الحق صِينَ . وقد كان حق جوار النساء أكثر أهمية من حق جوار الرجال . وهذا يعني أن الجزيرة كانت تقدر المرأة تقديراً خاصاً ؛ فتُقبل حمايتها للغرباء ، ولا سيما إذا أمسك أحدهم بحبل خيمتها ، ولاذَ به ، حتى وإن كان الغريب مجرماً فارّاً .

عندما رأى المسلمون ابنة النبي (ﷺ) تجير أبا العاص ، اتجهت أبصارهم نحوه ليسمعوا منه ما يقول ، فقال لها :

---

(١) يروي الطبري أنه أسر مع قافلة فاستجار بها فأجارته بطلب ماله وأعلنت : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

أي بُـنية ، أكرمي مثواه ، ولا يَـخلُـصْ إليك ، فإنك لا تحلِّـين له .

وبعد حين أسلم أبو العاص ، وغـدا زوجَ زينـب من جديد ، ولـكن مع الأسف ، إذ سرعان ما توفيت زينب ، تاركة أباها يرزح بالآلام عليها .

ردفعل معركة بدر في مكة

ذكرنا في صفحات سابقة أن النبي (ﷺ) وضع دستوراً لسكان المدينة ، ومن مواده أن طائفة اليهود لا يجوز لهم الاتفاق مع خصوم الإسلام . لكن اليهود خالفوا هذه المادة . فذهب عدد من الشعراء اليهود إلى مكة يثيرون المشركين ضد محمد (ﷺ) والمسلمين ، وأحد هؤلاء وأشهرهم « كعب بن الأشرف »[1] . وقد أبدى هؤلاء الشعراء المدنيون غضبهم من محمد (ﷺ) وغيظهم من المسلمين . ولقيت هذه الأشعار صدًى لدى قبيلة قريش ، ولا سيما قول أحدهم :

« يجب ألا نبكي على القتلى ، بل علينا أن ننتقم لهم » .

وقصدهم من « القتلى » قتلى بدر . ونادوا في مكة بتحريم البكاء على قتيل أو قتيلة ، ومن بكاهم طُرد من قبيلته ومن مكة ، والطرد معناه الإعدام بل أسوأ منه . لذا جفت الدموع من مآقي الأمهات . وفي إحدى الليالي سمعت أم مفؤودة صوت نحيب من إمرأة باكية ، فعجبت الأم المنكوبة من صوت البكاء ، لأنها كانت تعلم أن البكاء محظور ، فخرجت من بيتها تتبع الصوت حتى دخلت منزلاً . فشاهدت امرأة عجوزاً تكفكف دمعها ، فسألتها :

- أسُمح بالبكاء يا أمُّ حتى أراك تبكين ؟

---

(١) كعب بن الأشرف الطائي ، شاعر جاهلي . كانت أمه من بني النضير ، فدان باليهودية . وكان سيداً في أخواله . يقيم في حصن له قرب المدينة ما زالت بقاياه إلى اليوم . أدرك الإسلام ولم يُسلم . أكثر من هجاء النبي (ﷺ) ومن تحريض القبائل عليه . أمر النبي بقتله فانطلق اليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه (الأعلام والطبري) .

فسألتها العجوز :

ـ وفيم سؤالك يا بنتي ؟

قالت المرأة التي دخلت منزل العجوز :

ـ أكاد أختنق لاحتباسي الدمع ، وقلبي مفعم بالأسى . وكم أتمنى أن أبكي على ولدي المقتول في معركة بدر ، لكنني أخشى أن أسيل الدموع ، ويبدو عليّ الأسى فيطردونني . وحين سمعت صوت بكائك قدمت لأسألك أمجاز لنا البكاء ؟ وإن كان ذلك فلأشاركك بكاءك وأنينك . فلم تجرؤ العجوز أن تقول لها إنها تبكي على ولدها ، بل قالت :

ـ أنا لا أبكي على ولدي لأنني لا آبهُ لموته ، لكنني فقدتُ جملاً فأحزنني فقده كثيراً . . فسالت دموعي هذه على جملي لا على ولدي .

تدل هذه الحادثة على أن سطوة قريش ومهابتهم حلّت سكان مكة جميعاً ، بحيث كانت النساء تتعلّل بفقدان جمل ليتمكّن من البكاء على موتاهنّ الأعزاء الذين قتلوا في معركة بدر . وبعد مقتل أبي جهل في معركة بدر تألفت هيئة ثلاثية من أشراف قريش ضد محمد (ﷺ) مؤلفة من : أبي لهب وأبي سفيان وصفوان بن أمية . وتعاهد الثلاثة على الخلاص من محمد (ﷺ) وإزالة الإسلام بأية طريقة كانت . لم يشترك أبو لهب في بدر ، في حين أن الواجب يحدوه لأن يشترك ، لكنه كان مريضاً آنئذ ، فاستأجر رجلاً يدعى « العاصي بن هشام »[1] ليحارب عوضاً عنه ، على أن يدفع له مبلغ أربعة آلاف درهم ، وكذلك حصل .

بعد أن إنكسر المشركون في بدر ، واضطروا الى دفع فدية أسراهم فكر أبو لهب بقتل محمد (ﷺ) . فراح يبحث عن قاتل يستأجره ، ليرسله الى المدينة لأداء

---

(١) العاض (العاصي) بن هشام بن الحارث ، أبو البَخْتري . من زعماء قريش في الجاهلية . كان ممن نقض الصحيفة ، واتفق مع آخرين على تمزيقها . ولم يُعرف عنه إيذاء للنبي (ﷺ) . نهى النبي عن قتله إلا أن المجذر بن ذياد البلوي قتله .

هذه المهمة . وقد كان قتله سهلاً في المدينة ، لأنه لم يكن يأبه أو يتخوف ، ولأنه لم يكن يغلق باب منزله ، وبامكان أي إنسان أن يدخل عليه . فيراه مشغولاً بخياطة حذائه أو حذاء أحد من أفراد أسرته ، أو برفو ثوبه ، أو منهمكاً في بعض أمور المنزل . وقد كان لمحمد غلام ، لكن الرسول عين له عملين فقط ، أحدهما : إيصال القادمين من خارج المدينة إلى محمد . والثاني : المحافظة على حذاء محمد (ﷺ) حينما يذهب الى المسجد ، ولكن ليس خوفاً من أن يسرقه أحد ، لعدم وجود سارقين بين المسلمين ، لأنهم حالما ينتهون من الصلاة يخرجون ، فقد يلبسون أحذية بعضهم بعضاً سرعة ، فإن اختلط الأمر على محمد (ﷺ) أمضى وقتاً بالبحث عنه . فحين يحفظ له غلامه حذاءه لا يقع بمثل هذا الإشكال ، وينتعل حذاءه بسرعة وينصرف .

ولما كانت حياة النبي (ﷺ) عادية جداً ، ولا تختلف كثيراً عن حياة سائر المسلمين ، فإن من أراد قتله في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار يستطيع تنفيذ ذلك . واستأجر أبو لهب رجلاً يدعى « عُمير بن وهْب » ، وقد أُسر ابنه في بدر[1] . فتصنع هذا الرجل الذهاب الى المدينة ليفتدي ابنه ، ويطلق سراحه . لكن أبا لهب وأبا سفيان وصفوان بن أمية يعلمون أنه يريد أن يذهب ليقتل محمداً (ﷺ) . وتعهد أبو لهب دفع مصاريف سفره ومصاريف زوجته وأولاده في مكة .

ودخل عمير المدينة ، وقصد محمداً (ﷺ) ، فأخبروه أنه في منزله الآن . فدخل المنزلَ فرآه يغسل ثوبه ، فرفع محمد (ﷺ) رأسه وسأله إذا كان يريد منه أمراً ، فقال عمير :

ـ أرى أنك مشغول يا محمد (ﷺ) بغسل ثوبك ، وهذا عمل غير طبيعي بالنسبة الى رجل يدّعي النبوة !

(١) عمير بن وهب الجمحي من شياطين قريش ، وكان ممن يؤذي الرسول (ﷺ) . جاء في الطبري أن الذي وعده هو صفوان ابن أمية فقال له : عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا . قال عمير : فاكتم عليّ شأني وشأنك ، قال : أفعل . ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسمّ .

فسأله محمد (ﷺ) :

ـ ولماذا هو غير عادي ؟

أجاب عمير :

ـ إن رجلاً يدعي النبوة لا يغسل ثيابه بنفسه ، ومثل هذا العمل يقوم به الغلمان والإماء .

فقال له محمد (ﷺ) :

ـ ليس عندي غلام ولا أمة ، وإنني أُنجز أعمالي الخاصة بنفسي ، وأطمئنك إلى أن النبي إن غسل ثوبه يظل نبياً ، ولا ينقص منه شيء .

ثم غيَّر النبي (ﷺ) موضوع الحديث فقال : أعلم أنك جئت لأمرٍ ما .

قال عمير :

ـ أجل يا محمد (ﷺ) ، لقد قدمتُ طالباً إطلاق سراح ولدي ، فكم عليَّ أن أدفع فدية له ؟

فقال رسول الله (ﷺ) :

ـ بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَليب من قريش ، ثم قلت: لولا دين علي وعيالي لخرجتُ حتى أقتل محمداً (ﷺ) . فتحمَّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلني له . والله عز وجل حائل بيني وبينك .

فشهر سيفه من بين ثيابه ورماه أرضاً وقال :

ـ هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، وليس مَن يعرف أنني جئت لأقتلك إلا ثلاثة أشخاص من أهل مكة . وإنني على يقين من أن هؤلاء الثلاثة لم يبوحوا بالسر لأحد . فوالله ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للاسلام ، وساقني هذا المساق .

كما يروى أن عميراً بعد أن أسلم قال :

ـ قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء . وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام .

فلحق عمير بمكة . وحين وصل إليها سمع بأن أبا لهب قد مات . أما كيف مات فإليك الخبر : ففي مكة ميدان يدعى « المربد » ، تتوقف عنده القوافل ، ويتعرّف السَّفر إلى بعضهم بعضاً ، ويتبادلون أطراف الحديث مما شاهدوا أو سمعوا . وذات مرة مرّ أبو لهب في ذلك الميدان ، فرأى أعراباً يتحادثون وقد علا صوت أحدهم ، فبلغ الآذان . فرنا أبو لهب ليصغي إلى ما يقول ذلك الأعرابي . ففهم أنه يتحدث عن معركة بدر ويقول : إن المسلمين انتصروا بعقيدتهم ، وبمشاركة خمسة آلاف نزلوا من السماء ، ولهذا خسرت قريش . ويتابع الأعرابي كلامه ، ولعله يقصد إلى الامعان في التأثير :

ـ لقد شاهدت الملائكة بعينيَّ تهبط من السماء ، بثياب متشابهة .

وازداد عجب المستمعين من كلام هذا الرجل ، وبانَ أنهم أُخذوا بكلامه . ولمح أبو لهب انفعال الجمهور ، فقال له :

ـ أنت تكذب ، لم ينزل من السماء ملائكة لمساعدة المسلمين في بدر .

فرد عليه ذلك الأعرابي :

ـ لقد رأيتهم يهبطون من السماء بألبسة متَّحدة الألوان ..

وأكد أبو لهب كذب إدعاء الرجل ، في حين أن بعض الحاضرين صدقوا كلامه ، حتى قال أحدهم :

ـ لو لم تهبط الملائكة لما غَلب ثلاثمئة نفر جيش قريش .

لكن عدة أخرى أخذت جانب أبي لهب ، واشتد الخصام بين الفريقين ،

فجُـرح أبو لهب جرحاً بليغاً ، فنقلوه الى منزله ومدّدوه . ولم تمضِ سبعة أيام حتى فارق الحياة من أثر جراحه .

يقول عيسى المؤرخ العربي إن أبا لهب ، بعد أن جرح أصيب بالطاعون . وهذا ما جعل أقرباءه يتهربون من جثته خشية العدوى ، ولهذا أيضاً دفنوه في مكان قصي عن مكة . ولكن منذ ذلك اليوم حتى الآن ، والمسلمون كلما مرّوا بقبره رموه بحجر ، لأنهم يعلمون أنه ألدُّ أعداء الإسلام .

وبعد أبي لهب تزعم الخلاف ضد الاسلام أبو سفيان وزوجه هند ، التـي أظهرت خصومتها نحو محمد (ﷺ) قبل زوجها . وتجهـز جيش مكي بعـد مضي عشرة أسابيع من بدر لتأديب المسلمين والاطاحة بهم . واتجه الجيش نحو المدينـة بإمرة أبي سفيان ، وهو أخو محمد (ﷺ) بالرضاع ، أي إنهما رضعا من مرضـع واحدة . كانت حرفته في الأصل التجارة ، لكنه كان شاعراً أيضـاً . وقـد خصّ شعره في هجاء النبي (ﷺ) .

خرج أبو سفيان من مكة بأربعمئة رجل في الشهر الحرام ، ودنوا من المدينة حيث حطوا رحالهم عند جبل اسمه « تَـيْـت » . وأخذ بعض الرجال معه واتجهوا نحو المدينة ، ليقابل اليهود الذين وعدوهم أنه إذا قامت قريش بحرب ضد المسلمين بادروا إلى مساعدتهم . وكان أبو سفيان مطمئناً إلى هذا الاتفـاق ، فنـزل في دار « سَـلاَّم بن مِـشْـكَم » ، أحد أشراف اليهود[1] فَـقَراهُ وسقاه وأحسـن وفادتـه . وقبيل إنصراف أبي سفيان قال لصاحب المنزل :

ـ لقد جئنا إلى المدينة لأننا واثقون من وعدكم لنا حـين نحمـل على محمـد (ﷺ) وصحبه .

فقال سلام :

---

(١) كان سيد النضير وصاحب كنزهم .

ـ نحن على عهدنا الذي قطعناه ، لكننا لم نتوقع أن تصلوا بهذه السرعة . فلسنا مستعدين الليلة ولا في الأيام الأخرى ، ما لم تمنحونا فرصة نستعد فيها .

كانت نية أبي سفيان أن يهاجم محمداً (ﷺ) والمسلمين في تلك الليلة ، لكن حملته خُذلت . وفيما كان عائداً من المدينة مرّ ببعض منازل العرب ، فأشعل النار فيها وقتل اثنين من الأعراب ، وغنم أغناماً منها أكياس من السَّويق[1] . وحين علم المسلمون بإغارته تبعوه . وحتى ينجو بنفسه رمى بأكياس السويق على الأرض وهرب . ولهذا سُجلت هذه الحادثة في تاريخ الجزيرة العربية بعنوان « غزوة السَّويق » .

وإثر هذه الغزوة عاد المسلمون إلى إغارتهم على قوافل مكة التي تعبر قرب المدينة . ووصل في أحد الأيام خبر عودة قافلة مكة برئاسة أبي سفيان وصفوان بن أمية من خيبر حاملة أواني من الفضة . وخيبر مدينة واقعة في شمال المدينة ، يسكنها اليهود ، وأغلبهم من الصاغة ، يحضرون الأواني الفضية ، ويصوغون أدوات الزينة والحلي الذهبية . لم يكن هؤلاء اليهود يبيعون هذه الأشياء فقط ، بل كانوا يؤجرونها لبعض الأشراف في حفلات الأعراس أو في الاحتفالات المهيبة . وقد استأجر أحد أشراف مكة قبل هجرة النبي (ﷺ) بسنوات عدداً من هذه الأواني والحلي منهم لاقامة حفل كبير ، لكن قسماً من هذه الأشياء فُقد ، ولعله سرق . فطالب اليهودُ بثمنها ، وأخذوا عشرة آلاف دينار ذهباً . ولم يعد اليهود بعد تلك الحادثة يؤجرون هذه الأواني والحلي إلى سكان مدن أخرى ، ما لم يؤمِّنوا ثمنها قبل تسليمها حتى لا يضيع شيء من حقهم .

وأقدم مئة مسلم بقيادة « زيد بن حارثة » على ملاحقة تلك القافلة . ودنا

---

(١) طحين الحنطة والشعير .

المسلمون من نبع ماء إسمه « القَرْدَة » ، والواقع على طرف من نجد[1] ، وهاجموا قافلة مكة فجأة . فغنم المسلمون كل ما كانوا يحملون ، وكان مئة ألف درهم ثمناً لتلك الأدوات . وهذه أول قافلة مكية تقع في قبضة المسلمين . وهكذا عوَّض المسلمون عن غزوة السويق . فازداد غضب المشركين في مكة من هجمة المسلمين ، مما حثَّهم على الاسراع في حملتهم القادمة .

---

(١) قال أبو سفيان وصفوان : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا . ثم استأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له فرات بن حيان يدلهم على الطريق النجدية . فظفر زيد بالعير وأعجزه الرجال . وهذه الحادثة أسماها الطبري « غزوة القَردة » .

طرد عدد من يهود المدينة

وبينما كان سكان مكة يستعدون لحرب كبيرة ضد المسلمين كان عدد من الشعراء المشركين في المدينة ينشدون الشعر في هجاء خصومهم المسلمين . ولقد ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن البيان ذو أهمية كبيرة في الجزيرة ، ولا سيما الشعر . فقد كان جرحه في المجالات السياسية والهجاء القبلي أعمق من ضربة السيف أو طعنة الرمح . وقد أنشد كعب بن الأشرف من شعراء المدينة قصائده الهجائية في المسلمين . ثم ذهب إلى مكة ، وأقام فيها عدة شهور يلهب حماس سكانها ضد محمد(ﷺ) والمسلمين ، ثم عاد إلى المدينة ، وهناك شرع ينشد تلك الأشعار في ساحات المدينة بإيقاع خاص .

ومن شعراء المدينة المناوئين للإسلام امرأة تدعى « أسماء بنت مروان » ، من جميلات بلدتها . كانت تهاجم بشعرها محمداً (ﷺ) وجبريل والمسلمين . فتضايق المسلمون منها كثيراً . كما تأثر محمد من شعرها القاسي ، لكنه رجل حليم وصبور ، وقد ذكر الله تعالى في سورة « العصر » ذات الرقم (١٠٣) ذلك فقال : « **والعصرِ ، إنَّ الإنسانَ لَفي خُسر ، إلا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصَّبْر** » وقد كرر القرآن حديثه عن الصبر والحلم . وكان الله في كل مرة يوصي الناس بهما . لكن المسلمين لم يستطيعوا أن يتحملوا تحمل نبيهم ، ولا سيما الهجاء الذي يؤلم الأسماع في الطعن برسولهم (ﷺ) ودينهم . إنهم يتحملون الكلام العادي لكنهم لا يتحملون الشعر . وفي إحدى الليالي قصد رجل مسلم أعمى منزل أسماء ، وغرز خنجره في صدرها حتى قتلها . وعجب الناس في

صبيحة اليوم التالي عندما علموا أن تلك الشاعرة الهاجية قُتلت بيد رجل أعمى ، فهم لم يفهموا كيف دخل المنزل ، ووصل إليها ، وقتلها . ثم اتضح أن ذلك الرجل من أقربائها ، كان يزورها منذ سنوات . فتعرف إلى كل مكان في منزلها ، وعرف أين تنام . وانتشر خبر مقتلها في المدينة حتى وصل الخبر إلى محمد (ﷺ) وهو في المسجد ، فطلبه وسأله محمد (ﷺ) :

ـ أأنت قتلت المرأة ؟

فأجاب الأعمى :

ـ أجل يا رسول الله (ﷺ) ، لقد قتلتها مساء أمس ، ولستُ آسفاً مطلقاً . وأنا واثق أن قتلها عندي لا يساوي مناطحة تيسين إلى بعضهما بعضاً .

لكن النبي (ﷺ) تأثر كثيراً ، لأنه يتضايق من قتل النفس . لكنه لم يستطع أن يجازي قاتلها ، لأن دستور المدينة يجعل لكل قبيلة استقلالها . فإن كان القاتل والمقتول من قبيلة واحدة فلا يحق لقبيلة أخرى أن تحاكم القاتل وتقتله . ويترك أمر الحكم عليه إلى أفراد الأسرة ، لأن كل أفراد القبيلة أعضاء أسرة كبيرة واحدة .

وبعد ذلك قُتل كعب بن الأشرف بيد أحد المسلمين أيضاً . وكان القاتل والمقتول أيضاً من قبيلة واحدة ، لذا لم يستطع معاقبة القاتل . وبرز شاعر آخر في المدينة اسمه « أبو عفك ، وهو أيضاً كان يلمز الرسول (ﷺ) والمسلمين . فقتله أحد المسلمين من قبيلته أيضاً . وهكذا قتل ثلاثة شعراء هجائين ، الواحد تلو الآخر بيد المسلمين من غير أن يعاقبهم رسول الله (ﷺ) .

واستمر الهجاء ضد المسلمين ، ولكن من قبل يهود المدينة . فطالب محمد (ﷺ) اليهود أن يكفوا أذاهم عن المسلمين وقال لهم : إنكم حسب دستور المدينة تعهدتم أن تَحيوا مع المسلمين بصداقة ، وألا تتحدوا مع خصومنا . وذهب محمد (ﷺ) إلى منزل رئيس طائفة الصاغة من اليهود لتوثيق عرى الصداقة معهم . وكنا

ذكرنا أن اليهود ثلاث طوائف كبيرة ، ولكل طائفة حرفتها وهـم : المزارعـون ، الصاغة ، الدباغة . وكان رئيس الصاغة على اطلاع بقدوم جيش كبير مؤلف من عدة آلاف من المشركين ، للإحاطة بالمسلمين ، لذلك استقبل محمداً ببرود وعدم اهتمام . فهو من الذين عاهدوا قريشاً على مساعدتهم ضد المسلمين . ولا حاجة للتفصيل في هذا الموضوع . وتجدر الإشارة إلى أنهم بهذا العمل نقضوا العهد الذي عقدوه مع الرسول (ﷺ) .

بعد أن دخل محمد (ﷺ) منزل رئيس طائفة الصاغة وجلس ، تحدث أولاً عن دستور المدينة ، وقال إن احترامه واجب على المسلمين واليهود جميعاً ، ولا يمكن لأحد الطرفين أن يُخلَّ ببندٍ منه . ثم تحوَّل الحديث إلى بعض أمور اليهود والمسلمين ، ثم تطرق إلى مسألة الشعر الهجائي الذي يؤلم المسلمين ، ويصبرون عليه ، ظناً من اليهود أن المسلمين يخافونهم ، في حين أن الحقيقة غير ذلك . فهم أثبتوا شجاعة نادرة في معركتهم الأخيرة ، ولا يريدون أن يقابلوا اليهود بأقسى مما يسمعون منهم ، فعليهم أن يُحجموا عن إيذائهم ، ويطبقوا دستور المدينة .

وبدأ رئيس الطائفة يخاطب محمداً (ﷺ) بكنيته « أبي القاسم » ، إظهاراً منه الإهمال وقلة الاعتناء . وقال له : ـ يا أبا القاسم ، إنك ترى أنّا كقومك ! لا يغرَّنَّك أنك لقيتَ قوماً لا علْم لهم بالحرب ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنّا نحن الناس .

فقال له محمد (ﷺ) : نحن لا نريد أن نحاربكم بل أن نصادقكم ، لكنني أحسُّ بقدوم جيش كبير نحو المدينة ، فإن كنتم لا ترغبون في مشاركتنا الحرب ، فبإمكانكم أن تبقوا محايدين .

لقد كان اليهود متشوقين إلى قدوم جيش مكة ، حتى إن رئيس الصاغة لم يقبل أن يعلن حياده بشكل صريح ، بل قال :

ـ إن هذا الأمر موكول إلى مدى معاملة المسلمين ، فإن كانت معاملتهم مرضية بعد قدوم جيش مكة أعلنَّا حيادنا .

ومع ذلك تغافلوا عن الشعر الهجائي ، إظهاراً لحسن نيتهم ، ولم يجيبوهم لأنهم يعلمون أن اليهود إذا خاصموهم وقدم جيش مكة وقعوا بين سيفين ؛ جيش مكة من الخارج ، واليهود من الداخل . وبينما كان المسلمون يراعون اليهود مرت فتاة مسلمة من حي الصاغة اليهودي ، فتعرض لها فتيان يهود أسمعوها غليظ القول ، ولم يكتفوا بل حاولوا أن يشدوا ثوبها ، ويكشفوا عما تحته . وبينما هم على هذه الحالة خرج صائغ يهودي من دكانه ، وربط ثوبها بخيط سراً ، وحين أرادت الفتاة الهرب منهم تمزق ثوبها ، وانفصل عن جسدها ، فبدت عارية .

ومر من ذلك المكان رجل مسلم ، فدنا من ذلك الصائغ ولكمه وضربه على رأسه . فحمل الفتيان اليهود على ذلك الرجل المسلم حماية لصديقهم ، فأوسعوه ضرباً حتى فارق الحياة بين أيديهم . فطالب المسلمون اليهود بدفع الدية ، ولكنهم رفضوا أداءها . وكانت العرب إذا رفضت قبيلة القاتل أداء الدية وجب عليها الاستعداد للحرب . وهكذا صمم المسلمون على محاربة الصاغة . ولما كان عدد اليهود كثيراً ـ ويبلغ عددهم سبعمئة ـ ومنازلهم تشبه القلاع الحجرية فلم يخافوا المسلمين . ثم إنهم كانوا يتوقعون قدوم جيش مكة الكبير بأمرة أبي سفيان في غضون أيام قلائل .

وهكذا حاصر المسلمون حي الصاغة مدة أسبوعين ، من غير أن يقتل واحد من الطرفين . وبعد مضي أسبوعين ترامى إليهم أن جيش المشركين لـمّا يخرج من مكة . ولما كان الصاغة في مضيقة من أمرهم في حصارهم قرروا التسليم . ومع ذلك فإن محمداً (ﷺ) اتبع معهم طريق المدينة . فلم يأخذ منهم غير السلاح . وخيَّرهم بين الإسلام والرحيل عن المدينة ، ومن أراد الرحيل حمل معه ما يستطيع عدا الأرض لأنها ملكٌ لله .

ورحلوا ، حاملين معهم كل ما يملكون حتى الأبواب والنوافذ . وبعد أن وصلوا إلى ظاهر المدينة انقسموا قسمين ؛ قسماً اتجه نحو الجنوب إلى مكة ليلتحق بجيشها ، ويساعدها على حرب المسلمين ، وقسماً راح يبحث عن بعض المناطق التي يعيش فيها اليهود في الجزيرة ليسكنوا معهم .

ومع أن خروج الصاغة من المدينة قلَّل من عدد أعداء المسلمين فيها ، فإن عدد اليهود مازال كثيراً فيها . ولقد تأذى المشركون في مكة بخروج اليهود من المدينة ، لأنهم فقدوا سبعمئة محارب ، يعينونهم على الصمود إلى جانبهم يوم الهجوم على المسلمين .

معركة أحد وشجاعة أبطال الإسلام

ذكرنا أن أبا سفيان قدم المدينة بأربعمئة رجل ، على أمل مساعدة اليهود ، لمحاربة محمد (ﷺ) والمسلمين . لكن اليهود تخوفوا خوض الحرب ضد محمد (ﷺ) . ولدى عودة أبي سفيان نهب منازل المسلمين ، وقتل شخصين وهرب . ولما تعقَّبوه رمى أكياس السَّويق عن البعير ، ليسهل عليه الهرب . وأعدّ أبو سفيان فيما بعد جيشاً كبيراً في شهر آذار من عام ٦٢٥ الموافق لشهر شوال سنة ٣ هـ . أقبل إلى المدينة ومعه ثلاثة آلاف محارب ؛ سبعمئة منهم مدرّعون ، وكان صفوان بن أمية رئيس هذه الفرقة .

وحين نقول إن سبعمئة مدرعون ، لا يذهب فكرنا إلى أنهم يرتدون الحديد ، كما يرتديه رجال المناطق الباردة ، لأن لبس الحديد في الصحراء العربية غير محتمل ، وإن ارتداه أحدهم قبل أن يدخل الحرب قتلته حرارة الشمس . إنهم يضعون الدروع على صدورهم لصد ضربات السيف والرمح ، ولهذا يسمَّون بالمدرَّعين .

ومئتان منهم كانوا فرساناً ، وهم الفرقة السريعة في الجيش . وقائد الفرسان هو خالد بن الوليد ، أحد المحاربين المشهورين في الجزيرة ، بل في العالم كله . وقد شهد المؤرخون بشجاعته ، وبسرعة انتقاله في ميدان الحرب ، وبمعرفة مواطن ضعف الخصم في كل حروبه . كان في حروبه رابط الجأش ، ويستقبل سيل النبال بهدوء وروية ، حتى لتظن ذلك الشجاع جالساً في بيته ، مشغولاً بطعامه وشرابه . وإن نزل ساحة الوغى رأيته متَّقد الذكاء ، ينتقل بلمح البصر من مكان إلى آخر .

وازدادت براعته الحربية بعد إسلامه حتى عُـدَّ « سيف الله » . . . وجاء في شوال ليحارب النبي (ﷺ) .

ومن قواد جيش قريش « عكرمة بن أبي جهل » ، الذي كان يحقد على محمد (ﷺ) حقد أبيه عليه . واشتركت هند زوجة أبي سفيان في هذه الحملة ، لتؤدي نذرها الذي قطعته على نفسها ، لتجمع آذان المسلمين وآنافهم بيدها ، وتجعلها عقداً على رقبتها . وكان في جيش قريش امرأة أخرى ، يعتبر عدم ذكرها تقصيراً منا . هذه المرأة هي « عَـمْرة بنت علقمة »[1] ، وعمرها في ذلك التاريخ خمس وثلاثون سنة أو أربعون . كانت ذات قامة ممشوقة وضخمة ، وجميلة . وما قامت به في معركة أحد أمر يدعو إلى الاستماع . ووصل هذا الجيش يوم الأربعاء في ٢٠ آذار من عام ٦٢٥ ويعادل ١٢ شوال من سنة ٣ هـ ، وحط رحاله في القسم الشمالي من المدينة .

من الواضح أن مكة تقع في جنوبي المدينة ، ولهذا كان المسلمون يعترضون قوافل المشركين القادمة من الشام . لذا فإن الجيش القادم من مكة إلى المدينة يجب أن يصل إلى جنوبها . ولكن جيش قريش حين دنا من المدينة تابع مسيرته نحو الشمال ، لأن الجمال كانت تتعثر في سهول المدينة الجنوبية لكثرة ما فيها من حصى بركاني قاس ، يصعب على الجمال التنقل عليها ، وقد تغرز في مياسمها . وهذا ما حدا بأبي سفيان لأن يعسكر شمالاً قرب جبل أحد .

كان محمد(ﷺ) في مسجد قُبا حين وصل جيش مكة. فمن عادته أن يذهب إليه مرة في الأسبوع ، يصلي فيه ، ثم يحادث المسلمين في أمورهم . كان ذلك يوم الأربعاء (وبرواية أخرى يوم الخميس) . ولم يعجب لخبر وصول الجيش لأنه كان يتوقعه . ولكن حين حط جيش مكة في أحد ترك بعيره ودوابه ترعى في المزارع

١ ـ هي إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة .

القريبة ، إثارة للبدء بالحرب . وأدرك سكان المدينة قصدهم . وتشاور محمد (ﷺ) في ذلك اليوم والليلة بعدها مع رؤساء قبائل المدينة عما يجب أن يفعلوه . فقد كان يريد أن يطمئن : أيبقى داخل المدينة آمناً حين الشروع بالحرب ؟ فقد كان يتوقع أن يستغل المنافقون وأصحاب الأديان الأخرى بدء المعركة ليحملوا عليهم من الداخل . لذلك كان يحاول أن يطمئن . ووعده اليهود أنهم لن يحملوا عليه ، وقبل النبي (ﷺ) من اليهود هذا الوعد . وبعد ذلك اتجه نحو تنظيم المعركة مع رؤساء القبائل . وقال عبد الله بن أبي :

ـ يا رسول الله أقم بالمدينة ، ولا تخرجْ إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطّ إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

كان محمد (ﷺ) يعلم هذا ، لكن هذه الطريقة تتطلب استعداداً للطعام والماء . ولم يوافق على رأي عبدالله لأنه يشك بالمنافقين أصلاً ، ولا يثق بهم . فلعل عبدالله يهدف إلى خدعة ما ، ويساعد المشركين على فتح المدينة . واتجه النبي (ﷺ) بعد ذلك إلى أخذ رأي صحبه ، فقالوا له :

ـ يا رسول الله أُخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونَ أنَّا جَبنَّا عنهم وضعفنا . ونستطيع أن نتحرك في الصحراء كما تطلب منا .

ووافق محمد (ﷺ) على رأيهم . فلم يكن من عادته أن يستبدَّ برأيه ، بل يأخذ اراء المسلمين جميعاً عن طريق المشورة قبل أن يقرر على الفكرة التي تجول في خاطره . . وبعد أن يستمع إلى الآراء يعزم ويحزم . وحين رأى عبد الله بن أبي تصميم محمد (ﷺ) على الحرب خارج المدينة عاد إليه يجادله ، ويحثُّه على تغيير خطته ، ويبقى في المدينة يحارب من خلف المنازل ، فقال له :

ـ لا ينبغي لنبي أن يلبس لأَمتَـهُ فيضعها حتى يقاتل . وأنتم أبعـدكم الله أعداء الله ، فسيفني الله عنكم .

يتألف جيش المشركين من ثلاثة آلاف محارب ، وجيش المسلمـين من ألف محارب ، انسحب منه ثلاثمئة ـ كما سنذكر بعدُ ـ فلم يبق تحت رايته غير سبعمئة . ولم يكن في جيش المسلمين غير جوادين ، وعدد الدروع قليل جداً . ومع ذلك استعد محمد (ﷺ) لمجابهة جيش مكة . كما لم يكن عتاد المسلمين كافياً لأنهم لم يكونوا أغنياء قادرين . وفيما كان محمد (ﷺ) يستعرض رجاله أخبرهم أن اليهود الموجودين في جيشه ليس بعيداً أن ينفضُّوا عن جيش المسلمـين ليلتحقـوا بجيش مكة ، فهم حملوا السلاح بناء على الدستور، وانضووا تحت لواء الإسلام للحرب . ومع أن محمداً (ﷺ) كان يعتقد هذا الاعتقاد فإنه لم يجابههم به .

وسار جيش محمد (ﷺ) في اليوم الثاني متجهاً نحو الشِّعب من جبل أحد في عدوة الوادي من الناحية الشرقية ، في حـين أن جيش قريش نزلوا منزلهم في الطرف الغربي منه . وفي صباح يوم السبت الخامس عشر من شوال انسحب عبدالله بـن أبي رأس المنافقين مع كل رجاله تاركاً المسلمين واليهود وحدهـم . وأثبت انسحابهم ذلك اليوم صحة سوء ظن النبي (ﷺ) بهـم . ومـا يجـب أن نذكره أن المنافقـين تراجعوا من أمكنتهم في حين أن اليهود ثبتوا في مكانهم مع المسلمين ، وكان المتوقع انسحابهم . وقال محمد لليهود :

ـ إن دستور المدينة ، وإن حدَّد مشاركة الطرفين في الحرب عندمـا تهاجَـم المدينة فإن هذه الحرب خاصة بنا ـ نحن المسلمين ـ ضد عبدة الأوثان ، فهـم لا يريدون أن يحاربوكم . إن هذه المعركة ذات طابع دينـي ، لا تدخـل في أسـاس دستور المدينة . وبإمكانكم أن تنسحبوا ، وتدافعوا عن المدينة . أنتم أصحـاب دين يهـودي ، ولا يُعقـل أن تحمـوا ديننـا ضد المشركين . كما أن اليوم هو « السبت » ، يوم راحتكم ، ولا تستطيعون أن تحاربوا فيه . فالأفضل أن تعودوا

إلى منازلكم ، وتتركونا نحارب المشركين بأنفسنا ، وليفعل الله ما يريد .

عندما سمع اليهود هذا الكلام من محمد انسلوا من الجيش وعادوا إلى منازلهم ، ولم يبق غير سبعمئة رجل مسلم . ولقد كان استعداد المسلمين تجاه خصمهم أسوأ من استعدادهم تجاهه في معركة بدر . لأن عدد جنود مكة يتجاوز أربعة أضعاف جيش المسلمين. وقبل البدء بالمعركة وقف محمد (ﷺ) صباحاً ، وهو يلبس الدرع والبيضة ، يخطب في المسلمين قائلاً :

ـ إن خطتنا الحربية اليوم هي خطتنا في يوم بدر تماماً ، فعليكم أن تشكلوا الصفوف المتكاملة المتراصّة ، حتى لا يجد الخصم فرصة لشق الصفوف ومحاربتكم من الخلف . علينا اليوم أن نقدر قوة خصمنا ، ففيه الآن جيش من الفرسان ؛ متنا فارس بقيادة خالد بن الوليد ، وبإمكان هؤلاء الفرسان أن يبدّدوا صفوفنا . عندما تتشكل صفوفنا المتراصة بشكل مربع أو دائرة تَثبت تجاه أية حملة من المشاة ، أما إذا كانت الحملة من الفرسان فإن صفوفنا تقع في خطر . وقد نستطيع أن نصدَّ صف الفرسان الأول ، ولكننا أيقنّا بأننا سنفاجأ بسيل من الخيل والفرسان يلاحقوننا من الصف الأول ، وسيشتت شملنا حتماً . ومن الواضح أن سرعة حركة الخيل لن تسمح لنا بإعادة تنظيم صفوفنا كما كانت .

وبعد ذلك أشار محمد (ﷺ) بإصبعه نحو الجنوب وتابع :

ـ إن أراد خالد بن الوليد مهاجمتنا فسيأتينا من هذه الناحية ، لأن هذا السهل يسهل حركة جياده .

الموقع الذي أشار إليه محمد كان شِعباً في جبل أحد ، تكثر فيه الحقول ، وإن عبر هذه الحقول أحد نحو الجنوب وصل إلى المدينة . وفي ذلك الشعب تلة قليلة الارتفاع ، تدعى « عَيْنَين »[1] . فقسم محمد (ﷺ) الرماة من المشاة إلى قسمين

---

١ ـ عينان : هضبة جبل أحد بالمدينة . ويقال : جبلان عند أحد ، ويقال ليوم أحد يوم عينين .

برئاسة « عبدالله بن جُبير » ، حيث أمره بأن يتخذ مكانه على تلك التلة . وعدد هاتين الفرقتين خمسون نفراً على رأي بعض المؤرخين ، ومئة نفر على رأي آخرين . وأعتقد أن عددهم مئة ؛ كل فرقة خمسون .

وهضبة عينين ذات أهمية كبيرة من الناحية الحربية ، ونبوغ محمد العسكري هو الذي لفت نظره إليها ، وأيقن أنها ستكون حائلاً دون إقدام خالد ، وبالتالي تمنع تراجع المسلمين . وهكذا تمركز الرماة على تلك الهضبة . والمنطقة التي ثبت فيها المسلمون عدوة أشبه بمنحدر داخل الجبل ، لا تسمح لأي جندي الوصول إليهم من أطراف أخرى ، ما لم يأت من الجنوب ، ويصعد تلة عينين . وقبل أن يصعد عبدالله وكماته التل قال له محمد (ﷺ) :

ـ انضح عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا . فاثبت مكانك لا تُؤتينَّ من قبلك .

صعد عبد الله ، وبقي بين يدي محمد (ﷺ) ستمئة محارب ، وبرواية أخرى ستمئة وخمسون . فنظم منهم عدة أشكال حربية على طريقة معركة بدر ، وسلم الراية الأولى علياً ابن عمه . ولم أستطع معرفة عدد قسم آخر من الجنود ، لعدم ذكر عددهم في كتب التاريخ ؛ كانوا تحت قيادة الزبير بن العوام ، وواجبهم نجدة الصفوف ورفدها . وقال محمد (ﷺ) للزبير :

ـ إن رأيت مجموعة مّا في ضائقة فأقدم لنجدتها .

وظل محمد (ﷺ) حتى آخر لحظة من بدء المعركة يوصي المسلمين بعدم الحرب الإفرادية ، وعدم ترك الصفوف ، لأن الخصم أقوى منهم ، والحرب الفردية تفنيهم . وكانت هند زوج أبي سفيان مع عدد آخر من نساء قريش قبل بدء الحرب يضربن الدفوف ، وينشدن الأشعار لإلهاب حماس رجال قريش ، وينشدن :

نحنُ بنـاتُ طـارقْ إنْ تُـقبلـوا نُـعانـقْ
ونَـبسُـطُ الـنَّمـارقْ أو تُـدْبـروا نُـفـارقْ
فـراقَ غـيرِ وامِـقْ[1]

وأعلنـت هنـد زوج أبـي سفيان لغلمانهـا وعبيدهـا أنهـا ستعتـق من يقتـل محمداً (ﷺ) ، أوحمزة ، أو أبا بكر ، أو عمر ، أو علياً . وذكرنا أن المسلمين لم يكن لديهـم غـير جوادين ؛ امتطـى « أنس »[2] أحـدهما . وفيما كانـت صفـوف المسلمين تتقدم نحو جيش مكة ذبَّ فرس أنس بذيله[3] ، فأصاب كَـلاَّب سيفه ، فاستلَّ قسماً منه . وقد دلَّت هذه الحادثة على نصر المسلمـين في الحـرب ، لأنهـم تفاءلوا من انسلال سيف أنس .

وقبيل دنـوِّ صفوف المسلمين من نقطة الالتقاء أكَّـد رسول الله (ﷺ) أهمية تراصِّ الصفوف وعدم مغادرة الرجال أمكنتهم ، وأن انضباطهم ومحافظتهـم على الصفوف سيؤديان بهم إلى النصر الحتمي بإذن الله . ومـع أن قوة المشركين تفـوق أربع أضعاف قوة المسلمين ، فإن بشائر النصر واكبتهم منذ الوهلة الأولى . فقد فوجىء جيش قريش بسيوف المسلمين تنزل عليهم من كل جانب ، وبالنبال تتقاطر من كل حَـدَب تحصدهم حصداً ، حتى بدا من المستحيل عليهم تخطِّي المسلمين وشق صفوفهم ، بينما تابعت صفوف المسلمين تحركها بانتظام وتقدم .

وشرعت جحافل قريش تتراجـع ، ولـم يكن تقهقرهـم هذا خطـة حربية منهم ، بل إنهم تراجعوا خوفاً وهلعاً ، لأنهم أيقنوا أنهم إن كابروا وصابروا قتلوا

---

(١) ومق : أحب . كما كن ينشدن :

وَيْـهاً بنـي عبـد الدار ويـهاً حُـماة الأدبـار
ضربـاً بـكل بتَّـار

(٢) ذكر الطبري أن الفَرس لأبي بردة ابن نيار الحارثي .

(٣) ذبَّ بذنبه : حركه ليذب به الطير .

جميعاً . وكانت نقطة تراجعهم قريبة جداً من صفوف المسلمين . وعندما رأوا تراجعهم أقبلوا على الغنائم يجمعونها . وسيجنون الجمال والجياد بالإضافة إلى الأموال والأسلاب . فما كان منهم إلا أن تركوا صفوفهم المنتظمة ولحقوا بالغنائم ؛ فقد كانوا يطمعون بالخيل والجمال والأسلحة والذهب والفضة وأسْرِ أشراف قريش ، ليستطيعوا أخذ الفدية الباهظة منهم . فصاح علي بن أبي طالب ، حامل اللواء الأول ، بالجنود :

ـ إلى أين تتقدمون ؟ ربما كانت خدعة من العدو ، ألم يأمركم النبي بعدم الاخلال بالصفوف ؟

فقالوا له :

ـ لقد أمرنا الرسول (ﷺ) بالمحافظة على النظام مادامت الحرب ، والآن انتهت المعركة ، وانتصرنا . فلا ضرورة لهذا النظام ، حتى لا نفقد غنائمنا من قريش .

وعندما رأى كماة المسلمين على الهضبة أن جيش مكة يتراجع ، وصفوف المسلمين تجمع الغنائم أرادوا أن ينزلوا كذلك ليحصلوا على حصتهم ، فحاول عبد الله بن جبير أن يمنعهم بقوله :

ـ مهلاً ، أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله (ﷺ) ؟ قال لكم : لا تبرحوا مكانكم إن رأيتم أننا قد هزمناهم ، فإنا لا نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم .

لكن الرماة أجابوه بعد أن رأوا انكسار قريش :

ـ ولِمَ نتوقف هنا ، ولا نستفيد من الأسلاب التي أمامنا ؟

وهبط الجميع ، عدا اثني عشر نفراً أحدهم عبد الله ، يلاحقون فلول قريش ، لينالوا سهمهم من الغنائم . وعندما تراجعت فلول قريش واجهتهم نساء

مكة اللائي رافقنهم . ومن عادة العرب أن ترافق النساء الرجال في الحروب لإثارتهم وتشجيعهم ، يقول عمرو بن كلثوم في ذلك :

أخـذْنَ على بُعـولتهِـنَّ عَـهـداً   إذا لاقـوا فـوارسَ مُـعْـلَمينا
لَيَسْـتـلبـنَّ أبـدانـاً وبَيضـاً   وأسرْى في الحديد مُقرَّنينا(١)

وإذا ما خسر الرجال في الحرب حسرت النساء المرافقات للجيش عن رؤوسهنَّ ، وكشفن عن ثيابهن فيغدون أشبه بالعاريات ، ويسرعن نحو الخصم . . . حتى يتراجع رجالهنَّ عن فرارهم ، ويعودوا لمجابهة العدو .

حينما شاهدت نساء مكة تقهقر جيش قريش أقدمن بزعامة « عمرة بنت علقمة » ذات الجمال والقامة الفارعة ، فحللن ضفائرهن ، ومزقن ثيابهن ، حتى بدوْن عاريات تقريباً ، وصرخت عمرة بالرجال :

ـ أين ذهبت حميتكم وغيرتكم ، فإن لم تستطيعوا الثبات أمام المسلمين فلمَ لا تُقتلون ؟ إنَّ من يقتل منكم يكون أدّى رسالته ، فلا يُلام على الخسران . أما من يهرب من ساحة الوغى خوف القتل فليلزم الخيمة عوضاً عنا ، يربى أطفالنا ويرعاهم ويطبخ لهم . . عودوا إلى الخيام ، ودعونا ننزل مكانكم إلى ساحة الحرب .

ذكر بعض المؤرخين أن المسلمين استطاعوا في ذلك اليوم قتل حاملي لواء المشركين تسع مرات على التوالي ، وجميعهم من بني عبد الدار . وانحنت عمرة على الراية وتناولتها من آخر قتيل ، فرفعتها ، واستلت سيفه ، وهجمت على جيش المسلمين ، وتبعها عدد من النساء . وحينما رأى رجال قريش ما فعلته عمرة وأقدمت عليه أخذتهم الحمية ، فحملوا حملتها . وفوجىء المسلمون بكرِّ قريش بعد

---

(١) من معلقته . البعولة الأزواج ـ المعلم : الذي أعلم نفسه بعلامة في الحرب يعرف بها شجاعته . المقرنون : الذين قرن بعضهم إلى بعض .

فـرّها ، وكانت صفوفهم آنئذ مفككة بسبب الأسلاب . فحاولوا رصَّ صفوفهم ، واستعادة أماكنهم ، لكنهم لم يستطيعوا لسرعة كـرٍّ جيش قريش .

حتى تلك اللحظة لم يشترك خالد بن الوليد قائد الفرسان ، بل كان يرقب تحركات الجيشين . وحينما رأى ملاحقة جيش المسلمين للمشركين ، وإثارة نسائهم للعودة إلى الحرب ، انتهز الفرصة وحمل على المسلمين من الخلف . وحاول عبدالله مع أحد عشر رامياً الثبات على هضبة عينين ، وصدَّ هجوم خالد ، لكنهم تكاثروا عليهم ، وقتلوهم جميعاً . . . ونزل الفرسان على المسلمين من الخلف . . وهكذا وقعوا بين طرفي جيش المشركين .

وبـرز دور « وحشي »[1] في تلك اللحظـة . فقـد كان يراقـب المعـركة هو الآخر ، محاولاً قتل محمد (ﷺ) حسب وعده لهند ووعدها بتحريره . لكنـه لم يستطع ، كما أنه لم يستطع قتل أبي بكر أو عمر أو علي . بيد أنه وفـق إلى قتـل حمزة . فحين رآه يضرب بسيفه لم يجرؤ على الاقتراب منه ، فانتظر حتى نزل فرسان خالد من خلفهم ، فتراجع عندئذ علي وحمزة وعمر ليجابهوا الفرسان ـ حينئذ اغتنم الفرصة فدنا من حمزة وضربه برمـح من الخلف ، فدخـل من ظهـره وخـرج من صدره . وحين سمعت هنـد بقتـل حمـزة ، لم تكتف بأن أعتقتـه ، بل خلعـت أساورها وخلاخيلها ، وهي في ساحة المعركة ووهبتها وحشياً . وقالت له :

ـ لقد وعدتك بأن أحررك إذا قتلت أحـد زعماء العـرب ، وبالإضافـة إلى وعدي أهبك حَـلْـيـي .

وفرّق فرسان خالد جيش المسلمين كله ؛ مقدمته ومؤخرته . غير أن عدداً من الرجال حافظوا على رسول الله (ﷺ) ، والتفوا حوله ، وهم : أبو بكر وعمـر

---

(١) وحشي : غلام جُبير بن مُـطْعم . قال له سيده : اخرج مع الناس فإن أنت قتلت عم محمد (ﷺ) بعمي « طُعيمة بن عدي » فأنت عتيق . وكانت هند كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت له : إيهٍ يا أبا دَسْمة اشفِ واشتفِ .

وعلي وأبو دُجَانة[1] وغيرهم ، حيث ألفوا صفاً صغيراً ، حالوا بسيوفهم دون تقدم فرسان العدو على محمد (ﷺ) . وقال محمد (ﷺ) لمن حوله :

ـ إن موضعنا هذا مناسب ضد هجوم فرسان خالد . وإن وفقنا إلى الصعود أكثر تعثرت الخيل فلم تبلغنا ، وسنكون هناك في أمان .

وبعد ذلك عاتب محمد (ﷺ) المسلمين على عدم إطاعتهم أوامره بفك صفوفهم ، وقال :

ـ لقد قلت لكم لا تتخلَّوا عن صفوفكم ، وأمرت الرماة بأن يثبتوا في مواضعهم مهما كانت الأسباب . لكنهم لم يعملوا بأمري ، فلا أعتقد بأن الله سيمنحنا النصر ، كما منحنا إياه يوم بدر .

وتفرق المسلمون جميعاً شرّ ممزق وهربوا ، عدا مجموعة قليلة صمدت إلى جانب محمد (ﷺ) ، فنزلت الآية (١٤٣) من سورة آل عمران (الثانية) في حقهم : **﴿ ولقد كنتم تمنَّوْنَ الموتَ من قبلِ أنْ تلقَوْهُ فقد رأيتمُوهُ وأنتم تنظرون ﴾** . ولقد أشار الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها من الآيات في سورة آل عمران إلى عتابه للذين فروا من معركة أحد . وقد فشا بين المحاربين ـ كما سنذكر ـ أن رسول الله (ﷺ) قتل في المعركة . ولذا نزلت الآية (١٤٤) : **﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبلهِ الرسُلُ ، أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضرَّ الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ﴾** .

وحين صمد محمد (ﷺ) وصحبه مقابل فرسان خالد وصلوا إلى نقطة من الجبل ، لم تعد الخيل تستطيع الصعود بعدها . وكان قد كمن اثنان من جنود قريش خلف صخرة ، أحدهما « عبد الله بن قميئة » ، فرمى محمداً (ﷺ)

---

(١) اسمه : سماك بن خَرَشة ، وهو رجل شجاع بطل .

بالمقلاع فأصاب وجهه ، فكُسرت رَباعيتُه السفلى[1] . وبينما كانوا يتابعون صعودهم سقط النبي (ﷺ) في حفرة وجرح .

ونزل خالد وعدد من فرسانه عن جيادهم ، ليلحقوا بالمسلمين ، بينما كان باقي الفرسان يرمون نبالهم نحو المسلمين . في تلك اللحظة فشا خبر قتل النبي (ﷺ) على يد « عبد الله بن قميئة » ، وأنه رماه بحجر فوقع في الحفرة . فحينما رأى عبد الله فعلته نزل إلى السهل ينادي بفوزه به . فكان هذا النبأ سبباً في تفريق من تبقّى صامداً من المسلمين .

أنهض علي وعمر النبي (ﷺ) من الحفرة ، وأسرع علي إلى نبع ماء صغير ، وملأ ترسه بالماء ، وصبَّه على رأس محمد (ﷺ) ، ثم رفع خوذته عن رأسه . في تلك اللحظة وصل خالد ورجاله المترجِّلون ، في حين أن بعض المؤرخين ينفي وصوله . وبلغ عدد من تبع خالداً مئة رجل ، وهدفهم قتل محمد وصحبه ، وعدد من كان يحيط به اثنا عشر رجلاً ، ويروى أربعة عشر . وأعيد تنظيم الخطة الحربية السابقة ، بحيث لا يسمحون للخصم بأن يأتيهم من الخلف ، لكن هذا لم يتحقق ، لأنهم على منحدرَ الجبل . فأمر أربعة منهم أن يحافظوا عليه ، بينما شُغل الباقون (ثمانية أو عشرة) بالمبارزة . وقد كان هؤلاء الأربعة يحاربون أيضاً . لكن طريقة حربهم كانت تمنعهم من الابتعاد عن النبي ، حتى لا يبقى وحيداً ولا سيما لأنه جريح وكان هؤلاء الأربعة : علياً ، وأنساً ، وعمر ، وأبا دجانة . كانوا يضربون بسيوفهم دون هوادة ، وكل واحد منهم كان يصدُّ عشرة مشركين . وكان الخصوم جميعاً يحاولون الوصول إلى محمد (ﷺ) ، لكن هؤلاء الأبطال يحولون دون بغيتهم .

الذين سجلوا وقائع المعركة ذكروا أن الأربعة كانوا يرتدون الخوذات الحربية ، لكنهم فقدوها فيما بعد . ويجب ألا نعجب لهذا الأمر ، لأن من يرتدي

---

(١) وشُقّت شفته ، وكُلم في وجنته وجبهته في أصول شعره (الطبري : ٥١٥) .

الحديد في الحرب ، يشعر بعد حين بثقلها وبالحرارة التي تعكسها ، فيتضايق منها . ومن كثرة الجراح التي أصيب بها هؤلاء الأربعة اتضح أنهم كانوا من غير دروع ، لأنهم لو كانوا متدرعين لما جُرحوا كل هذه الجراح . وقد كانت معركة أحد في منتصف شهر آذار ، أي إن الربيع لـمَّا يبدأ ، لأن بدأه في ٢١ آذار . ومع ذلك فإن منطقة المدينة كانت حارة في أواخر أيام الشتاء . والمرء يتضايق من الدرع في ساحة الحرب . وقد لاحظ جنود مكة أنهم إن قتلوا هؤلاء الأربعة وصلوا إلى النبي (ﷺ) فيقتلونه أو يأسرونه ، فزادوا من ضغطهم عليهم .

وخارت قوى أبي دجانة . في النهاية ـ ، وسقط السيف من يده ، لكنه ظل واقفاً مقابل رسول الله (ﷺ) يحمي روحه بصدره ، ويحفظه من ضربات المشركين . واستمر الكماة يرمون أبا دجانة عدة دقائق بالنبال ، حتى غدا جسمه كالقنفذ ، وهو ثابت في مكانه ، يفدي روحه تجاه نبي المسلمين . . إلى أن انهار ، وسقط لافظاً أنفاسه . فأسرع « أنس » يحتل مكان أبي دجانة ، يفدي الرسول (ﷺ) بروحه . وصمد أنس لضربات السيف والرماح على وجهه ، لدرجة أنهم حين أرادوا دفنه (كما سنذكر) لم يعرف جثته أحد ، ولم يستطع انسان أن يميز جسده ، إلى أن تقدمت أخته وعرفته من شكل أذنيه[1] وإثر سقوط أنس توقف اثنان مقابل الرسول (ﷺ) لحمايته ، هما : علي وعمر . وقد انغمر جسم علي بالدم من رأسه إلى قدميه ، من أثر جراح كانت تنضح بالدم من كل أطراف بدنه ، ولكنه لم يترك محمداً (ﷺ) . أما عمر ، فكان يصاول المشركين بقامته المهيبة ، الطويلة العريضة ، ويرسل أصواتاً مرعبة يهلع لها المشركون . وكان ينشد الشعر تحميساً للمسلمين المحاربين .

وبعد حين صحا الرسول (ﷺ) من آلامه ، واسترجع عزمه . فنادى سعد ابن أبي وقاص، وطلب منه قوساً ونبالاً، وشرع يرمي المشركين من مكانه. وحين

---

(١) ويروى من شكل أصابعه .

رأت البقية الباقيةمن المسلمين أن رسول الله استعاد نشاطه، وأقدم معهم نسوا تعبهم وجراحهم ، وعادوا ثانية إلى تنظيم صف عسكري ، وغدا صفهم أشبه بقلعة متحركة . . وثبتوا أمام المئة ، وأثبتوا جدارة منقطعة النظير .

وفي رأيي أن هذا الجانب من وقائع معركة أحد أبرز من غيره بكثير، ويدل على براعة رجال وهبوا أرواحهم فداء الإسلام وفداء رسول الله أمثال : عمر وعلي وسعد وغيرهم ممَّن جابهوا مئة مشرك . فإن كان عدد الصحابة أربعة عشر رجلاً فإنهم بعد استشهاد أبي دجانة وأنس غدوا اثني عشر ، وإن كانوا اثني عشر صار عددهم عشرة . . . وقد وضعوا محمداً في الوسط ، والتفوا حوله ، وهاجموا هذا العدد الجمَّ . واضطر المشركون إلى التراجع أمام هذا الصمود . فعندما يرى القائد المنتصر أنه كاد يقتل خصمه أو يأسره فإنه لا يتراجع . ولكن خالداً لاحظ ثبات العشرة في وجه مئته . وقد أبدى أبو سفيان إعجابه بعد انتهاء المعركة من هذه الثلَّة القليلة التي حاربت بوفاء وفداء تجاه قائدها محمد (ﷺ) ، حتى آخر ساعات المعركة . وقد استطاع المسلمون بهذه المعنويات العالية ، وهذه البطولة النادرة أن يحموا رسول الله (ﷺ) من خطر زحف جيش قريش .

لم يكن النهار طويلاً في شهر آذار . وحينما أعاد المسلمون على سفح الجبل تشكيل صفوفهم والوقوف أمام فرسان خالد بعد أن لمسوا عافية الرسول (ﷺ) التي تنشطت ، كانت الشمس تميل نحو الغروب . وهكذا انتهت المعركة من غير أن يُصرَّ المشركون على المتابعة . وفي تلك اللحظة وصلت فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما .

لم يتعمق بعض المؤرخين الإسلاميين بسرد أحداث المعركة ، كما كانوا يقصِّرون في بعض الأحداث وفي مواقع حدوثها . فنحن نعلم أنه في صباح المعركة كان عدد من نساء المسلمين إلى جانب جنود المدينة ، ومن جملتهن فاطمة وأم كلثوم . كانت الأولى زوجة علي بن أبي طالب ، والثانية زوجة عثمان بن عفان . وقد كنا ذكرنا أن عثمان كان زوجاً لرقية ، وبعد وفاتها تزوج أم كلثوم . لكننا لا

نعلم من وجهة كتب التاريخ أين كانت نساء المسلمين حين بدأت المعركة ، حتى استطاعت فاطمة وأم كلثوم أن تلحقا بأبيهما وتُسعفاه . ودنت فاطمة من أبيها لتضمِّد جراحه ، بيد أنه أشار إلى علي ، الذي كانت كل قطعة من جسده تنزف ، وقال لها :

ـ اذهبي يا فاطمة وضمِّدي جراح علي ، إنها أحوج إلى العناية من جراحي .

وحين وصل أبو عبيدة الجراح إلى علي وعاينه رأى في جسمه ثمانين جرحاً فقال له متعجباً :

ـ أرى أن أضمِّدك يا علي من رأسك إلى قدمك ، وأحملك إلى المدينة ، لأنني لم أر طيلة حياتي شخصاً واحداً أصيب في ميدان الحرب بمثل ما أُصبت به ! وإني لأعجب كيف صبرت على جراحك ، وتابعت حربك !

وقد جُرح عمر واحداً وعشرين جرحاً بالسيف أو بالرمح ، وجرح سعد اثني عشر جرحاً .

لم تكن الشمس قد غابت حينما دخلت هند ساحة الحرب ، ودنت من جسد حمزة ، فشقت بطنه بسكين كانت معها ، وأخرجت كبده ، ومضغت جزءاً منه ، ولهذا دعيت « ماضغة الكبد » . ثم صلمت أذنيه وأنفه ، وكذلك فعلت ببعض قتلى المسلمين ، وعلقتها طوقاً على رقبتها ، وجعلت ترقص في ساحة الحرب . وامرأة أخرى من المشركين اسمها « سُلافة بنت سعد » كانت تبحث في الميدان حتى وجدت بين قتلى المسلمين قاتل ابنها في معركة بدر ، فقطعت رأسه وقالت :

ـ سأقشر اللحم والجلد عن الرأس ، وأنتظر حتى تيبس الجمجمة ، وسأظل أشرب الماء بها مادمت حية .

عندما ألقى محمد ببصره على ميدان الحرب بعد رحيل جيش مكة ، وشاهد جثمان حمزة ، وقد برز منه صدره وبطنه وكبده ، وقطعت منه أذناه وأنفه ، تألم

كثيراً ، وأقسم أن يقتصَّ من المشركين من أجل حمزة في أول معركة معهم ، وأن يمثِّل بثلاثين منهم . ونزل الوحي عليه في هذا الموضوع ، وأوحى إليه بالآية (١٢٦) من سورة النحل(١٦) : ﴿ وإنْ عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتُم به ، ولئن صبرتُمْ لهوَ خيرٌ للصَّابرين ﴾ . وبعد نزول هذه الآية خاطب النبي ربه معتذراً صابراً .

وقد قتل من المسلمين سبعون شخصاً ؛ أربعة وستون من الأنصار وستة من المهاجرين . وقبل أن تغرب الشمس قدم أبو سفيان إلى ساحة المعركة ، وخطا بين جثث قتلى وصاح :

ـ أما زال محمد (ﷺ) حياً ؟

وسبب سؤال أبي سفيان هذا أن شائعة قتل محمد انتشرت بين الناس ذلك اليوم ، وهذا سبب من أسباب تفرق المسلمين . وكان من لمفروض ألا يجيبه أحد ، لكن عمر بن الخطاب لم يحتمل السكوت ، فصاح بأعلى صوته :

ـ أجل ، محمد (ﷺ) حي .

وصاح أبو سفيان ثانية :

ـ يا محمد ، قتلتم منا سبعين في معركة بدر ، وقتلنا منكم اليوم سبعين ، وهكذا تصفَّى الحساب بيننا . ومع ذلك فإن كنت ترغب في حربنا فإننا جاهزون في العام القادم في سوق بدر .

وبعد أن ألقى أبو سفيان كلمته التي تدل على الكبرياء والغرور انسحب من ساحة الحرب ، وقاد جيشه وولَّى . وحين ابتعد المشركون عن المكان عادت فلول بعض المسلمين ، فأمرهم رسول الله (ﷺ) بأن يدفنوا قتلاهم . ومرة أخرى أهمل المؤرخون ذكر دقائق الأحداث ، فلم يصرحوا : أدفن قتلاهم مع الغروب ؟ (وفي هذه الحالة سيطول بهم الأمر حتى الصباح) أم باشروا ذلك في اليوم التالي .

وقد عَين لهم مكان دفنهم على سفح جبل أحد . ومن عادة العرب أن يغسلوا موتاهم قبل دفنهم حتى يطَّهَّروا . لكن النبي أعلن لهم أن من قتل في الحرب شهيد ، ومن بلغ مرحلة الشهادة طاهر مصيره الجنة مباشرة ، فلا حاجة إلى غسله وتطهيره قبل دفنه . وكان محمد (ﷺ) إثر دفن كل شهيد يقف على قبره ويلقّنه ويدعو له . وبعد إتمام عملية الدفن أشاد بالشهداء وأكبر عملهم ومقامهم .

نظرة عسكرية في معركة احد

يذكر المؤرخون الإسلاميون ان المسلمين خسروا في معركة أحد . وهذا الرأي يحتاج الى مطالعة ومناقشة . ولو أننا تحدثنا مع متخصص حربي في مسألة خسارة المعركة ، وسألناه : « ما هي علامة الخسارة الحربية » ؟ ، لأجاب : « إن كان جيش الخصم المنتصر احتل البلاد ، وأزال جيش العدو ، عُـدَّ عندئذ منتصراً » . أما إن احتل دولة ما ولم يتمكن من إبادة جيشها فلا تعتبر الدولة خاسرة . فالمانية في الحرب العالمية احتلت روسية كلها ، ووصلت جيوشها حتى شواطىء نهر الفولغا ، ولأنها لم تستطع دحر جيش روسية دحراً كاملاً فإن المانية لم تعتبر منتصرة تماماً . فالدولة تعتبر ظافرة بشرطين : اولهما احتلال الدولة المغلوبة ، وثانيهما إخماد حركة الجيش .

والمشركون في معركة أحد لم يستطيعوا احتلال المدينة ، كما لم يوفقوا الى إفناء جيش محمد (ﷺ) . فمع أنهم شتَّتوا جيش المسلمين ، فإن الفلول عادت فتجمعت في اليوم الثاني ، فعندما عاد محمد إلى مدينته (كما سنذكر) كان تحت قيادته جيش منظم .

فمن وجهة نظر محارب متخصص - برأيي - لم يخسر المسلمون في معركة أحد ، إنما وقعوا في تجربة مفاجئة وحسب ، لان جيش مكة لم يفنِ جيش المسلمين ، كما لم يحتل المدينة . كما أن القرآن لم يعترف بخسارة المسلمين في أُحد ، فقد نزلت بعض الآيات في التخفيف عن المسلمين ، كما في الآية (١٣٩) من سورة آل عمران (الثالثة) : ﴿ ولا تَهنوا ولا تَحزنوا وانتم الأعلَوْن إنْ كنتم مؤمنين ﴾ ، وفي الآية بعدها : ﴿ إنْ يَمْسَسكم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قَرحٌ مثلُهُ

وتلك الأيامُ نُداوِلها بينَ الناس ، وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتَّخذَ منكم شُهداءَ ، واللهُ لا يحبُّ الظالمين ﴾ ، ووفي الآية بعدها : **﴿ وليُمحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ويَمْحقَ الكافرين ﴾** . ووجه الله تعالى خطابه إلى الذين هربوا من ساحة المعركة ، ونصح الرسول (ﷺ) بأن يعاملهم بشيءٍ من الرحمة والعفو ، فقال : **﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حولك فاعفُ عنهم ، واستغفرْ لهم ، وشاورْهم في الأمر . فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله ، إن اللهَ يحبُّ المتوكلين ﴾** .

نستدل من هذه الآبات ، ومن آيات غيرها ، من السورة نفسها ان المعركة لم تكن خاسرة ، فاللهُ يُظهر الرحمة حتى على الذين هربوا ، ويوصي رسوله بالعطف عليهم . ومن وجهة نظر رجل محارب معاصر فإنه لا يعتبر المسلمين خاسرين ، بل يراهم منتصرين ، لان جيش ابي سفيان ظل بعيداً ، وعاد من حيث اتى في نهاية المعركة . وهذه النتيجة تعدُّ نصراً على قريش لأسباب :

● لم يكن هدف قريش محاربة المسلمين في العراء ، بل مهاجمتهم في مدينتهم واحتلالها عن طريق مساعدة المنافقين واليهود ومن والاهم . لكنهم توقفوا في ظاهر المدينة ، ولم يكونوا يتوقعون خروج المسلمين اليهم ، لانهم يعلمون ان عدد المسلمين قليل جداً بالنسبة اليهم . وكانوا ينتظرون منهم ان يتحصنوا في منازلهم . وقد سبب خروجهم دهشة أبي سفيان وجنوده . ومع ذلك كانوا ينتظرون مساعدة المنافقين واليهود . وكما نعلم ان هاتين الفرقتين انسحبتا ، ولم يبق امامهم الا المسلمون . ولئن كان عدد المسلمين قليلاً جداً بالنسبة إلى جنود مكة لقد كانت عقيدتهم سبباً في جعلهم يتراصُّون الى بعضهم بعضاً ، وقد حاربوا حرباً ناجحة تماماً حتى لحظة جمع الأسلاب ، حين كان المشركون منهزمين . ولو لم يقف النساء وقفتهنّ البطولية تجاه رجالهنّ لما آب المشركون الى ساحة الحرب ، ولعدَّ ابو سفيان خاسراً منكسراً .

● والسبب الثاني ان جيش مكة لم يوفق إلى النصر لان الليل حلّ ، ورجال الحرب يتوقفون حين حلول الظلام .

● والسبب الثالث انه لم يكن لدى أبي سفيان طلائع بالمعنى الصحيح ، ليكتشف بهم وضع جيش المسلمين ، في حين ان محمداً (ﷺ) كان يهتم بهذا الأمر ، ويعتمد على الرواد كثيراً .

● والسبب الرابع ان أبا سفيان لم يكن منظماً في حربه ، بل كان يسير خبط عشواء ، لأنه لم يكن رجل حرب . فلو كان نظامياً لما سمح لجيشه بالنزول عن الجبل ليلاً ، ولو بقي حتى اليوم الثاني . . حتى ينهيَ المسلمين . وبرهاناً على ارتجاليته في الحرب انه عندما انسحب من ساحة المعركة ووصل إلى مكان يدعى « الرَّوحاء »[1] ندم كثيراً على انسحابه السريع من غير ان ينهي وضع المسلمين ، وفكر في العودة اليهم .

ودليل يقظة طلائع المسلمين واستعدادهم ، انهم اطلعوا النبي على نبأ ندم أبي سفيان ورغبته في العودة لتجديد العزم . وتجدر الإشارة الى أن المسلمين عادوا إلى ترتيب جيوشهم في اليوم الثاني . وحين دخلوا المدينة دخلوها نظاميين ، وكأنهم يخرجون إلى المعركة ، لا يعودون منها . وبعد مضي يوم وليلة من عودتهم إلى المدينة وصل خبر إلى محمد (ﷺ) مفاده ان جيش مكة اتخذ طريقه الى مكة من غير رجعة . وقد كانت عزيمة محمد (ﷺ) وإيمانه قويين ، لدرجة أن النبأ ، لو وصله برجوعهم إليهم ، لأمر المسلمين بالخروج إليهم وبمحاربتهم . وكان المسلمون جميعاً ، بما فيهم الجرحى ، على استعداد للاشتراك في هذه المعركة .

●

ومع كثرة جراح عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص ، فإنهما تابعا المسير .

---

(١) الروحاء : موضع طيب ذو راحة ، بين مكة والمدينة .

إلا ان أبا عبيدة ، وهو طبيب جراح ، منع علياً من السير خشية أن يفارق حياته .

وقبل أن يعود جيش المسلمين من منطقة أحد انسحب وحشي من جيش أبي سفيان . وكما قلنا إنه العبد الذي قتل حمزة ليُعتق[1] . وقدم إلى جيش المسلمين ، وذهب إلى محمد (ﷺ) ، فاعترف له انه قاتل عمه . ولم يعاقبه النبي (ﷺ) ، لأنه كثير الشفقة والشهامة . بل اكتفى بأن طلب اليه الا يراه مطلقاً . ولم يدنُ وحشي من محمد (ﷺ) مطلقاً بعد ذلك ، وحتى يعوِّض عن جرمه بقتل حمزة قتل عدداً من اعداء الإسلام ، ومن جملتهم مُسيلمة الكذّاب .

أحس المسلمون إثر عودتهم إلى المدينة بأن تلك الحرب كانت امتحاناً قاسياً ، لكنهم لم يعتبروا امتحانهم هذا خسارة حربية . أما اليهود فقالوا :

ـ إن محمداً (ﷺ) خسر في أحد .

وادَّعوا أنه لو كان رسول الله حقاً لما خسر . وفي ذلك الوقت نزلت آيات من السماء ، وهي في السورة الثالثة . فيها رفع من معنويات المسلمين وردّ على اليهود ، في ان عدداً منَ الانبياء خسروا في حروبهم فما يئسوا ، بل ثابروا على إيمانهم ، حتى جاء أمر الله بالنصر . فطمأنت هذه الآيات المسلمين ، وخففت عنهم . إلا أن اليهود لم يتراجعوا عن فكرتهم ، وصمَّم المزارعون منهم على حرب النبي (ﷺ) . وقد ذكرنا ان في المدينة ثلاث طوائف من اليهود ، وهم الصاغة ، والمزارعون ، والدباغون . وعندما بلغ محمداً (ﷺ) نبأ عزم المزارعين على حربه حاصر حيَّهم وقال لهم : إنكم ترغبون في مخالفة دستور المدينة ، والأفضل لكم ان تعزفوا عن فكرتكم ، ليحيا المسلمون واليهود بمحبةٍ في المدينة ، لكنهم رفضوا اقتراحه ، فدعاهم إلى الخروج كما فعل الصاغة ، فوافقوا . وقال لهم : تستطيعون حمل ما تريدون معكم . وهكذا فعلوا ، حتى أبواب منازلهم ونوافذها

---

(١) لم يذكر المؤلف كيف اعلن وحشي إسلامه .

أخذوها معهم . ولم يبق في المدينة غير فئة واحدة ، هي الدباغة .

●

كان عمر بن الخطاب رجلاً شجاعاً ، ومن الذين حافظوا على النبي (ﷺ) في معركة أحد ، واستطاع فيما بعد ، وبمدة عشر سنوات ، ان ينتصر على ثلاث امبراطوريات لنشر الإسلام . له ابنة تدعى « حفصة » ، وكان زوجها في شبابها يدعى « خُنيس »[1] ، وهو من الذين أظهروا شجاعة نادرة في معركة أحد ، واستشهد فيها . وقد اشترك الرسول (ﷺ) في دفنه في جبل أحد تقديراً لشجاعته . عندما استشهد زوجها كان عمرها عشرين سنة ، وكانت جميلة وعالمة (حسب مفهوم العلم في ذلك الزمان) ، ومحبة للادب والشعر ، لكنها لم تعرف الراحة بعد موت زوجها ، لأنها كانت شديدة الحزن عليه .

ولما كان عمر معروفاً بصراحته وعزمه ، فإنه ذهب الى عثمان عارضاً عليه ابنته الصبية الجميلة ليتزوجها تخفيفاً عن حزنها . لكن عثمان رفض عرض عمر على الرغم من جمالها وشاعريتها . فثقل الامر على عمر ، لأنه يعتبر نفسه اعلى من عثمان . وكان يتوقع منه ان يوافق بكل سرور . ثم إنَّ رفض عثمان كان بمثابة الإهانة والكفران بالنعمة . وفكر بقتله ، لكنه ارجأ فكرة قتله حتى يذهب الى الرسول ، ويشكوه إليه .

كان من عادة رسول الله (ﷺ) ان يصغي الى كلام صحبه حينما يرجعون إليه في امورهم . فبعد ان استمع الى شكوى عمر قال له :

ـ خفف عنك يا عمر ، فسأتزوج حفصة .

---

(١) هو خنيس بن حذافة بن قيس القرشي السهمي . كان من السابقين الى الإسلام ، وهاجر الى الحبشة ، وعاد الى المدينة فشهد بدراً واحداً ، وأصيب بأحد ، فمات من إصابته .

لم يحتمل عمر التعبير عن سروره لدى سمعه هذا النبأ . فتناول يد رسول الله (ﷺ) ووضعها على رأسه تقديراً وقال له :

ـ لقد شرفتني اليوم يا محمد وأسعدتني !

ومنذ ذلك الحين غدت حفصة زوجة للنبي (ﷺ) ، واصبح عمر والد زوجته .

زوجات النبي

حتى ذلك التاريخ كان للنبي (ﷺ) أربعة أقرباء ، هم : علي وعمر وابو بكر وعثمان . فعلي زوج فاطمة ابنة النبي (ﷺ) ، وأبو بكر ابو زوجته عائشة ، وكذلك عمر ابو زوجته حفصة ، وعثمان صهره .

حين تزوج النبي بحفصة دخل منزله ثلاثة أشياء : إنشاد الشعر والقراءة والكتابة بخط جميل . أما عائشة فكانت الزوجة الوحيدة للنبي (ﷺ) التي لم تكن أرملاً . وكانت عائشة تحب حفصة كثيراً ، وتجلس إلى جانبها ساعات تتعلم القراءة منها ، وتحاول ان تكتب مثلها . ويروى ان حفصة كتبت نسخة من القرآن بخط جميل ، قبل ان يدون في خلافة عثمان . وسميت الآيات التي دوّنتها « قرآن حفصة » . ويعلم أهل العلم بتاريخ الإسلام ان الآيات نزلت في غضون ثلاث وعشرين سنة . ولم يجُمع القرآن في حياة محمد ، بل إن النبي لم يأمر بجمعه ، بيد أن عدداً من اصحاب النبي مثل علي وحفصة دونوا القرآن لأنفسهم ، ليكون بين أيديهم نسخة كاملة منه . فقد كان محمد (ﷺ) أمياً ، وحين ينزل عليه الوحي كان يحفظ الآيات ، ولكنه لم يكن يستطيع كتابتها . وكان يكتبها له أحد كتبة الوحي على ألواح او قطع من القماش او على عظام أكتاف الجمل ، ويحفظونها ، حتى الأميين من الصحابة كانوا يحفظونها غيباً ، لأن العرب ذوو استعداد كبير للحفظ غيباً ، وكل ما يسمعونه يحفظونه .

وفي عهد عمر ، عهد التوسع ، قتل عدد من حفظة القرآن . وفي زمان عثمان خشي ان يزول الحفظة بموتهم او باستشهادهم او موت من عنده اجزاء مدونة من القرآن ، فيعتري القرآن عندئذ تحريف ، فتتعدد نسخه ، كما حصل للدين

المسيحي ذي الاناجيل المتعددة ، لذلك امر عدداً من الرجال بجمع القرآن وتدوينه من حفظته او قرّائه او اصحاب النسخ . وبعد ان تم جمع القرآن امر عثمان بان تمزق او تحرق سائر النسخ الاخرى التي كتبوها لانفسهم ، ومن جملة ذلك قرآن حفصة .

كان لمحمد (ﷺ) تسع نساء تزوجهن بعد وفاة خديجة . وقد كنا ذكرنا انه لم يتزوج في حياة خديجة غيرها . وزوجاته هنّ :

١ ـ أم سلمة بنت أبي أمية .

٢ ـ سودة بنت زمعة .

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر .

٤ ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان .

٥ ـ حفصة بنت عمر .

٦ ـ صفية بنت حُيي بن احطب .

٧ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالي .

٨ ـ زينب بنت جحش الأسدي .

٩ ـ جُويرية بنت الحارث من بني المصطلق .

ومع ان له تسع نساء فإنه كثير الحياء . ووردت في الكتب الإسلام عدة أقاصيص تروي شدة حيائه . من ذلك انه دخل حقلاً مزروعاً فيه النخيل ، فشاهد القائمين عليه ينقلون غبار الطلع من شجرة الى اخرى . فسأل النبي : لماذا يفعلون هذا ؟ فأجابه أحدهم :

ـ الأشجار التي في حوزتنا مذكرة ، فنلقحها بغبار الطلع المؤنثة . . وبعملنا هذا تحمل الاشجار . فخجل النبي لدى سماعه هذا الكلام ، حتى تصبّب العرق من جبينه ، فقال لهم :

ـ لا تعودوا الى مثل هذا ثانية .

ونفذ البستانيون امر النبي (ﷺ) ، فعزفوا عن عملهم ، لكن الاشجار لم تثمر ذلك العام لأنها لم تُلقح . وحين سمع النبي (ﷺ) بأن النخل لم يأتِ بمحصوله بسببه عاد فسمح لهم بتلقيحه ، لكنه لم يعد يدخل الحقول أيام التلقيح .

●

لم تكن سلافة المرأة الوحيدة التي كانت تشرب بجمجمة رجل مسلم ، بل تبعها في هذا العمل عدد كبير من النساء . وحين خرجت طائفة الصاغة من المدينة سكن عدد منهم في مكة ، وبعد الصاغة تبعهم ، كما ذكرنا ، طائفة المزارعين . وقد سكن بعضهم مكة ايضاً . وكانت هاتان الطائفتان مُثار إلهاب غضب قريش على المسلمين ، وتعاهدوا جميعاً عهد حرب . ومع انهم كانوا يهوداً ، فإنهم كانوا يزورون الكعبة ، ويقسمون مع العرب على وفائهم بالعهد .

وأعلنت قريش ـ عن طريق المنادين ـ ان من يسلمهم مسلماً حياً ينال جائزة . وكانت الجائزة مغرية جداً ، مما دفع بعض القبائل البدوية إلى التطواف في الصحراء حول المدينة ، ليأسروا المسلمين ، ويسلموهم الى قريش . . وهكذا بدأت عمليات الاختطاف .

فبعد معركة أحد طلبت إحدى القبائل المقيمة في جنوب المدينة من النبي (ﷺ) عدداً من المسلمين ، ليرشدوهم الى تعاليم الدين . فأرسل إليهم الرسول (ﷺ) « عُمير ابن ثابت »[1] مع ثلاثين نفراً ، ليؤدوا هذه المهمة . وكان البدو في تلك الاثناء يكمنون للمسلمين في الطريق ، وقرروا ان يأسروهم جميعاً ، الا ان المسلمين اصروا على عدم تسليم انفسهم ، فبادِروا الى حربهم ، فقتلوا جميعاً ، عدا ثلاثة حيث أخذوهم أسرى الى مكة ، ليبيعوهم لاشراف تلك البلدة . وقد

---

(١) هو عمير بن ثابت بن كلفة بن ثعلبة الأنصاري ، أبو حبة .

أيقن احد هؤلاء الثلاثة انه ان وصل الى مكة لقي العذاب المرير والقتل ، فهرب ، فتبعه البدو . ولما قاوم بين ايديهم قطعوه إرباً إرباً . ودفن هذا المسلم في مكان مشهور يدعى « الراجي » . ونقل البدو المسلمين الآخرين . وحينما وصلوا إلى مكة ، ولمسوا تشوق الأشراف إلى شرائهما ، عرضوهما بالمزاد . فوقع بيع أحدهما على صفوان بن أمية ثاني أبرز شخصية في مكة ، والمسلم المباع هو « عمير بن ثابت » رئيس الفرقة الإسلامية . اما المسلم الآخر فقد اشتراه أحد الأشراف المشركين . وحين رأى سكان مكة أن الاشراف اشتروهما ليتلذّذوا بتعذيبهما اعترضوا ، وقالوا :

- نحن ايضاً قاسينا من المسلمين كثيراً ، وقتل اهلنا في بدر وأحد . ونريد ان نمتع أنظارنا بقتلهما ، فعليكما ان تقتلاهما في ساحة مكة لنتشفّى جميعاً .

ووافق صفوان على طلبهم ، وعرض عميراً في الساحة العامة . ثم أمر شخصاً يدعى « نسطاس » بقتله ، لكنه قال :

- بما أنني تكلفت مالاً كثيراً ، فلي الحق في ان استفيد من جمجمته . فسأعرضها للبيع بالمزاد ، فمن رغب في شرائها ليشرب بها فليقدم الثمن المناسب .

وبعد ان قُتل عمير عرضت جمجمته للبيع ، والذي وقع عليه الثمن ، تقدم إلى الجثة ليستأصل الرأس من البدن بسيفه ، فشاهد كثيراً من دبابير النحل الكبيرة الصفراء متراكمة على جثته ، وما زالت الأفواج تتلاحق . فتخوف الشاري منها وقال في نفسه : « حين يحلّ الظلام ترحل الدبابير ، عندئذ أفصلها وآخذها » . وكما جاء في كتب المؤرخين ان سيلاً عرماً هاجم المنطقة قبيل حلول الظلام ، فجرف جثة عمير معه . . فلم يستطع صاحب الرأس الوصول إلى غايته .

وأخرج الناس المسلم الثاني الى خارج مكة ، إلى مكان يدعى

« التَّنعيم »[1] ، وعُلِّق هناك على صليب . ومرة اخرى يهمل المؤرخون ذكر اسم هذا الرجل ، لان معرفة اسم اول رجل مسلم يصلب مهمة جداً . ولقد مدوا الصليب على الارض ، ثم ألقوا الرجل عليه . ودقوا يديه بالمسامير ، لكن ذلك الرجل كان يصرخ من اعماق قلبه ، ويقول : « لا إله إلا الله » . ثم دقوا رجليه ، وبعد ذلك رفعوا الصليب إلى الأعلى . ثم راحت النساء والرجال يرجمونه بالحجارة او يرمونه بالنبال . وكم شعر المشركون بلذة لا تعدلها لذة في عملهم هذا ، حتى إنهم غدوا يطالبون كل مالك لمسلم اسير بأن يصلبه ليرموه بالحجارة .

في شهر حزيران من عام ٦٢٥ المطابق للسنة الثالثة الهجرية خرج اربعون رجلاً من المدينة متجهين نحو مضارب إحدى القبائل ليُسلموا سكانها . وبالقرب من بئر معونة[2] هاجمهم البدو . ولما كان المسلمون يعلمون العذاب الذي ينتظرهم صمدوا أمامهم ، وحاربوهم حتى آخر رجل منهم .

---

(١) التنعيم : موضع بمكة في الحل ، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة . وسمي بذلك لان جبلاً عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادي نعمان .

(٢) بئر معونة : ارض بين ارض بني عامر ومرة بني سُليم ، أرسلهم رسول الله (ﷺ) الى نجد في السنة الرابعة (وليس كما ذكر المؤلف) ليعرض عليهم الاسلام ، فحاربهم عامر بن الطفيل ومعه قبائل من بني سُليم . وبقي بين القتلى مسلم جريح واحد هو « كعب بن زيد » ، فعاش حتى قتل في يوم الخندق .

خطة قريش لحرب النبي

قال أبو سفيان بعد انتهاء معركة أحد للمسلمين : « إن كنتم ترغبون في الحرب فاستعدوا للعام القادم ، وتجمعوا في سوق بدر . وسوق بدر يفتح كل عام لمدة أسبوع . وتأهب محمد (ﷺ) في شهر نيسان من عام ٦٢٦ م ومعه (١٥٠٠) محارب مسلم وخمسون فارساً ، واتجه نحو سوق بدر . لقد أراد محمد (ﷺ) إفهام أبي سفيان أن المسلمين لا يخافون من جيشه ، ومتأهبون لحربه دائماً . وعلى الرغم من أن عدد جيش المشركين ألفا جندي فإن أبا سفيان لم يجرؤ على خوض الحرب ، مدّعياً حلول القحط الذي أصاب مكة ذلك العام ، وعدم توفر المراتع للجمال . . لذلك عاد إلى مكة ، مع أن جيشه أكثر عدداً .

امتناع أبي سفيان عن الحرب رفع من معنويات المسلمين كثيراً في سوق بدر ، واستطاعوا الاستفادة من مبيعاته . لكن المشركين عادوا إلى مكة ، وقرروا التضييق على المدينة اقتصادياً ، ومحاصرتها محاصرة تامة .

تبتعد مكة عن المدينة مسافة أربعمئة كيلومتر جنوباً . وقد اتحدوا مع يهود خيبر على الحرب . وخيبر ، كانت مدينة ، تبتعد مئتي كيلومتر شمالي المدينة ، ولا يقطنها غير اليهود . ولم يتحد المكيون مع الخيبريين فقط ، بل مع قبيلتين عربيتين أخريين هما :بنو فزارة وغطفان وتقيمان في الصحراء شمال المدينة ، وبالإضافة إلى اتحادهما مع قريش ، فإن يهود خيبر تدارسوا معهما مسألة تسليم اليهود محصول النخل إليهما ، بشرط أن يعاضدوهما على محمد . وهكذا تمَّ بين هذه الأطراف عهد حرب . وكان إلى شرق المدينة قبيلة اسمها « بنو سليم » ، واستطاعت قريش أن تتفق معها ضد المدينةوهكذا حوصر المسلمون من وجهة نظر سياسية . وسرعان ما

تحول هذا الحصار السياسي إلى حصار اقتصادي ، لأن قبائل المدينة لم تعد تستطيع الذهاب شمالاً أو شرقاً أو جنوباً . ومما ساعد قريشاً على نجاح حصارها أن مدينة دومة الجندل ، التي تقع في جنوب بلاد الشام ، وتحطُّ بها القوافل كلها قد اشتركت معهم بهذه المهمة . كان في دومة الجندل عدد من القبائل ولكن لها رئيس خاص هو حاكمها . وقد منع هذا الحاكم عبور أية قافلة مسلمة من المدينة متجهة نحو الشام أو ما بين النهرين . وقد أثر هذا الحصار كثيراً بالمسلمين . والمعلوم أن الامطار تهطل في المدينة ، وأن الحقول والمزارع تمتد حولها ، لكن هذا لم يكن كافياً ، لذلك كانوا يتوجهون بالتجارة شمالاً ليتمموا ما ينقصهم .

وتضايق محمد (ﷺ) من هذا الحصار كثيراً ، ولكنه اعتمد على الله في حل معضلاته وإصلاح الحال . نحن الأوروبيين نتصور أن فكرة الاتكال على الله هي أن يجلس الإنسان في مكانه ، ويضع يداً على يد ، ولا يتحرك . . ثم يفتح فاه إلى السماء ، ليرمي له القضاء لقمته . لكن واقع المسلم غير هذا ، لأن المتوكل على الله منهم يظل يجاهد ويعمل . فهو يسعى ويتوكل على الله في آن واحد . وعلى هذا فإن المسلم الحق لا يفقد أمله ، لذلك نراه يعمل ويفكر ، فلعل إعجازاً يسنده في أمره .

وبعد أن حوصرت المدينة اتفقت قريش مع حلفائها ، ومن جملتهم عبد الله ابن أُبي من داخل المدينة، على وضع خطة للخلاص من محمد (ﷺ) والمسلمين جميعاً . تقضي هذه الخطة بأن يخرج محمد (ﷺ) بطريقة ما من المدينة ، ويبقى المسلمون وحدهم فيها ، وحالما يبتعد عنها قليلاً يهاجمونها ويتخلصوا من المسلمين .

كان بنو المصطلق ، ورئيسهم الحارث يسكنون قرب البحر الأحمر ، فأثارتهم قريش للحملة على المدينة . وعندما سمع محمد (ﷺ) أن تلك المدينة تستعد لحربهم ، تأهب لمجابهتهم . وفي أثناء خروجه دعا عبد الله ابن أبي لأن يكون رئيساً لفرقة من الجيش الإسلامي . فاضطر إلى الموافقة على دعوة النبي ، مع أنه

كان ينتظر خروجه ليهاجم المسلمين ، ومعه اليهود وقريش . ولكن حين أمره بمرافقته ظل المنافقون بلا رئيس . . فلم تستطع قريش واليهود تنفيذ خطتهم أثناء غياب محمد (ﷺ) .

كان عدد المسلمين في هذه الحملة قليلاً جداً ، لا يزيد عن ثلاثين نفراً ؛ عشرة من المهاجرين وعشرين من الأنصار ، في حين أن جنود بني المصطلق كانوا مئتي نفر . ونزل المسلمون ثماني مجابهات غرب المدينة مع بني المصطلق . ومع أن عددهم سبعة أضعاف عدد المسلمين تقريباً فقد قتلوا عشرة منهم ، وأسروا القبيلة كلها من غير أن يقتل مسلم واحد[1] . كان بنو المصطلق قبل هذه المعركة مطيعين لقريش ، ويستدرُّونها الأموال لحرب المسلمين . والآن نفَّل رسول الله (ﷺ) أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، أي غدوا جميعاً أسرى ، بما فيهم رئيسهم الحارث . وحسب عادة العرب ، يُقسم الأسرى بين المسلمين عبيداً ، وكانت جويرية بنت الحارث من نصيب محمد (ﷺ) . وهي صبيَّة جميلة ، لكنها أرمل . وبعد أن أسرت ذهبت إلى محمد (ﷺ) وقالت له :

ـ سمعت أنك نبي (ﷺ) ، ويقولون إنك رجل حق . لكنك أسرتني ، فابحث عن وسيلة تحررني بها . فقال لها محمد (ﷺ) :

ـ لم آسرك لذنب ارتكبتهِ ، ولكن لما قام به أبوك . فلو أن أباك لم يحارب المسلمين لما أُسرتِ أنت ولا هو ، ولما طلبتِ مني أن أقوم بعمل أحررك به .

قالت جويرية :

ـ ولكنني لم أكن أمة يوماً يا محمد ، ولا أريد أن أكون كذلك .

فسألها النبي (ﷺ) :

---

(١) يروي الطبري أن واحداً من بني كلب بن عوف يقال له هشام بن صُبابة أصابه رجل من الأنصار ، وهو يرى أنه من العدو ، فقتله خطأً .

ـ أتوافقين على أن تكوني زوجة لنبي المسلمين ؟

عندما سمع المسلمون هذا الكلام من محمد (ﷺ) تعجبوا ، لأنهم لم يقدروا سبب زواجه من هذه المرأة . وقالت جويرية ابنة رئيس بني المصطلق :

ـ أجل يا محمد ، أقبل .

وهكذا غدت زوجة لرسول الله . وبعد حين تنبه المسلمون إلى أن أباها لا يمكن أن يكون عبداً وأباً لزوجة رسول الله (ﷺ) في آن واحد ، لهذا فإن مولى الحارث أعتقه لهذا السبب ، وتبعه في ذلك المسلمون جميعاً ، إذ حرروا أسراهم من الرجال ومن النساء . وحين لمس بنوا المصطلق نبل المسلمين وأصالتهم أعلنوا إسلامهم . وأول من أعلن إسلامه هو الحارث . ومنذئذ غدت قبيلة المصطلق من أوفى القبائل الى الإسلام ، وأثبت رجالها جدارة وجراءة في الجهاد . وعندئذ أدرك المسلمون ماذا كان قصد النبي (ﷺ) حينما تزوج جويرية .

عندها شاهد عبد الله بن أبي رأس المنافقين هذا التوفيق الذي حظي به المسلمون مع بني المصطلق اعتراه الضيق والحسد ، فقرر أن يبعث الفتنة ، فلعله يتخلص من محمد (ﷺ) قبل وصوله إلى المدينة . فجمع المهاجرين وقال لهم :

ـ أرأيتم كيف حرمكم النبي (ﷺ) من حقكم ؟

فسألوه :

ـ وكيف حرمنا نبينا ؟

قال عبد الله :

ـ لقد نقلكم من المدينة ، وقادكم إلى هذا المكان ، وأمركم بأن تحاربوا على أمل أن تغنموا . فكانت النتيجة أن تزوج بجويرية ، واضطركم إلى تحرير عبيدكم وإمائكم منهم . . وهكذا تعودون إلى المدينة خاوِيي الوفاض .

ثم نـحّى رجال الأنصار ، وقال لهم :

ـ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالـكم . وهاهو محمد (ﷺ) يسخر منكم في سفرتكم هذه .

فسألوه عن سبب السخرية ، فأجاب :

ـ لأنه حرمكم من غنائم الحرب . وإنني لأعجب إذ كيف تقبلـون تحـرير رجال بني المصطلق ونسائهم في حين أنه استفاد من زواجه ؟

فأجابه الأنصار :

ـ ولكن زواجه هذا سبَّب في زيادة عدد المسلمين ، ولهذا فلسنا نادمين على ما فعلنا .

عندما أحسَّ عبدالله بأنَّ الأنصار لم تؤثر فيهم وسوسته ، فـكَّر بأن يوغر صدرهم على المهاجرين فقال لهم :

ـ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما عَـدَوْنا وجـلابيبَ قريش[1] ما قال القائل : « سـمِّـنْ كلبك يأكلْك » ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينـة لـيُخـرجَـنَّ الأعـزُّ منها الأذلَّ .

وكادت الفتنة تقع بين الفريقين ، إذ غلت صدور الفريقـين ضد بعضـهما بعضاً . كان ابن عبد الله موجوداً مع أبيه في هذه الرحلة ، فحكى لمحمد (ﷺ) ما يسعى إليه أبوه ، فأيقن الرسول (ﷺ) أن عليه أن لم يلاحق الأمر فوراً ، ويحسمه فإن الحرب الطحون بين الفريقين توشك أن تقع . واستطاع بحلمه وشجاعته أن يحقن الدماء ويهدِّىء الرجال . فرأى الخير في السير السريع نحو المدينة ، حتى لا

---

(١) جلابيب قريش : كان المشركون يلقبون من يسلم من قريش بذلك . وأصل الجلابيب : الأزر الغلاظ ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك .

يسمح لوسوسات عبد الله بأن تسري بين المسلمين . . . فأذَّن بالرحيل . وفي أثناء المسير دنا ابن عبد الله من النبي (ﷺ) ، وقال له :

ـ كان هدف أبي من إثارة الرجال أن يقتلك . ولماكان سيِّىء النية وجب قتله ، فإن أمرتني نفذت ذلك بيدي . . . وأحب أن أقول لك إنه ليس في المدينة أحد وفيٌّ لوالده قدر وفائي ، لكنني حين أراه يحاول إيذاءَك أحكم عليه بالموت . فمتى أمرتَ بقتله نفذتُ لك أمرك .

تأثر محمد كثيراً بكلام ابن عبدالله ، لأنه رآه فتىً صادقَ الطوية . لكنه قال له :

ـ لن آمر بقتل أبيك ، لكنني أرغب في أن يحيا بيننا .

لم يرغب محمد بقتل هذا الخائن ، لأنه يميل إلى العفو دائماً ، ويريد الانتقام من أعدائه . لكن عبد الله لم يكن أهلاً للعفو . فمع أنه لم يشكر محمداً (ﷺ) على عدم قتله ، فإنه جعل يتحيَّن الفرصة المواتية للنَّيل من النبي (ﷺ) . . فانتهز أمراً ضد عائشة ، فأثاره ضدها .

●

فمن عادة النبي في أسفاره أن يصطحب إحدى نسائه معه عن طريق القرعة ، حتى لا يسبب ألماً لواحدة منهن . وأصابت القرعة عائشة في رحلته إلى بني المصطلق . فركبت عائشة في هودجها ، ورافقت المسلمين في هذه الحرب . وأثناء عودتهم ـ وكان عمرها آنئذ خمس عشرة سنة ـ نأت عن القوم في ضرورة مسَّتها . وحين عادت كانت القافلة قد ابتعدت . ولم ينتبه إلى غيابها أحد ، فقد أُنهضت الجمال ، وستارة هودجها مسدلة ، فظنوها نائمة . فجلست في مكانها تبكي وتصرخ . . لكن عويلها لم يصل إلى آذان الراحلين . ولما لم ينفع الصراخ والنداء جلست تدعو ربها ، وتقول :

ـ يا رب ، خلقتني في هذه الدنيا مسلمة ، وجعلتني زوجة لرسول الله (ﷺ) ، فنجّني ممّا أنا فيه .

وبعد حين قدم راكب على جمل يحثّ سيره . وكان القادم « صفوان بن معطّل السهمي » ، وقد تخلف عن الجيش . فوقع بصره على امرأة جالسة على الأرض . فدنا منها فعرفها ، وقال لها :

ـ مالي أراك هاهنا ؟ ولِمَ أنت جالسة في هذا المكان ؟

فشرحت لصفوان ما جرى لها ، فأركبها خلفه على الجمل ، واتجه بها نحو المدينة ، فدخلها في اليوم الثاني من وصول قافلة محمد (ﷺ) . وعندما ترامى إلى مسامع عبدالله أن صفوان هو الذي أحضر عائشة رأى الفرصة سانحة ليفترى على رسول الله (ﷺ) . وكان في المدينة عدد من الرجال على شاكلة عبد الله ، منهم : زيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت الشاعر ، ومِسْطَح بن أثاثة[1] ، وللأخير قرابة بعيدة بعائشة ؛ فهو حفيد خالة أبي بكر . وكان عبد الله وصحبه يتنقلون في الأحياء والحواري من الصباح حتى المساء ، وهم يدسُّون في آذان الناس أن صفوان فتى وعائشة فتاة ! . . وقد أمضيا يوماً وليلة وحيدين في الصحراء ، وجرى بينهما ما جرى ، وكان عليهما ألا يقوما بمثل هذا الأمر المشين ! .

ونشر اليهود هذا النبأ ـ وهم خصوم محمد (ﷺ) ـ ، وهجا حسان عائشة في شعره . . وأضفى خصوم النبي على الحادثة خيالات وقصصاً موهومة لا أساس لها من الصحة . وتشاور محمد (ﷺ) مع أسامة بن زيد ، عما يجب أن يفعله ، فقال له أسامة بعد أن أثنى :

---

(١) مسطح بن أثاثة بن عباد القرشي المطلبي . شهد بدراً ، وكان ممن خاض في الإفك فجلده النبي (ﷺ) فيمن جلد ، وكان أبو بكر ينفق عليه . فنزلت في ذلك آية من القرآن ، فعاد ينفق عليه . أمه أم مسطح ، وأمها رائطة بنت صخر خالة أبي بكر . توفي سنة ٣٤ هـ (أسد الغابة) .

ـ لا يعيب عائشة شيء سوى أنها صغيرة السن ، فهي لصغرها حين تعجن العجين لتخبزه لا تراقبه جيداً ، فتأتي الماعز فتأكله[1] .

ثم شاور ابن عمه علي بن أبي طالب في أمر عائشة ، فقال له :

ـ يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسلِ الجارية فإنها تصدُقك .

يقولون إن عداوة عائشة لعلي انطلقت من هنا . وذهب محمد (ﷺ) إلى عائشة وقال لها :

ـ يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغكِ من قول الناس ، فاتّقي الله ، وإن كنتِ قارفتِ سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

فبكت عائشة وقالت له :

ـ إنهم يكذبون في ما يدّعون ، وأنا لم أرتكب إثماً .

وحينئذ نزل الوحي على محمد (ﷺ) . وكانت الآية الأولى التي نزلت في تبرئة عائشة هي الحادية عشرة من سورة النور (٢٤) : ﴿ **إنَّ الذين جاؤوا بالإفكِ عصبةٌ منكم لا تَحسَبوه شرّاً لكم ، بل هو خيرٌ لكم لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثم والذي تولىَّ كِبْرهُ منهُم له عذابٌ عظيم** ﴾ . ويقول الله في الآية بعدها : ﴿ **لولا إذ سمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا : إفكٌ مُبينٌ** ﴾ ، ويقول في الآية بعدها : ﴿ **لولا جاؤوا عليه بأربعةِ شهداءَ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ .

فمن كان على إطلاع بأحكام الاسلام يعلم ان من يرمي التهمة على رجل أو امرأة بالزنى يشترط به أن يأتي بأربعة شهداء ، رأوا الزاني بأم أعينهم وهو يرتكب

---

(١) يروى أن قائل هذه الجملة بربرة (الجارية) وليس أسامة .

الكبيرة . وإن رأى الشهود أن رجلاً وامرأةً دخلا داراً وأغلقا دونهما الباب ، ومكثا فيها حيناً ، فانه لا يحق لهما أن يشهدوا عليهما بالزنى . ومن لم يستطع أن يأتي بأربعة شهداء عُدَّ مفترياً ، وتوجَّب عليه الحكم .

ولتبرئة عائشة من حادثة الإفك نزلت الآيات من ١٢ ـ ٢٧ من سورة النور ، فطيِّبت خاطر النبي (ﷺ) والمسلمين كثيراً . لأن المسلمين ـ كالعرب جميعاً ـ ذوو غيرة ، ولهذا تألموا كثيراً من أقاويل عبد الله وصحبه ومن شعر حسان . ولكن بعد نزول آيات البراءة انشرحت صدورهم .

كان عبد الله يتصور أنه سيضرب محمداً ضربة أليمة في إفكه هذا ، لكنه مُني بالخذلان . واستعد المسلمون بعد هذه الحادثة لحرب جديدة .

حفر الخندق بادرة جديدة في الجزيرة

أبلغت عيون محمد (ﷺ) اليقظة أن مكة تجهز جيشاً لجباً ، قوامه عشرة آلاف محارب ، لإبادة المسلمين جميعاً . ومع أن قريشاً ذات قوة عسكرية كبيرة فإنها كانت تحسب حساباً كبيراً لمحمد (ﷺ) ، حتى إنها كانت تتحيَّن الفرص لمهاجمة المدينة عندما يكون غائباً عنها ، شريطة أن يعينهم المنافقون واليهود من الداخل .
ولقد علموا أن رسول الله سيتجه لمحاربة دومة الجندل . وحاكم هذه المدينة كان على اتفاق مع يهود خيبر وقريش مكة على منع عبور قوافل المدينة . ومع أن محمداً (ﷺ) على علم بإعداد هذا الجيش الضخم فإنه اضطر للذهاب إلى دومة الجندل ليتباحث مع أميرها ، أو ليحاربه لحل مسألة منع قوافل المدينة من الاتجاه نحو الشام أو نحو بين النهرين . فلقد غدت المدينة مخنوقة بهذه المجابهة ، وضيقت حركتها نحو الشمال . لذلك صمَّم محمد (ﷺ) على أن يذهب بنفسه ليفتح ثغرة لتجار المدينة . والذي دفعه للذهاب أن دومة الجندل لم تكن بعيدة عن المدينة أولاً ، ولأن عيون النبي (ﷺ) أطلعته أن جيش مكة لما يتجهَّز . لهذا خرج من المدينة ، ومعه ألف محارب . وفي طريقه مر بمواطن قبيلة غطفان ، ورأى أن يحادث رئيسها ، فلعل لديه طريقة لحل هذه المعضلة .

ولقد ذكرنا أن عرب البادية يتكلمون بما يفكرون ، ولا فرق بين ما تنطوي عليه آراؤهم ، وما يعلنونه على الناس . واليوم لم يتغلغل التمدن الحديث في بعض أجزاء من الجزيرة كمنطقة الربع الخالي الواقعة في جنوبي الجزيرة ، ومازال فيها أعرابها على هذا المبدأ ، حيث يتكلمون بما يفكرون ، ولا يبوحون إلا بالحقيقة ، ولا يعرفون غيرها .

وحكى رئيس قبيلة غطفان الحقيقة لرسول الله ؛ فأظهر له اتفاقه مع قريش ومع يهود خيبر الذين وعدوه بتقديم محصول النخيل . فإن وافق محمد (ﷺ) على تقديم البلح له بشكل أفضل مما يقدمه اليهود فإنه مستعد لأن يلغي العقد معهم ، وينسحب من اتفاقه . وبعد ذلك قال رئيس غطفان :

ـ ليس عندي وقت لأطيل الحديث معك ، لأني راحل مع رجال قبيلتي إلى مكة ، لألتحق بجيش قريش ، لنحمل جميعاً على المدينة .

كان النبأ الذي صرّح به رئيس القبيلة لمحمد (ﷺ) صحيحاً تماماً ، لأنه يعلم أن هذا الرئيس لا يكذب ، عندئذ قدّر المسافات التي ستقطع ، فعاد بسرعة إلى المدينة . ودهش عبد الله بن أبي من عودة محمد (ﷺ) السريعة ، لأنهم يعلمون أن محمداً (ﷺ) إذا عزم على السفر لا يعود إلا بعد إنهاء المعركة . وإثر وصوله دخل المدينةَ عدد من رجال قبيلة « خوذة » ، وأعلموه أن جيش قريش تحرك من مكة ، وأفهموه أنهم يحتاجون إلى أحد عشر يوماً لكي يحطوا الرحال هنا ، في حين أن فتيان خوذة وصلوها بأربعة أيام . إذ كانوا يسيرون ليلاً ونهاراً من غير استراحة أو تريُّث ليُبلغوا رسول الله (ﷺ) هذا الخبر . وقال هؤلاء :

ـ وعدد المحاربين عشرة آلاف رجل ، يحمل كل واحد منهم أسلحة كاملة . وقد عزموا على ألا يعودوا إلى مكة ما لم يقتلعوا جذور الإسلام من المدينة هذه المرة .

وبعد أن أنهى الرجال كلامهم مع النبي (ﷺ) ، أمر بالاستعداد للحرب فوراً . وأخبرهم أن عدد المشركين يفوق عددهم أضعافاً كثيرة . فعليهم أن يدافعوا دفاعاً مستميتاً عن دينهم . وكانت وسيلة الدفاع هذه المرة هي حفر « الخندق »[1] ، ولهذا دعيت المعركة التي جرت عام ٦٢٧ المطابقة لشهر شوال من

---

(١) الخندق : كلمة فارسية ، أصلها « كنده » ومعناها المحفور ، وحولت الهاء إلى قاف لدى التعريب .

السنة الخامسة لدى المسلمين بمعركة « الخندق » . ولما كان المشركون جماعات مختلفة في هذه الحرب فقد دعيت من قبلهم بغزوة « الأحزاب » .

ولم تكن خطة محمد (ﷺ) الحربية هذه سبب إعجاب الناس العاديين وحسب ، بل مبعث إكبار من وجهة نظر رجال الحرب المتخصصين. إذ كيف استطاع محمد (ﷺ) استنباط هذه الخطة وإنجازها ، لأن النبوغ ليس في استنباط الخطة وحسب ، بل في تنفيذها أيضاً . فالذين يقيمون في منازلهم ، ويقرأون على صفحات الجرائد الخطط الحربية والعمليات العسكرية التي يقوم بها رجال ضد خصومهم لا يقدِّرون مدى العناء الذي يعانيه القائد في تنفيذ مثل هذه الخطط في ساحة المعركة . وقد كان حفر الخندق في الجزيرة لمنع هجوم جيش مُعادٍ جديداً ، يشبه « الفالانج » الذي خططه في معاركه السابقة من حيث الجدة والبراعة .

كان بين المسلمين رجل فارسي اسمه « روزبه بن مهيار » ، ويدعونه « سلمان الفارسي » ، وهو الذي وضَّح للنبي (ﷺ) فكرة حفر الخندق ، وكيف أنهم في بلاد فارس يحفرونه حول قلعة أو مدينة للدفاع عنها من هجوم مُباغت . ويجب أن يكون هذا الخندق عريضاً وعميقاً ، حتى لا يتمكن الفرسان والمشاة تخطِّيه .

كان سلمان طويلاً ، عريض المنكبين ، قوي البنية ، مخلصاً لرسول الله (ﷺ) . وحين عرض عليه فكرة حفر الخندق وافق النبي (ﷺ) على الفور . لكن حفره كان مشكلة ، إذ عليهم أن يحفروا حول المدينة كلها ، في حين أن عدد المسلمين لم يكن كبيراً ، والوقت لا يسمح بذلك . ومع هذا فإن المسلمين باشروا عملهم . وفي الساعة التي أمر فيها محمد (ﷺ) بحفر الخندق أصدر أمراً آخر يقضي بجمع كافة المحاصيل الزراعية الموجودة خارج المدينة ، وإدخالها ، حتى لا يستفيد جيش قريش منها . وقد اتبعت روسية هذه الخطة في وجه جيوش ألمانية أثناء الحرب الأخيرة . فقد نقلت المحاصيل أو أتلفتها في وجه الألمان ، حتى تستحيل عليهم الاستفادة منها . لكن محمداً (ﷺ) استخدم هذه الطريقة قبل أربعة عشر

قرناً . وكانت النتيجة أن جيش مكة وصل إلى المدينة ، فلم يجد أعلافاً لحيواناته ولا طعاماً له .

وقد شارك في عملية الحفر كل قادر على الضرب بالفأس أو حمل الزنبيل ، رجالاً ونساء ، صبياناً وبناتٍ . واستمرت عملية الحفر حتى شملت القسم الشمالي والغربي والجنوبي الغربي ، وقسماً من الجنوب .

وقد بدأ الحفر من قلعة الشيخين[1] الواقعة في شمالي المدينة ، ومرَّ بأطراف قُبا جنوباً . وقد حفر الخندق بشكل يسمح للمسلمين بدخول المدينة من أي طرف شاؤوا ، من غير أن يعترضهم معترض ، في حين أنه مستحيل على المشركين .

في المدينة مقياس للطول يسمى « الذراع » ، وذراع المدينة يعادل نصف متر . وقد قسم محمد (ﷺ) المسلمين عشرةً عشرةً ، وخصَّ لكل عشرة أربعين ذراعاً . ونأسف لتقصير المؤرخين ، إذ إنهم لم يذكروا كم كان عرض الخندق . لكنهم ذكروا أن طوله اثنا عشر ألف ذراع ، أي ستة كم ، أما عمقه فقد تجاوز خمسة أذرع أي مترين ونصف المتر ، ولعله يبلغ ثلاثة أمتار . ولابد أن يكون هذا الخندق عريضاً ، وذا جدران عمودية . فلو كان عرضه قليلاً لتمكن الفرسان من القفز ، والمشاة من عبوره . وقد اعتمدت بعض الحروب القديمة على الخنادق الجافة ، وعدوها أفضل من الممتلئة ماءً ، لأن الماء يساعد الفرسان على عبور الماء على ظهور الخيل ، كما أن المشاة يعبرونه بواسطة القوارب المائية . وقد عمل المسلمون في هذا الخندق الطويل (والذي يعدُّ طويلاً في هذه الأيام) ليلاً ونهاراً بجهد ومواظبة . وكان على الفئة أن تعمل ، وتجعل النوم مناوبة فيما بينها . في حين أن محمداً لم يعرف الراحة أثناء الحفر . أما أبو بكر وعمر ، هاتان الشخصيتان البارزتان ، واللتان تعتبران من أشراف مكة ، فإنهما لم ينقلا التراب بالزنابيل ، لأنهما منحاها إخوانهما ، بينما كانا يحملانه في رداءيهما .

---

(١) موضع بالمدينة ، وهما أطمان سميا به لأن شيخاً وشيخة كانا يتحدثان هناك .

قلنا إن حفر الخندق بدأ من منزل الشيخين ، وانتهى بناحية قبا . وهذا يعني أن القسم الشمالي الشرقي ، والشرقي ، والجنوبي الشرقي ظل من غير خندق . لأن هذه الأطراف الثلاثة ذات موانع طبيعية في وجه المشركين . من هذه الموانع تل المنافذ الضيقة لبساتين المدينة . وقد اتخذ عدد من الرماة وضاربي المقاليع المسلمين مواقعهم فوق أشجار النخيل ، ليحولوا دون عبور المشركين من هذه المواقع . وعلى هذا فإن محمداً لم ير ضرورة لحفر هذا الجانب . وأثبتت نتائج المعركة صحة الرأي الذي ذهب إليه . وقد سمح محمد (ﷺ) للمسلمين بأن يغنوا بصوت مرتفع ، ولا سيما من كان ذا صوت جميل ، ليخفف عن نفسه وعن إخوانه عناء العمل . ولا مانع من أن ينشد الشعر من أراد .

كان « عُمارة بن حزم »[1] صبياً في الثانية عشرة ، وذا صوت عذب . وبينما كان محمد يعمل في القسم الذي يحفر فيه عمارة سمع صوته ، فأعجبه . وشرع منذئذ يأخذه معه إلى أقسام أخرى من الخندق ، ليستمع العاملون جميعاً إلى صوته . وكانت الفئة التي تُنجز موضعها لا تنشُد الراحة والنوم ، بل تنتقل إلى بقعة أخرى ، لتعين أصحابها . إن مثل هذا العمل الفدائي نادر في القديم ، ولكن وجد له مثيل في العصر الحديث ، عندما رأينا سكان مدينة « لينينغراد » في الحرب العالمية الثانية . فقد كنا نجد الرجل والمرأة يخرجان من مدينتهما ليحفرا ، وينقلا التراب ، ويصنعا الخندق والاستحكامات . . ليستفيد منه الجنود . وحين وصل جيش مكة إلى المدينة كان المسلمون قد أنهوا حفر خندقهم ، وحملوا سلاحهم ، وتربَّصوا .

عندما تحدثنا عن معركة أحد ذكرنا أن جيش مكة لم يستطع الدنو من المدينة من الناحية الجنوبية ، لأنها أرض صخرية ، لا تعين الجمال على تخطِّيها . وهكذا

---

(١) هو عمارة بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري الخزرجي ثم من بني النجار . كان من السبعين الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) ليلة العقبة . شهد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) . كما شهد حروب الردة مع خالد . استشهد باليمامة سنة ١٢ هـ (أسد الغابة) .

قدم جيش مكة مبتعداً عن الجنوب ، متجهاً نحو الشمال والغرب ، أي اتجه نحو سفح جبل أحد .

وكم تمنى أبو سفيان أن يلقى المسلمين ويحاربهم قرب أحد . وتألف جيشه من رجال مكة ، ومن قبائل عديدة مثل : بني فزارة ، وغطفان ، والأحابش ، وتهامة ، وكنانة . وكان أبو سفيان بهذا الجيش اللجب يطمح إلى إفناء المسلمين لدى لقائه . وحين لم يلقَهم في جبل أحد أمر الجيش بأن يتحول نحو المدينة . ولكنهم فوجئوا بخندق يحيط بها ، يمنعهم من هذا الهجوم .

لم يعتد العرب قديماً على الاستحكامات العسكرية ، ولا على الأسوار العالية ، كما لم يروا خندقاً قبل ذلك اليوم . فاعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم له ، وتوقفوا تجاهه حائرين لأنهم لا يستطيعون تخطيه . ولو أن قائد جيش مكة رومي أو فارسي لوجد طريقة لعبور هذا الخندق . لكن أبا سفيان تاجر ، لا يقدِّر الأمور العسكرية حق قدرها . ولهذا فإن جهل العرب وبساطتهم حالا دون عبور هذا الخندق . بل إنه اتَّضح لهم أن عبوره غير ممكن مطلقاً . فما كان من أبي سفيان إلا أن أمر بنصب الخيام حول الخندق ، لأنه لم ير وسيلة إلا محاصرتها . وهكذا كان جيش مكة على طرف الخندق الخارجي ، وجيش المدينة على طرفه الداخلي ، يسمعون أصوات بعضهم بعضاً ، ويرون بعضهم بعضاً . وكان جنود مكة يعيبون على المسلمين ، فيقولون لهم :

ـ أنتم لستم عرباً ، ولا محاربين . فلو كنتم كذلك لما احتميتم خلف الحفرة التي تدل على أنكم جبناء ، تخافون الحروب . أأجدادنا وآباؤنا احتفروا مثل هذه الحفرة واختبأوا خلفها خوف الحروب ؟ إن كنتم عرباً أو محاربين فاخرجوا من خلف هذه الحفرة ، وتعالوا إلينا ، واشهروا سيوفكم لنرى قوتكم .

كان المسلمون يسمعون هذه الأقوال ولا يجيبون ، وكانوا يراقبونهم خشية أن يتمكن بعضهم من عبور الخندق . وحلّ في ذلك الفصل برد شديد أصاب المسلمين

والمشركين . أما المسلم فكان إذا اشتد به المرض عاد إلى منزلـه واحتمـى به وأمـا المشركون فلم يكن لهم ملاذ يحميهم ، في حين أن محمداً (ﷺ) كان طيلة الليل يرقب الحدود الحربية ، ولا يأوي إلى منزله . وكان الطرفان يتناوشـان بالنبـال ، ووقع عدد من الجرحى بسبب هذه المنابلة . إلا أنهم يتوقفون عن النبل ليلاً أو حين يحل الظلام ، عندئذ يباشرون بقذف الشتائـم والـكلام وإنشـاد الشعـر الهجائـي بصوت عالٍ .

وبين شتائم الليل ونبال النهار كانت تجري بعض الصفقات التجـارية بـين الطرفين . من ذلك اقترح المسلمون على أفراد قبيلة غطفان أن ينفصلوا عن جيش مكة وينسحبوا، وهم مستعدون لأن يدفعوا لهم أجزاء كبيرة من محاصيل التمور . كانت تجري مثل هذه المعاملات علانية ، بحيث يسمـع الطرفـان كلام بعضهـم بعضاً ، والمفروض بمثل هذه الأمور أن تجري سراً حتى لا ينتبه الطرف الآخر ، لأنها محاولات لتفريق الصفوف والجيوش . لكن عرب البادية قوم صريحون ، واضحو التفكير ، لا يحبون المخاتلة ولا المواربة في الحديث أو في المعاملة . لكن الصفقة لم تتم لتدخُّل أبي سفيان فيها ، ومنعه غطفان من التورط مع المسلمين .

ومضت أيام من غير أن ينجلي موقف جيش مكة من مسألة العبور . لكنه فكر بأن يغري اليهود بالحملة على المسلمين من داخل المدينة . وقد ذكرنا أن طائفتين من أصل ثلاث هجرتا ، ولم يبق إلا بنو قُريظة الدباغون . واستطاع أن يتصل بهم ويشجعهم على تنفيذ خطته ، لكن المعلومات كانت تصل إلى محمد (ﷺ) سراعاً ، فأدرك مسعى أبي سفيان . فأرسل محمد (ﷺ) إلى اليهود رجلين أحدهما « سعد ابن عُبادة »[1] ليذكِّرا اليهود بدستور المدينة ، وبالعهد الذي قطعوه مع المسلمـين على صد أعداء المدينة . لكنهما وجدا اليهود على أخبث ما بلغهم عنه ، فعلموا أنهم مصممون على الوقوف إلى جانب جيش مكة . وأيقن محمد (ﷺ) أن أبا سفيان

---

(١) والآخر هو سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وابن عبادة سيد الخزرج .

سرعان ما يعقد الصفقة مع بني قُريظة على أن يهاجموه من الخلف . وعندئذ سيقع المسلمون بين حدين ، ولن ينفع الخندق في حمايتهم . وتخوف المسلمون من هذا الأمر ، فالتمسوا محمداً (ﷺ) ليحلُّ لهم هذه المعضلة ، وقالوا له :

ـ نحن الآن معرَّضون للفناء إن حمل علينا اليهود .

فأجابهم محمد :

ـ يأمل أبو سفيان بأن تأتيه النجدة من اليهود ، أما نحن فنأمل بالمساعدة من الله ، ولا أحسب أنه يتركنا من غير رعاية . إن كنا قد خسرنا في معركة أحد فلأن بعض المسلمين لم ينصاعوا لأوامري ، ولم يطيعوا تعليماتي .

كان قول محمد (ﷺ) حقاً . فلقد كان الله معهم ، وأمدَّهم بعطفه . ففيما كان القرشيون يتفاوضون مع بني قُريظة حدث أمر مهم جداً بالنسبة إلى المسلمين . فقد أتى محمداً (ﷺ) الرجلُ الذي ينقل الأخبار بين الطرفين ، وهو « نُعيم بن مسعود »[1] وقال له :

ـ يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرْني بما شئتَ .

بعد أن سمع محمد (ﷺ) كلام نعيم تذكر عطف الله عليه ؛ بأن أرسل هذا الإنسان ليحمي المسلمين . فقال له محمد (ﷺ) :

ـ إنما أنت فينا رجل واحد ، فخزِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

وأطاع نُعيم أمر النبي (ﷺ) ، ومنذئذ بدأ ينفذ الخطة التي أمره بها رسول الله . وذهب إلى اليهود ، وقال لهم :

---

(١) هو نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي . قدم على النبي (ﷺ) سرا أيام الخندق ، فأسلم وكتم إسلامه ، ثم ألقى الفتنة بين الأحزاب المشركة . مات في خلافة عثمان ، وقيل قتل يوم الجمل (الأعلام) سنة ٣٠ هـ .

ـ يا بني قُريظة ، قد عرفتم وُدِّي وإياكم ، ولا سيما ما بيني وبينكم ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد ، وقد ظاهرتموهم عليه . . البلد بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره ، فليسوا كهيئتكم ، إن رأوا نُهْزَةً وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً (ﷺ) حتى تناجزوه .

عندما سمع اليهود نصائح نعيم أحسوا بأن كلامه كلام رجل عاقل ، ووعدوه بأن يُحسنوا التفكير والتصرف قبل أن يقطعوا صلتهم بالمسلمين . عندئذ ذهب نعيم إلى أبي سفيان وقال له ولمن معه :

ـ يا معشر قريش ، قد عرفتم ودِّي إياكم ، وفراقي محمداً (ﷺ) . وقد بلغني أمر رأيت حقاً عليَّ أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عليَّ . . إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أن قد ندِمْنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم . ثم نكون معك على مَن بقي منهم ؟ فأرسل إليهم أنْ نعم . فإن بعثت إليكم يهودُ تلتمس منكم رُهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم جربوا أن تطلبوا إليهم خوض الحرب يوم السبت ، فإن اعتذروا فاعلموا أنهم يراوغون ويعرقلون خطتكم ، ولا يريدون الاشتراك فيها .

وانغمر أبو سفيان في تفكيره بعد إذ سمع آراء نعيم . وأشاع المسلمون أن اليهود سيأخذون رهائن من قريش ليسلموها إلى محمد (ﷺ) ، ليقتلهم جميعاً . وكانوا إذا سألوا النبي (ﷺ) عن مدى صحة هذه الشائعة يقول :

ـ لعلنا أمرناهم بذلك .

كان جواب محمد (ﷺ) هذا عاماً ، وبإمكان كل فرد أن يؤول كلامه بحسب تفسيره . حتى أبو سفيان وجيشه تهيأ لهم أن اتحاداً جرى بين محمد وبين بني قُريظة بشأن هؤلاء الرهائن .

وأرسل يهود إلى أبي سفيان رسالةيعرضون فيها عليه استعدادهم للبدء بالمعركة ، إذا وافق على إرسال عدد من سادة قريش رهائنَ ، لأنهم يخشون المبادرة ، في حين تحجم قريش أو تنسحب . ولقد أيّد طلب الرهائن آراء نعيم . وفكر أبو سفيان ورجاله في الأمر ، وتأكدوا من اتّعاد يهود لمحمد (ﷺ) . لذلك رفض طلب اليهود ، وأمرهم ببدء الحرب يوم السبت ، وقال :

ـ إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخفّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً (ﷺ) ، ونفرُغ ممَّا بيننا وبينه .

فأرسلوا إليه :

ـ إن السبت يوم لا نعمل فيه شيئاً . وقد كان أحدث فيه بعضنا حدَثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رُهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً (ﷺ) . فإنا نخشى إن ضرّستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال ، أن تُشمِّروا إلى بلادكم وتتركونا والرجلَ في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك من محمد (ﷺ) .

وهكذا وقع سوء الظن بين الطرفين ، فلم يتمكنا من الحرب معاً . وبعد مرور أسبوعين على انتظار عشرة آلاف محارب مقابل الخندق قل الطعام وندرت الأعلاف . فتضايق قائد الجيش في حين أن المسلمين في المدينة لم يشعروا بهذه الضائقة . فقد كان أبو سفيان يظن ، حينما قدم إلى المدينة ، أنه سيلقى الأعلاف حولها ، غافلاً عما أمر به رسول الله . وبالإضافة إلى هذا ، فإن برودة الطقس أثناء الليل آذت جيش مكة كثيراً ، ولا سيما أنهم في مكة يعيشون في منطقة حارة . فلم

يكفهم الاحتماء في الخيام من هذه الرياح القاسية . ثم إن شهر شوّال يؤذن بالأفول ، ويدنو شهر ذي القعدة ، أحد الأشهر الحرم . ويعلم رجال أبي سفيان أن شوال إذا انقضى لا يتمكنون من محاربة المسلمين إلا بعد مضي ثلاثة أشهر ، ولم يجد سادة قريش أمامهم إلا بضعة أيام ، فإن لم يحملوا فيها على المسلمين استحال عليهم الأمر . ثم لا يمكنهم أن ينتظروا ثلاثة أشهر في هذه الضائقة وهذه البرودة ، وهم في الصحراء ، ومعهم عشرة آلاف محارب .

وإبّان الحصار كانت بعض المناوشات والمجاولات الفردية تقع بين المسلمين وبين المشركين . من ذلك « عمرو بن عبْد وَدّ »[1] ونوفل المخزومي ، حيث قتلا على يد علي بن أبي طالب . فقد قفز نوفل بجواده إلى الخندق ، فنزل إليه علي . لكن نوفلاً سقط من على الجواد ، فانتظره علي حتى ينهض ، ويشهر سيفه ، من غير أن ينتهز الفرصة ليقتله . حينما نزل نوفل الخندق كانت الشمس تشارف على الغروب ، وترسل أشعتها نحو عيني علي ، ومع ذلك فإنه تمكن من قتله قبل غروبها . ولما كانت نساء قريش قد مثّلت برجال المسلمين في معركة أحد فقد خشي أبو سفيان من التمثيل بنوفل ، وهو أحد أثرياء مكة . فبعث إلى علي من يقول له :

- أمنحك مئة جمل بشرط ألا تقطع رأسه ، وتسلمني جثته سليمة لكن علياً رفض هذه المنحة ، وردّ الجثة من غير عيب إلى قريش .

والمحارب الآخر الذي قتل بيد علي ، هو « عمرو بن عَبد وَدّ » فبالإضافة إلى شجاعته كان ذا جسم ضخم . وقد استطاع في أثناء مصاولته أن يجرح علياً مرتين بسيفه ، بيد أن علياً لم يكن ذلك الرجل الذي ينسحب من ساحة الحرب بسبب جرحين . وتابع علي مجاولته ، فضرب خصمه عمراً على يده ضربة أطاحت

---

(١) هو عمرو بن عبد ودّ العامري من قريش . فارس شجاع في الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم قتله علي يوم الخندق . لم يشتهر في شجاعته لأنه لم يكن من المغيرين .

بسيفه . فدنا علي من السيف ووضع قدمه عليه ، حتى لا يتسنّى له تناوله ، ثم قال له :

ـ يا عمرو ، إن أعلنت إسلامك فلن أقتلك .

فبصق عمرو بن عبد ود في وجه علي ، وأجابه :

ـ لن أسلم .

فمسح علي وجهه ، وسكن قليلاً ، لا يتكلم ولا يتحرك ، بينما تابع عمرو كلامه :

ـ قلت لك لن أسلم ، فلمَ لا تقتلني ؟

فأجابه علي :

ـ لأنك حين بصقت في وجهي اعتراني الغضب . فلو قتلتك آنئذ لجاء قتلي انتقاماً وثورة . وأنا لا أريد أن أقتلك في حالتي الثائرة هذه ، لأننا مسلمون ، ونحن نحارب في سبيل الله ، لا في سبيل إخماد ثورة غضبنا . أيا عمرو ، مع أنك بصقت في وجهي أعود فأسألك : إن دخلت في الإسلام عزفت عن قتلك .

فردَّ عمرو كلامه :

ـ لن أسلم .

عندئذ دنا علي منه وضربه بسيفه ضربة قضت عليه . وقد كان يرتدي درعاً ثمينة بحلقات ذهبية ، ففكها عنه ، وأرسلها إلى أخت عمرو ، حتى لا يظن أحد أنه قتله ليربح هذه الدرع .

وحلّ بالمشركين إرجاف هائل من الجوع والبرد الشديدين ، ممَّا ضعضع صفوف الجيش . وفي إحدى الليالي هبت رياح قارسة أطاحت بالخيام ، وأخمدت النيران . وبعد دقائق هطلت أمطار غزيرة وعنيفة ، سال لها الوديان . فخشي أبو

سفيان أن يهاجمهم المسلمون في مثل هذه الساعة ، فأمر القوم بالرحيل .

يذكر المؤرخون أن أبا سفيان كان مضطرباً جداً لدرجة أنه حين ركب جمله لم ينتبه إلى أنه ما زال مربوطاً ، فضربه لينهض ، لكن الجمل لم يتمكن من النهوض . ورحل جيش مكة في تلك الليلة ، وبرحيله انتهت معركة الخندق ، أو معركة الأحزاب . . ولم يخسر الطرفان غير ثمانية رجال ، لأنهما لم يلتقيا .

ومع أن المعركة انتهت على هذه الشاكلة ، فإن المدينة ظلت محاصرة اقتصادياً . فقد ظلت واقعة بين فكيٍّ كماشة ؛ فكها العلوي خيبر ، وتبعد مئتي كيلومتر شمالاً ، وفكها السفلي مكة ، وتبعد أربعمئة كيلومتر جنوباً . ولم تسمح هاتان البلدتان لقوافل المسلمين بالعبور بحرية ، لأن الاثنتين قويتان . فسكان خيبر يهود أغنياء ، يستطيعون التصدِّي للقوافل ، وكذلك مكة الواقعة تحت نفوذ أشرافها ، الذين يكنُّون الضغينة المقيتة للمسلمين ، وعلى رأسهم : أبو سفيان ، وزوجه هند ، وعكرمة ، وأبو جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم .

ولم ير النبي (ﷺ) بداً ، لفك حلقة الحصار ، من محاربة إحدى البلدتين . لكنهما متفقتان على حماية بعضهما بعضاً ضد المسلمين . ثم إن مسلمي المدينة يحيون بين عدوين آخرين ، هما : المنافقون واليهود . يقول الطبري بشأن المنافقين : « منذ أن وضعتهم أمهاتهم لم يستطيعوا أن يصمموا على أمر واحد ، إلا أنهم في معركة الخندق اعتراهم الأمر الجدي ، ولكن مع الأسف ، اتخذوا جانب المشركين » . ولا شك أن الطبري أغرق في المبالغة الأدبية حين ادعى أنهم مضطربو الرأي منذ ولادتهم . لكن كلما تأزمت العلاقة بين المسلمين والمشركين (أو اليهود) انحاز المنافقون إلى صف أعداء الإسلام ، في حين أنهم محسوبون على الإسلام . ولكنهم في معركة الخندق عزموا على معاضدة المشركين . ولعل سبب ذلك اعتقادهم بأن جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف محارب ، لا شك ، سينتصر على محمد (ﷺ) والمسلمين . . . وفوجئوا بعد حين بأن المشركين لن يفوزوا . وهم على أية حال لم يُقدموا على أمر يدل على تحيز إلى صف أهل مكة ، إلا من الناحية

المعنوية . وأحسوا بخطئهم بعد رحيل الجيش . لذلك لم يفكر محمد بمعاقبتهم . لكن المسلمين لم ينسوا ، ولن ينسوا ، موقفهم السلبي كما سنرى .

لكن بني قريظة نقضوا عهد المدينة ، فاتحدوا مع أعدائها ، في حين أن الواجب كان يحدوهم إلى الدفاع عن بلدتهم ضد المهاجمين . والرسول (ﷺ) في معركة أحد قال لهم إن هذه الحرب دينية ، ولستم مضطرين إلى الخروج مع المسلمين والحرب في صفهم . ولا سيما أن المعركة جرت خارج المدينة ، أما الآن فهم داخل الخندق .

حين رأى بنو قريظة أن المشركين رحلوا ، وتفرغ لهم المسلمون ، أحسوا بالخطر يداهمهم لخيانتهم ، فتحصنوا في قلاعهم ومنازلهم . وتفرَّس النبي (ﷺ) في وجه علي ابن عمه ، فرأى فيه إخلاصاً صادقاً ، وبطولة نادرة أثبتها في معركة أحد والخندق ، لذا أوكل إليه أمر بني قريظة . فاتجه إليهم ، ومعه كوكبة من المجاهدين .

« قريظة » بالعربية ، معناها شجرة « الأقاقيا »(١) . ولما كانت بعض أنواع الأقاقيا تستخدم في الدباغة ، وهي حرفة غالبيتهم دعُوا « بني قريظة » . ولكنهم أيام الخندق ـ في السنة الخامسة ـ لم يكونوا يعملون بها إلا قليل منهم ، وكان عملهم قديماً جداً . وعلى أثر غنى اليهود بفئاتهم الثلاث بنوا لأنفسهم منازل حجرية حصينة . وكان بعض منازلهم أشبه بالقلاع الحربية . ولهذا عقب رحيل قريش قرروا الاعتصام والتحصُّن وعدم مجابهة المسلمين . وبعد أن حاصرهم علي عرض عليهم أن يدخلوا في دين الله ، فأجابوه :

ـ نحن لا نعترف بمحمد نبياً ، ولن ندخل في دينه ، لأنه عربي . ولا يكون النبي من العرب ، بل يكون من بني اسرائيل ، لأن الله لا يخاطب أحداً غيرهم ،

---

(١) أقاقيا : كلمة يونانية AKAKIA ، وهي نوع من الأشجار القاسية .

ولا يبعث نبياً إلا منهم . وكل الأنبياء القدماء من بني اسرائيل ، وإن ظهر نبي جديد اليوم وجب أن يكون من بني اسرائيل .

واستمر حصار بني قريظة أربعة أسابيع (ويروى ستة) ، مما أنفد أغذيتهم . فنادى كعب بن أسد رئيس بني قريظة من وراء قلعته :

ـ يا علي ، يفتقد أبناؤنا إلى اللبن ، لأن أثداء أمهاتهم جافة ، لعدم وجود ما يأكلنه .

فنادى علي :

ـ يا كعب بن أسد ، نحن الذين نحاصركم عندنا أطفال ، ونعلم كم يعاني الطفل من الجوع . نحن لا نريد بهم أذى ، لكنكم نقضتم عهد المدينة مرات ، ولم نعد نأمن منكم مطلقاً . فهل تقبلون حكماً يحكم بيننا ؟

أجابه كعب :

ـ أمهلني ساعة ، أتشاور فيها مع رجالي .

لم يكن محمد (ﷺ) مضطراً إلى وضع حكم وسيط بينهما ، لكنه أعلن لعلي أنه يقبل برأي الحكم . وبعد مضي ساعة نادى كعب من خلف الحصن :

ـ نقبل بحكم أحدهم .

قال علي :

ـ نمنحكم حرية اختيار الحكم الذي ترتضون به ، حتى لا تظنوا بنا السوء . وبعد أن يتم تعيينه نرسل إليه ممثلين من قبلنا وممثلين من قبلكم . وسيتحدث ممثلانا عن نقضكم عهد المدينة ، ومخالفتكم له ، وليقل ممثلاكم ما يشاؤون . وسننفذ ما يصدره الحكم . فهل تقبلون به ؟

أجاب اليهود :

ـ بلى يا علي نقبل .

وقال علي :

ـ ونحن نقبل به أيضاً .

ومع أن الحرب لما تنتهِ ، ومع أنهم مازالوا محاصَرين ، فإنه سمح لهم بنقل الأطعمة التي يرغبون فيها ، والتي تكفيهم لمدة أسبوع . . . حتى لا تبقى الأمهات من غير لبن لأطفالهن . وتشاور اليهود ثانية ، وقرَّ رأيهم على تعيين سعد بن معاذ حكماً لهم .

كان سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس ، وهو صديق العرب واليهود على السواء . وبعد أن عُين الحكم أرسل اليهود ممثلين لهم ، والمسلمون ممثلين . وشكا المسلمان إليه ما فعله اليهود بمخالفة دستور المدينة ، وقالوا له :

ـ كان على اليهود أن يشاركونا في الدفاع عن المدينة ضد أي هجوم . لكنهم خالفوا العهد الذي بيننا ، واتفقوا مع جيش مكة على مهاجمة المسلمين من الخلف ، وهكذا يقع المسلمون بين عدوين خصمين .

أما ممثلا اليهود ، فقد عرضا مسألة معركة أحد ، وقالا :

ـ كنا نريد أن نساعد المسلمين في معركة أحد ، لكنهم لم يقبلوا منا ذلك ، واعتقدنا أن محمداً (ﷺ) لا يريد مساعدتنا في معركة الخندق .

وردّ ممثلا المسلمين عليهما فقالا :

ـ لكن بني قريظة اتفقوا مع قريش ضدنا . ولو لم يوفق محمد إلى منع هذا الاتفاق لوقع المسلمون بين خصمين .

وأتيا بنعيم بن مسعود شاهداً . فاعترف للحكم بدقائق مساعيه مع ذكر الأسماء صراحة . ودامت المحاكمة عدة أيام ، كان سعد فيها يستمع إلى قول الممثلين والشهود . وبعد ذلك أعلن رأيه فقال :

ـ خالفت قريظة العهد ، وأهملت العقد ، وسعت إلى الاتفاق مع الخصوم لضرب المسلمين من الخلف ، لذا توجب عليها الإعدام .

لم يصدر المسلمون هذه الفتوى ، بل أعلنها رجل اعتبره اليهود صديقاً لهم ، وهم الذين اختاروه لهذه المهمة . وبعد صدور هذا الحكم برّأ علي النساء والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد ، والشيوخ المسنِّين . أما الباقون فمن دخل في الإسلام بُرئت ساحته ، وأما الباقون فقد ثبتوا في القلاع والمنازل ، وحاربوا ببسالة حتى قتلوا عن بكرة أبيهم .

تصميم النبي على اداء العمرة في مكة

كان المسلمون يظنون أن النبي (ﷺ) سيهاجم خيبر أو مكة ليفك الحصار ، لكنه ارتأى حلاً آخر لم يتوقعه المسلمون ، ذلكم هو ذهاب المسلمين جميعاً معه لأداء العمرة ، في حين أن مكة تحمل في طياتها الضغينة والحقد لمحمد (ﷺ) . فهي التي جيَّشت الجيوش لحربه . ومع كل هذا فقد صمَّم على الذهاب إليها. وقد ظنوا باديء ذي بدء أنه يريد فتحها ، لكنه أجابهم بأنه يريد زيارتها لا حربها .

وهكذا سار ، ومعه ألفا رجل[1] ، وعدة مئات من الجمال إلى مكة في الشهر الثاني من فصل الشتاء عام ٦٢٨ المطابقة للسنة السادسة . كان عدد المسلمين آنئذ أكثر من ألفين ، لكن عدداً منهم بدو رحَّل ، فلم يستجيبوا لرحلته ، لأنهم اعتقدوا بأن محمداً (ﷺ) في حالة حرب مع قريش ، لذا فهو راحل لحربهم . وهم يرفضون لأنهم لا يريدون مهاجمة مكة ؛ المنطقة الحرام[2] . ثم إنه رحل في الأشهر الحرم ، والبدو لا يحاربون في هذه الأشهر ، والذين رفضوا المسير معه حديثو الدخول في الإسلام ، وما زالت رابطتهم به غير قوية .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن عدداً من المسلمين سُرَّ كثيراً لقرار محمد في هذه الرحلة ، وهم المهاجرون الذين ابتعدوا عن بلدتهم مكة منذ ست سنوات . وتحسن الإشارة إلى أن مكة تعد لدى عرب الجزيرة . جميعاً معتبرة ومقدسة ، لأن

---

(١) ويروى أقل من هذا بكثير .

(٢) قال ابن اسحاق : واستنفر العربَ ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه . . . فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج رسول الله (ﷺ) بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب .

سيدنا آدم بنى فيها أول بيت لعبادة الله ، وبعده ابراهيم الخليل الـذي جدد بنـاء الكعبة ، لتبقى ملاذ عبادة الخالق . ثم هي موطن المهاجرين ، فتحوا فيها أعينهم على الحياة ، ويتمنون أن يعودوا إلى أوطانهم فيها ، لكي يموتوا في بلدهم بين أهلهم وذويهم . لأن العربي يعتبر موته خارج وطنه ، وبعيداً عن أهله وأفراد قبيلته فاجعة كبيرة . ومن أفظع ما يقال للمرء دعـاءً عليه : « أماتـك الله غريبـاً ، بعيداً عن أهلك » . لذا يمكن توقُّـع ابتهاج المهاجرين واحتفائهم لدى فكرة العودة إلى مكة ، لأنهم سيؤوبون إلى أوطانهم أخيراً .

نـوَّهنا بأن مكة كانت من الناحية الدينية مجمعاً للملل والمعتقدات . وأن لكل ديانة أو عقيدة حجرة خاصة تحيط بالكعبة ، يضع فيها أصحابها وثنهم أو صورهم . ويحق لكل فرد أو قبيلة أن يزور الكعبة ، ويطوف حولها كما يحلو له . والإسلام بنظر أهل مكة دين خاص ولأتباعه الحق في زيارة الكعبة ، ولا يجرؤ المكيون على أن يقولوا لهم إنه لا يحق لهم دخول الكعبة . ولو لم يُـظهر محمد استنكاره للمعتقدات الوثنية ، ولـو لم يحـكم على الأوثـان بالـزوال لما أزعجـه أحـد ، ولما تسـبَّـب في الهجرة . وقد رأينا أن سبب الخلاف الناجم بين محمد وقريش أنه أعلن بطلان هذه الأوثان ووجوب تحطيمها .

ولما أعلن محمد (ﷺ) زيارته إلى الكعبة ـ كغيره ـ لم يصـرِّح بعدائه للأوثان ولا للمعتقدين بها . وعلى هذا لم يجـرؤ المكيون على منعـه ، من حيث القواعـد والأصول ، لكن خصامهم معه يمنعهم من تحمل وجوده بين ظهرانيهم . وعندما أزمع على المسير لم يكن أبو سفيان موجوداً في مكة ، فحار سائر الأشراف : ماذا يصنعون ؟

من مصلحة أهل مكة أن يفد الزوار على الكعبة من كل أطراف الجزيرة ، مَـن كانـوا ، وعلى أية عقيدة هم ، ليسـتفيدوا من أموالهـم التـي يصرفونهـا في الأسواق، وليأكلوا من لحم ذبائحهم وقرابينهم . فإن مانعوا من دخول ألفي مسلم

إلى مكة تسببوا في إضرار أنفسهم ، ثم إنهم سيقدمون في الشهر الحرام ، ولا يحق لهم اعتراضهم . ولكن كيف يسمحون لهم ، بعد تلك المعارك الطاحنة ، بدخول بلدتهم ؟ وفي حال اعتراضهم ، وعدم السماح لهم بالدخول لأنهم مسلمون ، فكيف يقال إن مكة بقعة حرام ، يحق لكل انسان أن يزورها ويطوف حولها ؟ واستثناء واحد كاف لأن ينقض القانون العام ، ويحرم سوق عكاظ عندئذ من زائريه . وإن سمحوا لألفي مسلم مع عدة مئات من الجمال بأن يدخلوا مكة ، فربما احتلوا بلدتهم وسيطروا عليها .

وبعد جدال عنيف ومشاورات حادة أزمعوا على الحؤول دون قدومهم . وعلى هذا فقد أمر أربعون فارساً بإيقاف زحف المسلمين ومنع تقدمهم . وحين دنا الفرسان من المسلمين أُسروا جميعاً ، وسُلبت منهم أسلحتهم . لكن محمداً (ﷺ) أمر بأن تردَّ إليهم أسلحتهم ، وأن يطلق سراحهم من غير فدية . كان هذا العمل ـ ولا سيما إطلاق الفرسان ـ مبعث إعجاب وإكبار ، لأن العرف في الجزيرة أن الأسير لا يُفك أسره ما لم يدفع الفدية ، أو يبادل عليه أسرى آخرون . وسأل عدد من المسلمين محمداً (ﷺ) :

ـ لماذا نطلق الأسرى من غير فدية ، ونعيد إليهم أسلحتهم ؟

أجاب محمد (ﷺ) :

ـ لأننا زوار بيت الله الحرام ، ولسنا محاربين . قصدنا هو الطواف حول الكعبة ، ومن كان هذا هدفه لا يحق له أن يحارب أو يأسر أحداً .

وبعد قليل خرج من مكة مئتا فارس ، واتجهوا نحو محمد (ﷺ) ، ليمنعوه من الدخول . وكان قائدهم عكرمة بن أبي جهل . وحين وصل عكرمة إلى مضارب المسلمين ، رآهم يصلون ، ووجهتهم الكعبة . كان مشهدهم مهيباً وقوراً ، لهذا لم يجرؤ على مهاجمتهم ، فتنحَّى عنهم من غير أن ينأى . . لكنه استعد ليمنعهم من التقدم نحو مكة .

وكي يفهم أهل مكة القصد من هذه الزيارة ، فقد أرسل النبي (ﷺ) رسولاً إليها ، وأمره بأن يوضح لهم أن المسلمين لم يجيئوا للحرب ، وليس لهم إلا قصد الزيارة ، وهم لا يحملون سلاحاً .ولو أرادوا الحرب لجاؤوا بالعتاد اللازم . لكن عكرمة أصر على منع الرسول ومن معه ، فأوقفهم ، وشرّد جمالهم في الصحراء ثم تركهم . فتاهوا ، وكادوا يقضون حتفهم جوعاً وعطشاً ، لولا أنهم وصلوا في الرمق الأخير إلى المسلمين . ومع ذلك فقد ظل عكرمة متربصاً بالمسلمين .

وحينما دنا المسلمون من حدود مكة ، ومن هذه الحدود تبدأ المنطقة الحرام ، أمرهم بالتوقف ، وبسوق الهدْي المعدّة للذبح ووضع العلامة عليها . وهذه عادة معروفة عند العرب في الجاهلية ، وقد راعاها رسول الله ، ليعُلم أهل مكة أن النبي (ﷺ) وصحبه ، إنما قدموا للحج لا للحرب . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدداً من مناسك الحج الإسلامي التي ما زالت متداولة حتى اليوم ، أكانت للحج أو للعمرة ، هي نفسها التي كان يُعمل بها في الجاهلية . وقد حافظ عليها رسول الله حتى لا يكبر على العرب بتبدُّل كل الشعائر المعترف بها(١) . وكان محمد (ﷺ) يهدف في الإبقاء على بعض هذه العادات أن يُفهم العرب جميعاً أن مناسك الحج ستبقى ، وأن مكة هي دائماً مركز التجارة الأول ، والكعبة مقدسة لدى الجميع ، للمسلم ولغير المسلم . كان محمد (ﷺ) يهمُّه أن يُفهم أهل قريش أنه لا يرفض الاعتراف بقدسية الكعبة ، لأنه يعلم أن القرشيين يولون تجارتهم احتراماً أكبر من احترامهم للأوثان المحيطة بالكعبة . وما اهتمامهم لها إلا جزء من اهتمامهم بتجارتهم . وأقلُّ تبديل في أوضاع الكعبة يخلُّ بالوضع الاقتصادي لمكة . ولهذا قدَّر محمد (ﷺ) أن مظاهر زيارة الكعبة مهمة لأهل مكة بعامة ، وللقرشيين بخاصة . لأنهم يوقنون بأن بقاء هذه المظاهر وهذه المناسك دليل على بقاء مكة سوقاً تجارية عالمية ، ولن ينقطع عنهم رفدُ التجارة مطلقاً .

---

(١) ناهيكم عن أن كثيراً منها متوارث عن الديانة الحنيفية .

يذكر المؤرخون الإسلاميون أمثال : ابن هشام ـ حميد الله ـ السَّرخسي ـ الطبري ـ أبو داود ، ممَّن سجلوا حياة محمد (ﷺ) أنه بعد أن وضع علامة الهدي أرسل عدداً من المسلمين إلى القبائل المحيطة بهم ، يدعونهم إلى مشاهدة المراسم المذكورة التي يسميها العرب « السليقة » ، حيث وضعوا عليها العلامات استعداداً لذبحها على عادة العرب .

معنى السليقة في العربية المعاصرة : الطريقة الخاصة في آداب المعاشرة للطعام ، أو للفنون والآداب ، وكثيراً ما ترد كلمة « السليقة »[1] مرادفة لكلمة « الذوق » ، فتراهم يقولون : ذوق وسليقة . في حين أنها قديماً بمعنى السمة والعلامة ، يربط بها الجمل . فحين يهيئون الجمال للذبح يَسِمونها بعلامة تدعى « السليقة » .

وقد قلنا إن الجمل حيوان غالي الثمن ، يربَّى للمباهاة ، في حين أن الناقة تخصص للركوب ، ويدعونها « شيحانة » . وكان من جملة جمال القرابين التي أعدها محمد (ﷺ) عدد من الشيحانات ، ليُفهم العرب أنهم متمسكون بمناسك الحج أكثر من عبدة الأوثان أنفسهم . وبعد أن وَسموا الهدي ، ووضعوا على أبدانها « السليقة » تابعوا طريقهم نحو مكة . لكن عكرمة سدَّ عليهم السبل . ويقول ابن هشام على لسان عكرمة : « وآتيناهم عند السلَّة » ، أي عندما وصلنا إلى المسلمين كانوا قد استلُّوا سيوفهم .

هذا القول ، ومصدر تاريخي آخر ، يدل على أن المسلمين ، عندما اتجهوا نحو مكة ، كان معهم سيوف ، لكن السيف في ذلك الوقت لا يعتبر سلاحاً ، بل يحمله كل رجل على أية حال ، وعرب الجزيرة ، وحول الخليج ، يضعون الخنجر في خصورهم ، على أنه جزء من ثيابهم ، لا على أنه سلاح . فإن شهر المسلمون سيوفهم آنئذ ، فلا بد أن يكون ذلك عندما رأوا عكرمة وفرسانه قد استلوا

---

(١) السليقة : الطبيعة .

سيوفهم . ولم تستعمل السيوف حتماً ، لأن محمداً (ﷺ) لم يرد أن تسفك الدماء في هذه الرحلة . ثم إن قول عكرمة ضعيف ، ولم يؤيده المؤرخون الإسلاميون .

الموضع الذي علق فيه المسلمون السليقة على جمال الذبح يدعى « ذو الحُليفة »[١] ، ومن هناك أحرموا لحج العمرة ، وساروا . ولعل مسألة استلال السيوف هذه ، سببها أنهم أرادوا محاربة فرسان عكرمة . وحتى لا تُسفك الدماء أمر محمد (ﷺ) المسلمين بالاتجاه نحو مكة عن طريق « ذي الحليفة » الجبلي . وقد عانى الفرسان كثيراً من عبورهم الأرض التي تلت « ذا حليفة » ، لأنها منطقة جبلية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن حرارة الشمس والعطش أرهقت المسلمين ، حتى خرجوا من ذلك المأزق ، ووصلوا إلى الحديبية .

تبتعد الحديبية بحسب المقاييس الحديثة أحد عشر كيلومتراً عن مكة . ويمكن للمرء أن يراها منها . وقد ذرف كل من كان أصله من مكة الدموع عندما رآها فرحاً بها ، لأنهم متيقنون أنهم سيبلغون وطنهم بعد ساعتين . إلا أن جمل النبي (ﷺ) ، واسمه « ثعلب » ، توقف هناك وبرك . وحاول محمد (ﷺ) أن يُنهضه ، ولكنه كلما وقف تراجع عدة خطوات وبرك . وعلى أثر توقف الجمل قال محمد (ﷺ) للمسلمين :

- يريد الله أن نتوقف هنا .

فنزل المسلمون عن جمالهم متأسفين متألمين ، لأنهم كانوا يتمنون هذا الأمر في مكة . والأرض التي توقف فيها محمد (ﷺ) ، وهي جزء من منطقة الحديبية ، تدعى «غدير الأشطاط »[٢] . كانت هذه المنطقة ذات مياه في فصل الربيع ، لكنها

---

(١) ذو الحليفة : ورد في حديث رافع بن خُديج : كنا مع رسول الله (ﷺ) بذي الحليفة من تهامة ، فأصبنا نهب غنم ، فهو موضع بين حاذة وذات عرق من أرض تهامة (معجم البلدان) .

(٢) غدير الأشطاط : يجوز أن تكون جمع شط وهو البعد ، وهو قريب من عُسفان . ذكره عبد الله بن قيس الرقيات (معجم البلدان) .

الآن ـ حين قدم المسلمون ـ جافة تماماً ، فتوافد المسلمون على النبي (ﷺ) ، وقالوا له :

ـ نحن ألفا نفر (أو أقل) يا محمد (ﷺ) ، ومعنا مئات الجمال ، وهذه المنطقة خالية من الماء ، فلا نستطيع اللباث فيها ، ولعل الأفضل أن نتقدم لنصل إلى مكان فيه ماء .

كان محمد (ﷺ) يعلم أنه إن تقدم أكثر جرت معركة بينه وبين المشركين . وعندئذ ستسفك الدماء في الأرض الحرام ، ولا يجوز ذلك أبداً ، ولهذا قال لهم :

ـ لن نتقدم أكثر ، والله يأمرنا بالتوقف هنا .

فقال له المسلمون :

ـ وكيف نبقى من غير ماء ؟

يروى أن محمداً (ﷺ) رفع يديه إلى السماء يستسقي الله :

ـ ربنا ، أغثنا فقد دخل المسلمون الأرض الحرام .

وبينما كان محمد منشغلاً بمناجاة ربه قال له أحد المسلمين ، ولا شك أنه خبير بحفر القنوات[1] :

ـ إن تحت قدميك ماءً يا محمد (ﷺ) ، فإن حفرنا هنا وصلنا إليه .

وأسرع المسلمون إلى ذلك المكان من غير توانٍ . فوصلوا ، بعد حفر قليل ، إلى ماء كثير ، يزيد عن حاجة المسلمين . وبعد أن زال قلقهم بشأن الماء دعا عمر ابن الخطاب ليبعثه إلى مكة ، فيبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال :

---

(١) يروي ابن هشام ، أن المسلمين حين قالوا له : ما بالوادي ماء ننزل عليه ، أخرج سهماً من كنانته ، فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل به في قليب من تلك القلب . فغرزه في جوفه ، فجاش بالرواء .

ـ يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفتْ قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان .

كان عمر صريحاً جداً ، لا يعرف للأمر حداً وسطاً ، وكل شيء في نظره حسن أو سيء ، عدل أو ظلم ، صدق أو كذب . . ولا وسط بينهما . والإسلام في نظره على الحق ، والمسلمون في أمان الله ، فلا حاجة في رأيه لأخذ السماح من قريش إذا أرادوا دخول مكة ، لذا قال كذلك : « ما دمتَ على حق ، وتستطيع دخول مكة فلم تطلب الإذن منهم ؟ » . وهكذا لم يقبل أن يكون رسولاً إلى المشركين .

وعثمان صهر النبي (ﷺ) ، ومن ذوي المقام المرموق ، من الذين ذهبوا إلى الحبشة وهاجروا إلى المدينة . وهو رجل حسن المنظر والهندام ، فصيح البيان ، إلا أنه سطحي ، لا يعارض في أي موضوع يُعرض عليه ، ومن هنا جاء الخلاف بينه وبين عمر . ثم هو رجل اجتماعي ، يكثر الحضور إلى المجالس . وحين يتكلم لا يتضايق منه أحد . فدعا رسول الله (ﷺ) عثمان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته .

واتجه عثمان نحو مكة ، ولكنه لم يعد . وشاع بين المسلمين أن قريشاً أسرته ، ثم شاع أنها قتلته . وعندما وصل نبأ قتله إلى النبي (ﷺ) قرر أن يغير من منهجه . فقد كان يهدف من حج العمرة أن يتعرف سكان مكة إلى المسلمين ، فلعل هذا الحصار يزول بعد هذا . ثم إنه يريد أن يثبت أن الإسلام دين عربي ، لا يختلف عن معتقدات العرب في مسألة احترام البيت . لأن قريشاً توهمت بأنه أتى بدينه ليبدل مركزية مكة ، تماماً كما حاول أبرهة ونحن نعلم أن قريشاً لا تهتم بالمركزية الدينية بقدر اهتمامها بالمركزية التجارية . لكل هذا بادر إلى الحج (العمرة) ، على الرغم من خصومتهم معه .

عندما وصل خبر مقتل عثمان إلى محمد (ﷺ) ، كان المسلمون متجمعين تحت شجرة كبيرة في تلك المنطقة ؛ منطقة غدير الأسقاط . والأشجار الكبيرة القديمة ، ذات جذور مفرعة في باطن الأرض . فهي تحتاج ـ كما تحتاج الأشجار الفتية ـ إلى الماء في باطن الأرض ، لا على سطحها . وكما ورد في الكتب الإسلامية ، أن الشجرة التي استظل بها النبي (ﷺ) والمسلمون ، كانت كبيرة جداً ، وكافية لأن يحتمي تحتها جميع المسلمين . عندئذ دعاهم رسول الله (ﷺ) إلى تنفيذ رأيه وإطاعته من غير تساؤل أو اعتراض ، ولو كان الذي سيأمرهم به يخالف أهواءَهم . عند ذلك تقدم أحد المسلمين واسمه « أبو سنان » وقال له :

ـ يا محمد ، أبايعك على ما تأمرنا به ، وأقسم بأن أنفذ أوامرك وافقت هواي أو خالفته .

وأمسك بيده وبايعه . وتبعه المسلمون جميعاً ، الواحد تلو الآخر ، يبايعونه ويعاهدونه . وقد دعيت هذه البيعة ببيعة الرضوان . وقد أكبرها الله في قرآنه ، وذكرها في الآية (١٨) من سورة الفتح (٤٨) : ﴿ لقد رضيَ الله عنِ المؤمنين إذ يبايعونَكَ تحت الشجرةِ ، فعلمَ ما في قلوبهم ، فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابَهم فتحاً قريباً ﴾ .

ولما أبرز المسلمون في الحديبية إخلاصاً ووفاءً لرسول الله (ﷺ) ، واطمأن الله إلى ما في نفوس المؤمنين من صدق نحو رسوله أهداهم هدية هي « فتح خيبر » ، والتي سنتحدث عنها فيما بعد . ولقد تخوف المشركون ، ولا سيما قريش ، من بيعة الرضوان ، التي بموجبها يتعهدون بتنفيذ ما يأمرهم رسول الله (ﷺ) ، وإن كان مخالفاً لمعتقداتهم . فلقد تصوروا أن الرسول (ﷺ) أخذ هذه البيعة ، لأنه سيهاجمهم . وسيقتل من يقاوم ، ويأسر من يستسلم . لقد كانت قريش على يقين من براعة محمد (ﷺ) العسكرية ، بعد أن لمسوا منه ذلك في المعارك السابقة ، كما أيقنوا بأن المسلمين يتحلون بيقظة تامة . ووثقوا بأن محمداً (ﷺ) إن صمم على احتلال مكة فعل . ولهذا أطلقوا سراح عثمان فوراً ، وأعادوه

إلى الحديبية ، وحمَّـلوه رسالة إلى النبي (ﷺ) ، وهي أنهم مستعدون للمباحثة معه ، وسيرسلون وفداً لذلك . وبالإضافة إلى هذا فإن أشراف مكة أمروا عكرمة ابن أبي جهل الذي يحيط بالمنطقة الجبلية قرب الحديبيّة بعدم التعرض للمسلمين وعدم مضايقتهم .

فلو أن محمداً (ﷺ) قبل برأي عمر ، واتجه نحو مكة مباشرة لسفكت الدماء حتماً ، ولكان السبب في خرق المنطقة الحرام في الشهر الحرام ، لكنه استطاع ، من غير أن يفقد قطرة دم واحدة ، بطريقته الخاصة أن يجعل المطلوبين طالبين ، إذ قرروا إرسال وفد للتباحث معه . فكما أن محمداً (ﷺ) لم يكن في معركة أحد خاسراً من وجهة نظر قائد عسكري ، فهو في الحديبية أيضاً لم يكن خاسراً على خلاف رأي بعض المؤرخين ، بل كانت الحديبية نجاحاً سياسياً باهراً . والمرء وإن لم يكن سياسياً ، يفهم أن محمداً (ﷺ) تمكن بسياسته هذه من أن يجبر خصومه في الحديبية على الانصياع لآرائه . في حين أن قريشاً لم ترد من هذه المحادثة والمفاوضة إلا تفحص وضع المسلمين ، وهل هم مسلَّحون فعلاً ؟ وإن كانوا مسلحين ، فإلى أي حد هم مطيعون للنبي (ﷺ) ؟ . وكان « عروة بن مسعود الثقفي »[1] أول من عين في هذا الوفد . كان يعيش في الطائف ، ومن أشرافها ، ثم رحل عنها ليقيم في مكة . وذهب إلى محمد ، وجالسه تحت الشجرة . فسأله :

ـ لـمَ أتيـتَ إلى مكة يا محمد (ﷺ) ؟

أجابه محمد (ﷺ) :

ـ لم نأت لحرب ، إنما جئنا زائرين لهذا البيت .

---

(١) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي ، صحابي مشهور . كان كبيراً بين قومه في الطائف . ولما أسلم استأذن النبي أن يرجع إلى قومه يدعوهم للاسلام . فقال : أخاف أن يقتلوك ، قال : لو وجدوني نائماً ما أيقظوني . فأذن له ، فرجع . فدعاهم إلى الإسلام ، فخالفوه . ورماه أحدهم بسهم فقتله (الأعلام) .

ثم أردف محمد (ﷺ) :

ـ وها هي ذي الهـدْيُ المعـدَّة للذبح .

وذهب عروة يتفحص الهدي مع بعض المسلمين ، ثم عاد إليه ، وبدا كأنه لم يقتنع ، وقال :

ـ أأنت مطمئن إلى أن تابعيك لن يخذلوك في حربك ؟ أجمعت أُوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفـضَّـها[1] بهم ؟ إنها قريش قد خرجـت معهـا العـوذ المطافيل .

وجعل يتناول لحية رسول الله (ﷺ) وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله (ﷺ) ، فجعل يخـزُّ يده بالسيف كلما تنـاول لحية رسـول الله ، ويقول لعروة :

ـ تأدب يا عروة ، واكفف يدك عن وجه رسول الله (ﷺ) قبل أن لا تصل إليك .

فأرجع عروة يده ، وقال له أبو بكر :

ـ لو أنك لم تأتِ يا عروة رسولاً لقتلناك ، لأنك تُـهين المسلمين . وأحب أن أقول لك إننا لن ننكشف عن النبي (ﷺ) ، ولو كنت حاضراً في بدر أو أحد لكنت رأيت الوفاء بعينيك نحوه .

وعاد عروة إلى مكة وقال لأشراف قريش :

ـ يا معشر قريش ، إني قد جئـت كسرى في ملـكه ، وقيصر في ملـكه ، والنجاشي في ملكه . وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه .

وبعد عروة خرج من مكة رجل من قبيلة كنانة ، ووصل إلى الحديبية ، ليرى

---

(١) بيضة الرجل : عشيرته . يفضّـهـا : يهلكها .

محمداً والمسلمين ، ويتأكد بنفسه من أسباب قدومهم . فأطلع المسلمـون محمـداً (ﷺ) أن شخصاً من بني كنانة يطوف بهم ، فأخبرهم النبي أنه من قبيلة تُكبر مسألة القرابين ، فقربُوها ليراها . فقدم المسلمون الهدي وهم يدعون « لبيك اللهم لبيك » مما يقوله المسلمون في أثناء الحج . فرنا الكناني من الجمال وتفحصها . ثم عاد إلى قريش ، وقال لرجالها :

ـ لقد رأيت الهدي بأمِّ عينيَّ ، وكان المسلمون محرمين يتقدمون ، وهم يدعون : « لبيك اللهم لبيك » ، ولا أشك إلا أنهم يريدون الزيارة ، فلا تقفوا في طريقهم .

ومع ذلك فإن قريشاً لم يطمئن قلبها فبعثت شخصاً آخر . وكان الرسول هذه المرة « الحُلَيس بن عَلْقمة »[1] رئيس قبيلة الأحابيش البدوية ـ والأحابيش سكنوا الصحراء قرب مكة ـ وهو عند العرب صادق صريح . واتجه الحليس نحو الحديبية . فأمر الرسول (ﷺ) بأن يدَعوه يتجول حيث يريد ، ويكلم من يشاء ، وقال لهم :

ـ إن هذا من قوم يتألّهون ، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه .

فرأى المسلمين جميعاً في حال الإحرام ، ومعهم الهديُ يسيل عليه من عُرض الوادي في قلائده[2] : ولاحظ أن الجمال جائعة ، قد أكلت أوبارها لقلة الكلأ . فعاد بسرعة إلى مكة ونادى في أهلها :

ـ لا أشك يا قريش أن المسلمين يقصدون غير الزيارة ، ويجب أن تسمحوا لمحمد بذلك .

---

(١) هو الحليس بن علقمة الحارثي سيد الأحابيش ورئيسهم في يوم أحد . والأحابيش مجموعات من قبائل تجمعت عند « جبل حُبشيّ » بأسفل مكة ، وحالفوا قريشاً ، فسموا أحابيش قريش . ولم تذكر الكتب أنه أعلن إسلامه .

(٢) القلائد : ما يعلق على أعناق الإبل علامة على أنها هدي .

فقالوا له :

- نحن نخاف هذا الرجل ، فاجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك .

وأقسم لهم أنه لم يبدُ عليهم إلا قصد الزيارة . فلو كان قصده احتلال مكة لجاء بالعتاد المناسب ، ولكنه لم ير درعاً ولا رمحاً . ولما رأى إصرار قريش على عدم إفساح الطريق له غضب وقال :

- يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له ! والذي نفسُ الحليس بيده لتخلنَّ بين محمد (ﷺ) وبين ما جاء له أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقال له أحدهم :

- كفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ، فإنما أنت أعرابي لا علم لك .

وتشاور سادة قريش يومين ، وفي النهاية أخذ يعود الذين ذهبوا ليتفحصوا وضع المسلمين تباعاً إلى دار الندوة ، يعرضون على الأشراف ما شاهدوه . كانوا يقولون إن المسلمين يؤدون احتراماً خارقاً للعادة لمحمد (ﷺ) . فلو طلب كوباً من الماء لابتدر عشرة منهم لأمره . ومن لم يفز بتقديم الماء شعر بالحرمان وسوء الحظ . وأن من غرائب أوضاعهم في حياتهم أنهم يقفون مصطفين متراصين عدة مرات في اليوم ، متجهين نحو الكعبة ، يصلون . وشكلهم يبعث على الحيرة والدهشة !

وشرح العائدون من الحديبية أن المسلمين أوفياء جداً لمحمد (ﷺ) ومستعدون لأن يرموا بأنفسهم إلى التهلكة بإشارة منه .

وبعد أن استمعت قريش إلى هذه الأخبار تخوفت أكثر ، وأصابها الذعر .

فأعملت فكرها يومين كاملين . ثم رأت أن ترسل ممثلها « سهيل بن عمرو »[1] على رأس وفد إلى الحديبية ليتباحث مع محمد (ﷺ) على الصلح وعلى عدم الحرب . ويروى أن محمداً (ﷺ) حينما رأى سُهيلاً يدنو منه قال لمن حوله :

ـ سَهُل أمرنا ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .

والذين يعرفون العربية يُدركون أن لكمة « سهيل » مشتقة من « السهل » . وبعد أن تشاور الوفد مع محمد (ﷺ) عينوا يوماً يعقدون فيه الهدنة . ثم دعا محمد (ﷺ) علياً صهره ، وقال له :

ـ اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل :

ـ لا أعرف « الرحمن الرحيم » ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » ، لأن عهودنا كلها نبدأ بها هكذا .

فسأل علي رسول الله (ﷺ) :

ـ ماذا أعمل يا رسول الله (ﷺ) ؟

أجاب محمد (ﷺ)

ـ اكتب باسمك اللهم .

فكتب علي ما أملاه عليه النبي (ﷺ) . ثم قال :

ـ اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

---

(1) هو سهيل بن عمر بن عبد شمس ، القرشي . خطيب قريش وأحد سادتها . أسره المسلمون يوم بدر وافتدي . فأقام على دينه إلى يوم الفتح . مات بالطاعون في الشام سنة ١٨ هـ (الاصابة) .

ـ لا تكتب هذا ، لأننا لو شهدنا أنك رسول الله (ﷺ) لما قاتلناك ولسمحنا لك بالدخول إلى مكة ، عليك أن تكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله (ﷺ) :

ـ اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

وافق محمد (ﷺ) على رأي سهيل حتى لا يضايقه . وبعد هاتين الملاحظتين لم يعترض سهيل على ما جاء في العهد مطلقاً ، لأنهما كانا متفقين على الأسس الأولى . وأملى محمد (ﷺ) علياً ما يلي :

ـ اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاءَ قريشاً ممن مع محمد لم يردُّوه عليه ، وإن بينهما عيبة مكفوفة[1] وأنه لا إسلال ولا إغلال[2] ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه .

وقالوا : ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

دوِّن هذا العقد في السنة السابعة للهجرة . ولم يدرك المسلمون المغزى الناجم عنه ، لذلك أعربوا عن استيائهم ، فهم قد أحرموا ، وأعدُّوا الجمال (الهدي) للذبح ، ليدخلوا مكة ، ويطوفوا بالبيت . وكما قلنا إن عدداً منهم مكيون ، يأملون بالعودة إلى أوطانهم ، ليطمئنوا على بلدتهم . وقد ضايقهم البند الذي يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بزيارة الكعبة ، ويحرم المسلمين منه ، ولهذا

(١) عيبة مكفوفة : صدور منطوية على ما فيها .
(٢) الإسلال : السرقة خفية . الإغلال . الخيانة .

أحسّوا بالصدمة في هذا العقد . ثم إن المسلمين الآخرين شعروا بالإهانة بسبب هذا المنع . لكنهم يحترمون النبي (ﷺ) لذا لم ينبسوا ببنت شفة . إلا عمر بن الخطاب ، فقد أعلن عن سخطه ، وهو المعروف بصراحته ووضوحه ، وبعدم تمكنه من كتم غيظه ، وحبس إحساساته . فقد ذهب إلى محمد (ﷺ) ، وقال :

- يا محمد (ﷺ) ، ألم تقل إننا سوف نذهب إلى مكة ، ونطوف بالبيت ؟

أجاب محمد (ﷺ) :

- بلى يا عمر ، قد قلت هذا ، ولكنني لم أقل إننا سنذهب هذا العام .

فقال عمر :

- فمتى إذاً ؟

أجاب محمد (ﷺ) :

- في العام القادم نزور مكة ونطوف بالكعبة .

وبالإضافة إلى عدم رضا المسلمين ، فقد حصلت حادثة زادت من ضيقهم . فبعد أن سجل سهيل بن عمرو هذا العهد ، كان له ابن يدعى « أبا جندل بن سهيل ابن عمرو » ، وهو مسلم من غير علم أبيه . وقد هرب بعد يومين من الاتفاق على الهدنة ، وقدم إلى الحديبية ، وقال لهم :

- أنا مسلم ، وأنتم إخوتي في الدين ، فاحموني .

وتبع سهيل ابنه أبا جندل على الفور ، وقال لمحمد :

- لقد اتفقنا يا محمد (ﷺ) على رد كل قريشي يحتمي بالمسلمين من غير موافقة وليِّه ، فردَّ لي ابني .

ولم يستطع محمد (ﷺ) أن يحول دون أبي جندل ، لأنه سجَّل برضائه العقد لمدة عشر سنوات . وقبل أن يعود أبو جندل إلى أبيه قال :

ـ سيقتلني أبي يا محمد .

فأجاب محمد (ﷺ) :

ـ يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا ، عهد الله . وإنا لا نغدر بهم .

وهكذا لم يقتل أبو جندل ، بل ظل حياً . لكن هذه الحادثة زادت من غضب المسلمين . فهم لو لم يعقدوا بيعة الرضوان على إطاعته الكاملة لثاروا ، لكن العهد الذي قطعوه منعهم من ذلك ، وأوقفهم عند حدهم . لأن المسلمين لم يكونوا محنَّكين بالسياسة حنكة نبيهم (ﷺ) ، لهذا لم يقدروا مدى المنفعة التي سيجنونها من هذا العهد في عدم إثارة الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات. فمحمد أنقذ مدينته من حصارها الاقتصادي ، بل غدت قوافلهم تمر بمكة بكل حرية . كما أن العهد يضمن لهم الحياة الحرة ، والاتحاد مع من شاؤوا طيلة هذه المدة . كما ارتاحوا من أكبر خصم لهم ، وهم سكان مكة . لم يدرك المسلمون كل هذه المكتسبات ، لأنهم تضايقوا من عدم دخولهم مكة ، ومن ردّ أبي جندل إلى أبيه . واعتبروا هذين الأمرين خسارتين كبيرتين . والحقيقة أنهم تألموا لأبي جندل أكثر من تألمهم لأنفسهم ، لأنهم بدو . ومن احتمى بأحد استقبله ودافع عنه ، فكيف بمسلم يلجأ إلى إخوانه المسلمين ؟ لكنهم لم يدركوا أن ردَّه من قرارات العهد ، وأن الفتى قدم بعد التوقيع ، لذلك فإن رده لم يكن إهانة مطلقاً .

حين رأى محمد (ﷺ) المسلمين مهمومين كثيراً جمعهم وأخبرهم أن هذه الهدنة إن هي إلا فتح مبين . وقد أنزل الله آياته في هذا النصر ، من ذلك الآية الأولى من سورة الفتح (٤٨) : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ . وقد ذكر بعض العلماء أنها نزلت في فتح مكة ، واعتبرها آخرون في فتح خيبر ، ورأت فئة ثالثة أنها

بسبب الفتوح الإسلامية كلها ، بما في ذلك صلح الحديبية . وقال أحد المسلمين قبل أن يبين محمد (ﷺ) رأيه للمسلمين عن هذا العهد :

ـ نحن لم نزر الكعبة ، وأرى أننا لن نزورها .

فقال له رسول الله إن زيارة الكعبة مقبولة من هذا المكان ، بل كأن المرء طاف حول البيت . وأعلن (ﷺ) أنه سيزور من هنا ، ويذبح الهدي ، ويحلق شعره ، ويفك إحرامه ، وأمرهم بأن يعملوا مثله .

وسأله مسلم آخر :

ـ وكيف توضح لنا تسليم أبي جندل إلى المشركين ، بل كيف وافقتهم على رد من يأتينا مسلماً ، في حين أننا لا نستطيع استرجاع الهاربين من عندنا ؟

أجابه محمد بأن إعادة أبي جندل إلى المشركين جرى طبقاً للعهد ، فليس إهانة موجهة إلينا ، وسيحفظ الله أبا جندل. وعلى فرض أنه قتل ، فإنه يموت شهيداً ، مصيره الجنة . أما المسلم المرتد إلى الشرك فإننا لا نريده لأنه كافر وخائن ومرتد ، ولا نقبله بيننا أبداً . وهذا الفتح المبين سيجعل المسلمين في مأمن من سكان مكة طيلة عشر سنوات ، يقوى فيها المسلمون ، ويتحدون مع من يريدون ، ويحلّون عقدة الحصار الاقتصادي الذي لن يتكرر ثانية .

وسأله أحد المسلمين :

ـ ولم كتبتَ يا رسول الله (ﷺ) أن هذا العهد بين محمد بن عبد الله . . . ولم تكتب « رسول الله » ؟

أجاب :

ـ صحيح أنني كتبت « ابن عبد الله » ، ولكنني لم أكتب أنني لست رسول الله . وعلى هذا ، فلم ينقص المسلمين شيء . ولم أذكر « رسول الله » لأن المشركين رفضوا ذلك . ودل طلبهم هذا على أنهم أطفال . ولم أرد أن أرفض لهم

هذا الطلب . وهدفنا هو إنهاء حالة الحرب مع قريش ، وقد نجحنا .

ولم يعترض أحد بعد ذلك . لكنهم ظلـوا يتساءلـون ، ولا سيما عمـر . فقال :

ـ يا رسول الله ، أليس ديننا على حق ، وأليسـوا مشركين ؟ فعـلام نقبـل الدنـيَّـة في ديننا ؟

لكن المسلمين ـ وكذلك عمـر ـ بعـد عودتهـم من الحـديبية ، ومضي عدة شهور من عيشهم في مكة أيقنوا بأن هذا العهد كثير النفع . من هذا النفع دخول عدد من القبائل في الإسلام من غير تخوف . ولكن بعد أن حلق المسلمون رؤوسهم أو قسماً منها حتـى يستطيعـوا فك إحرامهـم والرجـوع شمالاً إلى مدينتهـم ظلـوا مضطربين ومتضايقين ، ولا سيما من تسليمهم أبا جندل إلى قريش ، فقـد كانـوا يظنون أن النبي (ﷺ) تناسى حماية اللاجئين ، وهو قانون العرب المقدس . يقول طرفة ، وهو أحد شعراء العصر الجاهلي :

ولـولا ثلاثٌ هـنَّ من عيشـةِ الفتى	وجـدِّكَ لم أحفِـلْ متـى قام[1] عـوَّدي
فمنهـنَّ سَبْقـي العـاذلاتِ بشَرْبةٍ	كُميتٍ متـى ما تُـعلَ بالماء تُزبدِ
وكرِّي ، إذا نادى المضـافُ، محَنَّباً	كسِيدِ الغَضـا ، نبَّهتَـهُ[2] المتورِّدِ
وتَقصيرُ يوم الدَّجـنِ ، والدجـنُ معجبٌ	ببَهكنـةٍ تحـتَ الطِّـرافِ[3] المعمَّدِ

وقد اعتبر شاعر العرب حماية الناس وإنقاذهم من الأخطار في المرتبة الأولى من الأهمية . وفيما كان المسلمون متجهين نحو الشمال بائسين هرب مسلم آخر من مكة اسمه « أبو بصير »[4] ، يريد الالتجاء إليهم . لكن محمداً (ﷺ) لم يجبه إلى

---

(١) وجدك : قَسم ، والجد هو الحظ . لم أحفل : لم أبالِ . العـوّد : ج عائد من العيادة .

(٢) الكر : العطف . المضاف : الخائف والمذعـور . المحنـب : الـذي في يده انحنـاء . السيد : الذئب . الغضا : شجر .

(٣) الدجن : الغيم . البهكنة : المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة . المعمد : المرفوع بالعمد .

(٤) أبو بصير : اسمه عتبة بن أسيد بن جارية ، وهو حليف بني زهرة .

طلبه ، فقد فكر أن لجوءه ربما كان خدعة من أهل قريش ، ليروا مدى تجاوبه . ولكن محمداً (ﷺ) بعد أن تحقق من الأمر اتضح له صحة لجوئه وإسلامه . فقد قاسى أبو بصير الكثير في مكة ، ولما أحسّ بأنهم ينوون قتله هرب . وبعد قدوم أبي بصير قدم اثنان من قريش يطالبان به . فقال عمر :

ـ يا رسول الله ، يجب ألا تسلمهم الرجل هذه المرة ، فقد لجأ إلينا ، ولو كلفنا أرواحنا .

لكن محمداً أصرّ على تنفيذ العهد . فأمسك الرجلان بأبي بصير على مرأى من المسلمين ، وربطاه إلى الجمل ، وسارا به نحو مكة . لكن أبا بصير قوي وشجاع ، فاستطاع ، وهم في الطريق ، أن يقطع الحبل ويهرب بعد أن يقتل أحد الحارسين . وعاد ثانية إلى المسلمين ، ورجاهم أن يقبلوا حمايته . فهذه المرة لم يهرب وحسب ، بل قتل أحد أبناء قريش . فأمر محمد (ﷺ) بإيقافه ، ريثما يأتي أهل مكة في طلبه . ووصل في اليوم الثاني الحارس الآخر مطالباً به ، فسلمه إياه محمد (ﷺ) مقيداً . وقبل أن يفارق معسكر المسلمين تمكن من الهرب ثانية .

عندما جاء أبو بصير إلى المسلمين في المرة الأولى قال له النبي (ﷺ) :

ـ يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلقْ إلى قومك .

أدرك أبو بصير أنه إن عاد إلى مكة قتلوه ، ولهذا هرب إلى قلب الصحراء ، يعيش وحيداً . وقد صوَّر الشنفري هذا اللون من العيش الصحراوي فقال :

أقيمــوا بنــي أمــي صدورَ مطيِّكم ... فإنــي إلى قومٍ سِواكم لأَمْيلُ
فقد حُـمَّـت الحاجـاتُ والليلُ مُقمرٌ ... وشُـدَّت لِطِيَّـاتٍ مطـايا وأرحُـلُ
ولي دونــكم أهلــون: سيدٌ عملَّسٌ ... وأرقَـطُ زُهْـلـولٌ وعَـرْفـاءُ جَـيْـأَلُ

همُ الأهـلُ، لا مُسْتـودعُ السـرِّ ذائعٌ   لديهم ، ولا الجاني بما جرَّ يُـخـذَلُ[1]

واستقر أبو بصير في منطقة اسمها « ذو المروة »[2] ، فتبعه أبو جندل ، وأقام معه . وبعد ذلك فـرّ مسلم آخر اسمه « عُـتبة بن أُسيد »[3] ، وتبعهما . وشيئاً فشيئـاً تزايد عدد المسلمـين في ذي المروة ، وهـم الـذين يهربـون من مكة[4] ، ليؤسسوا ـ بحسب الاصطلاح الحديث ـ أمـة جديدة . إنهـم في عملهـم هذا لم ينقضوا عهد المسلمين مع المشركين في الحديبية ، لأن « ذا المروة » لم تكن تابعـة للمدينة ، ولا يسيطر عليهم محمد (ﷺ) .

ولم يمض حين حتى ازداد عددهم ، واستطاعوا أن يؤلفوا جيشاً . فأخذوا يغيرون على قوافل مكة . فتضايقت جماعـة قريش كثيراً منهـم ، فاضطـرت إلى مراسلة النبي (ﷺ) تسأله بأرحامها إلا آواهم ، فلا حاجة لهم بهـم . فطالبهـم رسول الله (ﷺ) بكتاب خطي كي يكون سنداً له وعهداً . وبهـذا نُـقـض هذا الشرط من كتاب العهد . وما فتئت الشروط التي لم تكن لصالح المسلمين يزول مفعولها شيئاً فشيئاً ، لتعـمَّ الفائدة على المسلمين .

●

حين كتبت قريش إلى محمد أن كل مسلم يهرب من مكة ويصل إلى المسلمين غير مكلف برده ، أيقن المسلمون تماماً أنهم أخطأوا في استنكارهم لبعض بنود عهد الحديبية . وما هي إلا مدة وجيزة حتى غدا صلح الحديبية كله في صالح المسلمين .

---

(١) من لاميته : أميل : محب ، مفضلهم عليكم . حمت الحاجات : تهيأت . الـطيّـة : النية ، المقصود . سيد : ذئب . عملس : قوي . الأرقـط : الملـون الجلـد (النمـر) . الزهلـول : الأملس . عرفاء : وحش ضار (الضبع) . جيأل : الضبع . جـرّ : اعتـدى (تـاريخ الأدب لفروخ) .

(٢) نزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر ، بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها الشام (السيرة) .

(٣) جاء في أسد الغابة أن أبا بصير هو نفسه عتبة بن أسيد ، كما ذكرنا في الحاشية السابقة . فلعل المؤلف اختلط عليه الأمر ، أو أراد أن يسجل اسماً فسجل آخر . وكتب السيرة لم تذكر غير أبي بصير وأبي جندل .

(٤) اجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً ، فضيقوا على قريش لا يظفـرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمـرّ بهم عير إلا اقتطعوها .

علي بن أبي طالب قائد الجيش في خيبر

بعد أن عاد محمد (ﷺ) من الحديبية ، شرع يحسّن العلاقات بين المسلمين وسكان مكة . وبالمصادفة أصاب مكة ذلك العام محلٌ ساء حالهم به وشكوا الفاقة . **وكان في الجزيرة قبيلة تدعى « اليمامة » . وتعتبر أرضها مخزناً لحبوب مكة .** وقد أسلم رئيس اليمامة ورجاله جميعاً ، فامتنع عن تقديم أنواع الحبوب إليهم . وتضوّروا جوعاً حتى توسّلوا إلى النبي (ﷺ) أن يطلب من رئيس اليمامة بيعهم أنواع الحبوب . فقبل النبي (ﷺ) توسلهم ، وأمر رئيس القبيلة بألا يمتنع عن بيعه لمكة . وبالإضافة الى هذا أرسل خمسمئة دينار ذهباً ، وطلب أن توزع على فقراء مكة . وعندما بلغ أبا سفيان ذلك قال :

ـ يريد محمد (ﷺ) مخادعة السكان ، ولا سيما الفتيان .

وبعد ذلك بعث كميات كبيرة من التمور الى مكة ، تُسلم إلى أبي سفيان ، على أن يرد بأثمانها جلوداً مدبوغة . وكان لدى أبي سفيان في تلك الأيام جلود كثيرة لا يلقى لها شارياً ، لانشغال الناس ـ أيام القحط ـ عن كل شيء إلا عن الحبوب . فحاول أبو سفيان أن يرفض التمر ، لكنه لم يستطع لأن سكان مكة علموا بوصوله إليه ، وهم جائعون ، فاضطر الى قبوله وإرسال جلود بأثمانه . وكم أحسّ الناس بالسعادة عندما علموا أن التمر الذي يأكلونه هو من عند محمد (ﷺ) !

ما زالت جماعة قريش على خصومة مع محمد (ﷺ) ، ومع ذلك فقد رغب في عقد علاقات معهم ، لأنه أيقن أن تقدم الإسلام هو في حسن العلاقات بين المدينتين ، لهذا لم يولِ أقاويل الناس أي اعتبار بهذا الموضوع . ذلك أن النبي

الذي يؤمن بالله ، ويسعى الى انتشار دينه وأداء رسالته لا يعتني بالخط أو بالكلام ، أياً كان . إن النبي الذي يحب ربه كل هذا الحب مستعد لأن يفديه بكل غال .

كان محمد (ﷺ) شديد الايمان ، لهذا فلا يتراجع عن حل أية معضلة في سبيل هذا الإيمان ، لأنه يعلم أن الغلبة في النهاية له . إن من يؤمن بالله يستسهل في سبيله كل شيء . ومحمد (ﷺ) في ذلك اليوم عزم على بلوغ هدفه ؛ وهو أن يسمو بالدين الإسلامي إلى أسمى ما يستطيع . . ورأى ذلك في غلبته على مكة .

وكيف كان ذلك ؟

لقد سمع بأن « أم حُبيبة » بنت أبي سفيان وزوجة « عبد الله بن جحش » أرمل . كان عبد الله حنيفياً ، ورأينا أنها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه ارتد عن الإسلام هناك . وحينما توفي ظلت أم حبيبة أرملة ، فقرر أن يخطبها ويتزوجها . فقد فكر أنه إن وفق الى هذا الزواج غدا صهر أبي سفيان ، وستخفف هذه القرابة من غُلواء خصومه في مكة ، وعلى رأسهم أبو سفيان ، لأنه قائد جيش مكة ، فان صاهره محمد (ﷺ) تحوّلت هذه الضغينة الى خير للإسلام . وأم حبيبة بنت أبي سفيان من أسرة مهمة هي « أمية » . فان تزوجها فان علاقته ستتوطد مع هذه القبيلة ، ولن ننسى أن من أفراد هذه القبيلة «هند بنت عُتبة » ؛ ماضغة الكبد .

وانتخب محمد (ﷺ) شخصاً أوكل إليه أمر خطوبتها منها في الحبشة ، ثم يأتي بها الى المدينة . ولكن ربما منعتها قريش من الذهاب إلى المدينة ، حين تدخل الجزيرة . ولهذا أمر محمد رسوله أمراً آخر ، إذ كتب رسالة يسلمها النجاشي ، وأوصاه بالذهاب أولاً إلى أم حُبيبة ، ويسألها رأيها بالزواج منه ، فان وافقت ذهب إلى الملك وسلمه الرسالة . وقد طلب محمد (ﷺ) في تلك الرسالة من النجاشي أن يعقد قرانه على أم حبيبة التي تحيا في حماه .

ووافق النجاشي على طلب النبي ، وعقد له على أم حبيبة . وبعد ذلك

اتجهت ابنة أبي سفيان من الحبشة إلى الجزيرة ، واطلعت قريش على أمر الزواج ، ولكنها لم تجرؤ على منع أم حبيبة من الذهاب إلى المدينة ، لأنها غدت زوجة للنبي (ﷺ) ، والعرب لا يحولون دون التحاق الزوجة بزوجها .

وقد أعان زواجه هذا على تقدم الخطة التي نشدها . فقد سبّب صلة عميقة بين الطرفين ، وزاد من عدد المسلمين في مكة ، كما سنرى . لأن أم حبيبة وأغلب الأسر البارزة في قريش كانت تخالف أبا سفيان برغبته في محاربة محمد (ﷺ) أو معارضته ، لأنه غدا صهره ، أي فننَاً من شجرة أسرته . وقد ذكرنا ـ ولا حاجة إلى التكرار ـ الأهمية التي يوليها العربي بالنسبة الى أرومة كل أسرة . ومن جملة هذه الهدنة أن محمداً (ﷺ) استطاع أن يحدّ من محاصرة المدينة شمالاً ، لأن المشركين في مكة اتخذوا موقف الحياد معهم .

●

تقع مدينة خيبر في الشمال ، فبعد أن انتهت صورة العداء بين مكة والمدينة ، استمر أهل خيبر على عدائهم ومنعهم لقوافل المدينة من أن تذهب شمالاً ، ظناً منهم أنهم وحدهم يتمكنون من التصدي للمسلمين . وقد رأى محمد (ﷺ) أن عليه فك الحصار شمالاً مع خيبر ، كما فكه جنوباً مع مكة . إلا أن اليهود لم يُبدوا أي رغبة في المصالحة معه ، لأن بعضهم ممن هاجروا من المدينة ، وهم الذين كانوا يحضّون الخيبريين على عدم الصلح .

وخيبر تقع وسط أرض ثرة بالماء ، ذات خصب وعطاء . ولكن إن ابتعدنا قليلاً عنها بلغنا منطقة بركانية صخرية ، يصعب عبورها ، ويندر العشب فيها . و« خيبر » بالعربية معناها « القلعة » . وفيها ثماني قلاع حربية ، وبإمكان سكانها أن يُعدّوا عشرين ألف محارب . وخيبر مدينة عربية قديمة ، يرجع عهدها إلى ما بعد ٥٣٠ م . ففي هذا العام اتحدت مع « ذي نواس » . ومنذ ذلك التاريخ أخذ نفوذ اليهود يتسع . ولما كانوا أصحاب حرف وعزيمة فقد تمكنوا من تقوية أنفسهم فيها ، حتى عندما صمم محمد (ﷺ) على حربهم لم يكن فيها عربي واحد .

كما كان سكانها أغنياء ، لأن مدينتهم من المراكز التجارية الكبرى في شمالي الجزيرة . فقد اختصوا بصناعة الجواهر وبيعها ، كما كانوا يؤجرونها شريطة وجود ضامن . وكان بيع الجواهر من اختصاص اليهود في الجزيرة ، ومراكز بيع الجواهر متوزعة شمالاً وجنوباً ، لكن خيبر فاقتها جميعاً .

المرتفع الذي بُني عليه حصن خيبر رطب ، وسكانه يصابون بالأمراض بسبب وجود المياه . وكان الناس يعتقدون بأن المياه الراكدة تفوح منها نسائم ، إن شمها الإنسان وقع في المرض . ويدعون هذا المرض « مرض الماء » ونعرفه اليوم باسم « الملاريا » ، كما نعلم أن سبب هذا المرض هو « بعوض الملاريا » . لكن القدماء لم يكتشفوا هذا البعوض ، لأنه من المكتشفات الحديثة . وتكثر المياه الراكدة حول خيبر ، ويصاب الناس بالملاريا بسببها . وكان الأعراب يعجبون إذ يرون اليهود لا يصابون بهذا المرض ، مع أنهم يعيشون في هذا الجو الرطب . واليهود يعرفون أن العرب بسطاء، صافو الطوية، فأخبروهم أن المرء الذي يريد العيش في خيبر من غير أن يقع بمرض الماء ، عليه أن يطأطىء رأسه ، ويقف على يديه ورجليه ، وينهق كالحمار . فان فعل هذا قبل دخوله المدينة نجا من المرض المحقق ، الذي إن أصابه كان سبباً في مفارقة حياته .

وتقبل العرب البسطاء هذا القول ، وشرعوا يجربونه قبل دخولهم خيبر ، وهم سعداء في هذا ، إذ أنهم لن يمرضوا بعد الآن . وكان هذا العمل يدعى « التعشير »[1] ، ولهذا أسمى الأعرابُ خيبر باسم التعشير . لكن الذي منع اليهود من هذا المرض قواعد اتبعوها ، هي :

---

(١) عشّر الحمار : تابع نهيقه عشر نهقات ، فهو معشِّر ، ونهيقه يقال له « التعشير » . قال عروة بن الورد :

وإني وإن عشّرتْ من خشية الردى نُهاقَ حمارٍ ، إنني لجزوعُ

ومعناه : أنهم يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباءٍ وضع يده خلف أذنه فنهق عشر نهقات نهيق الحمار ثم دخلها أمن من الوباء (لسان العرب) .

١ ـ لم يكونوا يشربون من الماء الراكد ، وإن لم يتيسر لهم ماء جار اكتفوا بشرب الخمرة .

٢ ـ كانوا يكثرون من أكل الثوم . ولما كان الثوم يدخل في كل أطعمتهم فقد عمت رائحته في سماء خيبر . ونحن نعلم أن للثوم مفعولاً قوياً في قتل الجراثيم .

٣ ـ لم يعش اليهود في المناطق القليلة الارتفاع ، بل كانوا يتسلقون المرتفعات. فقد علمتهم تجاربهم أن المقيمين في المناطق العالية قلما يصابون بمرض الماء (الملاريا) .

٤ ـ كانوا ينزحون عن خيبر كل سنة عدة شهور ، بدءاً من الشهر الثالث من فصل الربيع ، ولا يعودون اليها قبل فصل الخريف ، أي عندما تهن بعوضة الملاريا .

●

حين علم سكان خيبر أن المسلمين عقدوا هدنة مع أهل مكة صمموا على حربهم وحدهم ، وذلك بأن يهاجموا المدينة بصورة خاطفة . ولكن محمداً (ﷺ) أعد ألفاً وخمسمئة محارب لحرب خيبر ، في حين أن اليهود يستطيعون تجهيز عشرين ألف مقاتل .

يذكر بعض المؤلفين أن سكان خيبر كانوا غافلين عن هجوم المسلمين ، في حين أن الأمر غير هذا . ذلك أنهم ، يوم علموا بهدنة الحديبية ، توقعوا أن يهاجم محمد (ﷺ) ، فاستعدوا مباشرة لصده . وحين بلغهم تحرك جيش المسلمين نحوهم أخذوا بخزن الأغذية الكاملة في القلاع الثمانية ، وإعداد العتاد للمحاربين .

وقبل أن يصل جيش المسلمين إلى خيبر مرّ بمواطن قبيلتي غطفان وفزارة ، فقد كانتا متفقتين مع خيبر « عهد حرب » وكان عليهم أن يرسلوا رجالهم لمساعدة

أهل خيبر ، إلا أنهم خافوا المسلمين ، ولهذا تعهدوا لمحمد (ﷺ) بأن يقفوا على الحياد في حربه مع اليهود . ويرجع تخوفهم إلى سببين ؛ الأول : نتائج حرب بدر وأحد والخندق، والثاني : معاهدة الصلح بين مكة والمسلمين . فقد قالوا فيما بينهم : ما دام المكيون صالحوا المسلمين فالأفضل لنا ألا نحارب المسلمين . وبعد أن اطمأن محمد (ﷺ) إلى أن القبيلتين لن تعادياه في غزوته اتجه نحو خيبر .

يؤكد المؤرخون ان خيبر أقوى قلعة حربية في شمالي الجزيرة ، وذات طريقة خاصة للحماية والاستحكام . وقد استخدم المهندس الفرنسي « وبان » في القرن السابع عشر في بعض القلاع هذا الاستحكام ، واعتبر نفسه مبدعاً .

وحين وصل المسلمون إلى خيبر كان محمد (ﷺ) قائد المعركة ، فقال لهم إننا لا نملك وسائل لهدم هذه القلاع ،وسلاحنا عبارة عن سيف ورمح وقوس ، وهذه الأسلحة لا تهدُّ الصخور المبنية . لكننا نستطيع إجبار اليهود على التسليم إذا حاصرناهم ، وسددنا مسارب المياه الداخلة في القلاع . فإن لم يخزن اليهود المياه في قلاعهم ، ولم يستطيعوا حفر الآبار ، فانهم سرعان ما يعطشون ويسلمون .

وقد صمم المسلمون على محاصرة هذه القلاع واحدة تلو الأخرى ، بحيث لا ينتقلون الى الثانية ما لم يذللوا الأولى . ومنذ وصول المسلمين الى القلاع بدأ اليهود يرمونهم بالمجانيق ، إذ ينحتون الصخور بشكل كروي ، ويقذفون بها المسلمين . ومع أن المسلمين جوبهوا لأول مرة بهذا النوع من الهجوم الحربي ، ومع أنهم لم يعرفوا كيف يصدون هذه الصخور ، فان محمداً (ﷺ) أمر ببناء أبراج متحركة ، يحتمون بها ، ليدنوا من القلاع . لأن الحجارة تقذف بعيداً بالمجانيق ، ولا يمكنها أن توجه الى مناطق قريبة . ونبههم النبي (ﷺ) إلى خطر واحد يداهمهم إذا دنوا من القلاع ، وهو قذف الحجارة من ثقوب الأبراج . لكن هذه الثقوب لا توجد إلا في الأبراج ، فان وقفوا تحت السور ، بعيداً عن الأبراج أمنوا شر المجانيق .

قلنا إن قائد الغزوة هو محمد (ﷺ) نفسه ، لكنه سرعان ما وقع في المرض

بسبب هذا الطقس الرطب . فاستحال عليه الاستمرار بالقيادة ، فعين مكانه أبا بكر . إلا أنه عجز عن المتابعة بعد يومين لإصابته بالحمى وبارتفاع الحرارة ، فنقل القيادة الى عمر . وكذلك سقط عمر طريح الفراش . فجمع رؤساء الجيش حوله ثم انتخب علياً من بينهم ، وسلمه اللواء لشجاعته وصبره . وقد كان علي أرمد حين بلغه أمر القيادة ، ومع ذلك وافق وأقدم . وحاصر في ذلك اليوم قلعة « نَطاة » .

وقد نقل إثنان من المؤرخين ، هما البغوي وابن أبي حديد ، مسألة انتقال القيادة إلى علي على شكل آخر . فهما يقولان إن النبي (ﷺ) بعد أن مرض عين مكانه أبا بكر ، وأمره بأن يحمل على اليهود ، فلم يوفق في هجومه بعد أن ألحق بالجيش الصغير خسائر فادحة . فعين محمد (ﷺ) عمر مكان أبي بكر ، فلم يصمُد . عندئذ عين علياً بعد أن أظهر للمسلمين كفاءته وثقته به . وبحسب رأي المؤرخين ان علياً كان أرمد ، أحمر العينين ، ومع ذلك فقد قبل القيادة ، وهاجم ـ كما قلنا ـ قلعة نطاة . وبحسب رأي هذين المؤخرين أيضاً أن أحد اليهود ، وكان يرتدي المِغْفرة[1] ، وقف فوق السور ، ونادى بأعلى صوته :

ـ مَن قائدكم ؟

فأجابه علي :

ـ أنا قائد المسلمين ، واسمي علي بن أبي طالب .

فقال له اليهودي :

ـ أنا « مَرحب » يا علي ، وإحدى هذه القلاع تدعى باسمي . أترى في نفسك جرأة لتبارزني ؟

فأجابه علي :

(١) المغفرة والمغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

ـ أنا لم أرفض مبارزة دُعيت اليها يوماً ، ولن أرد دعوتك هذه .

فقال مرحب :

ـ فأنا نازل إليك .

ففتح باب القلعة وخرج منه مرحب ، ثم أغلق دونه . ومع أن عيني علي مريضتان ، ولم يكن على جسمه درع ، فانه بارز هذا المدجَّج بالحديد وقتله . وبعد ذلك أمر علي أن يحطموا باب القلعة بشجر « العُشَرَ »[1] . وهو عبارة عن جذع شجرة يحمله ثلاثون مقاتلاً أو أربعون ، ويركضون به نحو الباب ، فيدكونه بشدة . فأعد المسلمون ثلاثة جذوع من هذا الشجر ، وشرعوا يدكون الباب . وبينما كانوا يضربون الباب بالعشر ، كانت فئة أخرى تصعد إلى سطح السور بالسلالم . فقد استفادوا من الأبراج الخشبية ، ليصلوا بواسطتها إلى طرف السور ، وليصعدوا بعدئذ بالسلالم .

وبعد يومين سقطت قلعة نطاة ، إذ كسروا باب القلعة ، ودخلوها ، وأسروا من فيها وسلبوا أموالهم . وهكذا سقطت أول قلعة من قلاع خيبر على يد علي بن أبي طالب . فاتجه نحو القلعة الثانية واسمها « ناعم » . ولم تمض عشرة أيام إلا وعلي قد ذلل أربع قلاع . وقد بارز علي في هذه الأيام العشرة ستة عشر مبارزاً ، قتل فيها خصومه أو جرحهم جراحاً منعتهم من الاستمرار في المبارزة . ويذكر بعض المؤرخين أن علياً ظل مريضاً طيلة هذه الأيام ، أو أن عينيه ما زالتا مريضتين[2] . ورواية أخرى تؤكد أن القلاع الأربع الباقية سلمت من غير مقاومة ، حينما رأوا إصرار علي على فتحها . ولا شك أن احتلال ثماني قلاع يعتبر انتصاراً ساحقاً للمسلمين ، لأن قائد جيش المسلمين لم يكن لديه وسائل هجوم على القلاع ، ومع ذلك استطاع التصدي لعشرين ألف محارب في ثماني قلاع .

---

(١) شجر العشر : أملس ضعيف العود . فكيف تكون صفته هكذا وهو ثقيل ضخم ؟

(٢) يذكر الطبري أن النبي (ﷺ) تفل في عيني علي فشفي من مرضه قبل نزوله المعركة .

وحين سقطت آخر قلعة من قلاع خيبر كان محمد (ﷺ) قد أبلَّ من مرضه ، فبلغه ما أحرزه علي من انتصار باهر ، فقبَّله بحضور المسلمين ودعاه « أسد الله » وغدا لقباً له . وعلى أثر انتصار المسلمين غنم المسلمون كثيراً من الأغنام ، ولا سيما الحبوب والأغذية . وتقول عائشة :

ـ بعد حرب خيبر شبعت أكل التمر لأول مرة ، وأنا زوجة رسول الله (ﷺ) . فقد كانوا يأتوننا بالقليل من الحبوب ، ويجلبون لنا التمور بالعدد .

وقد أحسن محمد (ﷺ) معاملة اليهود . إذ سمح لمن يريد منهم بالرحيل ، وحمل ما يريدون ، عدا التمر والغنم والغلال . وبرواية أخرى عدا أثاث المنازل . أما من لم يرد الرحيل فليبق، وله الحرية في العمل الذي يريد. كما أنه منع المسلمين من الزواج بالنساء اليهوديات على طريقة الزواج بالمتعة . و« المتعة » زواج مؤقت بنساء الأمة المغلوبة . وللمسلم كامل الحرية في اقتناء النساء على أساس هذا الزواج . أما إن كان النساء قليلا فيوزَّعن عليهم بالتساوي .

كما أن علياً منعَ الجنود المسلمين من دخول بساتين اليهود ، والعبث بحقول النخيل ، حتى لا يؤذوا فواكههم أو أشجارهم . وكي يوطد محمد (ﷺ) العلاقة بين المسلمين واليهود عقد قرانه على « صفية » إحدى نسائهم .

وبينما كان أحد المسلمين يمر من بين القلاع هوجم من الخلف وقتل . فجمع علي أعيان اليهود ، وسألهم عن القاتل ، فأقسموا بأن القاتل ليس من بينهم . فذهب إلى النبي (ﷺ) وأخبره أن اليهود أنكروا أن يكون لهم علاقة بقتله ، ثم سأله :

ـ فمن أين ندفع دية القتيل ؟

حينما رأى محمد (ﷺ) ان اليهود أقسموا ، قبل منهم قسمهم ، وتبرع بدفع الدية .

كان يسكن في وادي القرى ـ قرب تلك الديار ـ قبيلتان يهوديتان ، وقبيلتان أخريان سكنتا فَدك وتَيماء . فبعد أن رأوا انتصار المسلمين في خيبر عقدوا معهم صلحاً ، يدفعون فيه الجزية المستحقة .

قال خالد بن الوليد: هذا الرجل ليس بأهل خداع

في طفرة سعادة المسلمين إثر نصرهم في خيبر قدم مسلمان من الحبشة ، أحدهما جعفر بن أبي طالب ، والآخر « عمرو بن أمية » ، وكانا آخر من ترك تلك الديار . وبعد أن تم النصر ، عادت إلى اليهود معابدها ، فتعبدوا فيها ، كما أعيد إليهم كل ما وقع في أيدي المسلمين من أوراق ومن كتب مقدسة . . وآلت الأمور الى ما كانت عليه من السلام بين الفريقين ، وبدا كأن كل شيء طبيعي بين المسلمين واليهود ، عندئذ رغبت « زينب بنت الحارث » امرأة « سلاّم بن مِشْكَم » في تقديم طعام للنبي عربوناً على صداقة الطرفين ، فسألت :

ـ سأرسل للنبي طعاماً ، فأي عضو من الشاة أحب إليه ؟

فقيل لها :

ـ الذراع !

فشوت له خروفاً ، وأكثرت السم في الذراعين ، ثم أرسلته إلى رسول الله (ﷺ) . وكان عنده « بِشر بن البَراء بن مَعْرور » . فتناول رسول الله (ﷺ) الذراع الأولى وقدّمها الى بشر ، ثم تناول الذراع الأخرى ، فلاكَ منه مَضغةً ، فلم يُسغها ، فأما بشر فاستساغها . وقال النبي (ﷺ) فجأة :

ـ لا تذق هذا اللحم ، فهو مسموم .

لكن بشراً أكل منه واستساغه ، ففارق الحياة . وسيقت زينب الى النبي (ﷺ) فسألها إذا كانت قد وضعت سماً في اللحم ، فاعترفت المرأة اليهودية بذلك . فسألها النبي (ﷺ) :

ـ ما حملكِ على ذلك ؟

فأجابت :

ـ وضعت السم وقلت إن كان نبياً فسيُخبر ، وإن كان ملكاً استرحتُ منه .

أهم المراجع التي ذكرت هذا الخبر هي : المسعودي ، ابن هشام ، أسد يك ، الطبري[1] ، ابن أبي حديد ، الزمخشري . لكنهم لم يذكروا ماذا جرى زينب بعد ذلك ؟ أعوقبت أم أطلق سراحها ؟ لكن بعض المؤرخين ذكر أن النبي نبل أن يودع الحياة قال[2] :

ـ إن هذا الأوانَ وجدتُ انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلتُ بخيبر .

فمع أنه لفظ اللقمة ، فإن بقاياها انتسل إلى داخل معدته ، فسبب ذلك رضه ، وبالتالي وفاته . فان كان ما ذكره المؤرخون صحيحاً ، دل على أنه مات شهيداً ، لأن الموت بسم العدو شهادة .

ذكرنا أن محمداً (ﷺ) وكثيراً من المسلمين أرادوا أداء العمرة في مكة عام ٦٢٨ = ٦ هـ ، لكن المشركين حالوا دون تقدمهم وزيارتهم . فعقدت في الحديبية معاهدة صلح بين الطرفين مدتها عشر سنوات . ومن شروط هذه المعاهدة السماح للمسلمين بزيارة مكة والحج في العام القادم ، على أن لا يبقوا فيها أكثر من ثلاثة يام . ولهذا اتجهوا في العام الثاني ٦٢٩ ، وعددهم أكثر من الألفين . ولأنهم زوار لم يحملوا معهم غير السيوف ، وذكرنا أن السيف في ذلك الزمان لم يكن سلاحاً حربياً ، بقدر ما كان نوعاً من زينة الثياب . ومع ذلك فان المشركين حين دخل المسلمون تخوَّفوا ، وخرجوا من مكة ، ثم انتشروا في الجبال المحيطة ببلدتهم ،

---

(١) ذكر الطبري : فتجاوز عنها النبي (ﷺ) . وهذا يعني أنه لم يعاقب ، فكيف لم يلاحظها المؤلف ؟

(٢) قال يخاطب أم بشر .

والمشرفة على الكعبة ، وأخذوا يراقبون المسلمين من علٍ . وعلة تخوفهم وخروجهم أنهم خشوا من مفاجأتهم بالحملة عليهم وقتلهم .

واحتاط محمد (ﷺ) للأمر قبل دخوله مكة ، فجهز مئة فارس تحت إمرة « محمد بن مسلمة »[1] ، وأوقفه في منخفضٍ في منطقة « مرّ الظهران »[2] الواقع قرب مكة ، وإلى جوار ذلك المنخفض جبل ، يمكن لمحمد وفرسانه أن يرقبوا مكة من علٍ . وأمر النبي (ﷺ) قائد الفرسان أن يحملوا على المشركين إن هاجموهم .

وعجب المشركون من نظام المسلمين في أثناء دخولهم مكة ، وانغماساتهم في عبادتهم ، وهم يرونهم من مواقعهم العالية . وعندما كان بلال الحبشي يؤذن « الله أكبر . . . الله أكبر . . لا إله إلا الله . . . . » كان المشركون من أعالي الجبال يرتجفون هلعاً . وكانوا يتوقعون أن تغضب أوثانهم ، فتتهدم السماء على رؤوسهم ، لكن شيئاً لم يحصل للمسلمين ، حتى حجرة واحدة لم تسقط من السماء . . وللمرة الأولى يعلو اسم « الله أكبر » في سماء مكة . وحينما كان المسلمون يطوفون حول الكعبة كانوا يذرفون دموعهم من أثر الشوق وخلوص النية . حتى عمر كان يبكي ، لأن مدة طويلة مضت ، والمسلمون محرومون من زيارة الكعبة ، ولم يتوقعوا أن يزوروها ويطوفوا حولها .

وبعد أن تمت مراسم الحج ، أراد محمد (ﷺ) أن يربط وشائج القربى بينه وبين جماعة قريش ، فعقد قرانه على « ميمونة بنت الحارث »[3] ، أخت زوج

---

(١) محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي ، صحابي من الأمراء . شهد بدراً وما بعدها الا غزوة تبوك . ولاه عمر على صدقات جهينة ، واعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين . مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ .

(٢) الظهران : واد قرب مكة ، وعنده قرية يقال لها « مرّ » تضاف إلى هذا الوادي ، فيقال « مر الظهران » فيه عيون ونخيل (معجم البلدان) .

(٣) هي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية ، آخر امرأة تزوجها رسول الله (ﷺ) ، وآخر من مات من زوجاته . كان اسمها « برة » فسماها « ميمونة » . بايعت بمكة قبل الهجرة . كانت زوجة أبي رهم بن عبد العزى العامري ، ومات عنها . فتزوجها النبي (ﷺ) سنة ٧ هـ وعاشت ثمانين سنة . دفنت في « سرف » مكان زواجها بالنبي (ﷺ) سنة ٥١ هـ .

العباس . فكان هذا الزواج ذا صبغة سياسية بحتة . لأن لها ثمانـي أخـوات ، تزوجن جميعاً من أشراف مكة . وهكذا توطدت أواصر القربى بينـه وبـين أزواج أخواتها الثمانية . ويذكر ابن هشام والزمخشري وابن حبيب أن كل من تزوج بميمونة غدا قريبَ كل سكان مكة . يقول ابن حبيب إنه لم يكن كهند أم ميمونة امرأةً في الجزيرة تتحلى بمكانتها ومقامها .

من أهداف النبي (ﷺ) في هذا الزواج أن يجعل خالد بن الوليد قريباً له ؛ فقد كان ابن أخي ميمونة ، وتعتبره ميمونة بمثابة ولدها الربيب . وحين تزوجهـا رسـول الله (ﷺ) غـدا خالـد أشبـه بولـدٍ له . وبعـد أن تم القـران أراد محمد (ﷺ) أن يدعو جميع أشراف قريش إلى وليمة فاخرة ، يجتمع فيها القرشيون والمسلمون الى سماط واحد . . . وهذا هو هدفه الثاني .

وقد شُغل محمد (ﷺ) منذ اليوم الثاني لدخوله مكة بإعداد الوليمة المناسبة لمدعويه . وظل المشركون على قمم الجبال ، من غير أن يجرؤوا على النزول . لكن نظام المسلمين ، وأذان بلال الحبشي ، وتوحد صفوف المسلمين أثر فيهم أي أثر ، ممّا حدا بخالد بن الوليد إلى أن يقول لمن حوله .

إن رجلاً ذا عقيدة كما أرى ، وله تابعون بهذا العدد وهذه الطاعة ، ليس مخادعاً ولا مخاتلاً ، لأنني أرى هذا الحشد مؤمنين مخلصين ! فان كان رئيسهم كاذباً لم يصدق له من حوله كل هذا الصدق .

وفي صبيحة اليوم الثالث ، استعد محمد لأن يبعث إلى سكان مكة ، وهم في الأعالي رسلاً يدعونهم الى الوليمة التي أعدها بمناسبة زواجه . ولكن قبل أن يتجه الداعون إلى الجبال قدم وفد من قبل قريش برئاسة « ابن عبد العزى »[1] .

« العزَّى »[2] ، كما ذكرنا ، أحـد الأوثـان المهمـة في الكعبـة . ويسمـى

---

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس .

(٢) العزى : أحدث من اللات ومناة ، اتخذها ظالم بـن أسعـد . كانت بالشام بإزاء الغُمير . ثم غدت أعظم الأصنام عند قريش (كتاب الأصنام) .

بعضهم بها فقالوا : عبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد العزى . ولا بد من القول إن أهل مكة كانوا يعبدون الله في الكعبة ، كما كانوا يعبدون الأوثان . ونحن نعلم أن أبا محمد (ﷺ) هو « عبد الله » . لكنهم لم يفرقوا بين الله تعالى وهذه الأوثان الثلاثة . ومع أن « الله » إله إبراهيم باني الكعبة ، ويحترمه الناس كثيراً ، فانه لم يكن لديه مزية على تلك الأوثان . وعلى هذا فان اسم « عبد الله » لم يكن دليلاً على أنه مسلم .

●

قدم ابن عبد العزى ومرافقوه إلى النبي (ﷺ) ، فشاهدوه منشغلاً مع المسلمين بإعداد واجبات الدعوة . وحين أدرك ابن عبد العزى أن هذا الاهتمام بسبب دعوة قريش للاشتراك في حفل زواج محمد (ﷺ) من ميمونة قال له :

- لقد انقضى أجلك في مكة ، فاخرج عنا .

وعلى هذا ، فان رسول الله (ﷺ) لم يستطع أن يُتمَّ الدعوة لقريش ، واضطر الى الخروج من مكة . وفيما كان يخرج اعترضه خالد بن الوليد ، الذي غدا قريباً له ، ومأخوذاً بنظام المسلمين وإيمانهم ، وأسلم على يديه . وغدا فيما بعد من القواد المسلمين اللامعين ، ولقبه رسول الله (ﷺ) بـ « سيف الله » . وفيما كان خالد ، في طريقه ، صادف رجلاً قد رافقه إلى الحبشة ، هو « عمرو بن العاص » ، وكان يريد أن يلتحق بالمسلمين أيضاً . فقدم الاثنان معاً ، وأعلنا إسلامهما . ومع أن صلح الحديبية يأمر المسلمين باعادة من يعلن إسلامه من أهل مكة ، فانهم لم يجرؤوا على طلب رجل مثل خالد ، لأنهم أيقنوا بقوة المسلمين .

وإثر وصول المسلمين الى المدينة طرأ على المسلمين طارىء مهم جداً ، يعتبر أكثر أهمية من إسلام هذين الرجلين ، ألا وهو قدوم أبي سفيان ، القائد الأعلى لجيش مكة ، إلى المدينة لزيارة محمد (ﷺ) . فقد جاء من غير جيش ، ودخل المدينة التي كان كل سكانها مسلمين . لكنه لم يتهيَّب لدخوله هذا ، لأن معاهدة

الصلح ما زالت قائمة بين الطرفين . وهو يعلم أن المسلمين لن يفعلوا به شيئاً ، ما دام لم يخالف معاهدة الصلح ، وما دام قادماً من غير جيش . ثم إنه يعلم أن محمداً الأمين لا ينقض عهد ، ولا يسيء معاملته . كما أن دخوله من غير جيش يعادل دخوله لائذاً ، والعرب يحمون روح اللائذ بهم وماله . والذي دعا أبا سفيان الى مجيئه ما ورد في معاهدة الصلح التي تنص على حرية الطرفين في الاتحاد مع من يشاؤون ، والحرية في حرب من يريدون . وعلى أحد الطرفين أن يكون حيادياً إذا شغل الطرف الآخر باحدى الحروب .

كانت قبيلة خزاعة في تلك الأيام متحدة مع المسلمين . وقد حمل عليها بنو بكر . والمعروف أن قريشاً كانت تحامي بني بكر وتساندها . ومساعدة قريش لبني بكر مخالفة لصلح الحديبية . ولكن أشراف مكة اهتموا لهذا الأمر كثيراً ، ولا سيما بعد سقوط خيبر .

فعندما سقطت خيبر بأيدي المسلمين امتد سلطان المسلمين على الأقسام الشمالية لجزيرة العرب ، فتخوف أهل مكة كثيراً . لهذا ذهب أبو سفيان إلى المدينة ليحل المشكلة المتفاقمة . وحين وصل المدينة دخل بيت « أم حبيبة » ابنته وزوج النبي . فحين رأت أباها في منزلها جمعت فراشاً كانت قد بسطته على الأرض . فعجب أبو سفيان من عمل ابنته ، فسألها :

ـ ولِمَ جمعتِ الفراش يا بنتي ؟!

فأجابت أم حبيبة أباها :

ـ لأن محمداً (ﷺ) يجلس عليه وينام ، وأنت مشرك لا يجوز لك الجلوس عليه .

ومن غير أن يجلس طلب من ابنته أن تتوسط بينه وبين زوجها محمد (ﷺ) ، ليتمكن من حلّ مشكلة الحرب بين خزاعة وبني بكر حلاً مناسباً . فأجابته أم حبيبة :

ـ لا يمكنني أن أتوسط . والسبيل الوحيد لحل مشكلتك أن تذهب إليه إلى المسجد ، وتتذاكر معه .

فذهب أبو سفيان الى المسجد . وحين رآه رسول الله (ﷺ) طلب إليه أن يجلس ، ثم سأله عن أمره فقال :

ـ لقد قدمت يا محمد (ﷺ) لأحادثك بشأن الحرب بين خزاعة وبني بكر .

ولما سأله التوضيح عما ينوِّه به قال له :

ـ لا نريد منك أن تعترض على الحرب بين القبيلتين .

وجاء في جوابه لأبي سفيان أنكم إن لم تساعدوا بني بكر فلن نساعد خزاعة . ولم يستطع أبو سفيان أن يحصل على جواب مرضٍ من محمد (ﷺ) ، لذا خرج من المدينة مضطرباً ، واتجه نحو مكة .

الحرب مع الروم

إزدادت قوة المسلمين بعد انتصارهم في خيبر . وشعر النبي (ﷺ) بقوته تترسخ ، ولهذا رأى أن يبعث الرسائل إلى ملوك الدول المجاورة ،يدعوهم فيها إلى الاسلام . كانت إحدى هذه الرسائل إلى إمبراطور بيزانطة . والرسالة الثانية أرسلت إلى كسرى إيران ، والثالثة إلى نجاشي الحبشة ، والرابعة إلى ملك مصر . وكان من جملة الملوك المجاورين ملك عربي هو « الحارث بن أبي شمر »[1] ، وكان يعيش تحت نفوذ إمبراطور بيزانطة .

وقد حمل رسالة ابن أبي شمر « الحارث بن عُمير »[2] . وطلب إليه أن يسلمها ويعود بجوابها . غير أن « شرحبيل بن عمرو » أحد ولاة ابن أبي شمر التابعين له أسر ابن عُمير وقتله . وكانت هذه الحادثة عصيبة على المسلمين ، لأن عرف الأمم يقضي بصيانة حامل الرسائل . فأرسل النبي رسالة إلى الحارث بن أبي شمر يخبره فيها أن أحد حكامك ويدعى شُرحبيل بن عمروقتل رجلاًبريئاً، كان يحمل رسالة إليك . وقد قدم الرجل إلى بلادك وحيداً ، يدل مظهره على أنه غير معادٍ ولا مخاصم ، ولو كان سيّىء النية لجاء بجيش معه. إن قتل حامل الرسائل أمر ترفضه كل الطوائف والأديان . وأريد أن أعلم هل أقدم تابعك على قتل رسولي من غير إذنك ؟ فان كان كذلك ، نريد أن تسلمنا إياه لينال جزاءَه . أما إن قام بهذا

---

(١) هو الحارث بن أبي شمر الغساني من أمراء الشام . كانت إقامته بغوطة دمشق . وأدرك الاسلام ، ومات سنة ٨ هـ .

(٢) الحارث بن عمير الأزدي اللهبي . بعثه رسول الله الى ملك بصرى بكتابه ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل الغساني وقتله . ولم يقتل لرسول الله رسول غيره . توفي سنة ٨ هـ .

العمل بأمرك ، فأنت حينئذ المسؤول . وجاء جواب الحارث كما يلي :

« أنا ملك بلادي ، وحر التصرف فيه . فان حكمت على أحد بالقتل فلا أرسله اليك كما طلبت . ولقد قُتل رسولك بأمر مني » .

وحين رأى النبي (ﷺ) هذا الجواب القاسي صمم على مهاجمة بلاده ، فأعد ثلاثة آلاف محارب . ولما كان الحارث تحت نفوذ البيزنطيين ، فقد طلب العون منهم . وتشاء الصدف أن يكون الإمبراطور مشغولاً بحرب مع الفرس ، وكان قد جهز مئة ألف محارب . فحين استنجد به الحارث أرسل اليه الجيش كله . ولا نعلم كم كان لدى الحارث من الجنود . بعضهم يذكر أنهم عشرة آلاف ، وآخرون يذكرون أنهم مئة ألف (ولا شك أن الرقم الأخير مُغالىً به) ، لأن الحارث مجرد ملك صغير ، وليس في مقدوره تجهيزُ مثل هذا العدد من الجنود . وعلى فرض أن الحارث لا يملك جيشاً مطلقاً فإن مئة ألف رومي رقم هائل بالنسبة الى جيش مؤلف من ثلاثة آلاف نفر . والتقى الجيشان في « مؤتة » الواقعة في دولة الغسانيين ، والتي تعتبر تابعة له .

يشير المؤرخون الى حدثين كبيرين جريا في أثناء تحرك الجيش من المدينة ، الأول أن الجيش كان تحت إمرة زيد بن حارثة ، ابن النبي (ﷺ) بالتبني ، والثاني أن جعفر بن أبي طالب كان من قواد الجيش . وخبر آخر اختلف فيه المؤرخون ، وهو موقع المعركة . يذكر بعضهم أن مؤتة هي المعركة الثانية للمسلمين في دولة الحارث ، فبعد أن خسروا تجاه جيش الروم عادوا ثانية الى قرية مؤتة ، وحاربوا الغسانيين . والمعروف أن جيش الروم ذو استعدادات وعتاد ، ويتشكل من كتائب متعددة ، وتتألف كل كتيبة من ستة آلاف مقاتل ، وتدعى الكتيبة « لو جيون »[1] ، وتتشكل كل واحدة من ثلاثين « ماني پول » ، وكل ماني پول من

---

(١) لوجيون ـLEGION : فيلق روماني كان يتألف من ستة آلاف جندي في عهد قيصر ، ويقسم الى عشر فرق تسمى كوهورت ـCOHORTES . وكل فرقة من هذه الفرق تقسم بدورها الى ثلاث مجموعات تسمى « ماني بول ـMANIPULES . وكل مجموعة من هذه تقسم الى مجموعات اصغر ، تحتوي كل منها على مئة جندي وتسمى سنتوري ـCENTURIE .

اثنين « سنتوري » ، وكل سنتوري مؤلف من مئة محارب . ويرتدي الجندي الرومي خوذة ودرعاً ، ويحمل رمحاً طويلاً ، وسيفاً ، ومجموعات اللوجيون في رومية الصغرى على معرفة بفن الفالانج ، الذي ذكرناه في معركة بدر .

عندما التقى جيش المسلمين الصغير بجيش الروم العظيم رأى عدد من المسلمين أن يتناقشوا في أمر الهجوم ، وهل يحاربون أم لا ؟ فمع أنهم كانوا يحاربون ضعف عددهم أو عدة أضعاف ، فانهم الآن تجاه عدو يفوقهم بأربعين أو خمسين ضعفاً ، ناهيك عن العتاد والاستعداد . وان كان عدد من جنود المسلمين يملكون دروعاً أو خوذات . وأجابهم قائد الجيش ، والذي هو زيد أو جعفر :

ـ نحن نحارب في سبيل الله ، فإن قُتلنا ذهبنا الى الجنة ، وإن انتصرنا فمصيرنا الجنة كذلك . فلماذا نخاف من كثافة العدو ؟

عندما سمع المسلمون رأي زيد في الحرب ، واستعداده للموت ، استفادوا من تجاربهم في تنظيم الخطة الحربية ، وذلك بتأليف « الفالانج » ولكنه لم ينفع في هذا المجال ، لأن الروميين يعرفون هذا الفن ، وأسلحتهم قوية ، وهم أصحاب مهارة حربية .

وحين قتل زيد تسلم جعفر مكانه . فأمر المسلمين بالتراجع فيما هم يحاربون ، حتى وصل إلى قرية مؤتة . وهناك ـ بحسب الأخبار المروية ـ قطعت يداه ، ومع ذلك ظل يدافع عن نفسه برجليه حتى قتل . وبعد جعفر تسلم عبدالله ابن رواحة الأنصاري قيادة الجيش . فأخذ يتلو آيات القرآن بصوت جهْوري ، لرفع معنويات الجنود . وقد اختار الآيات المتصلة بالجهاد والفداء والشهادة والجنة . وفي نفس الوقت كان يضرب بسيفه ، ويدعو المسلمين إلى تماسك صفوفهم .

ولو لم ينظموا أنفسهم على شكل الفالانج لقتلوا جميعاً حتماً . لكن هذا التنظيم هو الذي ساعدهم على الثبات في وجه الجيش الرومي . وقتل عبد الله عند

العصر. عندئذ تسلم خالد بن الوليد قيادةالجيش. ويروى أن معركة مؤتةاستمرت يوماً واحداً. وفي رواية أخرى أنها امتدت حتى اليوم الثاني. لكنني أرى أن المعركة ختمت في اليوم الأول بعد تسلم خالد قيادة الجيش. فلو أنهم حاربوا في اليوم الثاني لماتوا جميعاً. وقد ساعدهم على التراجع أمران؛ الأول هو شخصية خالد وكفاءته، والثاني حلول الظلام.

كان خالد قبل أن يتسلم قيادة الجيش آمراً لفالانج مؤلف من خمسمئة نفر. وقد تكسرت له تسع قبضات من السيوف في هذه المعركة. وبعد أن غدا رئيساً غيَّر تنظيم الفالانجات، وأصدر أمراً بالهجوم. وحتى ذلك الوقت ففي ثلاثة فالانجات من أصل ستة، أي قتل ألف وخمسمئة رجل. ومع هذا فإن خالداً أمر بالهجوم بمن تبقى، واستطاع أن يتقدم في هجومه، حتى وصل إلى قائد جيش الحارث، ويدعى « مالك بن البلوي » وقتله. وقد أثرت هجمة خالد تأثيراً كبيراً بحيث أحرج جيش الروم والحارث مدة وجيزة. فقد اعتقدوا بأن إمدادات جديدة قدمت إلى المسلمين. وحين حل الظلام أمر خالد المسلمين بالتراجع. فتراجعوا تحت جنح الظلام.

واستشهد في هذه المعركة ألفا مسلم، من جملتهم جعفر الذي شارك محمداً (ﷺ) في نشأته، وكان أخاه بالرضاع. وكذلك استشهد زيد بن حارثة غلام النبي (ﷺ) المعتوق، وأحد المسلمين الأوائل.

يروى في قصة المعراج أن النبي (ﷺ) رأى حورية ذات جمال باهر، وشفتين كالبرعم الوردي، فسأل عنها فأجيب بأنها خطيبة زيد في الجنة، وسيلحق بها بعد مؤتة.

ومع أن المسلمين خسروا في مؤتة فان خالداً استطاع بكفاءته وشجاعته إنقاذ ألف محارب، وإعادتهم الى المدينة. وبهذه الشجاعة التي أبرزها دعي « سيف الله » ولقي بعد ذلك شهرة طبقت آفاق الجزيرة.

●

وقد ذكرنا أن الحجاز يقع على شاطىء البحر الأحمر ، ويبلغ طوله ألف كيلومتر من الشمال إلى الجنوب . وقديماً كان من يملك الحجاز يملك الجزيرة كلها . وقد استطاع محمد أن يُدخل كل القبائل التي سكنت الحجاز في الاسلام ، ولذلك غدا الآمر على منطقة الحجاز ، باستثناء مكة . ولهذا صمم فتحها ، ولكن هذا يتطلب تجهيز الجيش الكافي .

ساعد سكان مكة قبيلة بني بكر على مهاجمة قبيلة خزاعة المتحدة مع المسلمين . وهكذا نقض صلح الحديبية . لذا تمكن محمد (ﷺ) من إيجاد ثغرة للحملة عليها ، من غير أن يجرؤ أحد على اتهامه بنقضه العهد ، لأن القرشيين هم الذين نقضوه . وذكرنا أن أبا سفيان قدم إلى المدينة ، وبحث الأمر مع محمد (ﷺ) ، وقال له :

- إذا تضررت قبيلة خزاعة فان سكان مكة مستعدون لتعويضها الضرر .

وهذا يثبت أن قريشاً نقضت عهد الصلح . ونرى لزاماً أن نشرح هذه الحملة باختصار : فقبيلة خزاعة لم تكن مسلمة ، لكنها كانت من جملة التابعين للمسلمين . ويقيمون في أرض تدعى « وقير » قرب مكة ، أي بعيداً عن المدينة . ولما كانوا متحدين مع المسلمين فقد كانوا في حمايتهم . هذه الضغينة بين هاتين القبيلتين قديمة منذ الجاهلية . وقد هيَّج « نوفل بن معاوية »[1] أحد رؤساء بني بكر قبيلته على حرب بني خزاعة ، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين ، لكن المسافة بينهما بعيدة جداً . وقبل أن تصل نجدتهم قتل بنو خزاعة جميعاً . أما من هرب منهم فقد دخل مكة واحتمى بالكعبة لأنها منطقة حرام . ولم تكتف قريش بأن قدمت الأسلحة الى بني بكر ، بل أرسلت عدداً من فتيانها ليحاربوا معهم ، وشاركهم في

---

(١) نوفل بن معاوية بن عمرو الكناني : معمَّر من الصحابة . شهد بدراً والخندق مع المشركين ، ثم أسلم وشهد الفتح وحنيناً والطائف . ونزل المدينة ومات بها سنة ٦٠ هـ في خلافة معاوية أو أيام يزيد . عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الاسلام .

الحرب بعض سادة قريش أمثال « سهيل بن عمرو » و« صفوان بن أمية » و« عكرمة بن أبي جهل » . وقد اعتقدت خزاعة أن لجوءها الى الكعبة سيُنجيها . لكن نوفلاً حام حول البيت ، وأعلن أن دم خزاعة مباح ، ويجب أن يقتل الجميع . فنادى بعض من الخزاعيين من قلب الحرم :

ـ يا نوفل نحن هنا في الكعبة ، فاخجل من رب البيت ، فلا تطأها .

لكنه قال :

ـ لا يعرف نوفل رب الكعبة اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثأركم .

وهجم بنو بكر على خزاعة في الكعبة ، لكنهم لم يريدوا أن تسفك دماؤهم داخل الكعبة ، فهربوا . وقتل بعضهم في أثناء فرارهم .

وذهب « بُديل بن وَرقاء » رئيس قبيلة خزاعة بعد هذه المعركة الدامية الى النبي (ﷺ) ، وشرح له ما جرى ، فتألم النبي (ﷺ) كثيراً ، لأن قريشاً ساعدت بني بكر ، ولأنهم لم يحترموا بيت الله ، فهاجموهم فيه . عندما كان أبو سفيان قادماً الى المدينة ليلقى محمداً كان بديل خارجاً منها . وتلاقى الاثنان عند منزل يدعى « عفّان » فسأله أبو سفيان :

ـ أأنت قادم من المدينة ؟

أجاب بديل :

ـ بل كنت على شاطىء البحر ، وعدت من هنا ، قاصداً مضارب قبيلتي .

فأمر أبو سفيان اثنين من مرافقيه أن يتعقباه حين يسير ، ثم يأخذا بعر الجمال ويتفحصاه . وقال لهما :

ـ لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى .

وتعقب الرجلان بديلاً ورجالـه ، وتفحصـا بعـر الجمال فوجـدا فيهـا نوى المدينة . فتأكد لأبي سفيان أن بديلاً رأى محمداً ، وشرح له كل الأحداث . لهذا فان أبا سفيان أعلن لمحمد حين رآه بأن سكان مكة مستعدون لدفع الغرامة الى قبيلة خزاعة .

انتصار محمد (ﷺ) وفتح مكة

ذكرنا كيف أجاب رسول الله (ﷺ) أبا سفيان . لذا حين عاد إلى المدينة قال لسكان مكة :

- ليس غريباً أن يحمل علينا محمد (ﷺ) ، وقد قوي الآن ، فلا نستطيع مجابهته .

لقد أدرك أبو سفيان الأمر تماماً ، إذ صمم محمد على الحملة إلى مكة ، وأمر المسلمين بأن يستعدوا للحرب . ولكنه لم يعين وجهة المعركة، حتى أبو بكر وعمر ، وهما والدا زوجتيه ، لم يعلما بخطته . وبعد أن أصدر أمر الاستعداد أمر بأن ينقطع اتصال المدينة بظاهرها ، فلا يسمح لأحد بالخروج منها ، ولا بالدخول إليها ، لأنه يعلم أن الناس إن خرجوا نقلوا إلى القبائل الأخرى أنباء تجهيزاته ، وسيصل الأمر عندئذ إلى قريش . ولعل الخارج من المدينة يتعمد الاتجاه نحو قريش لإعلامها بنبأ الحملة عليهم . ومع ذلك فإن قريشاً أدركت أن محمداً (ﷺ) سيحمل على مكة .

لقد انقطعت الروابط مع المدينة تماماً ، إذ أوقفت القوافل ، وأُنزلت أحمالها وبيعت خارجها . وكان من بين سكان المدينة رجل نادر الذكاء إسمه « حاطب بن أَبي بَلْتَعة[1] » ، فقد أدرك أن النبي (ﷺ) سيحمل على مكة . ولما كان له

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، صحابي شهد الوقائع كلها مع رسول الله (ﷺ) ، وكان من أشد الرماة في الصحابة . وكانت له تجارة واسعة . بعثه النبي بكتابه الى المقوقس صاحب الاسكندرية . ومات في المدينة سنة ٣٠هـ .

معارف فيها فقد أرسل رسالة إليهم ، وعهد بالرسالة الى إمرأة تدعى « سارة » وهي أمة تاجر صديق له اسمه « صَـيفي بن عامر[1] » . ولما كان هذا الرجل تاجراً من تجار المدينة ، يُـدخل بضائعه من خارج المدينة فقد إستطاع أن يخرج من المدينة من غير أن يعترضه أحد . وبعد ذلك اتجه نحو مكة ومعه سارة .

وكان علي بن أبي طالب مأموراً بحماية الطرقات في ظاهر المدينة . وفهم أن سارة متجهة نحو مكة ، فأرسل بطلبها وإعادتها ، وطلب الى الذين أرسلهم أ نْ راقبوها حتى لا تفقد شيئاً منها . وأعاد المأمورون سارة ، وأخذوا منها الرسالة ، وسلموها إلى علي . فقرأها وعلم أن حاطباً كتب هذه الرسالة إلى معارفه في مكة . واستُجوبت سارة بعدئذ ليفهموا ألديها معرفة بمضمون الرسالة أم لا ؟ وتبين لهم أنها لم تكن على معرفة مطلقاً . ونقل علي الموضوع إلى محمد ، فطلب حاطباً إليه ، وأراه رسالته ، وقال له :

- أأنت أرسلت هذه الرسالة بواسطة أمة صيفي بن عامر لتحملها إلى مكة ؟

فاضطر حاطب الى الاعتراف بالأمر الواقع فسأله :

- أيعرف صيفي أنك حمَّـلتَ أمته رسالة ؟

أجاب حاطب :

- كلا يا رسول الله (ﷺ) ، إنه لا يعلم ذلك .

ولما كان حاطب يهدف من رسالته هذه الى تنبيه أقربائه بخطر حرب قادمة ، والابتعاد عن مكة فقد عفا عنه . لكن الشائعات كانت قد انتشرت في المدينـة ، وبرزت في توقُّعين :

---

(١) هو صيفي بن عامر الأسلت بن جشم الأوسي الأنصاري ، شاعر جاهلي ، من الحكماء ، وكان رأس الأوس وشاعرها وخطيبها وقائدها في حروبها ، وكان يكره الأوثان . ولما ظهر الاسلام اجتمع برسول الله (ﷺ) وتريث في قبول الدعوة ، فمات بالمدينة قبل أن يسلم .

الأول : أنهم توقعوا أن يتجه النبي لحرب الروم ، ليعوض عن الخسارة التي مُني بها المسلمون في مؤتة .
والثاني : أن النبي (ﷺ) سيحارب بني سُليم الذين أزعجوا المسلمين كثيراً . ولكن أحداً من الناس لم يدرك هدف النبي (ﷺ) الأصلي . وفيما كان المسلمون يتأهبون للحرب ، كان رسول الله (ﷺ) يعقد المعاهدات والاتحادات مع القبائل المحيطة به . وهكذا خرج جيش المسلمين ، لتتبعه القبائل التي اتحد معها .

يذكر المؤرخون الاسلاميون أن محمداً (ﷺ) دخل مكة في اليوم العاشر من رمضان ، من السنة الثامنة ، ولكنهم لم يحددوا يوم خروجه من المدينة ، والأرجح أنهم - في طريقهم - دخل عليهم شهر رمضان . ولعل خروجهم كان في اليوم الأول منه . والمسلمون يصومون رمضان كله ، بحيث لا يأكلون شيئاً من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وسار جيشهم حتى وصلوا إلى منزل اسمه « قديد » . وهناك أمر رسول الله (ﷺ) بألا يصوموا بعد ذلك اليوم ، لأن الله أعفى المسلمين من الصوم أثناء السفر . ولم يصم المسلمون بعد ذلك في حملتهم هذه . واستمر بهم المسير حتى وصلوا « مرَّ الظهران » الواقع على منزلة من مكة . وهناك عسكروا . فأمر النبي (ﷺ) أن توقد النيران في أثناء الليل ، ليعلم سكان مكة أن المسلمين قدموا اليهم بجيش لجب .

ذكرنا أن عباساً ، عم النبي (ﷺ) ، تاجر ومرابٍ ، وقد استنتج بحدسه أن مكة لا تستطيع الوقوف في وجه المسملين . فقرر أن يهرب منها . فباع كل ما يملك ، لأنه ظن أن المسلمين سيصادرون أملاكه حين يدخلون مكة . وبعد أن أتمَّ عملية البيع اتجه نحو مر الظهران ، ووصل الى محمد (ﷺ) ، وأعلن إسلامه . وقد لاحظ أبو سفيان ما لاحظه عباس ، فذهب هو أيضاً إلى مر الظهران .
يقول العباس :

- بينما كنت متجهاً نحو مر الظهران صادفت بعضاً من عسكر المسلمين ،

فسمعت اثنين يتحدثان . فأصخت السمع ، فإذا أحدهما يقول : أهذه النار التي تراها هي لخزاعة ؟ فأجاب الآخر : لا ، ليست لخزاعة ، فهي لا تملك كل هذا العدد ، حتى تنشر هذه النار . فعرفت صوت الرجل الثاني ؛ إنه أبو سفيان ، فناديته :

- أهذا أنت يا أبا حنظلة ؟! (وهي كنية أبي سفيان) .

وعرف أبو سفيان صوتي فأجاب :

- أأنت يا أبا الفضل ؟ (وهي كنية العباس) .

- قلت :

- بلى .

واتجهت نحوه ، فسألني أبو سفيان :

- ما الأمر يا أبا الفضل ؟

اجبته :

- قدم محمد (ﷺ) بعشرة آلاف محارب ، يريد أن يقاتل قريشاً بها ، ليستولي على مكة ، لأن قريشاً نقضت العهد ، وحملت على خزاعة حليفة المسلمين ، وقتلت عدداً من رجالها ، ونهبت أموالهم . وحين يحمل المسلمون على مكة ستكون أول قتيل في أيديهم ، لأنك قائد الجيش والمسؤول عن نقض معاهدة الصلح .

وسألني أبو سفيان :

- وماذا تراني أصنع ؟

فقلت له :

- إن كنت تريد أن تبقى حياً ، ولا تُنهب أموالك ، فاذهب الى محمد (ﷺ) وأعلن إسلامك شريطة ألا تفقد أموالك .

وتابعت قولي :

ـ وإنني ذاهب إلى محمد (ﷺ) ، وسآخذك اليه . وعليك أن تظل في مكانك ، لأذهب إليه وأحضر لك ناقته ، لتركبها وتعبر معسكر المسلمين (ويذكر بعض المؤرخين أنه قال : سآتي لك ببغل) .

فسأله أبو سفيان :

ـ ولمَ أذهب الى محمد على ناقته ؟

أجبت

ـ لأن المسلمين جميعاً يعرفونك ، وهم خصومك . فإن رأوك قتلوك . ولكن إن ركبت ناقة محمد (ﷺ) أمنت على نفسك ، فلا يجرؤون على قتلك وأنت على ناقته ، ظناً منهم أنك قدمت بناء على طلبه .

وهكذا ركب أبو سفيان ناقة النبي (ﷺ) ، وعبر بها المعسكر ، وأنزلته عند محمد (ﷺ) . وحين دخل خيمة محمد (ﷺ) كان عنده عمر بن الخطاب فقال له :

ـ إئذن لي يا رسول الله بأن أضرب رقبة أبي سفيان .

فقلت لعمر :

ـ هذا الرجل من أبناء عبد مناف ، ولهذا تريد أن تقطع رقبته . أفإن كان من بني عدي كنت تقطع رقبته ؟

أجاب عمر :

ـ إن كان أفراد طائفتي أعداء رسول الله (ﷺ) قطعت رقابهم ، لأنني صديقُ صديقِ رسول الله (ﷺ) ، وعدو خصومه .

ويقول العباس أيضاً :

ـ ... وقال لي محمد (ﷺ) : خذ يا عباس أبا سفيان الى خيمته الليلة وأحضره إليَّ صباح الغد .

فأطعته وأخذتُ أبا سفيان الى خيمته لينام . وفي الصباح الباكر ذهبت الى الرسول، ومعي أبو سفيان ، فقال له محمد (ﷺ) :

ـ أما آن لك أن تؤمن بالله ؟

فقال أبو سفيان :

ـ أؤمن يا محمد (ﷺ) بأنك رجل أمين ، وتحفظ صلة الأرحام ، لكنني لم أتأكد بعدُ من أنك نبي حقاً حتى أدخل في دينك .

فقلت (أي العباس) :

ـ لقد خنت العهد يا أبا حنظلة ، ويجب أن تُقتل على هذا ، فإن لم تقبل الاسلام قُتلتَ.

واضطر أبو سفيان الى قبول دين الاسلام عندئذ . وبحضور عدد من مشاهير المسلمين تدارس محمد (ﷺ) مع أبي بكر كيفية دخول مكة . ثم أصدر محمد (ﷺ) أمرين :

الأول : أن يمر جيش الاسلام في ذلك اليوم من أمام أبي سفيان .

الثاني : أن كل من دخل منزل أبي سفيان فهو آمن .

وبعد أن استعرض الجنود أبا سفيان وعرفوه أمره بالاتجاه نحو مكة ليُعلم سكانها أنه حُكم عليهم بالقتل ، وأموالهم حلال للمسلمين إلا من دخل الكعبة ، أو دخل منزل أبي سفيان أو منزله ، ولم يعترض للمسلمين . فماله وروحه عندئذ في أمان . وتبعه جيش المسلمين ، وأحاطوا بمكة من غير سفك للدماء . وتوقف أبو سفيان تجاه الكعبة ونادى :

ـ إن جيش المسلمين يريد دخول مكة ، ولا يمكننا مقاومته . ويقول محمد (ﷺ) : إن كل من يدخل الكعبة آمن ، وكل من دخل منزل أبي سفيان آمن .

والذين لا يصلون الى الكعبة أو إلى منزلي يبقون في منازلهم ، ولا يخرجون منها . وليطمئن الجميع الى أنهم لن يتعرضوا لأرواحهم ولا لأموالهم .

وغضبت هند زوجته من كلامه هذا فقالت :

ـ اقتلوا هذه القربة الممتلئة ، لأنه خاننا ـ وكان سميناً ـ فمع أنه قائد الجيش ويجب أن يحرض الناس على الحرب ، نراه يطالبهم بألا يخرجوا من منازلهم ليصونوا أرواحهم وأموالهم .

لكن الناس لم يرغبوا في قتل أبي سفيان ، لأنهم يعلمون أنه لا يستطيع أن يحارب المسلمين . وحين رأت هند أن أحداً لن يقبل بقتله أقدمت هي على ذلك ، فمنعها الناس . ولم يمض حين من الزمان حتى دخل المنادون المسلمون يكررون قولة أبي سفيان . فمن كان في الأحياء أسرع نحو الكعبة أو نحو بيت أبي سفيان . ومن تمكن من الوصول إلى بيته دخله وأغلق بابه فخلت مكة تماماً .

كانت المجموعة الأولى التي دخلت مكة من المسلمين بقيادة علي ، وكان يحمل لواء النبي (ﷺ) ، واتجه نحو الكعبة مع جنوده . والمجموعة الثانية بقيادة الزبير بن العوام ، حيث دخل من جهة الغرب ، ودخل سعد بن عُبادة الأنصاري من الشرق ، ودخل خالد بن الوليد من جهة الجنوب . وقد أمر النبي (ﷺ) القواد الأربعة بألا يُشهروا سيوفهم من أغمادها ، وبألا يحاربوا أحداً ما لم يحمل عليهم . ولكن سعد بن عبادة حين دخل مكة صاح بصوت عالٍ :

ـ اليومَ يومُ المَلْحمة ، اليوم تُسبى الحُرُمة .

ويقصد بذلك أن حرمة الكعبة زالت هذا اليوم ، وبامكان المسلمين أن يقتلوا المشركين فيها . ووصل النبأ الى الرسول (ﷺ) ، فأمر بعزله عن قيادة الجيش فوراً ، وأتبعه بعلي ، حتى لا يحارب سعد أحداً . ولم تلق الجيوش الأربعة مقاومة تذكر ، إلا جيش خالد الجنوبي ، فقد اعترضه عدد من القرشيين والأحابيش ، وحملوا على خالد . لكن خالداً ـ سيف الله ـ نادى بأعلى صوته :

ـ لا تسفكوا دمـاءكم بلا سبـب ، لأن حملتـكم هذه لن توقفـ من زحف المسلمين ، فقد أمرنا رسول الله (ﷺ) بأن نفتـح مكة اليوم ، وسنفتحهـا بإذن الله .

لكنهم لم يستجيبوا لنصيحته ، بل حملوا عليهم . ومـا هي إلا مدة وجيزة حتى وقع خمسة عشر قتيلاً ، إثنان منهم مسلمون . ولما وجد الباقـون أن ثباتهـم مستحيل هربوا . واجتمعت الجيوش الأربعة حول الكعبة ، وكان معهـم محمـد (ﷺ) على ناقة بيضاء ، فطاف حول الكعبة سبع مرات ، ثم اتجه نحو الكعبة ، وطلب من « عثمان بن طلحة » مفتاحها ، لكن أم عثمان صاحت في وجهه :

ـ لن نفتح لك باب الكعبة .

لكن عثمان هدأ أمه وفتح الباب ، فدخل خمسة أشخاص هم : رسول الله (ﷺ) ، وعلي ، وعثمان بن زيد ، وبلال ، وعثمان بن طلحة خادم الكعبة . وحين دخلوا الكعبة ، خرج المشركون من منازلهم متضايقين غاضبين ، خشية على حرمة الكعبة ، فقد تصوروا أنـه سيقتلهـم ، وينهـب أموالهـم ، ويستـولي على نسائهم وأطفالهم . ويجب أن نشير هنا إلى أن سكان مكة كفار ، فبعد أن عقدوا معاهدة الصلح مع المسلمين نقضوها ، فعدُّوا حانثين يجب حربهم . ودخل محمد (ﷺ) مكة حربـاً لأنـه أعـدّ الجيوش لفتحهـا ، وحـارب طائفـة من قريش والأحابيش ، وقُـتل اثنان من المسلمين . فوفقاً للقانون يحق لمحمد (ﷺ) ، بعد أن فتح مكة ، أن يقتل رجالها ، ويستعبد نساءها . لكن النبي (ﷺ) عفا عنهم . وبعد أن أتمَّ زيارة الكعبة خرج منها ، ووقف على عتبتها يخطب في الناس :

ـ لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعدَه ، ونصر عبده . ألا كلُّ مأثرة[1] أو دم أو مال يُـدَّعى ، فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سِـدانة البيت[2] وسقاية

---

(١) المأثرة : الخصلة التي تتوارث ويتحدث بها الناس .
(٢) سدانة البيت : خدمته .

الحاج . ألا وقتيلُ الخطأ مثل العَـمدِ ، والسوط والعصا فيهما الديةُ مغلَّـظة (مئة من الإبل) ، منها أربعون في بطون أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نَـخوة الجاهلية وتعظُّـمَها بالآباء ، الناسُ من آدم ، وآدم خلق من تراب .

ثم تلا رسول الله (ﷺ) : ﴿ **يا أيُّها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى ، وجَعلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم** .. ﴾ [1] .

يا معشر قريش ، ويا أهلَ مكة ، ما تُـرَوْن أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . **قال** : فاذهبوا فأنتم الطُّـلقاء .

وهكذا دعي سكان مكة باسم الطلقـاء ، أي العبيد المحـررون . وبقيت السقاية فيهم ، وكانت لعمه العباس ، لأنه يسقي الناس بالسوية ، ومن غير اعتبار لمقام . وحين أسلم سكان مكة ـ كما سنشرح ـ احتفظ عثمان بن طلحـة بمنصـب سدانة الكعبة . وانتقل منصبه بعد وفاته إلى أولاده ، وما زال مفتاح الكعبة حتى اليوم في أيدي أحفاد عثمان . وبعد أن أنهى محمد خطابه حطـم بيده أحـد أوثـان الكعبة ، وطلب من علي أن يحطم سائر الأصنام والصور . ويروى أن محمداً قال :

ـ لا تحطموا الصورة التي تحت يدي .

وبحسب الرواية ، أنها كانت صورة السيدة مريم محتضنة حضرة المسيح . لكن روايات أخرى تنفي بقاء أي شيء . وبينما كانوا يحطمون الأصنام كان رجال قريش الموجودون داخل الكعبة يغطون وجوههم بعباءاتهم من الألم والأسى ، حتى لا يروا آلهتهم تهشَّم وتداس . بل كان بعضهم يعتقد بأن علياً ومن معه ، وهم في عملهم هذا ، سيُزالون من الوجود . ولكن شيئاً لم يحدث ، وتكسرت الأوثـان

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

واحداً تلو الآخر من غير أن يتأثر احد من المسلمين . وبعد ذلك سمح محمد (ﷺ) للمشركين الموجودين في الكعبة بأن يذهبوا حيث يريدون ، وأن من في منزل أبي سفيان أحرار في خروجهم وذهابهم الى أعمالهم أو منازلهم . وخرج الجميع من الكعبة الا محمداً (ﷺ) لأنه لم يكن له مكان يأوي اليه ، فقد كان منزله جميلاً ومؤلفاً من طابقين ، ويعتبر من مساكن مكة المشهورة ولكن بعد موت خديجة غدا لعقيل أخي علي ، وباعه هو أيضاً . وقد قال له بعض المسلمين إن له الحق في اختيار المنزل الذي يريد ليسكنه ما دام قد فتح مكة ، فأجابهم بأن سكان مكة وأموالهم في أمان ، ولا يمكنني أن أختار منزل أحد . ولما لم يستطع البقاء ليلاً في الكعبة انتقل الى منطقة تدعى « الخائف » ، وهناك نام في الخيمة .

قبل أن يدخل محمد وجيشه مكة كان لها حاكم يدعى « عتّاب بن أسيد[1] » . وفي اليوم الخامس عشر من رمضان ، وبينما كان بلال يستعد للأذان ظهراً ، وحتى يصل صوته إلى مسامع السكان جميعاً رأى أن يختار منطقة مرتفعة ، ففكر في الصعود الى ظهر الكعبة ليؤذن من هناك . وحينما وصل صوته الى عتاب حاكم مكة قدم الى الكعبة ، وأمر بلالاً بالنزول . لكن بلالاً لم يعبأ به ، وتابع أذانه. فوجه عتاب إليه كلاماً نابياً . وبعد أن أتم أذانه ذهب الى النبي (ﷺ) وشكاه . فمع أن كلام عتاب النابي يستحق العقاب ، ولا سيما شِركه ، ومنعه أمراً دينياً ، فإن محمداً لم يعاقبه . وبعد أيام ذهب عتاب الى محمد (ﷺ) وأعلن له إسلامه ، فأبقاه على وظيفته .

وأظهر محمد (ﷺ) نبلاً بعد فتح مكة ورأفة نحو عدد من أعداء الاسلام ، إذا عفا عنهم جميعاً ، ومنهم عكرمة بن أبي جهل الذي هرب من مكة قبل قدوم

---

(١) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية . كان شجاعاً عاقلاً من أشراف العرب . أسلم يوم فتح مكة ، واستعمله النبي عليها عند مخرجه الى حنين سنة ٨هـ وكان عمره ٢١ سنة ، وأقره أبو بكر عليها الى أن مات يوم مات أبو بكر ، ويروى أنه عاش حتى سنة ٢٣هـ (الإصابة) .

المسلمين . ولقد ذهبت زوجة عكرمة تطلب الأمان لزوجها ، فسمح لها بأن يعود الى منزله . وكذلك هند « ماضعة كبد حمزة » ، هذه المرأة التي حملت الضغينة للمسلمين ، عفا عنها ، من غير أن تلقى أذًى من أحد ، وصفوان بن أمية الذي حاول قتل النبي (ﷺ) . فمع أنه صمّم البقاء على شركة فإنه أعلن إسلامه وأهدى المسلمين مئة درع وخمسة آلاف درهم بعد ذلك .

حينما فتح محمد (ﷺ) مكة كان في خزانة الكعبة أربعمئة وعشرون مثقالاً ذهباً (على اعتبار أن كل مثقال خمسة غرامات) . وأمر محمد (ﷺ) بألا يمسَّ هذا الذهب ، ويبقى تحت تصرف الكعبة . وقد أسلم ألفا قرشي في الأيام العشرة الأولى من فتح مكة . وكانت طريقة إسلامهم بأن يمر الواحد منهم من أمام عمر ، ويلفظ الشهادتين ، ويتعهد بألا يزني بالمحصنات .

لعل سائلاً يسأل : لماذا كان يوصي عمر بالابتعاد عن الزنى ؟ ولماذا لم يذكر الربا مثلاً ؟ والجواب أن الزنى كان منتشراً إنتشاراً فاحشاً بين المشركين ، وأن بعض العوانس ، وهن من أسر محترمة ، كنَّ يعلقن رايات فوق منازلهن ، إشارة الى وجود إمرأة في المنزل ، مستعدة لاستقبال الرجال[1] . وبعد أن دخل المسلمون مكة انتهى عهد الفجور . ومما لا شك فيه أن محمداً (ﷺ) كان واثقاً من إمكانية فتحه لمكة ، ودليل ذلك نزول سورة النصر في المدينة ، والتي هي اليوم ذات رقم (١١٠) : ﴿ إذا جاءَ نصرُ الله والفتح ، ورأيتَ الناسَ يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبِّح بحمدِ ربِّك واستغفرْهُ إنه كان توَّاباً ﴾

كان أغنياء مكة ، حتى ذلك اليوم ، يشربون الخمور ، ويأكلون لحم الخنزير . ولكن بعد ذلك حرم عليهم هذا الشراب وهذا الطعام . يقول الطبري[2] : « في هذه السنة تزوج رسول الله (ﷺ) مُليكة بنت داود الليثية » ،

---

(١) انظر كتابنا « الأعشى شاعر المجون والخمرة » لترى تفصيلاً عن ذوات الرايات .
(٢) ذكره الطبري في : ٣/ ٦٥ .

وهو من الذين قتلوا على يد خالد أثناء دخولهم مكة ، وذلك تقرباً من المغلوبين . ويذكر الطبري بعض الأشعار لهذه الفتاة ، والتي تسمى « مليكة » . لكن هذا الخبر ضعيف جداً لأنه لم يؤيد من قبل المؤرخين[1] ، كما أن مليكة لم تُذكر من بين نساء النبي .

مكث النبي (ﷺ) خمسة عشر يوماً في مكة ، وقد أسلم كل السكان تقريباً . وتضايق الأنصار ، ظناً منهم أنه لن يخرج منها بعد اليوم ، لكنه قال لهم إنني سأبقى بينكم ما دمت حياً ، وسأموت في المكان الذي أنتم فيه ، وعاد بعد ذلك الى المدينة ومعه الأنصار .

---

(١) أورد الطبري الخبر عن الواقدي وحده .

مأزق وقعة حنين

لا شك أن فتح مكة وإسلام أهلها عمل على توفيق الإسلام في الجزيرة العربية . فقد كان لمكة مركز ديني وسياسي وتجاري . . واستمرت هذه المكانة بعد إسلام أهلها .

كان يعيش قرب مكة قبيلة هي قبيلة « هَوازن » وتشمل عدة قبائل ، وتنتشر جنوبي مكة ، حتى حدود اليمن . ويندر أن تتجاور قبيلتان أو أمتان ، وتكون العلاقة حسنة بينهما . فقد احتربت هوازن مع سكان مكة مراراً ، وكثيراً ما خرقت هوازن حرمة الأشهر الحرم في هذه الحروب . ويسمي العرب هذه الحروب بـ « حرب الفِجار » . وكانت الخصومة بين هاتين القبيلتين متوارثة عن الأسلاف . وقد قتل أبو السيدة خديجة في إحدى هذه الحروب . ومحمد (ﷺ) نفسه اشترك فيها في مرحلة فتوته مع عمه أبي طالب ضد هوازن .

وتجب الإشارة هنا إلى أن « هوازن » هي جمع « هَوازن » . ولما كان عدد القبائل كثيراً فقد دُعوا « هَوازن » . وكان جزء من هذه القبائل يقيم ما بين البحر الأحمر والصحراء ، أي في منطقة الحجاز ، وقسم آخر كان يقيم في مدينة الطائف ، وهم قبيلة « ثقيف » سكان المدن . وإحدى حاضنات النبي (ﷺ) من قبيلة « بني سعد » التي هي جزء من هوازن . وكانت بنو سعد وبنو بكر وسليم وسائر قبائل هوازن على عداء مع الاسلام . والصنم الأكبر « اللات » كان في الطائف . ولا شك أننا نعلم أن الطائف هي التي لجأ إليها محمد (ﷺ) بعد أن طردته قبيلته ، ولكنه أُخرج منها .

وبعد ثلاثة أيام من فتح مكة أمر رسول الله (ﷺ) عدداً من المسلمين بالذهاب الى أطراف مكة لتحطيم الأوثان فيها ، ومن جملتهم خالد بن الوليد الذي أمره بالذهاب إلى نخلة ليحطم فيها الأوثان ، ولا سيما « العزّى » . وحين رأت قبائل هوازن أن المسلمين بادروا الى تحطيم أوثانهم عزموا على حربهم . فبادرت هوازن إلى إعلام قبائلها بأمر الحرب السريع . وتحرك عشرون ألف نفر بنسائهم وأطفالهم ودوابهم لحرب المسلمين . فقد صممت هوازن : إما نصر وإما قبر .

إنّ جلب النساء والأبناء والدواب الى ساحة الوغى علامة أرادتها هوازن لتُعلم خصمها استعدادها لمقابلة الموت أو الأسر أو الفناء . وكان هدفهم احتلال مكة ، حتى لا تكون هذه البلدة مصدر إزعاج بالنسبة اليهم ثانية . وهذه المرة هي الأولى التي تستعد فيها هوازن كل هذا الاستعداد للحرب . وعندما اطلعت قريش على ما هدفت اليه هوازن زالت عنها آخر شائبة في نفوسها ضد المسلمين ، فاتفقت معهم على حرب هوازن . حتى صفوان بن أمية أبدى استعداداً لتقديم الأموال والأسلحة للمسلمين .

وأعد محمد (ﷺ) لحربهم اثني عشر ألف رجل ؛ الفين من رجال قريش . ومشى الجيش الاسلامي في ليلة الثلاثين من شهر كانون الثاني من عام ٦٣١ م إلى وادي حُنين . وهي منطقة جبلية تقع بين مكة والطائف . وعلى المسلمين أن يعبروها ويعبروا مضائقها . ووصلوا عند الفجر .

وعبرت طلائع الجيش ذلك المضيق من غير خطر . ولا بد أن قائد الطلائع كان غافلاً ، فلم يعبأ بمن كان على الجبل . ولو أنه أمر عدداً من رجاله بالصعود الى أعالي الجبال لرأوا خصومهم متربصين خلف تلك الجبال . يقولون إن هذه الغفلة هي بسبب غرور المسلمين بقوتهم ، واعتقادهم بأنه من المحال على هوازن الانتصار . وعلى أية حال فان الطلائع عبروا المضيق من غير تحسُّب .

كان قائد جيش هوازن « مالك بن عوف النَّصري »[1] . وقد اتضح في هذه المعركة أنه رجل حرب بارع . وقد قسم جيشه الى قسمين ؛ وضع كل قسم في طرف من المضيق وأخفاهم وراء الجبال . ولهذا لم تنتبه طلائع المسلمين الى هذا الكمين . وحين عبرت الطلائع المضيق ، لم يأمر قائد هوازن رجاله بالحملة عليهم ، لأنه علم أنهم مقدمة الجيش . وقال :

- يجب أن نصبر ، حتى يدخل جيش محمد (ﷺ) الى المضيق .

كان محمد (ﷺ) في ذلك اليوم يسير في مؤخرة الجيش ، راكباً بغلته البيضاء وإسمها « الشهباء » ، أهداها اليه إمبراطور الحبشة ، ويقودها « أبو سفيان بن الحرث » . كان مالك بن عوف متربصاً ، حتى إذا دخل المسلمون جميعاً في المضيق أمر رجاله بالحملة على المسلمين ، حيث بدأوا برمي الحجارة والنبال عليهم . في حين أن المسلمين يسيرون غير مهيئين للحرب ، وهوجموا بشكل مفاجىء ، فأرهبهم ما رأوا بادىء ذي بدء ، وأربكهم . فحاولوا الفرار من الطريق الذي جاءوا منه ، ولا سيما الفرسان منهم . وهؤلاء هم السبب في زيادة ضعضعة المسلمين . وقد ذكر الله هذه الواقعة في محكم كتابه ، ووردت في القرآن تحت رقم (٢٥) من سورة التوبة رقم (٩) : ﴿ لقد نصركُم الله في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتُكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رحُبتْ ثم ولَّيتُم مُدْبِرين ﴾ .

ذكر العلماء المسلمون أن النبي (ﷺ) خاض غمار ثمانين معركة بين كبيرة وصغيرة ، ودل تصرفه فيها على أن الله كان سبب نصرهم ، كما جاء في هذه الآية ، ولم يكن السبب في كثرة عددهم . في حين أنهم في معركة حنين كانوا كثيري

---

(١) مالك بن عوف بن سعد النصري : صحابي من أهل الطائف . وكان من الجرارين ، ولا يسمى الرجل جراراً إلا إذا قاد ألفاً . ثم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد القادسية وفتح دمشق . توفي سنة ٢١ هـ (الاصابة) .

العدد ، ولكنهم غُـرّوا وغفلوا عن عون الله . وقال تعالى في الآية بعدها : ﴿ ثم أنزلَ اللهُ سكينَتَهُ على رسولِ الله وعلى المؤمنينَ وانزلَ جنوداً لم تَروها ، وعذَّب الذين كفروا ، وذلك جزاءُ الكافرين ﴾ .

وعندما رأى محمد (ﷺ) جيشه يهرب نزل عن بغلته ، وسلَّم عنانها إلى أبي سفيان ، ووقف على صخرة عالية وراح ينادي :

ـ أين أيها الناس ! يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرة .

ثم قال :

أنـا النبيُّ لا كَذِبْ أنـا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ

جاء في بعض الكتب أن عباساً عم النبي كان ذا صوت عال جَهْوري إذ كان يكرر أقوال النبي (ﷺ) في المعركة ، ليوصلها إلى آذان الفارين . وقد كانت صلابة محمد (ﷺ) وجلادته سبباً في توقف المحاربين عن هربهم . فتجمعوا حول النبي (ﷺ) . وعندئذٍ أمرهم بتنظيم حربهم ، بأن يتجهوا نحو الطرف الآخر من المضيق ، ويصطفوا في منطقة اسمها « أَوطاس » . وفعل المسلمون ما أمرهم به . ولما كان كل نساء هوازن ودوابهِّا في ذلك السهل ، فقد استطاعوا أن يحتلوه ويتمركزوا به .

وحاولت هوازن أن تعترض تقدم المسلمين ، لكنهم بسيرهم المنظم استطاعوا أن يقتلوا عدداً منهم ، ويهزموا الآخرين . وحين وقع نساء هوازن وأنعامها في يد المسلمين أمر النبي بأن ينقلوهن الى منطقة « جِعرانة » والتي تبعد ١٥ كم شمالي مكة ، ولا يتوانوا عن تقديم اللباس والغذاء اللازم لهن . وبعد أن انتهت معركة حنين بنصر المسلمين قرر محمد (ﷺ) أن يحمل على الطائف .

والطائف ذات سورين ، فحين رأى سكانها دنوَّ المسلمين منهم أغلقوا بوابات المدينة ، وصمموا على الدفاع . فاستخدم المسلمون المجانيق لدك السور .

وقد استخدموا العرّابات (الدبابات الجلدية) بحسب اقتراح سلمان الفارسي ، وهو نفسه الذي اقترح حفر الخندق . صنع المسلمون العرابات ، وتقدموا بها نحو السور من غير أن تؤثر فيهم نبال العدو أو حجارته . وقد كانت معنويات المسلمين قوية جداً إثر نصرهم في حنين . فكانوا يحاربون بشهامة ، واستطاعوا أن يهدموا منزل مالك بن عوف قائد قبائل هوازن . أما الطائف فلم تسقط . وقد وعد النبي (ﷺ) سكانها أنهم إن سلّموا المدينة أمنوا من الأذى . فاستسلم ثمانون منهم ، وهم الذين أسلموا فيما بعد .

وظلت الطائف أربعين يوماً محاصرة . ولما لم تسقط سلم قيادة الجيش الى أحد القواد ، وعاد إلى جعرانة ، ليقسم الغنائم على المسلمين . ومن جملة غنائمهم ستة آلاف أسير ، قسمت على المسلمين . ومن هؤلاء الأسرى امرأة اسمها « شمّة » ، ذهبت اليه وقالت له :

ـ أنا أختك بالرضاع حينما كنتَ عند حليمة .

وقد أرته جرحاً قديماً كان على يدها . ثم قالت له :

ـ كنا نلعب معاً حين كنا طفلين فجرحتني سهواً ، وما زال أثر الجرح باقياً . لذا لا تجعلني أمة .

فسألها محمد (ﷺ) :

ـ ألا ترغبين في الإسلام يا شمة وتتحرَّرين ؟

قالت له :

ـ كلا يا محمد (ﷺ) . أريد أن أعود إلى الصحراء وأعيش فيها .

فقال لها :

ـ ولكنني لا أستطيع تحـريرك إلا بطريقـةٍ ما . وهـي أن تكونـي جزءاً من أغنامي . وفي هذه الحالة ستكونين أمة لي ، فأعتقك .

وهكذا كان . إذ غدت شمة جزءاً من أغنام النبي (ﷺ) ، ثم حررها . وبعد ذلك قالت له :

ـ وزوجي أيضاً أسير ، وأريد منك أن تعتقه .

وجعله من حصته وأعتقه . وعندما رأى أسرى هوازن أن شمة وزوجها قد تحررا انتخبوا عدداً منهم ، وأرسلوهم الى النبي ، وقالوا له :

ـ إن مرضعك حليمة من هوازن ، وعلى هذا فنحن جميعاً إخوانك وأخواتك بالرضاع . فعليك أن تعتقنا من غير فدية ، لنعود إلى مضارب خيامنا .

لكن محمداً (ﷺ) اعتذر لأنهم قُسموا جميعاً بين المسلمين . فأجابـه ممثلـو هوازن :

ـ يا رسول الله (ﷺ) إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتـي كنّ يكفُـلْنك .

فقال لهم رسول الله :

ـ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم .

كان أبو بكر وعمر حاضرين ، فأعتقا من كان في نصيبهما . وتبعهم في هذا الأمر سائر المسلمين إلا أنهم لم يردوا أموالهم . وعندمـا شاهـد الهـوازنيون نبـل المسلمين وشهامتهم أسلموا جميعاً ، وعادوا الى منازلهم وكان مالك بن عوف في جملة من أعتق وردَّ له ماله لأنه كان من حصة النبي (ﷺ) . فأسلم ، ثم غدا من جملة المسهمين في إعلاء كلمة الاسلام .

وهكذا حلـت مسألـة تقسيم الأسرى والأمـوال ، وعـاد محمـد (ﷺ) الى

الطائف ليرى ما آل اليه أمر الحصار . فوجد أن الوضع لم يتغير ، وأن الذين كانوا يحيطون بالطائف لم يستطيعوا فتحها . إلا أن إسلام هوازن أضعف من أهمية الطائف . ولم تعد تلك المدينة خطرة لأنها غدت محاصرة من كل ناحية من قبل المسلمين .

كان محمد (ﷺ) يعلم أن حصار الطائف مدة طويلة سيجبر أهلها على الاستسلام ، فترك الجيش يحاصرها ، وعاد مع سائر المسلمين الى مكة .

عام الوفود

بعد أن عاد محمد (ﷺ) من مكة ، بدا الأنصار غير راضين ، وقالوا إن رسول الله (ﷺ) منح قريشاً غنائم حرب هوازن أكثر منا . والحقيقة أن هذا الأمر صحيح ، فقد بذل محمد (ﷺ) لقريش أكثر من الأنصار ، إلا أنه لم يُنقص من حصص المحاربين من الأنصار . فللنبي (ﷺ) وأهله خمس الغنائم ، فوزعه على المجاهدين من قريش ليرضيهم ، لأنه يرغب في جذب هذه القبيلة التي وفدت على الاسلام حديثاً . وعلى هذا لم يكن الحق مع الأنصار ، ومع هذا قال لهم النبي : يجب ألا تتضايقوا من هذه الغزوة ومن زيادة حصص القرشيين ، لأنهم سيعودون الى مكة ، وأعود معكم الى المدينة ، وأحيا بين ظهرانيكم . أتفضلون جملاً أو عدة خرفان على بقاء النبي معكم ؟ أتعلمون أن العيش مع رسول الله (ﷺ) ذو ميزة خاصة ، لأن الله لن يشملكم وحدكم برحمته ، بل سيشمل أبناءكم أيضاً . عندما سمع الأنصار كلام النبي (ﷺ) خجلوا وقالوا :

ـ نحن آسفون لما قلناه يا رسول الله (ﷺ) .

وبكى بعضهم . وبعد عدة أيام عاد محمد (ﷺ) الى المدينة مع الأنصار ، الذين سعدوا بعودته معهم حتى انهم بدأوا يهللون ويقرأون الأشعار . عندما أراد محمد (ﷺ) أن يرحل الى المدينة عين أحد الفتيان الأمويين ولما يبلغ الثلاثين ، خليفة له على مكة ، لحل أمور المسلمين .

وبعد حين قدم وفد إلى الرسول (ﷺ) من قبل الطائف الى المدينة ، يعلنون له استعدادهم للاسلام بشرط أن يدعهم أحراراً في عيشهم السابق وهو : الفحشاء والربا وشرب الخمرة ، لكنه لم يقبل منهم بل قال :

ـ الأمور الثلاثة حرام في الإسلام .

فعاد الوفد إلى بلده ، وتشاوروا في الأمر مع سائر السكان ، ثم عادوا ثانية ، يُبدون استعدادهم لترك هذه الموبقات الثلاثة . ولكن لهم رجاء آخر ، هو أن يعفيهم من الجهاد والصوم والزكاة . .

يجب الانتباه الى أن الجهاد واجب على كل مسلم في صدر الاسلام . واليوم أيضاً الجهاد واجب على المسلمين ، ما لم يكن الرجل مريضاً أو عاجزاً أو مسناً . وقبل النبي (ﷺ) طلبهم هذا ، وأعفاهم من هذه الأمور الثلاثة . فسأله المسلمون .

ـ لم أعفيتَ يا رسول الله (ﷺ) سكان الطائف من الجهاد ودفع الزكاة وصوم رمضان ! أليست هذه الأمور من واجبات الاسلام وفرائضه ؟

فأجابهم بأن سكان الطائف بعد أن يسلموا سيتبعون واجبات الاسلام شيئاً فشيئاً . وبالفعل هذا ما حصل . فقد قدم سكان الطائف الى النبي (ﷺ) فيما بعد يعلنون له رغبتهم في الجهاد والزكاة والصوم .

●

ونصل هنا إلى نقطة هامة في حياة النبي (ﷺ) ، متصلة بعام الوفود . فالمسلمون يسمون هذه السنة التاسعة « عام الوفود » أي « سنة السفراء والهيئات » . فمحمد (ﷺ) قبل تسع سنوات من هذا التاريخ خرج من مكة حتى لا يقتله المشركون ، وهاجر الى المدينة ومعه أبو بكر . وكانت الهجرة كما رأينا ذات قيمة معنوية كبيرة للمسلمين . ولم ننس أن قريشاً منحت جائزة قدرها مئة ناقة لمن يمنع محمداً عن هذه الهجرة حياً أو ميتاً .

في ذلك الوقت ، وقد مضى تسع سنوات على الهجرة ، وفق النبي (ﷺ) الى فتح مكة ، كما وفق الى دخول خصومه الذين كانوا يرغبون في قتله

في الاسلام حتى عكرمة بن أبي جهل أسلم ، وسقط في ميدان الجهاد شهيداً ، وأبو سفيان قائد جيش مكة في أحد والخندق أسلم ، وعينه النبي (ﷺ) حاكماً على نجران ، وخالد بن الوليد أحد القواد البارزين من المشركين ، غدا من أبرز قواد الاسلام ، وتلقب بسيف الله . ومحمد في هذه السنة (التاسعة) لم يفتح مكة وحدها ، بل فتح الجزيرة كلها ، وغدا الجميع مسلمين أو إلى جانب المسلمين . وقد انتشر الاسلام من السنة الأولى للهجرة إلى السنة العاشرة بمساحة قدرها/ ٨٢٢/ كم٢ تقريباً .

كان المسلمون في البدء فقراء ، حتى إنهم في معاركهم الثلاث الأولى لم يكونوا يملكون جمالاً لجميع الجنود . وذكرنا أن عدد المجاهدين في معركة بدر/ ٣١٣/ ، ولم يكن معهم غير جوادين . ولكن فجأة تطور الأمر ، وأصبحوا أغنياء ، وملكوا في معركة حنين ألف جواد ، وفي معركة تبوك التي سيجيء ذكرها عشرة آلاف جواد .

لقد حارب المسلمون في « نخلة » وعدد المحاربين أربعة ، وفي « بدر » الحرب الثانية ثلاثمئة ، وفي « أحد » سبعمئة ، وفي تبوك ثلاثون ألفاً . وكانت خسائرهم في بعض المعارك صفراً ، وظلت خسائرهم قليلة نسبياً مع توسع رقعة الاسلام . والذين أسلموا في الجزيرة العربية حتى السنة التاسعة للهجرة يعلمون أن للإسلام خمسة أركان هي : الشهادة ، والصلاة ، وصوم رمضان ، والزكاة ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلاً .

كان محمد (ﷺ) في السنة التاسعة مريضاً ، ولكننا لا نستطيع أن نبدي رأينا بمرضه ، لأن المؤرخين لم يذكروا نوع هذا المرض ، لنستفيد من المعلومات الطبية لتشخيصه ومعرفته .

وقد استقبل النبي في ذلك العام السفراء والممثلين عن القبائل في المدينة . ولكثرة هذه الاستقبالات سمي هذا العام بعام الوفود . وكان محمد في ذلك الوقت

رئيس الجزيرة العربية كلها دينياً وسياسياً وعسكرياً . ومع هذا فإن الوفود ، عندما كانت تفد عليه ، تراه جالساً على حصير مضفور من ورق شجر النخيل، وهذا هو أثاث المنزل كله . عندما كان يفد الوفد يستقبله بلال المؤذن الحبشي ، ويُدخله غرفة النبي (ﷺ) . وحين تحط الوفود في المدينة كانت تنزل في بيت (رملة بنت الحارث » الواقع في محلة « النجّارية » ، ضيوفاً على الحكومة . وكثيراً ما كان يفيض عدد الوفود ، فيضيق المنزل بهم ، مما حدا بالنبي (ﷺ) إلى أن يأمر بأن تنصب الخيام في المسجد ، لينزل فيها من لا يجد مكاناً في المنزل .

ومع أن الاسلام عمّ الجزيرة كلها في السنة التاسعة فان محمداً لم يكره اليهود ولا النصارى على قبول دينه ، لأنهم أهل كتاب . وقد جاء في رسالة محمد إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحين في الجزيرة بعد الاسلام تحسن كثيراً ، يقول في هذه الرسالة :

- بسم اللهز الرحمن الرحيم ، من رسول الله (ﷺ) إلى أبي الحارث أسقف نجران الأكبر وقساوسته وأساقفته . أما بعد ، فليعلم الأسقف الأكبر وقساوسته وأساقفته أن كنائسكم ومعابدكم وصومعاتكم ستبقى كما هي ، وأنكم أحرار في عباداتكم . ولن يزاح أحد منكم عن منصبه ومقامه ، ولن يبدل شيء ، كما لم يبدل في مراسم دينكم ، ما دام الأساقفة صادقين ، ويعملون بحسب تعاليم الدين . فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله (ﷺ) ، ومن منعه فانه عدو لله ولرسوله .

تشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرهم ، ولن يزاحمهم من المسلمين مزاحم . وقد قدم في السنة التاسعة وفد من مسيحيي نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر ، وعبد المسيح الأسقف ، والأيهم رئيس القافلة . وحين أرادوا الدخول على النبي (ﷺ) ارتدوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة ، فأخذ سكان المدينة بهذه الثياب . وبعد أن زاروا

النبي (ﷺ) سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم ، فطلب منهم أن يؤدوا صلواتهم في مسجد المدينة ، فدخلوه واتجهوا نحو بيت المقدس ، وتعبَّدوا هناك .

لا شك أن النبي يحترم المسيحيين احتراماً خاصاً ، لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم . وقد أشار الله تعالى إلى هذه النقطة في محكم كتابه في سورة المائدة (الخامسة) ، في الآية (٨٢) : **﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ذلك بأن منهم قسِّيسينَ ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾** . ويقول في الآية بعدها : **﴿ وإذا سمعوا ما أُنزلَ إلى الرسولِ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربَّنا آمنَّا فاكتُبنا مع الشاهدين ﴾** ، ويقول بعدها كذلك : **﴿ وما لنا لا نؤمنُ باللهِ وما جاءَنا من الحق ونطمعُ أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين ؟ ﴾** ، ويقول بعدها : **﴿ فأثابهم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ، وذلك جزاءُ المحسنين ﴾** . . .

يجب أن نشير إلى أن قسماً من الآيات المتصل بتكريم النصارى جاء من إكرام امبراطور الحبشة المسيحي للمسلمين ، وقد أنزل الله آياته تقديراً لهم واعتباراً . ولهذا كان ينظر محمد إلى النصارى نظرة إكبار حتى آخر حياته[1] .

في السنة التاسعة المطابقة لعام ٦٣١ م ذهب المسلمون الى مكة في وقت رحيل المشركين عنها، وزاروا بيت الله. وكانت هذه السنةحاسمة للمشركين، إذ مُنعوا بعد ذلك من زيارة الكعبة . وقد صرح القرآن بهذا المنع في قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ ، فلا يَقربوا المسجدَ الحرام بعد عامِهم هذا** . . . ﴾ وذلك في الآية (٢٨) من السورة (٩) . وقد أتم النبي (ﷺ) في

---

(١) سها قلم المؤلف هنا ، إذ جعل الإكرام لمسيحيين سبباً . والحق أن القرآن لا يراعي أحداً . ولو كان امبراطور الحبشة سيئاً مع المسلمين لما عبر القرآن من كلامه . وسعي المؤلف هنا جانب الحقيقة .

هذه السنة كل مناسك الحج ، ولهذا كانت حجته هذه سنَّة للمسلمين ، ما زالوا يتَّبعونها حتى اليوم .

لا أريد أن أقول إن النبي (ﷺ) لم يتمّ مناسك الحج قبل هذه السنة ، إنما قصدي أنه لم يذهب لزيارة بيت الله قبل هذه السنة . ففي السنة الثامنة دخل مكة محارباً ، وأخرى قبل هذه ، قصد زيارة بيت الله ولكنه لم يستطع أن ينجز مناسك الحج داخل مكة . وقبل ذلك عاش النبي سبع سنوات في المدينة ، ولم يتمكن فيها من زيارة الكعبة . وعلى أية حال ، إنه في هذه السنة أحرم ، وطاف سبع طوفات حول الكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة . وهذا السعي على ذكر هاجر أم إسماعيل ، التي كانت تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لطفلها . ولقد ذهب برفقة المسلمين في اليوم التاسع من ذي الحجة، واجتمعوا في «عرفات» على «جبل الرحمة » ليخاطبهم . ولم يكن حوله آنئذ غير المسلمين . كان يريد أن يحادث المسلمين ، وعلى قول العرب يخطب فيهم . لكنه لاحظ أن صوته لن يسمعه الناس جميعاً ، لذلك عيَّن عدداً منهم ، يسمعون صوته ، ويكررونه ، لتصل خطبته الى مسامع الجميع . وخطبته هذه هي التي أسماها الناس « خطبة الوداع » . كان بلال أحد من كان يردد كلام النبي (ﷺ) ، والآخر كان « ربيعة بن أمية » وقبل أن يباشر بخطبته سأل الناس :

ـ هل تدرون أي شهر هذا ؟

قالوا :

ـ الشهر الحرام .

قال لهم :

ـ إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا . فهل تدرون أي بلد هذا ؟

فيقولون : البلد الحرام .

فيقول :

ـ إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة بلدكم هذا . فهل تدرون أي يوم هذا ؟

قالوا :

ـ يوم الحج الأكبر .

قال لهم :

ـ إن الله حرم عليكم أموالكم ودماءكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا .

وبعد ذلك شرع بخطبته التي بيَّن للناس فيها ما بيَّن ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال[1] :

« أيها الناس ، اسمعوا قولي ؛ فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقَوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وحرمة شهركم هذا . وستلقَون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلَّغتُ ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها الى من ائتمنه عليها . وإن كلَّ رباً موضوع ، ولكم رؤوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون . قضى الله أنه لا رِباً . وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع . وإن أولَ دم أضعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعاً في بني ليث ، فقتلتْه بنو هُذيل ـ فهوأول ما بدأ به من دماء الجاهلية .

---

(١) ذكر الطبري أن حجة الوداع كانت في السنة العاشرة لا التاسعة . وقد نقلنا الخطبة من الطبري : ٣/ ١٥٠ .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : « إنما النسيء[1] زيادة في الكفر يُضل به الذين كَفرُوا يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً ، ليواطِئوا عِدَّة ما حرَّم الله فيُحلُّوا ما حرَّم الله » ، ويحرِّموا ما أحلَّ الله ، وإن الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، و« إنَّ عدةَ الشهورِ عند الله إثنا عشرَ شهراً في كتاب الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرمٌ »[2] ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمُادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يُوطِئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهنَّ ألا يأتين بفاحشة مُبيِّنة ، فان فعلن فان الله أذن لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح ، فان انتهين فلهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً ، فانهن عندكم عوان[3] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي ، فاني قد بلَّغت ، وتركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ؛ كتاب الله وسنَّة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولي ، فاني قد بلَّغت ، واعقلوه . تعلمُنَّ أن كل مسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرىءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ، فلا تظلموا أنفسكم . اللهم هل بلَّغت ! قال : فذكر أنهم قالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله (ﷺ) : اللهم اشهد » .

وختم محمد (ﷺ) خطبته بقوله : « والسلام عليكم » . أي السكينة والسلام لكم . ولقد أثرت هذه الخطبة في الحاضرين كثيراً . وذكر بعض المؤرخين

(١) نسأه البيع : باعه وأخّر له دفع الثمن .

(٢) سورة التوبة : ٣٦ .

(٣) العوان : الأسيرة مفردها عانية .

الاسلاميين أن عدد المسلمين على جبل الرحمة كان مئة وأربعين ألف رجل وامرأة . وعندما كان مشغولاً بالقائه كان الناس يكررون ما يقوله بصوت عال ، ولا سيما كلامه الخاص بتبليغه : « هل بلغت . . . » وكانت الأفئدة ترتعش لدى سماعها كلامَ رسول الله (ﷺ) . بل ان الجبل والصحراء كانا يهتزان لصوته . والذين سمعوا خطبته ذلك اليوم لم ينسوا تلك الساعة المهيبة طوال حياتهم ، لأنهم كانوا مأخوذين بالنبي (ﷺ) ، بل كانت كل ذرة من كيانهم مجذوبة نحوه ، وهم يصغون اليه بكل جوارحهم وإحساساتهم .

نحن عندما نقرأ هذه الخطبة ، مع أننا أوروبيون ، ولم نسمع صوت النبي (ﷺ) ، ولم نكن في جو ذلك الزمان ولا المكان ، نتأثر بكلامه أيما تأثر ، ونتفاعل معه ، وكأننا نشارك المسلمين في استماعهم . فكيف بأولئك الذين وقفوا على جبل الرحمة ، وسمعوا صوت رسول الله (ﷺ) ؟ والعرب يقدرون الكلام كثيراً ، ويستنبطون منه أشياء نحن لا ندركها اليوم !

وتدعى هذه الخطبة كذلك « خطبة حجة البلاغ » ، لأنها بالاضافة الى الأوامر التي كان يقولها النبي (ﷺ) كان يبلِّغهم إياها ، وكلمة « بلغت » كان يستخدمها بصيغة الاستفهام لهذا السبب . وغالبية المسلمين تسميها « خطبة حجة الوداع » ، وما زال اسمها كذلك حتى اليوم ، وما زال أثرها فيهم . بل إن المثقفين جميعاً يحفظونها غيباً .

مرض رسول الله

وبعد شهر من عودة النبي (ﷺ) الى المدينة أصيب بوعكة . ولكن هذه الوعكة لم تكن تمنعه من الخروج من بيته في بادىء الأمر . فقد كان يذهب الى المسجد ، ويصلي في الناس . أما في الأيام التي يضطر فيها الى البقاء في المنزل فكان يصلي في الناس علي بن أبي طالب أو أبو بكر الصديق . وكان النبي (ﷺ) يصغي الى علي أو أبي بكر وهما يأمّان في الناس ، ويسمع منهما ما يتلوان من القرآن في المسجد . وكان أحياناً يدنو من المصلين ، فيكرر ما يلفظه الإمام على لسانه . وكان أحياناً يذهب الى المسجد بالاتكاء على بعض صحبه . وخطب في المسلمين يوماً فقال :

« إنَّ عبداً من عباد الله خيرَّه الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » .

عندما سمع المسلمون هذا الكلام بكوا[1] ، فقد أدركوا معنى كلامه هذا ، وأن الذي اختاروا عند الله هو محمد (ﷺ) نفسه ، فخفف من آلامهم ، ورجاهم عدم البكاء . وكان (ﷺ) في الأمسيات التي يتمكن فيها من الخروج ، يزور قبور المسلمين في « البقيع » . ويقف هناك طويلاً ، والله وحده الذي يعلم بماذا يفكر هناك . وفي أيام صحوته أيضاً ، يزور المسجد ، ويقول للمسلمين :

« أما بعد أيها الناس ، فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، وإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ، فمن كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقِدْ

---

(١) يروي الطبري (٣/ ١٩٠) أن أبا بكر فهمها وعلم أن نفسَه يريد فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

منه . ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عِرضي فليستقدْ منه » .

كان منزل رسول الله (ﷺ) في المدينة (وهو المكان الذي ودع منه الدنيا) قريباً من المسجد . وكان مؤلفاً من طبقة واحدة من غير منزل تحت الأرض . لذا كان حاراً جداً في الصيف . وقد بُني حول المنزل سور يحيط بأطرافه الأربعة ، ترعى فيه بعض الماعز . وقد ساءت حاله في صباح أحد الأيام فطلب ممّن حوله أن يذهبوا فيجلبوا له ماء من سبع آبار ، بسبعة أوعية ، بشرط ألا يكون وعاءان من بئر واحدة ، فلبوا له الطلب . فتناول النبي جرعة من كل إناء ثم قال :

ـ لقد تحسنت حالي .

يجب ألا نعجب من هذا الأمر ، لأن النبي اتخذ شرب الماء دواء . فالماء دواء عرب البادية ، لأنهم يعلمون أن قدراً من الماء يبعد العطش ، وليس ذلك القدر من الماء الكثير الذي في حوزتنا من غير أن نقدر قيمته . لم يكن الماء في نظرهم مجرَّد مقوٍ للروح والجسم وحسب ، بل هو دواء لكل الأدواء . وكم داووا المرضى في الصحراء بالماء ! وبعد أن شرب النبي من تلك الآبار السبع ، وأعلن عن تحسن حاله قصد المسجد بمساعدة بعضهم . ومرة ثانية عاد لمقالته السابقة في الشحناء وغيرها ، واذا كان لأحدهم دين عليه فقام رجل فقال :

ـ يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم .

فقال رسول الله (ﷺ) للفضل :

ـ أعطهِ يا فضل .

ثم تغير موضوع الحديث إلى الكلام عن « أسامة بن زيد » ، والذي قلنا إن أباه ابن النبي المعتوق . فعندما أسر زيد كان طفلاً في قبيلة بني كلب ، تملكه رجل يدعى « حَكِيم بن حِزام[1] » ، إشتراه عبداً لأبنة عمته خديجة بنت خويلد ،

---

(١) هو حكيم بن حزام بن خويلد ، صحابي قرشي . وهو ابن أخي خديجة . ولد بمكة وشهد حرب الفجار . وكان صديقاً للنبي قبل البعثة وبعدها . وعمر طويلاً . قيل ١٢٠ سنة ، توفي سنة ٥٤هـ .

وهي التي تزوجها النبي (ﷺ) . وبعد أن تزوجها وهبته زيداً ، فأعتقه وتبناه ، وكان الناس يدعونه « زيد بن محمد » حتى نزلت آية من عند الله ، والتي هي اليوم الآية الخامسة من سورة الأحزاب (٣٣) ، إذ يأمر الله فيها رسوله بألا يتبنى زيداً ، لأنه ليس ابن رسول الله . لم تذكر الآية اسم زيد صراحة ، لكن قسماً منها كان مرتبطاً به . وقد استشهد زيد في معركة « مؤتة » . وكان له ولد اسمه « أسامة » . وعندما كان محمد (ﷺ) مريضاً جهز جيشاً ، وعين أسامة عليه قائداً . وقد كان عمره آنئذ إحدى وعشرين سنة ، ليوجهه الى الشام ، ويحارب به . وقد عارض عدد من شجعان المسلمين هذا الموضوع . وهم إن لم يصارحوا الرسول (ﷺ) به احتراماً له فانهم كانوا يعارضون تعيينه في نفوسهم ؛ إذ كيف يعين النبي (ﷺ) قائداً لفتح الشام عمره ٢١ سنة ، وليس لديه كفاءة القواد . ووصل هذا اللغط إلى مسامع النبي (ﷺ) ، فقال لهم إنه اختاره لأنه ابن زيد أولاً ، ولأنه فتىً شجاع وعاقل ، وذو أهلية لتحمل أعباء قيادة الجيش ثانياً .

لكن أسامة لم يستطع تنفيذ أمر الحرب لانشغال المسلمين بوفاة النبي . ولكن بعد أن تسنَّم أبو بكر خلافة المسلمين صمَّم على تنفيذ رغبة النبي (ﷺ) ، فأعد الجيش بقيادة أسامة ، وذهب الى الشام ، وحارب ، وانتصر ، وحقق ما كان النبي (ﷺ) يرجوه منه . وقد اعتُبر انتصاره هذا مفتاحاً لفتح سورية في أيام عمر .

كان النبي في ذلك اليوم يتحدث حول الأنصار بعد أن أتمَّ حديثه عن أسامة وقال :

« أما بعد يا معشر المهاجرين ، إنكم قد أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم ، والأنصار عيبتي[1] التي أويت اليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم . . . » .

وبعد ذلك خرج النبي من المسجد .

---

(١) عيبتي : موضع ثقتي وسري . والعيبة في الأصل : ما يُجعل فيه الثياب .

وفاة النبي

قبل أن نتحدث عن آخر أيام النبي (ﷺ) نرى لزاماً أن نشير باختصار الى آخر معاركه ، وهي معركة « تبوك » . وقد ذكرنا أن النبي (ﷺ) بعد أن عاد من مكة أصابه وعكة . لكنه كان يبلّ من وعكته بين الفينة والفينة .

وقد شاع بين بعض أمراء سورية وولاتها التابعين للامبراطورية البيزنطية نبأ وفاة النبي (ﷺ) . فقررت بيزنطة عندئذ أن تحمل على الجزيرة عن طريق سورية ، لانهاء وجود المسلمين . ووصل الى النبي (ﷺ) خبر هذه الحملة ، فصمم على استقبال هذا الجيش بنفسه . لذا أعلن التعبئة العامة على الرغم مما هو فيه من المرض .

لم يكن وضع بيت المال آنئذ يساعد على إعلان الحرب . كما أن الناس كانوا في عسرة ، وجدب من البلاد ، وشدة من الحر . أهل الغنى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله ، ورغّبهم في ذلك . فتسابق المسلمون الى دفع المال . وكان منهم « عبد الرحمن بن عوف » ، فقد تبرع بأربعة آلاف درهم ، وقال :

ـ يا رسول الله (ﷺ) عندي ثمانية آلاف درهم أبقيت نصفها لزوجتي ، وجئت بالنصف الآخر .

فقال النبي له إن المال الذي دفعته لمساعدة جيش الاسلام ، والمال الذي أبقيته لزوجك سوف يطرح الله البركة فيه . وقد أثرى عبد الرحمن فيما بعد ، فحين مات آل لأحدى زوجاته (وكان له أربع) ثمانين ألف مثقال من الذهب . وأحضر أبو بكر كل ما يملك ، وعرم نصف ما يملك . أما عاصم بن عدي فلم يكن يملك

مالاً ، فقدّم مئة وسْق[1] من التمر ، وأبو عقيل من الأنصار صاعاً واحداً من التمر ، وقال :

ـ عندي صاعان ، أحضرتُ واحداً وأبقيت لأهلي واحداً .

لقد برهن المسلمون عن فدائهم بكل صراحة ، إذ قدموا كل ما كانوا يملكون ، إلا ما يكفي لعيش نسائهم وأطفالهم عيش الكفاف . وبهذا الاخلاص أُعد الجيش القوي المؤلف من ثلاثين ألف محارب يجمعهم الايمان والتصميم ، وكان عشرة آلاف منهم فرساناً . وحينما خرجوا من المدينة نحو الشام كان منظرهم يدل على المباهاة والاعتزاز بشكل لم يكن له نظير في الاسلام . وحين وصل الجيش الى حدود سورية هرب الأمراء والرؤساء الذين كانوا ينتظرون العون من بلاد الروم ، فتراجعوا حتى حدود الشام العليا .

وتوقف النبي مدة في منطقة حدود الشام ، وأبدى له رؤساء القبائل ورجال الدين المسيحي الطاعة ، وأعلنوا استعدادهم لدفع الجزية . ثم عاد محمد (ﷺ) بجيشه الى المدينة . ولما كان مركز الجيش على الحدود في قلعة تدعى « تبوك » فقد دعيت هذه الحملة بحملة تبوك . والحقيقة أن محمداً (ﷺ) لم يحارب هناك لأن أولئك الأمراء تخوفوا من جيش الاسلام ، واضطروا الى عقد معاهدة معه على عدم المهاجمة والحرب والوقوف على الحياد ، لأنهم رأوا بأنفسهم أن جيش الروم تراجع وهرب أمام جيش الاسلام حين وصل الى سورية .

في تلك المعركة أحجم عدد من المسلمين عن الاشتراك في الحرب ، إما طلباً للراحة وإما خوفاً من الموت ، وهم : « أبو لبابة » و« أوس بن ثعلبة » و« وديعة ابن حرام » ، وأبدى هؤلاء الثلاثة ندمهم . فعندما عاد رسول الله (ﷺ) من تبوك ربطوا أنفسهم الى عمود في مسجد المدينة ، وقالوا :

---

(١) الوسق : ستون صاعاً . والصاع : المكيال .

ـ لن نتحرك عن مكاننا ما لم يعفُ عنا رسول الله (ﷺ) .

فمن عادة النبي (ﷺ) عندما يعود من كل سفر أن يدخل المسجد ، ويصلي ركعتين . وعندما دخل المسجد ليصلي شاهدَ هؤلاء الثلاثة مربوطين . فسألهم عن سبب ذلك ، فاعترفوا له بذنبهم ، وأنهم لم يشتركوا في الحرب معه ، ولن يفكوا قيدهم حتى يعفو عنهم رسول الله (ﷺ) . فقال النبي :

ـ الله هو الذي يعفو ، ولست بالذي يعفو عن المذنبين .

وبعد ذلك نزلت الآية : ﴿ **وآخرونَ اعترفوا بذنوبهم خَلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، عسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم إنَّ الله غفورٌ رحيم** ﴾ ، وهي ذات الرقم (١٠٢) في سورة التوبة (٩) . وهكذا عفا الله عن هؤلاء الثلاثة ، ولهذا أعلنوا استعدادهم لأن يهبوا كل ما يملكون الى بيت المال . ولكن آية أخرى نزلت من السماء ، وهي في سورة التوبة أيضاً ، يرفض فيها الله قبول أموالهم ، ما لم تكن زكاة .

ولم يشترك النبي (ﷺ) بعد تبوك بأية حرب أخرى . ولكنه لم يتوانَ عن التفكير بتقوية الاسلام ، لذلك رأيناه يأمر أسامة بالحملة على سورية ، لكن أسامة توقف عن سفره لوفاة رسول الله (ﷺ) .

●

وفي اليوم التالي لذلك اليوم الذي كان فيه النبي (ﷺ) في المسجد وخاطب فيه المسلمين ساءت حاله ، وصرّح بأن سبب مرضه سم تلك المرأة اليهودية التي أطعمته اياه في خيبر ، فقال[1] :

ـ إن هذا الأوانَ وجدت انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلتُ مع ابنك بخيبر .

---

(١) مخاطباً أم بشر بن البراء الذي مات من الأكلة المسمومة أيام خيبر .

في الأيام التي اشتد به المرض ، ولم يستطع الخروج من المنزل كان يأمر علياً أو أبا بكر (بحسب الروايات) بالصلاة في المسلمين . وأحسّ في أحد الأيام بتحسن قليل ، فاتكأ على كتفي ابني عمه العباس ، وذهب الى المسجد . كان أبو بكر في ذلك الوقت يحادث المسلمين ، فحين رآه نهض من مكانه ليقدم النبي (ﷺ) . لكن النبي أشار له بأن يجلس . ولما كانت حاله الصحية لا تسمح له بالبقاء فقد عاد بصحبة ابني عمه .

ولقد قلنا مرة إننا لا نستطيع أن نبدي رأياً في مرضه ، لأن المؤرخين لم يشرحوا علائم مرضه بشكل واضح ، لنعرف ماهيته . وما قيل في هذا الأمر مجرد افتراض . وفي ربيع الأول من السنة الحادية عشرة ازدادت صحته سوءاً ، فأحسّ بدنوّ الأجل . فتذكر أن لديه سبعة دنانير عند عائشة ، ولم يكن يملك غيرها ، فطلب عائشة اليه ، وسألها عن الدنانير فأخبرته أنها ما زالت موجودة ، فأمرها بأن توزعها على الفقراء ، لأنه يخجل ان يقابل الله ومعه سبعة دنانير .

وازداد الوضع سوءاً يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول . ويجب أن نعرف أن ما يمكن استنباطه من كتب التاريخ أن النبي (ﷺ) في مرحلة مرضه لم يشرب دواء ، وأن بعض المؤرخين ذكر أنه في يوم الاثنين أو في يوم قبله أُشرب الدواءَ كرهاً . وكان آخر ما طلبه النبي (ﷺ) ممن حوله أن ينظفوا له أسنانه ، لأنه كان يحب النظافة كثيراً . وكثيراً ما يكرر أن النظافة نصف الايمان .

كان حول النبي (ﷺ) يوم الاثنين المطابق لـ ٨ من شهر تموز من عام ٦٣٢ : علي صهره ، وأبو الفضل ابن عمه العباس ، وأسامة بن زيد وشُقران العبد المعتوق[1] ، الذي لم نذكر اسمه حتى الآن ، وأوس بن خولي . تقول عائشة :

---

(١) يرجح أن يكون العبد المعتوق الذي حضر الوفاة هو « ثوْبان » ذلك أن الطبري (٣/ ١٦٩) يذكر أنه لم يزل معه حتى قبض ثم نزل حمص . في حين أن شُقران مختلف فيه ، واحدى الروايات تؤكد ان الرسول (ﷺ) ورثه .

ـ كنت في ذلك الوقت صبية ، ولم أكن أدرك أن زوجي على شفا حفرة من الموت . وكانت يداه حول رقبته حين توفي . ولم أفهم انه مات . إلا أنني حين رأيت النساء يندبْـن ، والرجال يبكون فهمت أن النبي (ﷺ) قد مات .

مسألة الدفن

في اللحظة التي فارق فيها رسول الله الحياة (حسبما جاء في الرواية) زال خُـتم النبوة من بين كتفيه[1] لأنه أتم رسالته بوفاته . وعندما مات النبي (ﷺ) لم يكن يملك من مال الدنيا إلا بغلة بيضاء ، أهداه إياهـا ملك الحبشـة ، وبضعـة سيوف .

ومن عادة العرب أن رئيس القبيلة عندما يموت يدفن في مكان وفاته بالذات ، لذا قرروا أن يدفنوه مكان سريره . وحار المقربون كيف يحفرون قبره ! هل يحفرونه على عادات أهل مكة أم على عادات أهـل المدينـة ؟ فأهـل مكة بعـد أن يحفـروا الأرض ، يحفرون نفقاً عميقاً يضعون فيه جسد المتوفىً ، ثم يغلقون النفق ، ثم يمهدون التراب على الحفرة تمهيداً .

وصمموا في النهاية على أن يدْعوا رجلين من حافري القبور ؛ واحداً من مكة وآخر من المدينة ، ليحفر أحدهما قبراً في المنزل . فإن سبق المدني حفر على طريقة أهل المدينة ، وإن سبق المكي حفر على عادات أهل مكة . وفي ذلك اليوم سبـق المدني ، لذا كان قبره مطابقاً لقبور سكان المدينة . وبعد أن حفر القبر ألبسوه ثوبه الوحيد حتى لا يرتديه أحد بعده ، ثم غسلـوه . ومـن عاده العـرب أن يغسلـوا الميت ، ما لم يكن عندهم ماء . وفي أثنـاء غسلـه لم يخلعـوا عنـه ثوبـه رعـاية واحتراماً .

(١) ذكر المؤرخون أن ختم النبوة شعـر مجمـع كان على كتفيه ، كذا في الطبـري . وقـال أبـو سعيد الخوري : كانت بَـضْـعة ناشِـزة .

وبعد ذلك لفوا جسده بقماشة حمراء اللون . ويُروى بل لفوه بقطعة من بساط أحمر ، وأنزلوه في الحفرة . وقد شُق القبر بشكل يضعون فيه جسده على طرف ، ووجه متَجه نحو الكعبة . وقد مسَّ وجهه التراب . ثم أُغلق ، ووري بالتراب ، وسُقي بالماء .

كان العرب يدفنون الميت من غير تابوت ، بل لم يفكروا بوضع التابوت تحت الأرض لأنهم يوقنون أنه لن يبقى من الانسان شيء بعد مفارقته الحياة . . . فلمَ التابوت ؟

●

ولم يعين النبي في زمان حياته خلفاً له . يذكر بعض المؤرخين أن النبي (ﷺ) قبيل وفاته طلب كاتباً ليسجل له وصاياه ويعين خليفة له . فأعلمَ بعض من حول النبي علياً بالأمر ليكون موجوداً ، وأطلعت عائشة أباها على الأمر ، وكذلك فعلت حفصة إذ دعت أباها عمر . وحين رأى النبي (ﷺ) الثلاثة موجودين لم يستطع أن يعين خليفة ، فأحجم عن ذلك .

لكن هذه الرواية ضعيفة جداً ، لأن النبي (ﷺ) أقوى من أن يتراجع عن تعيين خليفته ، لأن هذا الأمر ذو أهمية كبيرة لدنيا الاسلام ، فلا حاجة للتردد . ولا يمكن أن يتراجع عن إبداء رأيه ، مع العلم أن نفوذ كلامه في المسلمين كبير جداً . ومقبول لديهم جميعاً . ومحمد (ﷺ) الذي اشترك في ثمانين معركة صغيرة وكبيرة ، وعين قواداً لهذه المعارك دل على عزم وجراءة . وهو في مثل هذا المقام أقوى من تعيينه القواد لتلك المعارك . ولهذا نرفض هذه الرواية .

عندما إطلع المسلمون على وفاة النبي (ﷺ) بكوا ، فذهب عمر إليهم ، وصرخ بهم :

ـ لماذا تبكون ؟

ثم استلَّ سيفه من غمده وقال لهم :

« إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ﷺ) توفي ، وأن رسول الله (ﷺ) واللهِ ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد أن قيل قد مات . والله ليرجَعنَّ رسول الله ، فليقطعنَّ أيدي رجالٍ وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات » .

وفي تلك اللحظة دخل أبو بكر المسجد وقال :

ـ على رِسلك يا عمر ! وأعد سيفك الى غمده .

ثم خطب بالناس قائلاً :

« أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا الآية : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسلُ ، أفإنْ ماتَ أو قُتل انقلبتُم على أعقابكمْ ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً ، وسَيجزي اللهُ الشاكرين ﴾[1] .

●

وهكذا مات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعظم رجال الدنيا قاطبة .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٤ .

بعض ما نشر للمعرّب

١ ـ في اللغة الفارسية :

ـ المجموعة الفارسية ـ طبعة رابعة

ـ المعجم الذهبي ـ طبعة ثانية

٢ ـ في اللغة العبرية :

ـ اللغة العبرية وقواعدها

ـ قاموس الجيب (عبري ـ عربي)

٣ ـ في الأدب العربي القديم :

ـ الأعشى شاعر المجونِ والخمرة .

ـ مختارات من الأدب الجاهلي .

ـ دراسات في الأدب الجاهلي .

٤ ـ في الأدب العربي العباسي :

ـ المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس .

ـ الأدب العربي في العصر السلجوقي ـ طبعة ثانية .

ـ المختار من الشعر العباسي .

٥ ـ في التحقيق والشرح :

ـ دمية القصر للباخرزي ـ ثلاث مجدات

ـ يتيمة الدهر للثعالبي ـ صدر الجزء الأول .

ـ أسماء الكتب لرياضي زاده ـ طبعة ثانية .

- ديوان الباخرزي .

- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي .

٦ - **في النحو والصرف والعروض :**

- معجم الأدوات النحوية - طبعة سادسة .
- التمهيد في النحو والصرف - طبعة ثالثة .
- المعين - طبعة رابعة .

٧ - **في الترجمات :**

- جامعاتي لمكسيم غوركي .
- غاندي وكفاحه المسالم لرومان رولان .
- عائشة بعد عصر رسول الله لكورت فريشلر (يبحث عن ناشر) .
- نظرة جديدة في سيرة رسول الله لكونستان جيورجيو .

عنوان المؤلف : حلب - سورية - ص. ب ٦٢٠٤
هاتف : ٥٣٥٦٦ / ٥٣٥٧٧ .

محتوى الكتاب